

تدبرات المفسرين

إعداد

د. إبراهيم بن فريهيد العنزي

القاضي بديوان المظالم

دار ابن الجوزي

تدبرات المفسرين

بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن تدبر القرآن من أعظم مقاصد إنزاله؛ كما قال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: ٢٩]، قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في معنى وفوائد تدبر القرآن: (وهو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك؛ فإن تدبر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته؛ فإنه يعرِّف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال؛ وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرِّف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرِّف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب، وكلما ازداد العبد تأملا فيه ازداد علماً وعملاً وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك وحث عليه وأخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد:٢٤]، ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله؛ لأنه يراه يصدق بعضه بعضا، ويوافق بعضه بعضا، فترى الحكم والقصة والإخبارات تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضا، فبذلك يعلم كمال القرآن وأنه

من عند من أحاط علمه بجميع الأمور، فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:٨٢] أي: فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلا)[١]، وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (المقصودُ مِنَ القِراءةِ فَهْمُهُ وتَدبُّرُه، والفِقهُ فيهِ والعَمَلُ بهِ، وتلاوتُهُ وحِفْظُهُ وسيلَةٌ إلى معانيهِ، كما قال بعض السلف: (نزل القرآن ليعمل به، فاتخذوا تلاوته عملا)؛ ولهذا كان أهل القرآن هم العالمون به، والعاملون بما فيه، وإن لم يحفظوه عن ظهر قلب، وأما من حفظه ولم يفهمه ولم يعمل بما فيه، فليس من أهله وإن أقام حروفه إقامة السهم، قالوا: ولأن الإيمان أفضل الأعمال، وفهم القرآن وتدبره هو الذي يثمر الإيمان، وأما مجرد التلاوة من غير فهم ولا تدبر، فيفعلها البر والفاجر، والمؤمن والمنافق)[٢]، وقال أيضاً: (وبالجملة فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر؛ فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة والتي بها فساد القلب وهلاكه، فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية وهو محتاجا إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم وأنفع للقلب وأدعى الى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن، وهذه كانت عادة السلف)[٣]، وأحمدُ الله عَزَّ وَجَلَّ الذي منَّ عليَّ بأن جعلت من برنامجي في شهر رمضان منذ سنوات أن أختار كتاباً من كتب التفسير التي تعنى بالتدبرات، فأعيش معه قراءة ودراسة، وأستخرج ما فيه من فوائد وتدبرات ولطائف، ثم جمعتها فبلغت بعد التنقيح وحذف المكرر أكثر من (٢٥٠٠) فائدة تدبرية، رتبتها حسب السور والأجزاء، مع تصرف يسير في بعض الفوائد اقتضاه التلفيق بين المكرر منها وصياغته صياغة شاملة، وأشرت إليه بـ (ينظر)

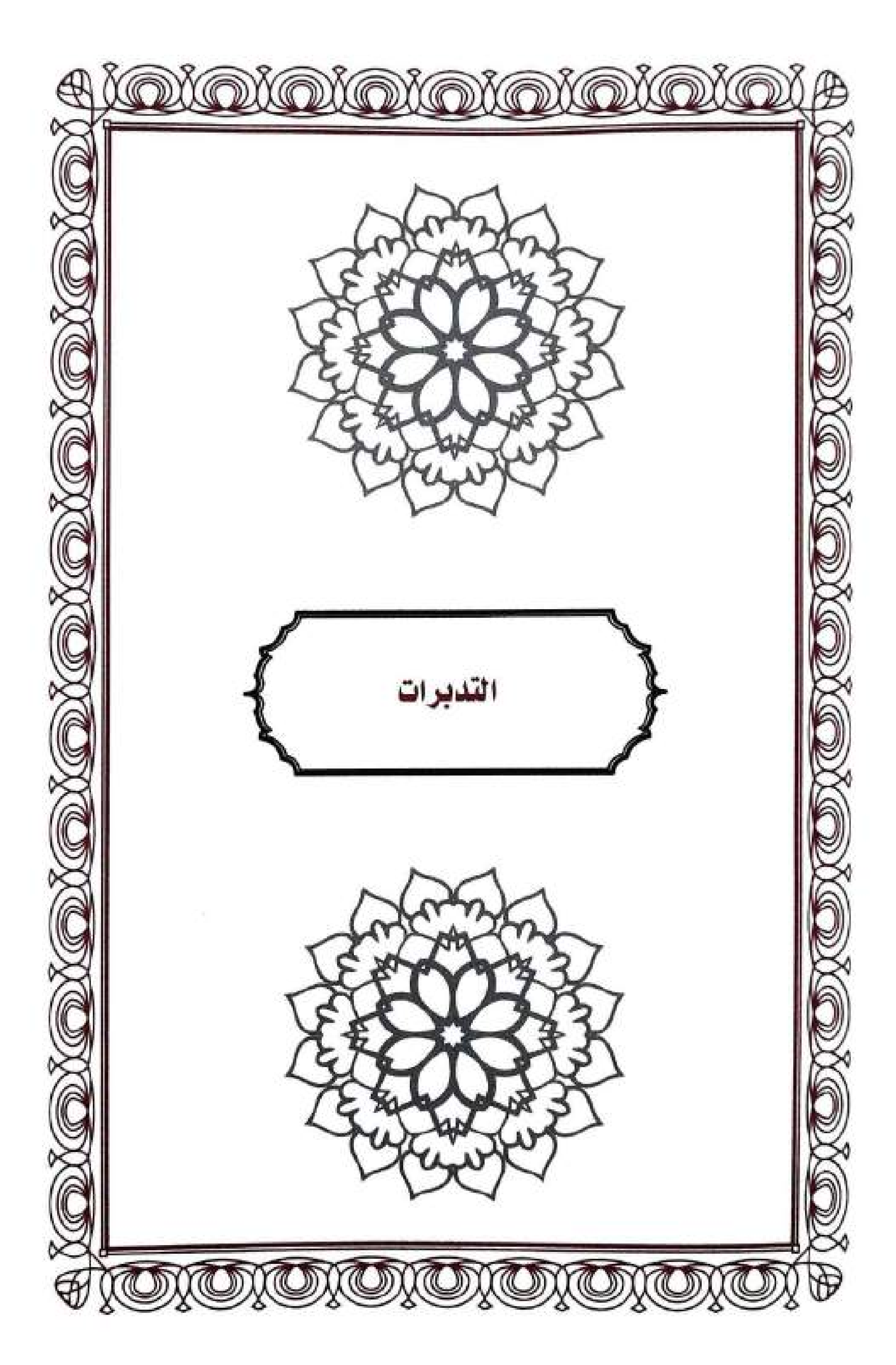
(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١٩٠).
(٢) زاد المعاد (١/ ٣٢٧).
(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧).

في الحاشية، وقد أسميت هذا المجموع تغليباً بـ «**تدبرات المفسرين**»، (أسأل الله أن ينفع به .. والله يعصمنا من الزلل ويوفقنا في القول والعمل، ثم أعتذر لذوي الألباب من التقصير .. وأسأل بلسان التضرع والخشوع وخطاب التذلل والخضوع أن ينظر بعين الرضا والصواب، فما كان من نقص كملوه، ومن خطأ أصلحوه، فقلما يخلص مصنف من الهفوات أو ينجو مؤلف من العثرات)[1].



---

(١) ينظر: مختصر خليل (ص١٢).



التدبرات





الاستعاذة

قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠)﴾ [الأعراف:١٩٩-٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨)﴾ [المؤمنون:٩٦-٩٨]، وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)﴾ [فصلت:٣٤-٣٦]؛ فهذه ثلاثُ آياتٍ ليس لهنَّ رابعةٌ في معناها، وهو أنَّ الله يأمر بمصانعة العدوِّ الإنسيِّ والإحسانِ إليه؛ ليردَّه عنه طبعُه الطيِّبُ الأصلِ إلى الموالاة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة به من العدوِّ الشيطانيِّ لا محالةَ؛ إذ لا يَقبل مصانعةً ولا إحسانًا ولا يبتغي غيرَ هلاكِ ابنِ آدمَ؛ لشدَّةِ العداوة بينه وبين أبيه آدمَ مِن قبلُ[1].



(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ١١٠).



الجزء الأول
سورة الفاتحة

هذه السورة جمعت معاني القرآن العظيم كله؛ فكأنها نسخة مختصرة منه[1].

هذه السورة على إيجازها، قد احتوت على ما لم تحتو عليه سورة من سور القرآن، فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، يؤخذ من قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة:٢]، وتوحيد الإلهية، وهو: إفراد الله بالعبادة، يؤخذ من لفظ: ﴿لِلَّهِ﴾ [الفاتحة:٢]، ومن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥]، وتوحيد الأسماء والصفات، وهو: إثبات صفات الكمال لله تعالى، التي أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ، من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه، وقد دل على ذلك لفظ: ﴿الْحَمْدُ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة:٢].

وتضمنت إثبات النبوة في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة:٦]؛ لأن ذلك ممتنع بدون الرسالة.

وإثبات الجزاء على الأعمال في قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة:٤]، وأن الجزاء يكون بالعدل؛ لأن الدِّين معناه: الجزاء بالعدل.

وتضمنت إثبات القدر، وأن العبد فاعل حقيقة، خلافا للقدرية والجبرية، بل تضمنت الرد على جميع أهل البدع والضلال في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة:٦]، لأنه معرفة الحق والعمل به، وكل مبتدع وضال فهو مخالف لذلك، وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى، عبادة واستعانة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة:٥][2].

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ [الفاتحة:١]

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾: تعلَّقت الباءُ بمحذوفٍ تقديرُه: بسم الله أقرأ، وتقديم المعمول

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٦٦).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٩).

هاهنا أوقعُ، كما في قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا ﴿٤١﴾﴾ [هود:٤١]، وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥]؛ لأنَّه أهمُّ وأدلُّ على الاختصاص، وأدخلُ في التعظيم، وأوفقُ للوجود؛ فإنَّ اسمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مقدَّمٌ على القراءة[١]، وإنما قُدِّم الفعل في: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴿١﴾﴾ [العلق:١]؛ لأنها أوَّلُ سورةٍ نزلت، في قولٍ، وكان الأمرُ بالقراءة أهمَّ، فكان تقديمُ الفعلِ أوقعَ[٢].

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فَعْلَان مِن (رَحِمَ).. وفي ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ من المبالغة ما ليس في ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾؛ لأنَّ في ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ زيادة واحدة، وفي ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ زيادتين، وزيادةُ اللفظِ تدل على زيادة المعنى؛ ولذا جاء في الدعاء: (يا رحمنَ الدنيا)؛ لأنه يَعُمُّ المؤمن والكافر، (ورحيمَ الآخرة)؛ لأنه يخصُّ المؤمن، وقالوا: الرحمن خاصٌّ تسميةً؛ لأنه لا يوصَف به غيرُه، وعامٌّ معنًى؛ لِمَا بيَّنا، والرحيمُ بعكسه؛ لأنه يوصف به غيرُه، ويخص المؤمنين؛ ولذا قدَّم الرحمن وإن كان أبلغ، والقياسُ الترقِّي من الأدنى إلى الأعلى[٣].

الحاصل: أنَّ من أسمائه تعالى ما يسمى به غيرُه، ومنها ما لا يسمى به غيره؛ كاسم الله، والرحمن، والخالق، والرزَّاق ونحو ذلك؛ فلهذا بدأ باسم الله، ووصفه بالرحمن؛ لأنَّه أخصُّ وأعرفُ من الرحيم؛ لأنَّ التسمية أولًا إنما تكون بأشرف الأسماء؛ فلهذا ابتدأ بالأخصِّ فالأخصِّ[٤].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة:٢]

قال ابن الأنباري: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يحتمل أن يكون هذا إخبارًا أخبر الله تعالى به، والفائدةُ فيه: أنه بيَّن أنَّ حقيقة الحمد له، وتحصيلُ كلِّ الحمدِ له لا لغيره؛ ويحتمل أن يكون هذا ثناءً أثنى به على نفسه، علَّم عبادَه في أول كتابه ثناءً عليه وشكرًا له، يكتسبون بقوله وتلاوته أعظمَ الثوابِ[٥].

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٢٥).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢٦).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢٨).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ١٢٦).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٦٥).

﴿ٱلْحَمْدُ﴾ أصلُه النصبُ، وقد قُرئ به، وإنما عدل عنه إلى الرفع؛ ليدل على عموم الحمد وثباته واستقراره له[1].

﴿ٱلْحَمْدُ﴾ أعمُّ من الشكر؛ لأنَّ الشكر لا يكون إلَّا جزاءً على نعمةٍ، والحمدُ يكون جزاءً كالشكر، ويكون ثناءً ابتداءً، كما أنَّ الشكر قد يكون أعمَّ من الحمد؛ لأنَّ الحمد باللسان والشكر باللسان والقلب والجوارح.. ويكفيك أنَّ الله جعلها أوَّلَ كتابه، وآخِرَ دعوى أهلِ الجنة[2].

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة:٣]

ذكرهما دليل على أن التسمية ليست من الفاتحة؛ إذ لو كانت منها لما أعادهما، لخلو الإعادة عن الإفادة[3].

كرر ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾؛ تعليلًا بأنه الحقيق بالحمد[4].

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة:٤]

تخصيص اليوم بالإضافة -﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾-: إما لتعظيمه، أو لتفرده تعالى بنفوذ الأمر فيه، ولا يدعي أحد هنالك شيئا، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، وإجراء هذه الأوصاف على الله تعالى من كونه موجدًا للعالمين، ربًا لهم، منعمًا عليهم بالنعم كلها ظاهرها وباطنها عاجلها وآجلها، مالكًا لأمورهم يوم الثواب والعقاب؛ للدلالة على أنه الحقيق بالحمد، لا أحد أحق به منه، بل لا يستحقه على الحقيقة سواه، فإن ترتب الحكم على الوصف يشعر بعليته له، وللإشعار من طريق المفهوم على أن من لم يتصف بتلك الصفات لا يستأهل لأن يحمد، فضلًا عن أن يعبد، فيكون دليلًا على ما بعده[5].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]

مما اختُص به هذا الموضع: أنه لما ذكر الحقيق بالحمد والثناء، وأجرى عليه

(١) ينظر: أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٢٧)، مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢٩).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٦٣).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣٠).
(٤) جامع البيان، للإيجي (١/ ٢٣).
(٥) ينظر: أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٢٨)، مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣٠، ٣١)، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ١٣٤).

تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات، فقيل: إياك يا من هذه صفاته نعبد ونستعين لا غيرك، وقدمت العبادة على الاستعانة؛ لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة أقرب إلى الإجابة[١].

﴿إِيَّاكَ﴾ في الموضعين مفعول بالفعل الذي بعده، وإنما قدّم ليفيد الحصر[٢].

وقدم المفعول وهو: ﴿إِيَّاكَ﴾، وكرر؛ للاهتمام والحصر، أي: لا نعبد إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة.

الدين يرجع كله إلى هذين المعنيين -﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾-، وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[٣].

تحوّل الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب ﴿إِيَّاكَ﴾؛ لأنه لما أثنى على الله، فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى؛ فلهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[٤].

هذه الآية خلاصة مقاصد القرآن؛ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرياء، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ تدفع الكبرياء، وهما من أعظم أمراض القلوب[٥].

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة:٦]

الهداية دلالة بلطف؛ ولذلك تستعمل في الخير، وقوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٣] وارد على التهكم[٦].

﴿ ٱهْدِنَا﴾: دعاء بالهدى، فإن قيل: كيف يطلب المؤمنون الهدى وهو حاصل

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣١).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٦٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ١٣٤).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ١٣٥).
(٥) وجه النهار، للحربي (ص٢).
(٦) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٢٨).

لهم؟ فالجواب: إن ذلك طلب للثبات عليه إلى الموت، أو الزيادة منه؛ فإنّ الارتقاء في المقامات لا نهاية له[١].

ﻟ قدم الحمد والثناء على الدعاء؛ لأنّ تلك السُّنة في الدعاء، وشأن الطلب أن يأتي بعد المدح، وذلك أقرب للإجابة، وكذلك قدّم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة:٣] على ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة:٤]؛ لأنّ رحمة الله سبقت غضبه، وكذلك قدّم ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]؛ لأنّ تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة[٢].

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة:٧]

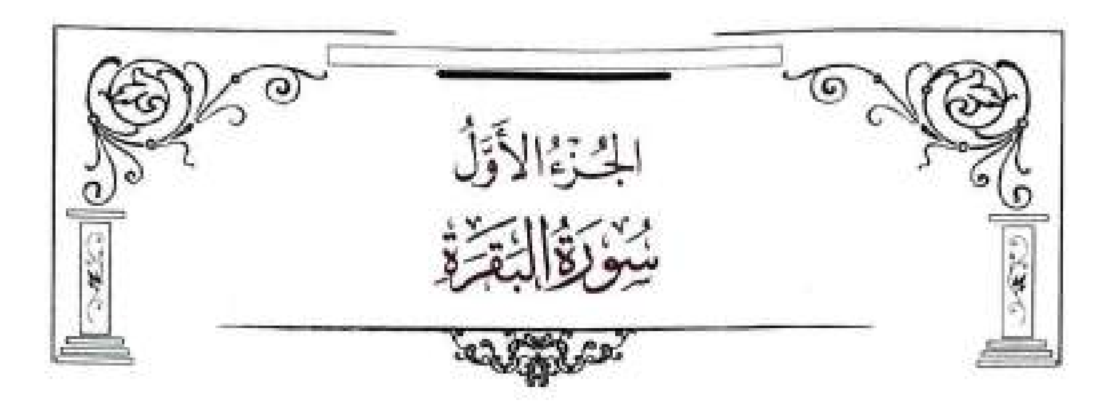
ﻟ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بدل من الصراط، وهو في حكم تكرير العامل، وفائدته: التأكيد والإشعار بأن الصراط المستقيم تفسيره صراط المسلمين؛ ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه وآكده[٣].

ﻟ إسناد ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ إلى الله، والغضب لما لم يسم فاعله؛ على وجه التأدب[٤].

ﻟ ما أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ وحذف الفاعل في الغضب في قوله تعالى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة:٧] وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة[٥].



(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٦٥).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٦٥).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣٣).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٦٦).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ١٤٣).



الجزء الأول

سورة البقرة

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ١-٢]

﴿الٓمٓ﴾ مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفا.. قال الزمخشري: وهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أنصاف أجناس الحروف يعني من المهموسة والمجهورة، ومن الرخوة والشديدة، ومن المطبقة والمفتوحة، ومن المستعلية والمنخفضة، ومن حروف القلقلة.. وقيل: إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بيانا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها.. وقال الزمخشري: وجاء منها على حرف واحد وحرفين وثلاثة وأربعة وخمسة؛ لأن أساليب كلامهم على هذا من الكلمات لا أكثر من ذلك[١].

إن قيل: كيف قال: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وقد ارتاب به المبطلون؟ قيل: معناه: أنه حق في نفسه وصدق، وإن ارتاب به المبطلون، كما قال الشاعر:

ليس في الحق يا أميمة ريب ... إنما الريب ما يقول الكذوب

فنفى الريب عن الحق، وإن كان المتقاصر في العلم يرتاب[٢].

فالمنفي كونه متعلقًا للريب ومظنة له؛ لأنه من وضوح الدلالة له وسطوع البرهان بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يقع فيه، لا أن أحدًا لا يرتاب[٣].

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ اختصاصه بالمتقين؛ لأنهم المهتدون به والمتفعون بنصه، وإن

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ١٥٩).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٣٠).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣٨).

كانت دلالته عامة لكل ناظر من مسلم أو كافر، وبهذا الاعتبار قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥][1].

﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ..﴾ أربع جمل متناسقة تقرر اللاحقة منها السابقة، ولذلك لم يدخل العاطف بينها، فـ ﴿الٓمٓ﴾: جملة دلت على أن المتحدى به هو المؤلف من جنس ما يركبون منه كلامهم، و﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾: جملة ثانية مقررة لجهة التحدي، و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: جملة ثالثة تشهد على كماله بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال؛ إذ لا كمال أعلى مما للحق واليقين، و﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بما يقدر له مبتدأ، جملة رابعة تؤكد كونه حقًا لا يحوم الشك حوله بأنه هُدىً لِلْمُتَّقِينَ، أو تستتبع السابقة منها اللاحقة استتباع الدليل للمدلول، وبيانه: أنه لما نبّه أولًا على إعجاز المتحدى به من حيث أنه من جنس كلامهم وقد عجزوا عن معارضته، استنتج منه أنه الكتاب البالغ حد الكمال، واستلزم ذلك أن لا يتشبث الريب بأطرافه؛ إذ لا أنقص مما يعتريه الشك والشبهة، وما كان كذلك كان لا محالة هُدىً لِلْمُتَّقِينَ، وفي كل واحدة منها نكتة ذات جزالة؛ **ففي الأولى**: الحذف والرمز إلى المقصود مع التعليل، **وفي الثانية**: فخامة التعريف، **وفي الثالثة**: تأخير الظرف حذرًا عن إيهام الباطل، **وفي الرابعة**: الحذف والتوصيف بالمصدر للمبالغة، وإيراده منكرًا للتعظيم، وتخصيص الهُدى بالمتقين باعتبار الغاية، وتسمية المشارف للتقوى متقيًا، إيجازًا وتفخيمًا لشأنه[2].

إن قيل: فهلا قدّم قوله: ﴿فِيهِ﴾ على الريب، كقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات:٤٧]؟

فالجواب: أنه إنما قصد نفي الريب عنه، ولو قدم ﴿فِيهِ﴾ لكان إشارة إلى أنّ ثمّ كتاب آخر فيه ريب، كما أن ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ إشارة إلى أن خمر الدنيا فيها غول، وهذا المعنى يبعد قصده، فلا يقدم الخبر[3].

لا ريب فيه ولا شك بوجه من الوجوه، ونفي الريب عنه، يستلزم ضده؛ إذ ضد

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٣٦).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٣٧).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٦٨).

الريب والشك: اليقين، فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين المزيل للشك والريب، وهذه قاعدة مفيدة: أن النفي المقصود به المدح، لا بد أن يكون متضمنا لضده، وهو الكمال؛ لأن النفي عدم، والعدم المحض، لا مدح فيه[1].

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾ [البقرة:٣]

تخصيص الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر: إظهار لفضلها على سائر ما يدخل تحت اسم التقوى[2].

﴿يُنفِقُونَ﴾ لو استقريت الألفاظ وجدت كل ما فاؤه نون وعينه فاء دالًّا على معنى الذهاب والخروج[3].

﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾ أدخل (من) التبعيضية، صيانة لهم عن التبذير المنهي عنه، وقدم المفعول دلالة على كونه أهم[4].

كثيرًا ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن؛ لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبيده، فعنوان سعادة العبد: إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد: عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان[5].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾ [البقرة:٥]

نكّر ﴿هُدٗى﴾؛ ليفيد ضربًا مبهمًا لا يبلغ كنهه[6].

المراد: على هدى عظيم؛ لأن التنكير للتعظيم[7].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٠).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٣٧).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٣٩).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٤٢).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٠).
(٦) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٤٣).
(٧) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٠).

۞ أتى بـ ﴿عَلَىٰ﴾ في هذا الموضع، الدالة على الاستعلاء، وفي الضلالة يأتي بـ «في»، كما في قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ:٢٤]؛ لأن صاحب الهدى مستعلٍ بالهدى، مرتفع به، وصاحب الضلال منغمس فيه محتقر[١].

۞ انظر كيف كرر الله عَزَّوَجَلَّ التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد على طرق شتى، وهي ذكر اسم الإشارة [أولئك] وتكريره، ففيه تنبيه على أنهم كما ثبت لهم الأثرة بالهدى فهي ثابتة لهم بالفلاح[٢].

۞ تعريف ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ فيه دلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلغك أنهم يفلحون في الآخرة.. وتوسيط الفصل بينه وبين أولئك ليبصرك مراتبهم، ويرغبك في طلب ما طلبوا، وينشطك لتقديم ما قدموا[٣].

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة:٧]

۞ قال القرطبي: وأجمعت الأمة على أن الله عَزَّوَجَلَّ قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم، كما قال: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء:١٥٥][٤].

۞ وحّد السمع؛ لأنه مصدر، والمسموع ليس إلا الصوت، بخلاف المعقولات والمبصرات، فإنها أنواع[٥].

۞ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ العظيم: فعيل من العظم، وهو كثرة المقدار في الجثة، ثم قيل: كلام عظيم، وأمر عظيم، أي: عظيم القدر، يريدون به: المبالغة في وصفه، ومعنى وصف العذاب العظيم: هو المواصلة بين أجزاء الآلام، بحيث لا يتخللها فرجة[٦].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٠).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٤٣).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٤٣).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ١٧٤).
(٥) جامع البيان، للإيجي (١/ ٢٦).
(٦) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٨٥).

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾ [البقرة:٨-١٠]

دل على أن حقيقة الإيمان ليس الإقرار فقط[١].

إن قيل: كيف جاء قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ جملة فعلية، ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ جملة اسمية، فهلا طابقتها؟ فالجواب: أن قولهم: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ أبلغ وأوكد في نفي الإيمان عنهم من لو قال: وما آمنوا[٢].

نبَّه الله، سبحانه، على صفات المنافقين لئلا يغترّ بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم، وهم كفار في نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار، أن يظن بأهل الفجور خير[٣].

اعلم أن النفاق هو: إظهار الخير وإبطان الشر، ويدخل في هذا التعريف النفاق الاعتقادي، والنفاق العملي.. وأما النفاق الاعتقادي المخرج عن دائرة الإسلام، فهو الذي وصف الله به المنافقين في هذه السورة وغيرها، ولم يكن النفاق موجودا قبل هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، ولا بعد الهجرة، حتى كانت وقعة «بدر» وأظهر الله المؤمنين وأعزهم، فذل من في المدينة ممن لم يسلم، فأظهر بعضهم الإسلام خوفا ومخادعة، ولتحقن دماؤهم، وتسلم أموالهم، فكانوا بين أظهر المسلمين في الظاهر أنهم منهم، وفي الحقيقة ليسوا منهم[٤].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا﴾ هم المنافقون، والنفاق -بالمعنى الشرعي- دليل على قوة المجتمع الذي ينشأ فيه[٥].

هؤلاء المنافقون، سلكوا مع الله وعباده هذا المسلك، فعاد خداعهم على أنفسهم، وهذا من العجائب؛ لأن المخادع، إما أن ينتج خداعه ويحصل له مقصوده،

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٨٦).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٧١).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ١٧٧).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٢).
(٥) وجه النهار، للحربي (ص٤).

أو يسلم، لا له ولا عليه، وهؤلاء عاد خداعهم عليهم، فكأنهم يعملون ما يعملون من المكر لإهلاك أنفسهم وإضرارها وكيدها[1].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة:١١]

إن قيل: كيف يصح النفاق مع المجاهرة بقولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾؟ قيل: إنهم كانوا يظهرون هذا القول فيما بينهم -لا عند المؤمنين- فأخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين[2].

في الآية تسلية للعالِم مما يلقى من الجهلة[3].

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة:١٢]، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾، جاء بالألف واللام؛ ليفيد حصر السفه والفساد فيهم[4].

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة:١٤]

خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية، والشياطين بالجملة الاسمية المؤكدة بـ (إنّ)؛ لأنهم قصدوا **بالأولى**: دعوى إحداث الإيمان، **وبالثانية**: تحقيق ثباتهم على ما كانوا عليه؛ ولأنه لم يكن لهم باعث من عقيدة وصدق رغبة فيما خاطبوا به المؤمنين، ولا توقّع رواج ادعاء الكمال في الإيمان على المؤمنين من المهاجرين والأنصار، بخلاف ما قالوه مع الكفار[5].

فالإتيان بجملة اسمية: مبالغة وتأكيد، بخلاف قولهم: آمنا، فإنه جاء بالفعل لضعف إيمانهم[6].

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٢).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٨٩).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥١).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٧١).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٤٧).
(٦) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٧٢).

﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [البقرة:١٥]

إنما استأنف ولم يعطف؛ ليدل على أن الله تعالى تولى مجازاتهم، ولم يحوج المؤمنين إلى أن يعارضوهم، وأنَّ استهزاءهم لا يؤبه به في مقابلة ما يفعل الله تعالى بهم، ولعله لم يقل: الله مستهزئ بهم، ليطابق قولهم؛ إيماء بأن الاستهزاء يحدث حالًا فحالًا، ويتجدد حينًا بعد حين، وهكذا كانت نكايات الله فيهم[(١)].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [البقرة:١٦]

إنما قال: اشتروا الضلالة بالهدى، ولم يكونوا على هدى؛ لأنها في قوم آمنوا ثم كفروا، أو في اليهود الذين كانوا مؤمنين بمحمد ﷺ فلما جاءهم كفروا به.. وفيه دليل على جواز البيع تعاطيًا؛ لأنهم لم يتلفظوا بلفظ الشراء، ولكن تركوا الهدى بالضلالة عن اختيارهم وسمي ذلك شراء، فصار دليلًا لنا على أن من أخذ شيئًا من غيره وترك عليه عوضه برضاه، فقد اشتراه وإن لم يتكلم به[(٢)].

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ أسند إليها، وهو لأربابها؛ لمشابهة التجارة الفاعل من حيث إنها سبب الربح والخسارة[(٣)].

﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [البقرة:١٧]

كان يجب في حق النظم أن يكون اللفظ: فلما أضاءت ما حوله أطفأ الله ناره، ليشاكل جواب (لما) معنى هذه القصة، ولكن لما كان إطفاء النار مثلا لإذهاب نورهم، أقيم إذهاب النور مقام الإطفاء، وجعل جواب (لما) اختصارا وإيجازا[(٤)].

﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ لم يقل: بنارهم؛ لأنه المراد من إيقادها..[(٥)]، والمعنى أخذ الله بنورهم وأمسكه، وما يمسك فلا مرسل له، فكان أبلغ من الإذهاب، ولم يقل: ذهب

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٤٧).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٣).
(٣) جامع البيان، للإيجي (١/ ٢٩).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٩٤).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٥٠).

الله بضوئهم، لقوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ﴾؛ لأن ذكر النور أبلغ؛ لأن الضوء فيه دلالة على الزيادة، والمراد إزالة النور عنهم رأسًا، ولو قيل: ذهب الله بضوئهم، لأوهم الذهاب بالزيادة وبقاء ما يسمى نورًا[١]، فإذهاب النور أبلغ؛ لأنه إذهاب للقليل والكثير، بخلاف الضوء؛ فإنه يطلق على الكثير[٢].

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [البقرة:١٩]

إنما ذكر الأصابع ولم يذكر الأنامل، ورؤوس الأصابع هي التي تجعل في الأذان: اتساعًا، كقوله: ﴿فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨] والمراد: إلى الرسغ؛ ولأن في ذكر الأصابع من المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل[٣]، لأنها أعظم من الأنامل، ولذلك جمعها مع أن الذي يجعل في الآذان السبابة خاصة[٤].

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة:٢٠]

إنما قال مع الإضاءة: ﴿كُلَّمَآ﴾ ومع الإظلام: ﴿إِذَآ﴾؛ لأنهم حراص على المشي، فذكر «كلما»؛ لأنها تقتضي التكرار والكثرة[٥] فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها، ولا كذلك التوقف[٦].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة:٢١]

لما عدّد فرق المكلفين وذكر خواصهم ومصارف أمورهم، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات؛ هزًّا للسامع وتنشيطًا له واهتمامًا بأمر العبادة، وتفخيمًا لشأنها، وجبرًا لكلفة العبادة بلذة المخاطبة[٧].

---

(١) ينظر: أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٥٠)، مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٥).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٧٣).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٩).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٧٣).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٧٤).
(٦) ينظر: أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٥٢)، مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٦٠)، التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٧٤).
(٧) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٥٤).

قال علقمة: ما في القرآن يا أيها الناس فهو خطاب لأهل مكة، وما فيه يا أيها الذين آمنوا فهو خطاب لأهل المدينة.. و (يا) حرف وضع لنداء البعيد، وأي والهمزة للقريب، ثم استعمل في مناداة من غفل وسها، وإن قرب ودنا، تنزيلًا له منزلة من بعد ونأى، فإذا نودي به القريب المقاطن فذاك للتوكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معتنى به جدًا، وقول الداعي: يا رب، وهو أقرب إليه من حبل الوريد: استقصار منه لنفسه، واستبعاد لها عن مظان الزلفى، هضما لنفسه[1].

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢]

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾؛ إنما وصفهم الله تعالى بهذا العلم لتتأكد الحجة عليهم إذا اشتغلوا بشيء يعلمون أن الحق فيما سواه[2].

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة:٢٣]

كل منزلة رفيعة فهي سورة، فكل سورة من سور القرآن بمنزلة درجة عالية رفيعة، ومنزل عال يرتفع القارئ منها إلى منزلة أخرى، إلى أن يستكمل القرآن.. فإن قيل: ما الفائدة في تفصيل القرآن على السور؟ قيل: فيه فوائد كثيرة منها: أن القارئ إذا خرج من سورة إلى سورة أخرى كان أنشط لقراءته وأحلى في نفسه، ومنها: أن تختص كل سورة بقدر مخصوص كاختصاص القصائد، ومنها: أن الإنسان قد يضعف عن حفظ الجميع، فيحفظ سورة تامة، فربما كان ذلك سببا يدعوه إلى حفظ غيرها[3].

إن قيل: كيف قال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾، ومعلوم أنهم كانوا في ريب وفي تكذيب؟ **فالجواب**: أنه ذكر حرف ﴿إِنْ﴾ إشارة إلى أنّ الريب بعيد عند العقلاء في مثل هذا الأمر الساطع البرهان[4].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٦١).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٩٩).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ١٠١).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٧٦).

﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم﴾ قال ابن عباس: يعني أنصاركم وأعوانكم.. وسمى أعوانهم شهداء؛ لأنهم يشاهدونهم عند المعاونة[1].

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة:٢٤]

فيه دليلان على إثبات النبوة: صحة كون المتحدى به معجزًا، والإخبار بأنهم لن يفعلوا، وهو غيب لا يعلمه إلا الله، ولما كان العجز عن المعارضة قبل التأمل كالمشكوك فيه لديهم، لاتكالهم على فصاحتهم واعتمادهم على بلاغتهم، سيق الكلام معهم على حسب حسبانهم، فجيء بـ(إن) الذي للشك، دون (إذا) الذي للوجوب، وعبَّر عن الإتيان بالفعل؛ لأنه فعل من الأفعال، والفائدة فيه: أنه جار مجرى الكناية التي تعطيك اختصارًا، إذ لو لم يعدل من لفظ (الإتيان) إلى لفظ (الفعل) لاستطيل أن يقال: فإن لم تأتوا بسورة من مثله ولن تأتوا بسورة من مثله[2].

قيل: ذكر الحجارة دليل على عظم تلك النار؛ لأنها لا تأكل الحجارة إلا إذا كانت فظيعة[3].

إنما جاءت النار منكرة ثَمَّ[4]، ومعرفة هنا؛ لأن تلك الآية نزلت بمكة، ثم نزلت هذه الآية بالمدينة، مشارا بها إلى ما عرفوه أولًا[5].

شرط في اتقاء النار: انتفاء إتيانهم بسورة من مثله؛ لأنهم إذا لم يأتوا بها، وتبين عجزهم عن المعارضة، صح عندهم صدق الرسول، وإذا صح عندهم صدقه ثم لزموا العناد وأبوا الانقياد، استوجبوا النار، فقيل لهم: إن استبنتم العجز، فاتركوا العناد، فوضع ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ موضعه؛ لأن اتقاء النار سبب ترك العناد[6].

﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ فيه دليل لمذهب أهل السنة والجماعة على أن النار

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ١٠٢).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٦٦).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ١٠٣).
(٤) أي في قوله تعالى: ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦].
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٦٧).
(٦) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٦٦).

مخلوقة موجودة، خلافًا لما يقوله جهم، وخلافا للمعتزلة[(١)].

۞ وفيها أيضا: أن الموحدين وإن ارتكبوا بعض الكبائر لا يخلدون في النار؛ لأنه قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ فلو كان عصاة الموحدين يخلدون فيها، لم تكن معدة للكافرين وحدهم، خلافا للخوارج والمعتزلة[(٢)].

۞ وفيها: دلالة على أن العذاب مستحق بأسبابه، وهو الكفر، وأنواع المعاصي على اختلافها[(٣)].

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة:٢٥]

۞ إنما أمر الرسول ﷺ، أو عالم كل عصر، أو كل أحد يقدر على البشارة بأن يبشرهم، ولم يخاطبهم بالبشارة كما خاطب الكفرة، تفخيمًا لشأنهم وإيذانًا بأنهم أحقاء بأن يبشروا ويهنأوا بما أعد لهم[(٤)]، ويؤذِن بأن الأمر لعظمه وفخامة شأنه محقوق بأن يبشر به كل من قدر على البشارة به[(٥)].

۞ **فيه**: استحباب بشارة المؤمنين، وتنشيطهم على الأعمال بذكر جزائها وثمراتها؛ فإنها بذلك تخف وتسهل، وأعظم بشرى حاصلة للإنسان، توفيقه للإيمان والعمل الصالح، فذلك أول البشارة وأصلها، ومن بعده البشرى عند الموت، ومن بعده الوصول إلى هذا النعيم المقيم[(٦)].

۞ إنما كان ثمار الجنة مثل ثمار الدنيا، ولم تكن أجناسًا أخر؛ لأن الإنسان

---

(١) ينظر: مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٦٧)، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٢٠٢)، تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٥).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٥).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٥).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٥٩).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٦٨).
(٦) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٦).

بالمألوف آنس، وإلى المعهود أميل، وإذا رأى ما لم يألفه نفر عنه طبعه، وعافته نفسه؛ ولأنه إذا شاهد ما سلف له به عهد، ورأى فيه مزية ظاهرة، وتفاوتًا بيّنًا، كان استعجابه به أكثر، واستغرابه أوفر، وتكريرهم هذا القول عند كل ثمرة يرزقونها، دليل على تناهي الأمر، وتمادي الحال في ظهور المزية، وعلى أن ذلك التفاوت العظيم هو الذي يستملي تعجبهم في كل أوان[1].

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ لم يقل: طاهرة؛ لأن مُطَهَّرَةٌ أبلغ؛ لأنها تكون للتكثير، وفيها إشعار بأن مطهّرًا طهرهن، وما ذلك إلا الله عَزَّوَجَلَّ[2].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة:٢٦]

(أما) حرف فيه معنى الشرط.. وفائدته في الكلام: أن يعطيه فضل توكيد.. وفي إيراد الجملتين مصدرتين به، ولم يقل: فالذين آمنوا يعلمون والذين كفروا يقولون، إحمادٌ عظيم لأمر المؤمنين، واعتداد بليغ بعلمهم أنه الحق، ونعي على الكافرين إغفالهم حظهم، ورميهم بالكلمة الحمقاء[3].

كان من حقه: (وأما الذين كفروا فلا يعلمون)، ليطابق قرينه، ويقابل قسيمه، لكن لما كان قولهم هذا دليلًا واضحًا على كمال جهلهم، عدل إليه على سبيل الكناية ليكون كالبرهان عليه[4].

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة:٢٨]

إن قيل: كيف تعد الإماتة من النعم المقتضية للشكر؟ قلت: لما كانت وصلة

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٧٠).

(٢) ينظر: أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٦١)، مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٧١).

(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٧٣).

(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٦٣).

إلى الحياة الثانية التي هي الحياة الحقيقية، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت:٦٤]، كانت من النعم العظيمة(١).

عطف ﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾ بالفاء؛ لأنَّ الحياة إثر العدم، ولا تراخي بينهما، وعطف ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ و﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بـ (ثم)؛ للتراخي الذي بينهما(٢).

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة:٣٠-٣٤]

فائدة قوله تعالى هذا للملائكة: تعليم المشاورة، وتعظيم شأن المجعول، بأن بشّر عَزَّوَجَلَّ بوجود سكان ملكوته، ولقبه بالخليفة قبل خلقه، وإظهار فضله الراجح على ما فيه من المفاسد بسؤالهم، وجوابه وبيان أن الحكمة تقتضي إيجاد ما يغلب خيره، فإن ترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير إلى غير ذلك(٣).

الظاهر أنه لم يُرد آدم عينا؛ إذ لو كان كذلك لما حسن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإ مسنون، أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ويقع بينهم من المظالم ويرد عنهم المحارم والمآثم، قاله القرطبي..وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم..

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٦٥).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٧٨).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٦٨).

وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك[١].

۞ استدل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة[٢].

۞ اعلم أن هذه الآيات تدل على شرف الإنسان، ومزية العلم وفضله على العبادة، وأنه شرط في الخلافة بل العمدة فيها، وأن التعليم يصح إسناده إلى الله تعالى، وإن لم يصح إطلاق المعلم عليه لاختصاصه بمن يحترف به، وأن اللغات توقيفية، فإن الأسماء تدل على الألفاظ بخصوص أو عموم، وتعليمها ظاهر في إلقائها على المتعلم مبينًا له معانيها، وذلك يستدعي سابقة وضع، والأصل ينفي أن يكون ذلك الوضع ممن كان قبل آدم فيكون من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن مفهوم الحكمة زائد على مفهوم العلم وإلا لتكرر قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢﴾ وأن علوم الملائكة وكمالاتهم تقبل الزيادة..وأن آدم أفضل من هؤلاء الملائكة؛ لأنه أعلم منهم، والأعلم أفضل؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٩﴾ [الزمر:٩]، وأنه تعالى يعلم الأشياء قبل حدوثها[٣].

۞ **في هذه الآيات من العبر والآيات:**

۞ إثبات الكلام لله تعالى، وأنه لم يزل متكلما، يقول ما شا، ويتكلم بما شاء، وأنه عليم حكيم.

۞ **وفيه:** أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في بعض المخلوقات والمأمورات فالوجب عليه التسليم واتهام عقله والإقرار لله بالحكمة.

۞ **وفيه:** اعتناء الله بشأن الملائكة، وإحسانه بهم، بتعليمهم ما جهلوا، وتنبيههم على ما لم يعلموه.

۞ **وفيه: فضيلة العلم من وجوه:**

۞ **منها:** أن الله تعرف لملائكته بعلمه وحكمته.

۞ **ومنها:** أن الله عرفهم فضل آدم بالعلم، وأنه أفضل صفة تكون في العبد.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٢١٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٢٢١).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٧٠).

ومنها: أن الله أمرهم بالسجود لآدم، إكراما له، لما بان فضل علمه.

ومنها: أن الامتحان للغير إذا عجزوا عما امتحنوا به ثم عرفه صاحب الفضيلة فهو أكمل مما عرفه ابتداء.

ومنها: الاعتبار بحال أبوي الإنس والجن، وبيان فضل آدم، وأفضال الله عليه، وعداوة إبليس له، إلى غير ذلك من العبر[1].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة:٣٤]

من فوائد الآية: استقباح الاستكبار وأنه قد يفضي بصاحبه إلى الكفر، وأن الأمر للوجوب[2].

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة:٣٥]

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ هذا أصل في سدّ الذرائع[3].

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة:٣٨]

في القصة دلالة على أن الجنة مخلوقة، وأنها في جهة عالية، وأن التوبة مقبولة، وأن متبع الهدى مأمون العاقبة، وأن عذاب النار دائم، وأن الكافر فيه مخلد، وأن غيره لا يخلد فيه[4].

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة:٤٠]

الآية متضمنة للوعد والوعيد، دالة على وجوب الشكر، والوفاء بالعهد، وأن المؤمن ينبغي أن لا يخاف أحدًا إلا الله تعالى[5].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٨).

(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٧٢).

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٨٠).

(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٧٥).

(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٧٦).

﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ۝٤١﴾ [البقرة:٤١]

- لما كانت الآية السابقة[١] مشتملة على ما هو كالمبادي لما في الآية الثانية، فصلت بالرهبة التي هي مقدمة التقوى؛ ولأن الخطاب بها عم العالِم والمقلد: أمرهم بالرهبة التي هي مبدأ السلوك، والخطاب بالثانية: لما خص أهل العلم، أمرهم بالتقوى التي هي منتهاه[٢].

﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤٢﴾ [البقرة:٤٢]

- فيه إشعار بأن استقباح اللَّبس لما يصحبه من كتمان الحق[٣].

- نهاهم عن شيئين: عن خلط الحق بالباطل، وكتمان الحق؛ لأن المقصود من أهل الكتب والعلم: تمييز الحق، وإظهار الحق.. فمن عمل بهذا من أهل العلم، فهو من خلفاء الرسل وهداة الأمم، ومن لبس الحق بالباطل، فلم يميز هذا من هذا، مع علمه بذلك، وكتم الحق الذي يعلمه، وأمر بإظهاره، فهو من دعاة جهنم؛ لأن الناس لا يقتدون في أمر دينهم بغير علمائهم، فاختاروا لأنفسكم إحدى الحالتين[٤].

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾ [البقرة:٤٣]

- إنما قال: ﴿وَٱرْكَعُوا۟﴾ بعد قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ لأنه أراد الحث على إقامة الصلاة في جماعة، وقيل: لأنه لم يكن في دين اليهود ولا في صلاتهم ركوع، فذكر ما اختص بشريعة الإسلام، والآية خطاب لليهود[٥]، احترازًا عن صلاة اليهود[٦]، فكأنه أمر بصلاة المسلمين التي فيها الركوع، وقيل غيره[٧].

(١) قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠].
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٧٦).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٧٧).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص ٥٠).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ١٢٩).
(٦) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٧٧).
(٧) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٨٢).

استدل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة[١].

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة:٤٤]

ليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له، فإن الأمر بالمعروف معروف، وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع أمرهم به، ولا يتخلف عنهم.. فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولي العلماء من السلف والخلف[٢]، فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما، وأما قيامه بأحدهما دون الآخر، فليس في رتبة الأول، وهو دون الأخير، وأيضا فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة[٣].

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [البقرة:٤٥]

تخصيصها برد الضمير إليها، لعظم شأنها واستجماعها ضروبًا من الصبر[٤].

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [البقرة:٥٥]

هذه الآية تتضمن التوبيخ لهم على مخالفة الرسول ﷺ مع قيام معجزته، كما خالف أسلافهم موسى مع ما أتى به من الآيات الباهرة، والتحذير لهم أن ينزل بهم ما نزل بأسلافهم[٥].

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [البقرة:٥٧]

أي: أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا، فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم،

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٢٤٦)، وجه النهار، للحربي (ص١١).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٢٤٧).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥١).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٧٨).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ١٤١).

ومن ههنا تتبين فضيلة أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم، على سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم، كما كانوا معه في أسفاره وغزواته، منها عام تبوك، في ذلك القيظ والحر الشديد والجهد، لم يسألوا خرق عادة، ولا إيجاد أمر، مع أن ذلك كان سهلًا على الرسول ﷺ[1].

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة:٥٩]

في تكرير ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ زيادة في تقبيح أمرهم، وإيذان بإنزال الرجز عليهم لظلمهم[2].

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة:٦١]

فائدة: قال هنا: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بالتعريف باللام للعهد؛ لأنه قد تقررت الموجبات لقتل النفس، وقال في الموضع الآخر من آل عمران: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بالتنكير لاستغراق النفي؛ لأن (تلك) نزلت في المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم[3].

اعلم أن الخطاب في هذه الآيات لأمة بني إسرائيل الذين كانوا موجودين وقت نزول القرآن، وهذه الأفعال المذكورة خوطبوا بها وهي فعل أسلافهم، **ونسبت لهم لفوائد عديدة:**

منها: أنهم كانوا يتمدحون ويزكون أنفسهم، ويزعمون فضلهم على محمد ومن آمن به، فبيّن الله من أحوال سلفهم التي قد تقررت عندهم، ما يبين به لكل أحد منهم

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٢٧٣).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٩٢).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٨٥).

أنهم ليسوا من أهل الصبر ومكارم الأخلاق، ومعالي الأعمال، فإذا كانت هذه حالة سلفهم، مع أن المظنة أنهم أولى وأرفع حالة ممن بعدهم فكيف الظن بالمخاطبين؟

ومنها: أن نعمة الله على المتقدمين منهم، نعمة واصلة إلى المتأخرين، والنعمة على الآباء، نعمة على الأبناء، فخوطبوا بها؛ لأنها نعم تشملهم وتعمهم.

ومنها: أن الخطاب لهم بأفعال غيرهم، مما يدل على أن الأمة المجتمعة على دين تتكافل وتتساعد على مصالحها، حتى كان متقدمهم ومتأخرهم في وقت واحد، وكان الحادث من بعضهم حادثا من الجميع؛ لأن ما يعمله بعضهم من الخير يعود بمصلحة الجميع، وما يعمله من الشر يعود بضرر الجميع.

ومنها: أن أفعالهم أكثرها لم ينكروها، والراضي بالمعصية شريك للعاصي، إلى غير ذلك من الحِكَم التي لا يعلمها إلا الله[1].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة:٦٧]

﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ لأن الهزء في مثل ذلك جهل وسفه، نفى عن نفسه ما رمي به على طريقة البرهان، وأخرج ذلك في صورة الاستعاذة استفظاعًا له[2]، وفيه تعريض بهم، أي: أنتم جاهلون حيث نسبتموني إلى الاستهزاء[3].

قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ فقال نبي الله: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾؛ فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزئ بالناس، وأما العاقل فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل، استهزاءه بمن هو آدمي مثله، وإن كان قد فضل عليه، فتفضيله يقتضي منه الشكر لربه، والرحمة لعباده، فلما قال لهم موسى ذلك، علموا أن ذلك صدق[4].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٣).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٨٦).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٩٧).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٤).

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [البقرة:٧٢]

قال أبو إسحاق الزجاج: وهذه القصة في القرآن من أدل الدلائل على نبوة محمد ﷺ، حيث خبرهم بما صدّقه في ذلك أهل الكتاب، وهو رجل عربي أمي، لم يقرأ كتابا، ولم يتعلم من أحد، ولم يكن هذا من علم العرب[١].

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة:٧٣]

قيل: إنما أمروا بذبح البقرة دون غيرها من البهائم؛ لأنها أفضل قرابينهم، ولعبادتهم العجل، فأراد الله تعالى أن يهون معبودهم عندهم. وكان ينبغي أن يقدم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة، على الأمر بذبحها.. ولكنه تعالى إنما قص قصص بني اسرائيل تعديدًا لما وجد منهم من الجنايات وتقريعًا لهم عليها، وهاتان القصتان وإن كانتا متصلتين، فتستقل كل واحدة منهما بنوع من التقريع، فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك، والثانية للتقريع على قتل النفس المحرمة وما تبعه من الآية العظيمة، وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل؛ لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ولذهب المراد في تثنية التقريع[٢].

اعلم أن كثيرا من المفسرين رَحِمَهُمُ اللَّهُ، قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل، ونزلوا عليها الآيات القرآنية، وجعلوها تفسيرا لكتاب الله، محتجين بقوله ﷺ: «**حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**»[٣]، والذي أرى أنه وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه تكون مفردة غير مقرونة، ولا منزلة على كتاب الله، فإنه لا يجوز جعلها تفسيرا لكتاب الله قطعا إذا لم تصح عن رسول الله ﷺ، وذلك أن مرتبتها كما قال ﷺ: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم**»[٤] فإذا كانت مرتبتها أن تكون مشكوكا فيها، وكان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به والقطع

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ١٥٨).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١٠١).
(٣) رواه البخاري، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم: (٣٤٦١)
(٤) رواه البخاري، باب ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة:١٣٦]، برقم: (٤٤٨٥).

بألفاظه ومعانيه، فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة، التي يغلب على الظن كذبها أو كذب أكثرها معاني لكتاب الله، مقطوعا بها ولا يستريب بهذا أحد[١].

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة:٧٤]

قال المفسرون: إنما شبّه قلوبهم بالحجارة في الغلظة والشدة، ولم يقل: كالحديد، وإن كان الحديد أصلب من الحجارة؛ لأن الحديد يلين بالنار، وقد لان لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ بإذن الله حتى صار كالعجين، ولا تلين الحجارة بمعالجة أبدا، ولأن في الحديد منافع، تلك المنافع لا توجد في الحجارة، فشبه الله قلوبهم بالحجارة لقسوتها، ولعدم المنفعة فيها[٢].

إنما لم يقل: (أقسى) لكونه أبين وأدلّ على فرط القسوة[٣].

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة:٧٥]

قال شيخ الإسلام لما ذكر هذه الآيات من قوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ إلى ﴿يَكْسِبُونَ﴾: «فإن الله ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة، على ما أصّله من البدع الباطلة، وذم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، وهو متناول لمن ترك تدبر القرآن ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه، ومتناول لمن كتب كتابا بيده مخالفا لكتاب الله، لينال به دنيا، وقال: إنه من عند الله، مثل أن يقول: هذا هو الشرع والدين، وهذا معنى الكتاب والسنة، وهذا معقول السلف والأئمة، وهذا هو أصول الدين، الذي يجب اعتقاده على الأعيان والكفاية، ومتناول لمن كتم ما عنده من الكتاب والسنة، لئلا يحتج به مخالفه في الحق الذي يقوله، وهذه الأمور كثيرة جدا في

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٥).

(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ١٥٨).

(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١٠٢).

أهل الأهواء جملة، كالرافضة والجهمية ونحوهم من أهل الأهواء والكلام، وفي أهل الأهواء تفصيلا مثل كثير من المنتسبين إلى الفقهاء...»[١].

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة:٧٨]

قال أصحاب المعاني: ذم الله بهذه الآية قوما من اليهود لا يحسنون شيئا، وليسوا على البصيرة إلا ما يحدثون به، وإلا ما يقرأونه من غير علم به، ففيه حث على تعلم العلم، حتى لا يحتاج الإنسان إلى تقليد غيره، وأن يقرأ شيئا لا يكون له به معرفة[٢].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة:٨٣]

ناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسنا، بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فجمع بين طرفي الإحسان: الفعلي والقولي[٣].

﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ سماه: حسنا؛ للمبالغة، دخل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٤].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة:٨٧]

﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ إنما ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية استحضارًا لها في النفوس؛ فإن الأمر فظيع، أو مراعاة للفواصل، أو للدلالة على أنكم بعد فيه، فإنكم تحومون حول قتل محمد ﷺ، لولا أني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة[٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٦).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ١٦٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٣١٧).
(٤) جامع البيان، للإيجي (١/ ٦٦).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٩٣)، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٣٢٣).

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾ [البقرة:٨٨]

الآية رد على القدرية؛ لأن الله تعالى بيّن أن كفرهم بسبب لعنه إياهم، وأنه لما أراد كفرهم وشقاءهم منعهم الإيمان[١].

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾ [البقرة:٨٩]

﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾ أي: عليهم، وضعًا للظاهر موضع المضمر، للدلالة على أن اللعنة لحقتهم لكفرهم[٢].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١)﴾ [البقرة:٩١]

إنما أسنده إليهم؛ لأنه فعل آبائهم، وأنهم راضون به عازمون عليه[٣].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٣)﴾ [البقرة:٩٣]

قد عُهِد أن الإيمان الصحيح، يأمر صاحبه بكل خير، وينهاه عن كل شر، فوضح بهذا كذبهم، وتبين تناقضهم[٤].

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤)﴾ [البقرة:٩٤]

في هذه الآية أبينُ دلالةٍ على صدق نبينا محمد ﷺ؛ لأنه أخبر عن الله أنهم لا يتمنون الموت، ثم لم يرد -مع حرصهم على تكذيبه- أن أحدًا أتاه وقال: يا محمد، أنا

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ١٧٢).

(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١٠٩).

(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٩٤).

(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٩).

أشتهي الموت وأتمناه(١).

سميت هذه المباهلة تمنيًا؛ لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له، ولا سيما إذا كان في ذلك حجة له فيها بيان حقه وظهوره(٢).

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [البقرة:٩٥]

لِم قال في هذه السورة: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾، وفي سورة الجمعة: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ﴾ [الجمعة:٧]، فنفى هنا «بلن»، وفي الجمعة «بلا»؟..الجواب: أنه لما كان الشرط في المغفرة مستقبلًا، وهو قوله: ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً﴾ [البقرة:٩٤]، جاء جوابه «بلن» التي تخص الاستقبال، ولما كان الشرط في الجمعة حالًا، وهو قوله: ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ﴾ [الجمعة:٦]، جاء جوابه «بلا» التي تدخل على الحال، وتدخل على المستقبل(٣).

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة:٩٦]

﴿عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ التنكير يدل على أن المراد حياة مخصوصة، وهي الحياة المتطاولة(٤).

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [البقرة:٩٧]

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾ فإن جبريل نزل القرآن، ونحو هذا الإضمار -أعني إضمار ما لم يسبق ذكره- فيه فخامة؛ حيث يجعل لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه، ويكتفي عن اسمه الصريح بذكر شيء من صفاته(٥).

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ١٧٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٣٣٤).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٩١).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١١٢).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١١٣).

۞ خص القلب؛ لأنه محل الحفظ[١].

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة:٩٨]

۞ إنما قال: ﴿عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ ولم يقل: عدو لهم، ليدل على أنهم كافرون بهذه العداوة[٢].

۞ أفرد الملكين بالذكر؛ لفضلهما، كأنهما من جنس آخر، والتنبيه على أن معاداة الواحد والكل سواء في الكفر واستجلاب العداوة من الله تعالى، وأن من عادى أحدهم فكأنه عادى الجميع؛ إذ الموجب لعداوتهم ومحبتهم على الحقيقة واحد، ولأن المحاجة كانت فيهما، ووضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنه تعالى عاداهم لكفرهم، وأن عداوة الملائكة والرسل كفر[٣]، وإعلامهم أن من عادى أولياء الله فقد عادى الله[٤].

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [البقرة:٩٩]

۞ الفسق إذا استعمل في نوع من المعاصي دل على عظمه، كأنه متجاوز عن حده[٥].

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة:١٠١]

۞ أي: ولما جاءهم هذا الرسول الكريم بالكتاب العظيم بالحق الموافق لما معهم، وكانوا يزعمون أنهم متمسكون بكتابهم، فلما كفروا بهذا الرسول وبما جاء به، ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ الذي أنزل إليهم أي: طرحوه رغبة عنه ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾، وهذا أبلغ في الإعراض، كأنهم في فعلهم هذا من الجاهلين وهم

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١١٣).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ١٨٠).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٩٦)، مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١١٤).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٣٤٣).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٩٦).

يعلمون صدقه وحقيقة ما جاء به، تبين بهذا أن هذا الفريق من أهل الكتاب لم يبق في أيديهم شيء حيث لم يؤمنوا بهذا الرسول، فصار كفرهم به كفرا بكتابهم من حيث لا يشعرون، ولما كان من العوائد القدرية والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه، وأمكنه الانتفاع به فلم ينتفع، ابتلي بالاشتغال بما يضره، فمن ترك عبادة الرحمن، ابتلي بعبادة الأوثان، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه، ابتلي بمحبة غير الله وخوفه ورجائه، ومن لم ينفق ماله في طاعة الله أنفقه في طاعة الشيطان، ومن ترك الذل لربه، ابتلي بالذل للعبيد، ومن ترك الحق ابتلي بالباطل(١).

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة:١٠٢]

- استدل بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر(٢).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة:١٠٣]

- أوثرت الجملة الاسمية على الفعلية في جواب (لو)؛ لما فيها من الدلالة على ثبات المثوبة واستقرارها، ولم يقل: لمثوبة الله خير؛ لأن المعنى لشيءٌ من الثواب خير لهم(٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة:١٠٤]

- هذا النهي اختص بذلك الوقت، لإجماع الأمة على جواز المخاطبة بهذا اللفظ الآن(٤).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٣٦٣).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١١٧)، جامع البيان، للإيجي (١/ ٨٠).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ١٨٧).

۞ فيه: النهي عن الجائز، إذا كان وسيلة إلى محرم، وفيه الأدب واستعمال الألفاظ التي لا تحتمل إلا الحسن، وعدم الفحش، وترك الألفاظ القبيحة، أو التي فيها نوع تشويش أو احتمال لأمر غير لائق، فأمرهم بلفظة لا تحتمل إلا الحسن، فقال: ﴿وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾[1].

۞ وفيه دليل على اجتناب اللفظ الموهم[2].

۞ ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ لم يذكر المسموع، ليعم ما أمر باستماعه، فيدخل فيه سماع القرآن، وسماع السنة التي هي الحكمة، لفظا ومعنى واستجابة، ففيه الأدب والطاعة[3].

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة:١١٣]

۞ إن قيل: لم وبخهم وقد صدقوا، فإن كلا الدينين بعد النسخ ليس بشيء؟ قلت: لم يقصدوا ذلك، وإنما قصد به كل فريق إبطال دين الآخر من أصله، والكفر بنبيه وكتابه مع أن ما لم ينسخ منهما حق واجب القبول والعمل به[4].

۞ ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ﴾ توبيخ عظيم لهم؛ حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لا يعلم[5].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة:١١٤]

۞ قيل: إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦١).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص٢٠).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦١).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٠١).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١٢١).

سائر المساجد، وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلا خائفا[١].

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦)﴾ [البقرة:١١٦]

احتج بها الفقهاء على أن من ملك ولده عتق عليه؛ لأنه تعالى نفى الولد بإثبات الملك، وذلك يقتضي تنافيهما[٢].

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢)﴾ [البقرة:١٢٢]

تكرير هاتين الآيتين لتكرار المعاصي منهم، وختم قصة بني إسرائيل بما بدأ به[٣].

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾ [البقرة:١٢٤]

فيه دليل على عصمة الأنبياء من الكبائر قبل البعثة، وأن الفاسق لا يصلح للإمامة[٤].

اختار ابن جرير أن هذه الآية -وإن كانت ظاهرة في الخبر أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالما- ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه، وقال ابن خويز منداد المالكي: الظالم لا يصلح أن يكون خليفة ولا حاكما ولا مفتيا ولا شاهدا ولا راويًا[٥].

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)﴾ [البقرة:١٢٥]

كان الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٣٨٩).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٠٢).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١٢٦).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٠٤).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٤١٢).

انتهى عنده البناء فتركه هناك؛ ولهذا -والله أعلم- أمر بالصلاة هناك عند فراغ الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه[١].

﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾ يستنبط من تقديمه على «العاكفين» و«المصلين»: أنهم أحق بالمكان والإفساح، ومن ذلك: جواز تأخير مقام إبراهيم إن اضطر إلى ذلك؛ لأن الله قدمهم[٢].

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ١٢٦﴾ [البقرة:١٢٦]

إن قيل: لِم قال في البقرة: ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾ فعرّف في إبراهيم[٣] ونكّر في البقرة؟

أجيب عن ذلك بثلاثة أجوبة:

الجواب الأوّل: أنه تقدّم في البقرة ذكر البيت في قوله: ﴿ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾، وذكر البيت يقتضي بالملازمة ذكر البلد الذي هو فيه، فلم يحتج إلى تعريف، بخلاف آية إبراهيم؛ فإنها لم يتقدم قبلها ما يقتضي ذكر البلد ولا المعرفة به، فذكره بلام التعريف.

الجواب الثاني: أن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان بمكة حين نزلت آية إبراهيم؛ لأنها مكية؛ فلذلك قال فيه: ﴿ٱلْبَلَدَ﴾ [إبراهيم:٣٥] بلام التعريف التي للحضور، بخلاف آية البقرة؛ فإنها مدنية، ولم تكن مكة حاضرة حين نزولها، فلم يعرفها بلام الحضور، وفي هذا نظر؛ لأن ذلك الكلام حكاية عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فلا فرق بين نزوله بمكة أو المدينة.

الجواب الثالث: أنه قال: ﴿هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ قبل أن يكون بلدًا، فكأنه قال: اجعل هذا الموضع بلدًا آمنًا، وقال: «هذا البلد» بعد ما صار بلدًا، وهذا يقتضي أن إبراهيم دعا بهذا الدعاء مرتين، والظاهر أنه مرة واحدة، حكي لفظه فيها على وجهين[٤].

إنما خص إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بطلب الرزق للمؤمنين؛ لأن الله تعالى أدبه بقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فتوهم أنه كما لا يعطيهم النبوة إلا إذا كانوا مؤمنين، كذلك

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٤١٧).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص٢١).
(٣) [آية: ٣٥].
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٩٧).

لا يرزق أهل مكة إلا إذا كانوا مؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ فسأرزقه إلى منتهى أجله[١].

۞ ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ معنى قليلا: أي زمانا قليلا، يعني مدة عمره، وإنما وصف بالقلة من حيث كان إلى نفاد ونقص وتناه، وإن طال[٢].

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة:١٢٨]

۞ إنما خَصّا بالدعوة بعض الذرية؛ لأن الله تعالى أعلمهما أن في ذريتهما من لا ينال العهد في قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة:١٢٤][٣].

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة:١٣٢]

۞ قال الزجاج: (وصى) أبلغ من (أوصى)؛ لأن (أوصى): جائز أن يكون قال لهم مرة واحدة، (ووصى): لا يكون إلا لمرات كثيرة[٤].

۞ الظاهر، والله أعلم، أن إسحاق ولد له يعقوب في حياة الخليل وسارة؛ لأن البشارة وقعت بهما في قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود:٧١][٥].

۞ ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ المرء يموت غالبا على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه، وقد أجرى الله الكريم عادته بأن من قصد الخير وفق له ويسر عليه، ومن نوى صالحا ثبت عليه[٦].

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٢١٠).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٢١٠).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٢١١).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٢١٦).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٤٤٦).
(٦) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٤٤٦).

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة:١٣٣]

• هذا من باب التغليب لأن إسماعيل عمه. قال النحاس: والعرب تسمي العم أبا، نقله القرطبي؛ وقد استدل بهذه الآية من جعل الجد أبا وحجب به الإخوة، كما هو قول الصدِّيق[١].

﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة:١٣٦]

• ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ أفردهما بحكم، وهو الإتيان، فإنه أبلغ من الإنزال؛ لأن النزاع فيهما[٢].

• هذه الآية الكريمة، قد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به[٣].

• وفي قوله: ﴿قُولُوٓا۟﴾ إشارة إلى الإعلان بالعقيدة، والصدع بها، والدعوة لها؛ إذ هي أصل الدين وأساسه[٤].

• وفي قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾ ونحوه مما فيه صدور الفعل منسوبا إلى جميع الأمة، إشارة إلى أنه يجب على الأمة، الاعتصام بحبل الله جميعا، والحث على الائتلاف حتى يكون داعيهم واحدا، وعملهم متحدا، وفي ضمنه النهي عن الافتراق، وفيه: أن المؤمنين كالجسد الواحد[٥].

• وفي قوله: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ إلخ دلالة على جواز إضافة الإنسان إلى نفسه الإيمان، على وجه التقييد، بل على وجوب ذلك، بخلاف قوله: «أنا مؤمن» ونحوه،

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٩٨)، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٤٤٧).
(٢) جامع البيان، للإيجي (١/ ٩٨).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٧).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٧).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٧).

فإنه لا يقال إلا مقرونا بالاستثناء بالمشيئة، لما فيه من تزكية النفس، والشهادة على نفسه بالإيمان[1].

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة:١٣٨]

إنما سمي الدين صبغة؛ لأن المتدين يلزمه ولا يفارقه كما يلزم الصبغ الثوب[2].

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [البقرة:١٣٩]

كان أهل الكتاب، يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين، وهذا مجرد دعوى، تفتقر إلى برهان ودليل، فإذا كان رب الجميع واحدا، ليس ربا لكم دوننا، وكل منا ومنكم له عمله، فاستوينا نحن وأنتم بذلك، فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره؛ لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء، من غير فرق مؤثر، دعوى باطلة، وتفريق بين متماثلين، ومكابرة ظاهرة، وإنما يحصل التفضيل، بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذه الحالة، وصف المؤمنين وحدهم، فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم؛ لأن الإخلاص هو الطريق إلى الخلاص، فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بالأوصاف الحقيقية التي يسلمها أهل العقول، ولا ينازع فيها إلا كل مكابر جهول، ففي هذه الآية، إرشاد لطيف لطريق المحاجة، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتماثلين، والفرق بين المختلفين[3].

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة:١٤٠]

هذه طريقة القرآن في ذكر العلم والقدرة، عقب الآيات المتضمنة للأعمال

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٧).

(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٢٢٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٩).

التي يجازى عليها، فيفيد ذلك الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ويفيد أيضا ذكر الأسماء الحسنى بعد الأحكام: أن الأمر الديني والجزائي أثر من آثارها، وموجب من موجباتها، وهي مقتضية له[1].

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [البقرة:١٤١]

قد مضت هذه الآية، وأعيدت ههنا؛ لأن الحِجاج إذا اختلفت مواطنه حسن تكريره للتذكير[2].

تكرير للمبالغة في التحذير والزجر عما استحكم في الطباع من الافتخار بالآباء والاتكال عليهم[3].



الجُزْءُ الثَّانِي

﴿ ۞ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [البقرة:١٤٢]

فائدة الإخبار بقولهم قبل وقوعه: توطين النفس؛ إذ المفاجأة بالمكروه أشد، وعداد الجواب قبل الحاجة إليه أقطع للخصم، فقبل الرمي يراش السهم[4].

دلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله، إلا سفيه جاهل معاند، وأما الرشيد المؤمن العاقل، فيتلقى أحكام ربه بالقبول، والانقياد، والتسليم[5].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٩).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٢٢٤).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١١٠).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١١٠)، مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١٣٦)، وقال ابن عباس: إنها نزلت بعد قولهم. ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٩٩).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٧٠).

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة:١٤٣]

﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ خيارًا، أو عدولًا، واستدل به على أن الإجماع حجة؛ إذ لو كان فيما اتفقوا عليه باطل لانثلمت به عدالتهم[١].

لِم قدّم المجرور في قوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ وأخره في قوله: ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ؟﴾ **فالجواب**: أنّ تقديم المعمولات يفيد الحصر، فقدّم المجرور في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾؛ لاختصاص شهادة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأمته، ولم يقدّمه في قوله: ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنه لم يقصد الحصر[٢].

وفيها: اشتراط العدالة في الحكم، والشهادة، والفتيا، ونحو ذلك[٣].

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة:١٤٤]

وذلك يدل على كمال أدبه ﷺ حيث انتظر ولم يسأل[٤].

عن ابن عباس: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة[٥].

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة:١٤٥]

وحدت القبلة -وإن كان لهم قبلتان، فلليهود قبلة، وللنصارى قبلة- لاتحادهم

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١١٠)، مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١٣٨)، تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٧٠).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٩٩)، مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١٣٨).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٧٠).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١١١).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٤٥٨).

في البطلان[١].

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [البقرة:١٤٨]

• يستدل بهذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل، كالصلاة في أول وقتها، والمبادرة إلى إبراء الذمة، من الصيام، والحج، والعمرة، وإخراج الزكاة، والإتيان بسنن العبادات وآدابها، فلله ما أجمعها وأنفعها من آية[٢].

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة:١٤٩-١٥٠]

• إنما كررت الآيتان؛ لأن هذا من مواضيع التأكيد لأجل النسخ الذي نقلوا به من جهة إلى جهة[٣]، وهذا التكرير لتأكيد أمر القبلة وتشديده؛ لأن النسخ من مظان الفتنة والشبهة، فكرر عليهم ليثبتوا، على أنه نيط بكل واحد ما لم ينط بالآخر، فاختلفت فوائدها[٤].

• إنما ذكر المسجد دون الكعبة؛ لأن عليه الصلاة والسلام كان في المدينة، والبعيد يكفيه مراعاة الجهة[٥].

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة:١٥٢]

• هذه الآية بيان لشرف الذكر[٦].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١٤٠).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٧٢).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٢٣٢).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١٤٢).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١١٢)، مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١٣٩).
(٦) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي، (١/ ١٠١).

۞ **الذكر ثلاثة أنواع:** ذكر بالقلب، وذكر باللسان، وبهما معا، واعلم أن الذكر أفضل الأعمال على الجملة[١].

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [البقرة:١٥١]

۞ ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾ قدّمه باعتبار القصد، وأخّره في دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ باعتبار الفعل[٢].

۞ ذمّ من لم يعرف قدر هذه النعمة[٣]، فقال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم:٢٨] قال ابن عباس: يعني بنعمة الله محمدا ﷺ؛ ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره، فقال: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة:١٥٢][٤].

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥]

۞ ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ ﴾ إنما قلله بالإضافة إلى ما وقاهم منه؛ ليخفف عليهم، ويريهم أن رحمته لا تفارقهم، أو بالنسبة إلى ما يصيب به معانديهم في الآخرة، وإنما أخبرهم به قبل وقوعه ليوطنوا عليه نفوسهم[٥].

۞ بشيء يسير منهما؛ لأنه لو ابتلاهم بالخوف كله، أو الجوع، لهلكوا، والمحن تمحص لا تهلك[٦].

۞ ختم الآية بتبشير الصابرين ليدل على أن من صبر على هذه المصائب كان على وعد الثواب من الله تعالى، فقال: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾[٧].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي، (١/ ١٠١).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١١٤).
(٣) نعمة إرسال الرسول ﷺ.
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٤٦٥).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١١٤)، مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١٤٤).
(٦) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٧٥).
(٧) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٢٣٦).

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة:١٥٦]

قال سعيد بن جبير: لقد أعطيت هذه الأمة عند المصيبة ما لم يعطه الأنبياء قبلهم ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾، ولو أعطيه الأنبياء لأعطيه يعقوب، إذ يقول: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤][(١)].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة:١٥٧]

قال ابن كيسان: وجمع الصلوات؛ لأنه عنى بها رحمة بعد رحمة، وذكر الرحمة بعد الصلوات لإشباع المعنى والاتساع في اللفظ[(٢)].

﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾ [البقرة:١٥٨]

الساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه، وأن يلتجئ إلى الله عَزَّوَجَلَّ ليزيح ما هو به من النقائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم وأن يثبته عليه إلى مماته، وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي، إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة، كما فعل بهاجر عَلَيْهَاالسَّلَامُ[(٣)].

دل تقييد نفي الجناح فيمن تطوف بهما في الحج والعمرة، أنه لا يتطوع بالسعي مفردا إلا مع انضمامه لحج أو عمرة، بخلاف الطواف بالبيت، فإنه يشرع مع العمرة والحج، وهو عبادة مفردة[(٤)].

فأما السعي والوقوف بعرفة ومزدلفة، ورمي الجمار فإنها تتبع النسك، فلو فعلت غير تابعة للنسك، كانت بدعة، **لأن البدعة نوعان:** نوع يتعبد لله بعبادة، لم يشرعها أصلا ونوع يتعبد له بعبادة قد شرعها على صفة مخصوصة، فتفعل على غير تلك الصفة، وهذا منه[(٥)].

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٦٢٧).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٢٤١).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٤٧١).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٧٦).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٥).

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣]

﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة:٢] هما كالحجة لوحدانيته؛ فإنه مولى النعم وحده، فغيره لا يستحق العبودية[١].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة:١٦٥]

سبب محبة الله: معرفته، فتقوى المحبة على قدر قوّة المعرفة، وتضعف على قدر ضعف المعرفة[٢].

ولو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشركهم أن القدرة كلها لله تعالى على كل شيء من الثواب والعقاب دون أندادهم ويعلمون شدة عقابه للظالمين إذا عاينوا العذاب يوم القيامة لكان منهم مالا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة فحذف الجواب؛ لأن (لو) إذا جاء فيما يشوق إليه أو يخوف منه، قلما يوصل بجواب، ليذهب القلب فيه كل مذهب[٣].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة:١٦٧]

أصله: (وما يخرجون)، فعدل به إلى هذه العبارة، للمبالغة في الخلود والإقناط عن الخلاص والرجوع إلى الدنيا[٤].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة:١٦٨]

كل معصية لله فهي من خطوات الشيطان[٥].

---

(١) جامع البيان، للإيجي (١/ ١١٢).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٠٥).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١٤٨).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١١٨).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٤٧٩).

ﭐ في هذه الآية، دليل على أن الأصل في الأعيان الإباحة، أكلا وانتفاعا، وأن المحرم نوعان: إما محرم لذاته، وهو الخبيث الذي هو ضد الطيب، وإما محرم لما عرض له، وهو المحرم لتعلق حق الله، أو حق عباده به، وهو ضد الحلال[١].

ﭐ وفيه دليل على أن الأكل بقدر ما يقيم البنية واجب، يأثم تاركه؛ لظاهر الأمر[٢].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة:١٧٠]

ﭐ الآية دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر والاجتهاد[٣].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة:١٧٢]

ﭐ الأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة[٤].

ﭐ دليل على وجوب الشكر؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾[٥].

ﭐ الشكر في هذه الآية، هو العمل الصالح، وهنا لم يقل: «حلالا»؛ لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق خالصة من التبعة، ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له[٦].

ﭐ وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ أي: فاشكروه، فدل على أن من لم يشكر الله، لم يعبده وحده، كما أن من شكره، فقد عبده، وأتى بما أمر به[٧].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٠).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٠).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١١٩).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٤٨٠).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٠٧).
(٦) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨١).
(٧) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨١).

ﭑ ويدل أيضا على أن أكل الطيب، سبب للعمل الصالح وقبوله، والأمر بالشكر، عقيب النعم؛ لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويجلب النعم المفقودة كما أن الكفر، ينفر النعم المفقودة ويزيل النعم الموجودة[1].

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة:١٧٣]

ﭑ فيه إشارة إلى أنه إذا كان يغفر المعصية، فإنه لا يأخذ بما جعل فيه الرخصة، رحيم حيث رخص للمضطر في أكل الميتة[2].

ﭑ هذه الإباحة والتوسعة، من رحمته تعالى بعباده، فلهذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾، ولما كان الحل مشروطا بهذين الشرطين[3] وكان الإنسان في هذه الحالة، ربما لا يستقصي تمام الاستقصاء في تحقيقها أخبر تعالى أنه غفور، فيغفر ما أخطأ فيه في هذه الحال، خصوصا وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة[4].

ﭑ وفي هذه الآية دليل على القاعدة المشهورة: «الضرورات تبيح المحظورات» فكل محظور، اضطر إليه الإنسان، فقد أباحه له، الملك الرحمن[5].

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة:١٧٧]

ﭑ ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ وهو: المسافر المجتاز الذي قد فرغت نفقته فيعطى ما يوصله إلى بلده.. ويدخل في ذلك الضيف، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنه قال:

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨١).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٢٥٩).
(٣) وهما: غير باغ ولا عاد.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨١).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨١).

ابن السبيل هو الضيف الذي ينزل بالمسلمين[١].

﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ أي: الذين تعرض لهم حاجة من الحوائج، توجب السؤال، كمن ابتلي بأرش جناية، أو ضريبة عليه من ولاة الأمور، أو يسأل الناس لتعمير المصالح العامة، كالمساجد، والمدارس، والقناطر، ونحو ذلك، فهذا له حق وإن كان غنيا[٢].

قال الثوري: هذه أنواع البر كلها. وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فإن من اتصف بهذه الآية، فقد دخل في عرى الإسلام كلها، وأخذ بمجامع الخير كله، وهو الإيمان بالله، وهو أنه لا إله إلا هو، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله[٣].

﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ نصبه على المدح، ولم يعطف؛ لفضل الصبر على سائر الأعمال[٤]،كأنه قال: وأخص الصابرين من بينهم[٥]، وللحث على الصبر في هذه الأحوال لشدته وصعوبته[٦].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨)﴾ [البقرة:١٧٨]

﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ قال ابن عباس: يريد: حيث جعل الدية لأمتك يا محمد، قال قتادة: لم تحل الدية لأحد غير هذه الأمة[٧].

عن ابن عباس قال: لو أكفر الله أحدا من أهل التوحيد بذنب لأكفر الذين سفكوا الدم الحرام، وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾، ثم قال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾، ثم قال: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾، قال ابن

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٤٨٧).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٣).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٤٨٦).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٢١)، مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١٥٤).
(٥) جامع البيان، للإيجي (١/ ١٢٢).
(٦) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٤٨٨).
(٧) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٢٥٩).

عباس: فسمى القاتل في أول الآية «مؤمنا»، وفي وسطها «أخا»، ولم يؤيسه في آخرها من التخفيف والرحمة[١].

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي شيء من العفو.. وفائدته الإشعار بأن بعض العفو كالعفو التام في إسقاط القصاص[٢].

ذكره بلفظ الإخوة الثابتة بينهما من الجنسية والإسلام ليرق له ويعطف عليه[٣].

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة:١٧٩]

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ كلام في غاية الفصاحة والبلاغة من حيث جعل الشيء محل ضده، وعرف القصاص ونكر الحياة؛ ليدل على أن في هذا الجنس من الحكم نوعًا من الحياة عظيمًا؛ وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل، فيكون سبب حياة نفسين[٤].

في الكتب المتقدمة: (القتل أنفى للقتل)، فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح، وأبلغ، وأوجز[٥].

لما كان هذا الحكم، لا يعرف حقيقته إلا أهل العقول الكاملة والألباب الثقيلة، خصهم بالخطاب دون غيرهم، وهذا يدل على أن الله تعالى، يحب من عباده أن يُعملوا أفكارهم وعقولهم، في تدبر ما في أحكامه من الحكم، والمصالح الدالة على كماله، وكمال حكمته وحمده، وعدله ورحمته الواسعة، وأن من كان بهذه المثابة فقد استحق المدح بأنه من ذوي الألباب الذين وجه إليهم الخطاب، وناداهم رب الأرباب، وكفى بذلك فضلا وشرفا لقوم يعقلون[٦].

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٢٦٦).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٢٢).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٢٢)، مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١٥٥).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٢٣)، مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١٥٦)، تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٤).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٤٩٢).
(٦) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٤).

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)﴾ [البقرة:١٨٠-١٨٣]

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فيه توكيد للحكم، وترغيب في الفعل.

ذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم، فلهم فيه أسوة، وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك[١]، وفيه تطييب على النفس[٢].

القصد بقوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، وبقوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ تسهيل الصيام على المسلمين، وملاطفة جميلة[٣]، فبيَّن مقدار الصوم، وأنه ليس في كل يوم، لئلا يشق على النفوس فتضعف عن حمله وأدائه، بل في أيام معدودات[٤].

ثم ذكر تعالى حكمته في مشروعية الصيام فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)﴾؛ فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى؛ لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه[٥].

فمما اشتمل عليه من التقوى: أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها، التي تميل إليها نفسه، متقربا بذلك إلى الله، راجيا بتركها، ثوابه، فهذا من التقوى[٦].

ومنها: أن الصائم يدرب نفسه على مراقبة الله تعالى، فيترك ما تهوى نفسه، مع قدرته عليه، لعلمه باطلاع الله عليه.

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٤٩٧)، تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٤).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٢٢).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١١٠).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٤٩٧).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٦).
(٦) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٦).

ومنها: أن الصيام يضيق مجاري الشيطان، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فبالصيام، يضعف نفوذه، وتقل منه المعاصي.

ومنها: أن الصائم في الغالب، تكثر طاعته، والطاعات من خصال التقوى.

ومنها: أن الغني إذا ذاق ألم الجوع، أوجب له ذلك مواساة الفقراء المعدمين، وهذا من خصال التقوى[1].

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة:١٨٥]

الأصل: (فمن شهد فيه فليصم فيه)، لكن وضع المظهر موضع المضمر الأول للتعظيم[2].

أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطر من هذه الآية: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾[3].

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ هذه الآية أصل القاعدة العظيمة: المشقة تجلب التيسير[4].

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة:١٨٦]

جعلت الآية بين آيات الصيام؛ لأن للصائم دعوة لا ترد[5].

لم يقل: فقل: إني قريب -كما هي العادة في كل جوابات السؤال في القرآن-

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٦).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٢٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٥٠٥).
(٤) وجه النهار، للحربي (ص٢٨).
(٥) وجه النهار، للحربي (ص٢٩).

للإشارة إلى أنه لا واسطة بين العبد وربه في عبادته ومسألته[1].

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة:١٨٧]

﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ ..﴾ فيه دليل على جواز نسخ السنة بالقرآن[2].

﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ فيه دليل على أن الاعتكاف يكون في المسجد ولا يختص بمسجد دون مسجد، وأن الوطء يحرم فيه ويفسده؛ لأن النهي في العبادات يوجب الفساد[3].

في إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر، دليل على استحباب السحور؛ لأنه من باب الرخصة، والأخذ بها محبوب[4].

﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ يقتضي الإفطار عند غروب الشمس حكما شرعيا[5].

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة:١٩٠]

عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ قال: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة[6].

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ لأنه منهي عنها، وأما الأوامر فيقول فيها: لا تعتدوها، وهذه الجملة مما يستدل به في باب سد الذرائع[7].

---

(١) وجه النهار، للحربي (ص٢٩).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٢٦).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٢٦).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٥١٣).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٥١٧).
(٦) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٥٢٣).
(٧) وجه النهار، للحربي (ص٣٠).

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١)﴾ [البقرة:١٩١]

لما كان القتال عند المسجد الحرام، يتوهم أنه مفسدة في هذا البلد الحرام، أخبر تعالى أن المفسدة بالفتنة عنده بالشرك والصد عن دينه أشد من مفسدة القتل، فليس عليكم -أيها المسلمون- حرج في قتالهم، ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة، وهي: أنه يرتكب أخف المفسدتين، لدفع أعلاهما[١].

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥)﴾ [البقرة:١٩٥]

في ترك الإنفاق في سبيل الله، إبطال للجهاد، وتسليط للأعداء، وشدة تكالبهم، فيكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ كالتعليل لذلك[٢].

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)﴾ [البقرة:١٩٦]

قيل: الإتمام يكون بعد الشروع، فهو دليل على أن من شرع فيهما لزمه إتمامهما[٣].

﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ فذلكة[٤] الحساب، وفائدتها: أن لا يتوهم متوهم أن الواو بمعنى أو، كقولك جالس الحسن وابن سيرين[٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٠).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١٦٧).
(٤) فَذْلَكَ حِسابَهُ: أنهاهُ وفرَغ منه، مُخْتَرَعَةٌ من قوله إذا أَجْمَلَ حِسابَهُ: فَذلِكَ كذا وكذا. (ينظر: القاموس المحيط ١/ ٩٥٠).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٣٠).

❁ لما كان لفظ القرآن في بيان الرخصة جاء بالأسهل فالأسهل: «**ففدية من صيام أو صدقة أو نسك**»، ولما أمر النبي ﷺ كعب بن عجرة بذلك، أرشده إلى الأفضل فالأفضل، فقال: «**انسك شاة، أو أطعم ستة مساكين، أو صم ثلاثة أيام**»[١]، فكل حسن في مقامه[٢].

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة:١٩٧]

❁ في هذا حث على فعل الخير، وإخبار أن الله تعالى ليس بغافل عن فعلهم، فهو مجازيهم بذلك[٣].

❁ لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا، أرشدهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى إليها، كما قال: ﴿وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦]، لما ذكر اللباس الحسي نبه مرشدا إلى اللباس المعنوي، وهو الخشوع، والطاعة والتقوى، وذكر أنه خير من هذا، وأنفع[٤].

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة:٢٠٠-٢٠٢]

❁ في هذه الآية دليل على أن الله يجيب دعوة كل داع، مسلما أو كافرا أو فاسقا، ولكن ليست إجابته دعاء من دعاه، دليلا على محبته له وقربه منه، إلا في مطالب الآخرة ومهمات الدين[٥].

---

(١) رواه البخاري، باب: الإطعام في الفدية نصف صاع، برقم: (١٨١٦)، ومسلم، باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى، ووجوب الفدية لحلقه، وبيان قدرها، برقم: (١٢٠١).

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٥٣٦).

(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٣٠٢).

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٥٤٨).

(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٢).

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة:٢٠١]

أرشد إلى دعائه بعد كثرة ذكره، فإنه مظنة الإجابة، وذم من لا يسأله إلا في أمر دنياه، وهو معرض عن أخراه[1].

﴿۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [البقرة:٢٠٣]

أي: طرح المأثم عن المتعجل والمتأخر يكون إذا اتقيا في حجهما تضييع شيء مما حده الله وأمر به، حتى لا يظن أن من تعجل أو تأخر خرج عن الآثام دون أن يتقي[2].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة:٢٠٤،٢٠٥]

في هذه الآية دليل على أن الأقوال التي تصدر من الأشخاص، ليست دليلا على صدق ولا كذب، ولا بر ولا فجور، حتى يوجد العمل المصدق لها، المزكي لها، وأنه ينبغي اختبار أحوال الشهود، والمحق والمبطل من الناس، بسبر أعمالهم، والنظر لقرائن أحوالهم، ألّا يغتر بتمويههم وتزكيتهم أنفسهم[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة:٢٠٨]

(السين واللام والميم) إذا كانت في كلمة دلت على العافية والسلامة، لا يستثنى من ذلك شيء[4].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٥٥٨).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٣١٠).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٣).
(٤) وجه النهار، للحربي (ص٣٤).

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة:٢١٠]

﴿ٱلْغَمَامِ﴾ السحاب، وهو للتهويل؛ إذ الغمام مظنة الرحمة، فإذا أنزل منه العذاب كان الأمر أفظع وأهول[١].

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة:٢١٢]

إنما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾، بعد قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ ليدل على أنهم متقون، وأن استعلاءهم للتقوى[٢].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة:٢١٥]

الاهتمام في شأن المصرف؛ لأن الخير لا يعتد به إلا بعد وقوعه موقعه[٣].

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة:٢١٦]

قوله: ﴿وَهُوَ﴾ أي: القتال، ﴿كُرْهٌ لَّكُمْ﴾، قال الفراء: الكُره: المشقة، قمت على كره، أي: على مشقة، والكَره بفتح الكاف: الإجبار، يقال: أقامني على كَره، إذا أكرهك عليه، ولهذا المعنى لم يقرأ -ههنا- كره بالفتح كما قرئ في سائر المواضع بالضم والفتح؛ لأن المشقة ههنا أليق من الإجبار، وهذا الكره من حيث المشقة الداخلة على النفس وعلى المال من المؤنة، لا أنهم كانوا يكرهون فرض الله[٤].

فيه دليل على أن الأحكام تتبع المصالح الراجحة وإن لم يعرف عينها[٥].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١٧٦).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٣٥).
(٣) جامع البيان، للإيجي (١/ ١٤٩).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٣١٩).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٣٦).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة:٢١٧]

دلت الآية بمفهومها، أن من ارتد ثم عاد إلى الإسلام، أنه يرجع إليه عمله الذي قبل ردته، وكذلك من تاب من المعاصي، فإنها تعود إليه أعماله المتقدمة[١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة:٢١٨]

كرر الموصول لتعظيم الهجرة والجهاد، كأنهما مستقلان في تحقيق الرجاء[٢].

هذه الأعمال الثلاثة، هي عنوان السعادة وقطب رحى العبودية، وبها يعرف ما مع الإنسان، من الربح والخسران[٣].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ في هذا دليل على أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة، وأما الرجاء المقارن للكسل، وعدم القيام بالأسباب، فهذا عجز وتمن وغرور، وهو دال على ضعف همة صاحبه، ونقص عقله، بمنزلة من يرجو وجود ولد بلا نكاح، ووجود الغلة بلا بذر وسقي، ونحو ذلك[٤].

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة:٢٢١]

يستفاد من تعليل الآية، النهي عن مخالطة كل مشرك ومبتدع؛ لأنه إذا لم يجز

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٧).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٣٧).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٨).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٨).

التزوج مع أن فيه مصالح كثيرة، فالخلطة المجردة من باب أولى، وخصوصا الخلطة التي فيها ارتفاع المشرك ونحوه على المسلم، كالخدمة ونحوها[١].

في قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ دليل على اعتبار الولي في النكاح[٢].

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢٢]

إنما جاء ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ ثلاث مرات بلا واو، ثم مع واو ثلاثًا؛ لأن سؤالهم عن تلك الحوادث الأول كأنه وقع في أحوال متفرقة، فلم يؤت بحرف العطف؛ لأن كل واحد من السؤالات سؤال مبتدأ، وسألوا عن الحوادث الأخر في وقت واحد، فجيء بحرف الجمع لذلك[٣].

فيه ندب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال، وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء، أو تتيمم إن تعذر ذلك عليها بشرطه[٤].

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ [البقرة:٢٢٤]

نهى عباده أن يجعلوا أيمانهم عرضة، أي: مانعة وحائلة عن أن يبروا، أي: يفعلوا خيرا، ويتقوا شرا، أو يصلحوا بين الناس، فمن حلف على ترك واجب وجب حنثه، وحرم إقامته على يمينه، ومن حلف على ترك مستحب، استحب له الحنث، ومن حلف على فعل محرم، وجب الحنث، أو على فعل مكروه استحب الحنث، وأما المباح فينبغي فيه حفظ اليمين عن الحنث، ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة، أنه «إذا تزاحمت المصالح، قدم أهمها»، فهنا تتميم اليمين مصلحة، وامتثال أوامر الله في هذه الأشياء مصلحة أكبر من ذلك، فقدمت لذلك[٥].

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٩).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٢٠)، تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٩).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٣٩)، مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١٨٦).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٥٨٧).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٠٠).

﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة:٢٢٧]

فيه دلالة على أنه لا يقع الطلاق بمجرد مضي الأربعة أشهر[1].

﴿وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَـٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ [البقرة:٢٢٨]

﴿وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ خبر في معنى الأمر.. وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص، فهو يخبر عنه موجودًا، ونحوه قولهم في الدعاء: رحمك الله، أخرج في صورة الخبر، ثقة بالاستجابة، كأنما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها، وبناؤه على المبتدأ مما زاده أيضًا فضل تأكيد؛ لأن الجملة الاسمية تدل على الدوام والثبات، بخلاف الفعلية، وفي ذكر الأنفس تهييج لهن على التربص، وزيادة بعث؛ لأن أنفس النساء طوامح إلى الرجال، فأمرن أن يقمعن أنفسهن، ويغلبنها على الطموح، ويجبرنها على التربص[2].

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ فيه دليل على أن قولها مقبول في ذلك[3]، وعلى أن المرجع في هذا إليهن؛ لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن، وتتعذر إقامة البينة غالبا على ذلك[4]، فيقبل خبر المرأة، عما تخبر به عن نفسها، من الأمر الذي لا يطلع عليه غيرها، كالحيض والحمل ونحوه[5].

﴿ٱلطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة:٢٢٩]

الخوف يكون بمعنى العلم؛ وذلك أن في الخوف طرفا من العلم؛ لأنك تخاف ما

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٦٠٥).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١٨٨).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٤١).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٦٠٩).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٠١).

تعلم، وما لا تعلم لا تخافه، كما أن الظن لما كان فيه طرف من العلم جاز أن يكون علما[١].

استدل بهذه الآية من ذهب إلى أنَّ جمع الطلقات الثلاث بكلمة واحدة حرام[٢].

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ [البقرة:٢٣٠]

لم يقل: إن علما أنهما يقيمان؛ لأن اليقين مغيب عنهما، لا يعلمه إلا الله[٣].

أجمعت الأئمة على أن النكاح هنا هو العقد مع الدخول والوطء[٤].

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ ..﴾ أي بعد اثنتين، وذكر بينهما الخلع؛ دلالة على أن الطلاق يكون مجانا تارة، وبعوض أخرى[٥].

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣١﴾﴾ [البقرة:٢٣١]

في الآية ما يُقطع به على صحة قول من قال: لا نكاح إلا بولي؛ لإجماع المفسرين أن الخطاب للأولياء، لو صح نكاح بدون ولي لم يتصور عضل، ولم يكن لنهي الله عن العضل معنى[٦].

﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ [البقرة:٢٣٣]

إضافة الولد إليها تارة، وإليه أخرى استعطاف لهما عليه، وتنبيه على أنه

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٣٣٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٦٢١).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١٩٢).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٢٣).
(٥) جامع البيان، للإيجي (١/ ١٦٣).
(٦) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٣٤٠). تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٦٣١).

حقيق بأن يتفقا على استصلاحه والإشفاق، فلا ينبغي أن يضرا به، أو أن يتضارا بسببه[١].

❁ التشاور: استخراج الرأي.. وذكره ليكون التراضي عن تفكّر، فلا يضر الرضيع، فسبحان الذي أدب الكبير ولم يهمل الصغير، واعتبر اتفاقهما؛ لأن للأب النسبة والولاية، وللأم الشفقة والعناية[٢].

❁ المراد بقوله: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ﴾: الوالد، وإنما ذكره بهذا اللفظ إعلامًا بأنّ الولد ينسب له لا للأم[٣].

❁ ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ﴾ عبر عنه بهذه العبارة؛ إشارة إلى جهة وجوب المؤن عليه[٤].

❁ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ نفي الجناح مقيد بالتسليم، لا لأنه شرط جواز الاسترضاع، بل إرشاد إلى أن الأكثر ثوابًا أن يكون الاسترضاع مقرونا بتسليم ما يعطي المرضع، فشبه ما هو من شرائط الأولوية بما هو من شرائط الصحة، فاستعيرت له العبارة مبالغة[٥].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ [البقرة:٢٣٥]

❁ أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد في مدة العدة[٦].

❁ فيه دلالة على منع وسائل المحرم[٧].

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٤٤).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ١٩٥).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٢٥).
(٤) جامع البيان، للإيجي (١/ ١٦٧).
(٥) جامع البيان، للإيجي (١/ ١٦٨).
(٦) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٦٤٠).
(٧) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٠٥).

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة:٢٣٧]

لما ذكر الله تعالى عفو المرأة عن النصف الواجب، ذكر عفو الزوج عن النصف الساقط، فيستحسن لها أن تعفو ولا تطالبه بشيء، وللرجل أن يعفو ويوفي لها المهر كاملا.. طَلَّقَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ امْرَأَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا، فَأَعْطَاهَا الصَّدَاقَ كَامِلًا، وَقَالَ: أَنَا أَحَقُّ بِالْعَفْوِ مِنْهَا[١].

﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ هذا حث من الله تعالى للزوج والمرأة على الفضل والإحسان، وأمر لهما جميعا أن يستبقا إلى العفو[٢].

﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة:٢٣٨]

لعل الأمر بالصلاة في تضاعيف أحكام الأولاد والأزواج؛ لئلا يلهيهم الاشتغال بشأنهم عنها[٣]؛ لأنها كثيرا ما تشغل المرء عن الصلاة[٤].

﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ ذكرها بين الآيات: إشعارا بألا تلهيكم الأزواج والأولاد عن ذكر الله[٥].

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة:٢٤٣]

﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ أي: فأماتهم الله، وإنما جيء به على هذه العبارة، للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيئته، وتلك ميتة خارجة عن العادة، وفيه

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٣٤٩).

(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٣٤٩).

(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٤٧).

(٤) وجه النهار، للحربي (ص٣٩).

(٥) جامع البيان، للإيجي (١/ ١٧٢).

تشجيع للمسلمين على الجهاد، وأن الموت إذا لم يكن منه بد، ولم ينفع منه مفر، فأولى أن يكون في سبيل الله[١].

ﭓ في هذه القصة عبرة ودليل على أنه لن يغني حذر من قدر وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه[٢].

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة:٢٤٥]

ﭓ شبّه الله تعالى عمل المؤمنين لله على ما يرجون من ثوابه بالقرض، لأنهم إنما يعطون ما ينفقون ابتغاء ما وعدهم الله من جزيل الثواب[٣]، فذكر لفظ «القرض» تقريبًا للأفهام؛ لأن المنفق ينتظر الثواب كما ينتظر المسلف ردّ ما أسلف[٤].

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة:٢٤٨]

ﭓ ﴿مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ أي: مما تركه موسى وهارون، و(الآل) مقحم لتفخيم شأنهما[٥].

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [البقرة:٢٥٠]

ﭓ فيه ترتيب بليغ؛ إذ سألوا أولًا إفراغ الصبر في قلوبهم؛ الذي هو ملاك الأمر، ثم ثبات القدم في مداحض الحرب؛ المسبب عنه، ثم النصر على العدو؛ المترتب عليهما غالبًا[٦].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢٠٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٦٦١).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٣٥٥).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٢٩).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢٠٥).
(٦) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٥٢).



الجُزْءُ الثَّالِثُ

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة:٢٥٣]

نص في التفضيل في الجملة من غير تعيين مفضول: كقوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**لا تخيروا بين الأنبياء**»[(١)]؛ فإنّ معناه النهي عن تعيين المفضول؛ لأنه تنقيص له، وذلك غيبة ممنوعة، وقد صرح صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بفضله على جميع الأنبياء بقوله «**أنا سيد ولد آدم**»[(٢)] لا بفضله على واحد بعينه[(٣)].

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ هو محمد ﷺ؛ فإنه خصه بالدعوة العامة والحجج المتكاثرة، والمعجزات المستمرة، والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهر، والفضائل العلمية والعملية الفائتة للحصر، والإبهام لتفخيم شأنه، كأنه العلم المتعين لهذا الوصف المستغني عن التعيين[(٤)].

خص عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالتعيين لإفراط اليهود والنصارى في تحقيره وتعظيمه، وجعل معجزاته سبب تفضيله؛ لأنها آيات واضحة ومعجزات عظيمة لم يستجمعها غيره[(٥)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة:٢٥٤]

يحمل ما ورد من نفي الشفاعة في القرآن..أن لا تقع إلّا بإذن الله، فلا تعارض بينه وبين إثباتها، وحيث ما كان سياق الكلام في أهوال يوم القيامة والتخويف بها نفيت

(١) رواه البخاري، باب ما يذكر في الإشخاص والخصومة بين المسلم واليهود، برقم: (٢٤١٢)، ومسلم، باب من فضائل موسى ﷺ، برقم: (٢٣٧٤).
(٢) رواه مسلم، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، برقم: (٢٢٧٨).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٣٠).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٥٣).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٥٢).

الشفاعة على الإطلاق، مبالغة في التهويل، وحيث ما كان سياق الكلام تعظيم الله نفيت الشفاعة إلّا بإذنه[١].

﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾ مبتدأ محصور في خبره أي: ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ كافرا، وعن عطاء بن دينار قال: الحمد لله الذي قال: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾ ولم يقل: والظالمون هم الكافرون[٢].

قيل: وضع الكافرون موضع التاركين للزكاة تغليظًا[٣].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥]

نفي إله سواه توكيد وتحقيق لإلهيته؛ لأن قولك: لا كريم إلا زيد، أبلغ من قولك: زيد كريم[٤].

إنما ترتبت الجمل في آية الكرسي بلا حرف عطف؛ لأنها وردت على سبيل البيان، **فالأولى**: بيان لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمنًا عليه غير ساهٍ عنه، **والثانية**: لكونه مالكًا لما يدبره، **والثالثة**: لكبرياء شأنه، **والرابعة**: لإحاطته بأحوال الخلق، **والخامسة**: لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها أو لجلاله وعظم قدره، وإنما فضلت هذه الآية حتى ورد في فضلها ما ورد..؛ لاشتمالهما على توحيد الله تعالى وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى، ولا مذكور أعظم من رب العزة، فما كان ذكرا له كان أفضل من سائر الأذكار، وبه يعلم أن أشرف العلوم علم التوحيد[٥].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٣١).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٦٧١).
(٣) جامع البيان، للإيجي (١/ ١٨٦).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٣٦٦).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢١٠).

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة:٢٥٧]

وحد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات؛ لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة[1].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة:٢٥٨]

إن قيل: لِم انتقل إبراهيم عن دليله الأوّل إلى هذا الدليل الثاني، والانتقال علامة الانقطاع؟ فالجواب: أنه لم ينقطع، ولكنه لما ذكر الدليل الأوّل، وهو الإحياء والإماتة كان له حقيقة، وهو فعل الله، ومجازًا وهو فعل غيره، فتعلق (نمروذ) بالمجاز غلطًا منه أو مغالطة، فحينئذ انتقل إبراهيم إلى الدليل الثاني؛ لأنه لا مجاز له، ولا يمكن الكافر عدول عنه أصلًا[2].

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة:٢٥٩]

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ تخصيصه بحرف التشبيه؛ لأن المنكِر للإحياء كثير، والجاهل بكيفيته أكثر من أن يحصى، بخلاف مدعي الربوبية[3].

﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بناء على الظن، وفيه دليل جواز الاجتهاد[4].

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٦٨٥).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٣٢).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٥٦).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢١٤).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة:٢٦٠]

✍ كفى لك شاهدًا على فضل إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَيُمْنُ الضراعة في الدعاء، وحسن الأدب في السؤال: أنه تعالى أراه ما أراد أن يريه في الحال على أيسر الوجوه، وأراه عُزيرًا بعد أن أماته مائة عام[١].

✍ إنما خص الطير؛ لأنه أقرب إلى الإنسان، وأجمع لخواص الحيوان[٢].

✍ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ﴾ عن محمد بن المنكدر، أنه قال: التقى عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو ابن العاص، فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: أي آية في القرآن أرجى عندك؟ فقال عبد الله بن عمرو: قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ الآية [الزمر:٥٣]، فقال ابن عباس: لكن أنا أقول: قول الله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ﴾؛ فرضي من إبراهيم قوله: ﴿بَلَىٰ﴾، قال: فهذا لما يعترض في النفوس ويوسوس به الشيطان[٣].

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة:٢٦٢]

✍ لعله لم يدخل الفاء فيه وقد تضمن ما أسند إليه معنى الشرط، إيهامًا بأنهم أهل لذلك، وإن لم يفعلوا، فكيف بهم إذا فعلوا؟![٤]

✍ معنى ﴿ثُمَّ﴾ إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى، وأن تركهما خير من نفس الإنفاق، كما جعل الاستقامة على الإيمان خيرًا من الدخول فيه بقوله: ﴿ثُمَّ

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٥٧).

(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٥٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٦٩٠).

(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٥٨).

﴿اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت:٣٠].. وإنما قال هنا: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾، وفيما بعد: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾؛ لأن الموصول هنا لم يضمن معنى الشرط، وضمنه ثمة[(١)].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)﴾ [البقرة:٢٦٤]

❁ فيه تعريض بأن الرئاء والمن والأذى على الإنفاق من صفات الكفار، ولا بد للمؤمن أن يتجنب عنها[(٢)].

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)﴾ [البقرة:٢٦٦]

❁ النخيل والأعناب لما كانا أكرم الشجر وأكثرها منافع، خصهما بالذكر[(٣)].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)﴾ [البقرة:٢٦٧]

❁ في هذا بيان أن الفقراء شركاء رب المال في ماله، فإذا كان ماله جيدا فهم شركاؤه في الجيد، والشريك لا يأخذ الرديء من الجيد إلا بالتساهل[(٤)].

❁ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ فيه دليل وجوب الزكاة في أموال التجارة[(٥)].

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧٠)﴾ [البقرة:٢٧٠]

❁ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ أي: يجازي به، فدل بذكر العلم على تحقيق

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢١٧).

(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٥٨)، جامع البيان، للإيجي (١/ ١٩٦).

(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢١٩).

(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٣٨٢).

(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢٢٠).

الجزاء[١].

﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة:٢٧١]

في قوله: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فائدة لطيفة: وهو أن إخفاءها خير من إظهارها إذا أعطيت للفقير، فأما إذا صرفت في مشروع خيري، لم يكن في الآية ما يدل على فضيلة إخفائها، بل هنا قواعد الشرع تدل على مراعاة المصلحة، فربما كان الإظهار خيرا لحصول الأسوة والاقتداء، وتنشيط النفوس على أعمال الخير[٢].

وقوله: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ في هذا: أن الصدقات يجتمع فيها الأمران: حصول الخير، وهو: كثرة الحسنات والثواب والأجر، ودفع الشر والبلاء الدنيوي والأخروي، بتكفير السيئات[٣].

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ [البقرة:٢٧٣]

﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ﴾ فيه تنبيه للإحساس ليشعر بالآخرين[٤].

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة:٢٧٥]

لم يقل: إنما الربا مثل البيع، مع أن الكلام في الربا لا في البيع؛ لأنه جيء به على

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٣٨٣).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٥٨).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٥٨).
(٤) وجه النهار، للحربي (ص٤٤).

طريقة المبالغة، وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم في حل الربا أنهم جعلوه أصلًا وقانونًا في الحل حتى شبهوا به البيع[(١)].

﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ دلالة على أن القياس يهدمه النص؛ لأنه جعل الدليل على بطلان قياسهم إحلال الله وتحريمه[(٢)].

﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦﴾ [البقرة:٢٧٦]

﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ يذهب، وهي أقوى كلمة تدل على المحو؛ لأن المحق إذهاب بأصل الشيء بسرعة[(٣)].

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦﴾ أي: لا يحب كفور القلب أثيم القول والفعل، ولا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفي بما شرع له من التكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل[(٤)].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧﴾ [البقرة:٢٧٧]

عطفهما على ما يعمهما لإنافتهما على سائر الأعمال الصالحة[(٥)].

أدخل هذه الآية بين آيات الربا، وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الآية؛ لبيان أن أكبر الأسباب لاجتناب ما حرم الله من المكاسب الربوية: تكميل الإيمان وحقوقه، خصوصا إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وإن الزكاة إحسان إلى الخلق، ينافي تعاطي الربا،

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٦٢)، مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢٢٤)، التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٣٧).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢٢٤).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص٤٥).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٧١٥).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٦٢).

الذي هو ظلم لهم، وإساءة عليهم[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩]

لم يقل: بحرب الله ورسوله؛ لأن هذا أبلغ؛ لأن المعنى: فأذنوا بنوع من الحرب عظيم من عند الله ورسوله[٢].

﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ ..﴾ استدل به على أن الترك فعل[٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة:٢٨٢]

﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ من رجال المسلمين، وهو دليل اشتراط إسلام الشهود، وإليه ذهب عامة العلماء[٤].

﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود[٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٥٩).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢٢٦).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص٤٥).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٦٤).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٧٢٤).

﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ قيل: معناه: إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة.. ومن ههنا استفيد أن تحمل الشهادة فرض كفاية، وقيل -وهو مذهب الجمهور-: المراد بقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ للأداء، لحقيقة قوله: ﴿ٱلشُّهَدَآءُ﴾ والشاهد حقيقة فيمن تحمل، فإذا دعي لأدائها فعليه الإجابة إذا تعينت، وإلا فهو فرض كفاية، والله أعلم[1].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ كرر لفظه (الله) في الجمل الثلاث؛ لاستقلالها، فإن الأولى حث على التقوى، والثانية وعد بإنعامه، والثالثة تعظيم لشأنه. ولأنه أدخل في التعظيم من الكناية[2].

احتوت هذه الآيات، على إرشاد الباري عباده في معاملاتهم إلى حفظ حقوقهم بالطرق النافعة والإصلاحات التي لا يقترح العقلاء أعلى ولا أكمل منها، **فإن فيها فوائد كثيرة:**

منها: جواز المعاملات في الديون..؛ لأن الله أخبر به عن المؤمنين، وما أخبر به عن المؤمنين، فإنه من مقتضيات الإيمان، وقد أقرهم عليه الملك الديان[3].

ومنها: وجوب تسمية الأجل في جميع المداينات، وحلول الإجارات.

ومنها: أنه إذا كان الأجل مجهولا، فإنه لا يحل؛ لأنه غرر وخطر، فيدخل في الميسر.

ومنها: أمره تعالى بكتابة الديون، وهذا الأمر قد يجب، إذا وجب حفظ الحق، كالذي للعبد عليه ولاية، كأموال اليتامى، والأوقاف، والوكلاء، والأمناء، وقد يقارب الوجوب، كما إذا كان الحق متمحضا للعبد، فقد يقوى الوجوب وقد يقوى الاستحباب، بحسب الأحوال المقتضية لذلك.

ومنها: أمره تعالى للكاتب أن يكتب بين المتعاملين بالعدل، فلا يميل مع أحدهما لقرابة ولا غيرها، ولا على أحدهما لعداوة ونحوها.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٧٢٥).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٦٤).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٥٩).

۞ **ومنها:** أن الكتابة بين المتعاملين من أفضل الأعمال، ومن الإحسان إليهما، وفيها حفظ حقوقهما، وبراءة ذممهما كما أمره الله بذلك، فليحتسب الكاتب بين الناس هذه الأمور، ليحظى بثوابها.

۞ **ومنها:** أن الكاتب لا بد أن يكون عارفا بالعدل، معروفا بالعدل؛ لأنه إذا لم يكن عارفا بالعدل لم يتمكن منه، وإذا لم يكن معتبرا عدلا عند الناس رضيا، لم تكن كتابته معتبرة، ولا حاصلا بها المقصود، الذي هو حفظ الحقوق.

۞ **ومنها:** أن من تمام الكتابة والعدل فيها، أن يحسن الكاتب الإنشاء، والألفاظ المعتبرة في كل معاملة بحسبها، وللعرف في هذا المقام اعتبار عظيم[1].

۞ **ومنها:** أن الكتابة من نعم الله على العباد التي لا تستقيم أمورهم الدينية ولا الدنيوية إلا بها، وأن من علمه الله الكتابة، فقد تفضل عليه بفضل عظيم، فمن تمام شكره لنعمة الله تعالى، أن يقضي بكتابته حاجات العباد، ولا يمتنع من الكتابة، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾.

۞ **ومنها:** أن الذي يكتبه الكاتب، هو اعتراف من عليه الحق، إذا كان يحسن التعبير عن الحق الذي عليه، فإن كان لا يحسن ذلك- لصغره، أو سفهه، أو جنونه، أو خرسه، أو عدم استطاعته- أملى عنه وليه، وقام وليه في ذلك مقامه.

۞ **ومنها:** أن الاعتراف من أعظم الطرق، التي تثبت بها الحقوق، حيث أمر الله تعالى أن يكتب الكاتب ما أملى عليه من عليه الحق.

۞ **ومنها:** ثبوت الولاية على القاصرين، من الصغار والمجانين، والسفهاء ونحوهم.

۞ **ومنها:** أن الولي يقوم مقام موليه، في جميع اعترافاته المتعلقة بحقوقه.

۞ **ومنها:** أن من أمنته في معاملة، وفوضته فيها، فقوله في ذلك مقبول، وهو نائب منابك؛ لأنه إذا كان الولي على القاصرين ينوب منابهم، فالذي وليته باختيارك وفوضت إليه الأمر، أولى بالقبول، واعتبار قوله وتقديمه على قولك عند الاختلاف.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٦٠).

ومنها: أنه يجب على الذي عليه الحق - إذا أملى على الكاتب - أن يتقي الله، ولا يبخس الحق الذي عليه، فلا ينقصه في قدره، ولا في وصفه، ولا في شرط من شروطه، أو قيد من قيوده، بل عليه أن يعترف بكل ما عليه من متعلقات الحق، كما يجب ذلك إذا كان الحق على غيره له، فمن لم يفعل ذلك، فهو من المطففين الباخسين.

ومنها: وجوب الاعتراف بالحقوق الجلية والحقوق الخفية، وأن ذلك من أعظم خصال التقوى، كما أن ترك الاعتراف بها من نواقض التقوى ونواقصها.

ومنها: الإرشاد إلى الإشهاد في البيع، فإن كانت في المداينات، فحكمها حكم الكتابة كما تقدم؛ لأن الكتابة هي كتابة الشهادة، وإن كان البيع بيعا حاضرا، فينبغي الإشهاد فيه، ولا حرج فيه بترك الكتابة، لكثرته وحصول المشقة فيه.

ومنها: الإرشاد إلى إشهاد رجلين عدلين، فإن لم يمكن، أو تعذر، أو تعسر، فرجل وامرأتان، وذلك شامل لجميع المعاملات، بيوع الإدارة، وبيوع الديون، وتوابعها من الشروط والوثائق وغيرها.

ومنها: أن شهادة المرأتين قائمة مقام الرجل الواحد، في الحقوق الدنيوية، وأما في الأمور الدينية - كالرواية والفتوى - فإن المرأة فيه، تقوم مقام الرجل، والفرق ظاهر بين البابين.

ومنها: الإرشاد إلى الحكمة في كون شهادة المرأتين عن شهادة الرجل، وأنه لضعف ذاكرة المرأة غالبا، وقوة حافظة الرجل.

ومنها: أن الشاهد لو نسي شهادته، فذكَّره الشاهد الآخر، فذكر أنه لا يضر ذلك النسيان، إذا زال بالتذكير؛ لقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ ومن باب أولى: إذا نسي الشاهد، ثم ذكر من دون تذكير؛ فإن الشهادة مدارها على العلم واليقين.

ومنها: أن الشهادة لا بد أن تكون عن علم ويقين، لا عن شك، فمتى صار عند الشاهد ريب في شهادته - ولو غلب على ظنه - لم يحل له أن يشهد إلا بما يعلم.

ومنها: أن الشاهد ليس له أن يمتنع، إذا دعي للشهادة سواء دعي للتحمل أو

للأداء، وأن القيام بالشهادة من أفضل الأعمال الصالحة، كما أمر الله بها، وأخبر عن نفعها ومصالحها.

ومنها: أنه لا يحل الإضرار بالكاتب، ولا بالشهيد، بأن يدعيا في وقت أو حالة تضرهما.

وكما أنه نهي لأهل الحقوق والمتعاملين، وأن يضار الشهود والكتاب، فإنه أيضا نهي للكاتب والشهيد، أن يضار المتعاملين أو أحدهما، وفي هذا أيضا: أن الشاهد والكاتب إذا حصل عليهما ضرر في الكتابة والشهادة أنه يسقط عنهما الوجوب[1].

وفيها: التنبيه على أن جميع المحسنين الفاعلين للمعروف، لا يحل إضرارهم، وتحميلهم ما لا يطيقون، فـ ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن:٦٠]؟

وكذلك على من أحسن وفعل معروفا، أن يتمم إحسانه بترك الإضرار القولي والفعلي بمن أوقع به المعروف، فإن الإحسان لا يتم إلا بذلك.

ومنها: أنه لا يجوز أخذ الأجرة على الكتابة والشهادة، حيث وجبت؛ لأنه حق أوجبه الله على الكاتب والشهيد؛ ولأنه من مضارة المتعاملين.

ومنها: التنبيه على المصالح والفوائد المترتبة على العمل بهذه الإرشادات الجليلة، وأن فيها حفظ الحقوق والعدل، وقطع التنازع والسلامة من النسيان والذهول، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ وهذه مصالح ضرورية للعباد.

ومنها: أن تعلم الكتابة من الأمور الدينية؛ لأنها وسيلة إلى حفظ الدين والدنيا وسبب للإحسان[2].

ومنها: أن من خصه الله بنعمة من النعم، يحتاج الناس إليها، فمن تمام شكر هذه النعمة، أن يعود بها على عباد الله، وأن يقضي بها حاجتهم، لتعليل الله النهي عن الامتناع عن الكتابة، بتذكير الكاتب بقوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ ومع هذا: فمن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته.

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٦٠).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٦٠).

ومنها: أن الإضرار بالشهود والكتاب، فسوق بالإنسان، فإن الفسوق هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته، وهو يزيد وينقص، ويتبعض، ولهذا لم يقل: «فأنتم فساق» أو «فاسقون»، بل قال: ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْ﴾ فبقدر خروج العبد عن طاعة ربه، فإنه يحصل به من الفسوق، بحسب ذلك[1].

واستدل بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أن تقوى الله وسيلة إلى حصول العلم، وأوضح من هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩] أي: علما تفرقون به بين الحقائق، والحق والباطل[2].

ومنها: أنه كما أنه من العلم النافع، تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات، فمنه أيضا: تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات؛ فإن الله تعالى حفظ على العباد أمور دينهم ودنياهم، وكتابه العظيم فيه تبيان كل شيء.

ومنها: مشروعية الوثيقة بالحقوق، وهي الرهون والضمانات، التي تكفل للعبد حصوله حقه، سواء عامل برا أو فاجرا، أمينا أو خائنا، فكم في الوثائق من حفظ حقوق، وانقطاع منازعات[3].

ومنها: أن تمام الوثيقة في الرهن، أن يكون مقبوضا، ولا يدل ذلك على أنه لا يصح الرهن إلا بالقبض، بل التقييد بكون الرهن مقبوضا، يدل على أنه قد يكون مقبوضا، تحصل به الثقة التامة، وقد لا يكون مقبوضا، فيكون ناقصا[4].

﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ [البقرة:٢٨٣]

استدل بقوله: ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٦٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٦١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٦١).

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٧٢٧).

قال المفسرون: ذكر الله تعالى على كتمان الشهادة نوعا من الوعيد لم يذكره في سائر الكبائر، وهو: إثم القلب[١].

إنما أسند إلى القلب وحده، والجملة هي الآثمة لا القلب وحده؛ لأن كتمان الشهادة أن يضمرها في القلب ولا يتكلم بها، فلما كان إثمًا مقترفًا مكتسبًا بالقلب أسند إليه؛ لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ، كما تقول: هذا مما أبصرته عيني ومما سمعته أذني ومما عرفه قلبي؛ ولأن القلب رئيس الأعضاء والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله، فكأنه قيل: فقد تمكن الإثم في أصل نفسه، وملك أشرف مكان منه؛ ولأن أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح[٢].

يستدل بقوله: ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ أنه إذا اختلف الراهن والمرتهن في مقدار الدين الذي به الرهن، أن القول قول المرتهن، صاحب الحق؛ لأن الله جعل الرهن وثيقة به، فلولا أنه يقبل قوله في ذلك، لم تحصل به الوثيقة، لعدم الكتابة والشهود[٣].

ومنها: أنه يجوز التعامل بغير وثيقة، ولا شهود، لقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾، ولكن في هذه الحال يحتاج إلى التقوى والخوف من الله، وإلا فصاحب الحق مخاطر في حقه، ولهذا أمر الله في هذه الحال من عليه الحق أن يتقي الله ويؤدي أمانته.

ومنها: أن من ائتمنه معامله، فقد عمل معه معروفا عظيما، ورضي بدينه وأمانته، فيتأكد على من عليه الحق، أداء الأمانة من الجهتين: أداء لحق الله، وامتثالا لأمره، ووفاء بحق صاحبه، الذي رضي بأمانته، ووثق به.

ومنها: تحريم كتم الشهادة، وأن كاتمها قد أثم قلبه، الذي هو ملك الأعضاء، وذلك لأن كتمها -كالشهادة بالباطل والزور- فيها ضياع الحقوق، وفساد المعاملات، والإثم المتكرر في حقه، وحق من عليه الحق.

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ١٦٥).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢٣١).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٦١).

۞ وأما تقييد الرهن بالسفر- مع أنه يجوز حضرا وسفرا- فللحاجة إليه لعدم الكاتب والشهيد.

۞ وختم الآية بأنه ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل ما يعمله العباد، كالترغيب لهم في المعاملات الحسنة، والترهيب من المعاملات السيئة[١].

﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)﴾ [البقرة:٢٨٤]

۞ نسخت بآية: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، فإن قيل: إنّ الآية -الأولى- خبر (والأخبار لا يدخلها النسخ)، **فالجواب**: أنّ النسخ إنما وقع في المؤاخذة والمحاسبة، وذلك حكم يصح دخول النسخ فيه، فلفظ الآية خبر، ومعناها حكم[٢].

۞ أخبر أنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)﴾ فمن تمام قدرته، محاسبة الخلائق، وإيصال ما يستحقونه من الثواب والعقاب[٣].

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)﴾ [البقرة:٢٨٥]

۞ **الزجاج**: لما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في هذه السورة فرض الصلاة والزكاة والطلاق والإيلاء والجهاد، ختم السورة بذكر تصديق نبيه ﷺ والمؤمنين بجميع ذلك[٤].

۞ في قرْن المؤمنين بالرسول ﷺ، والإخبار عنهم جميعا بخبر واحد، شرف عظيم للمؤمنين[٥].

۞ وفيه: أنه ﷺ مشارك للأمة في توجه الخطاب الشرعي له، وقيامه التام به، وأنه فاق المؤمنين، بل فاق جميع المرسلين في القيام بالإيمان وحقوقه[٦].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٦١).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٤١).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٦١).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٤٠٩).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٦١).
(٦) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٦١).

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة:٢٨٦]

تخصيص الكسب بالخير والاكتساب بالشر؛ لأن الاكتساب فيه احتمال، والشر تشتهيه النفس وتنجذب إليه، فكانت أجدَّ في تحصيله وأعمل، بخلاف الخير[١].

جاءت العبارة بـ ﴿لَهَا﴾ في الحسنات؛ لأنها مما ينتفع العبد به، وجاءت بـ ﴿عَلَيْهَا﴾ [البقرة:١٤٢] في السيئات؛ لأنها مما يضر العبد[٢].

هذه الآية لا تنافي الأحاديث الواردة في العفو، عما حدث به العبد نفسه، ما لم يعمل أو يتكلم، فتلك الخطرات التي تتحدث بها النفوس، التي لا يتصف بها العبد ولا يصمم عليها، وأما هنا فهي العزائم المصممة، والأوصاف الثابتة في النفوس، أوصاف الخير، وأوصاف الشر، ولهذا قال: ﴿مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: استقر فيها وثبت، من العزائم والأوصاف[٣].

ثبت عنه ﷺ أن من قرأ هاتين الآيتين في ليلته كفتاه[٤]، أي: من جميع الشرور، وذلك لما احتوتا عليه من المعاني الجليلة، فإن الله أمر في أول هذه السورة الناس بالإيمان، بجميع أصوله في قوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية[٥].

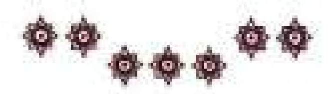
ويؤخذ من هنا: قاعدة التيسير، ونفي الحرج في أمور الدين كلها.

وقاعدة العفو عن النسيان والخطأ، في العبادات، وفي حقوق الله تعالى، وكذلك

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ١٦٦)، التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٤٢)، جامع البيان، للإيجي (١/ ٢١٤).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٤٢).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٦١).
(٤) رواه البخاري، باب فضل سورة البقرة، برقم: (٥٠٠٩)، ومسلم، باب فضل الفاتحة، وخواتيم سورة البقرة، والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة، برقم: (٨٠٧).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٦١).

في حقوق الخلق من جهة رفع المأثم، وتوجه الذم، وأما وجوب ضمان المتلفات، خطأ أو نسيانا، في النفوس والأموال، فإنه مرتب على الإتلاف بغير حق، وذلك شامل لحالة الخطأ والنسيان، والعمد[1].



(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٦١).



سورة آل عمران

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣﴾ [آل عمران:٣]

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني القرآن، وإنما قال: ﴿نَزَّلَ﴾، ثم قال: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾؛ لأن التنزيل للتكثير، والقرآن نزل نجوما شيئا بعد شيء، والتوراة والإنجيل نزلا دفعة واحدة[١].

﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝١٥﴾ [آل عمران:١٥]

نبه بهذه الآية على نعمه، فأدناها متاع الحياة الدنيا وأعلاها رضوان الله تعالى لقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢] وأوسطها الجنة ونعيمها[٢].

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ۝١٧﴾ [آل عمران:١٧]

قال الزجاج: وصف الله هؤلاء بما وصف، ثم بيّن أنهم مع ذلك لشدة خوفهم يستغفرون بالأسحار[٣].

في الآية حصر لمقامات السالك على أحسن ترتيب؛ فإن معاملته مع الله تعالى: إما توسل وإما طلب، والتوسل: إما بالنفس؛ وهو منعها عن الرذائل وحبسها على الفضائل، والصبر يشملهما، وإما بالبدن؛ وهو إما قولي، وهو الصدق، وإما فعلي، وهو القنوت الذي هو ملازمة الطاعة، وإما بالمال، وهو الإنفاق في سبل الخير، وأما

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٤١٢).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٨).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٤٢٠).

الطلب: فبالاستغفار؛ لأن المغفرة أعظم المطالب، بل الجامع لها، وتوسيط الواو بينهما للدلالة على استقلال كل واحد منها، وكمالهم فيها، أو لتغاير الموصوفين بها، وتخصيص الأسحار؛ لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة[١]، فدل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار، وقد قيل: إن يعقوب، عَلَيْهِ السَّلَامُ، لما قال لبنيه: ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾ [يوسف:٩٨] أنه أخرهم إلى وقت السحر[٢].

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ [آل عمران:١٨]

- دليل على فضل علم أصول الدين وشرف أهله[٣]، وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام[٤].

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران:٢٦]

- في هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة؛ لأن الله حول النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي المكي الأمي خاتم الأنبياء على الإطلاق[٥].

- اكتفى بالخير؛ لأنه المرغب فيه، أو لأن الكلام في الملك والنبوة وهما خير، أو لأن الخير مقضي بالذات؛ إذ ما من شر إلا وفيه أنواع الخير، أو لمراعاة الأدب في الخطاب[٦].

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨﴾ [آل عمران:٢٨]

- تهديد عظيم مشعر بتناهي النهي في القبح، وذكر النفس ليعلم أن المحذر منه

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٢٣).

(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٩).

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٢٤).

(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٢٩).

(٦) جامع البيان، للإيجي (١/ ٢٣١).

عقاب يصدر منه تعالى، فلا يؤبه دونه بما يحذر من الكفرة[1].

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٣٠﴾ [آل عمران: ٣٠]

قال الحسن: من رأفته بهم أن حذرهم نفسه ولم يهلكهم من غير تحذير[2].

﴿رَءُوفٌ﴾ ذكر بعد التحذير تأنيسًا؛ لئلا يفرط في الخوف، أو لأن التحذير والتنبيه رأفة[3].

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١﴾ [آل عمران: ٣١]

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله[4].

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٢﴾ [آل عمران: ٣٢]

إنما لم يقل: لا يحبهم؛ لقصد العموم، والدلالة على أن التولي كفر، وأنه من هذه الحيثية ينفي محبة الله، وأن محبته مخصوصة بالمؤمنين[5].

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣﴾ [آل عمران: ٣٣]

إنما خص هؤلاء بالذكر؛ لأن الأنبياء بأسرهم من نسلهم[6].

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٣٦﴾ [آل عمران: ٣٦]

﴿سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾؛ لأن مريم في لغتهم بمعنى: العابدة، فأرادت بذلك التقرب إلى

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٢).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٤٢٨).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٤٩).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٣٢).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٥).
(٦) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٤٣٠).

الله، ويؤخذ من هذا جواز تسمية المولود يوم ولادته[(١)].

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ قيل: معنى المريم في لغتهم: العابدة، فأشار بقولها: «إني سميتها مريم» إلى أنها تفاءلت باسمها حتى يكون فعلها مطابقا لاسمها[(٢)].

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ [آل عمران:٣٧]

﴿الْمِحْرَابَ﴾ سمي به؛ لأنه محل محاربة الشيطان، ونوازع الدنيا[(٣)] كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس[(٤)].

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩)﴾ [آل عمران:٣٩]

فيه دليل على أن المُرادات تطلب بالصلوات، وفيها إجابة الدعوات وقضاء الحاجات، وقال ابن عطاء: ما فتح الله تعالى على عبد حالة سَنِيّة إلا باتباع الأوامر وإخلاص الطاعات ولزوم المحاريب[(٥)].

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١)﴾ [آل عمران:٤١]

استدل به على أن الإشارة ليست كلامًا، وأن من حلف ألا يكلم أحدًا فأشار إليه لا يكون حانثًا[(٦)].

---

(١) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٥٠)، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٣٣).
(٢) جامع البيان، للإيجي (١/ ٢٣٩).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٣)، وجه النهار، للحربي (ص٥١).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٣).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢٥٣).
(٦) وجه النهار، للحربي (ص٥٢).

﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾ [آل عمران:٤٣]

لم يقل: مع الراكعات؛ لأن الراكعين أعم، لوقوعه على الرجال والنساء إذا اجتمعوا[١].

﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٤٥﴾ [آل عمران:٤٥]

إنما قيل: ابن مريم والخطاب لها، تنبيهًا على أنه يولد من غير أب[٢].

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٤٦﴾ [آل عمران:٤٦]

فيه إعلام بعيشه إلى أن يبلغ سن الكهولة[٣].

﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٧﴾ [آل عمران:٤٧]

صرح ههنا بقوله: ﴿يَخۡلُقُ﴾ ولم يقل: ﴿يَفۡعَلُ﴾ كما في قصة زكريا، بل نص هاهنا على أنه يخلق؛ لئلا يبقى لمبطل شبهة[٤].

﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٥٠﴾ [آل عمران:٥٠]

إنما وحّد الآية، وكان قد أتاهم بآيات؛ لأنها كلها جنس واحد في الدلالة على الرسالة[٥].

يدل على أن شرعه كان ناسخًا لشرع موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولا يخل ذلك بكونه مصدقًا للتوراة، كما لا يعود نسخ القرآن بعضه ببعض عليه بتناقض وتكاذب، فإن النسخ في الحقيقة بيان وتخصيص في الأزمان[٦].

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٤٣٦).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٧).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٥٣).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٤٤).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٤٤٠).
(٦) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٨).

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران:٦١]

- إنما قدمهم على الأنفس؛ لأن الرجل يخاطر بنفسه لهم ويحارب دونهم[١].

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران:٦٣]

- وضع المظهر موضع المضمر؛ دلالة على أن الإعراض عن التوحيد والحجج: إفساد للدين[٢].

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران:٧٩]

- بسبب كونكم عالمين وبسبب كونكم دارسين للعلم.. وكفى به دليلًا على خيبة سعي من جهد نفسه وكد روحه في جمع العلم، ثم لم يجعله ذريعة إلى العمل، فكان كمن غرس من شجرة حسناء تؤنقه بمظهرها ولا تنفعه بثمرها[٣].

- قال الضحاك في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيها[٤].

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران:٨٤]

- ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ تعدى هنا بـ ﴿عَلَىٰٓ﴾ مناسبة لقوله: ﴿قُلْ﴾، وفي البقرة بـ ﴿إِلَىٰٓ﴾ لقوله: ﴿قُولُوٓا۟﴾ [البقرة:١٣٦]؛ لأن ﴿عَلَىٰٓ﴾ حرف استعلاء يقتضي

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٢٠).
(٢) جامع البيان، للإيجي (١/ ٢٥٦).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢٦٨).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٦٦).

النزول من علو، ونزوله على هذا المعنى مختص بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَإِلَى﴾ حرف غاية وهو موصل إلى جميع الأمة[١].

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران:٩٢]

لا وصول إلى المطلوب إلا بإخراج المحبوب[٢].



الجزء الرابع

﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران:٩٣]

فيه دليل بيّن على صدق النبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعلى جواز النسخ الذي ينكرونه[٣].

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران:٩٥]

فيه تعريض بكذبهم، أي: ثبت أن الله تعالى صادق فيما أنزل، وأنتم الكاذبون[٤].

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران:٩٧]

وضع ﴿كَفَرَ﴾ موضع (من لم يحج)؛ تأكيدًا لوجوبه، وتغليظًا على تاركه.. وقد أكد أمر الحج في هذه الآية من وجوه: الدلالة على وجوبه بصيغة الخبر، وإبرازه في الصورة الاسمية، وإيراده على وجه يفيد أنه حق واجب لله تعالى في رقاب الناس، وتعميم الحكم أولًا ثم تخصيصه ثانيًا؛ فإنه كإيضاح بعد إبهام، وتثنية وتكرير للمراد، وتسمية ترك الحج كفرًا من حيث إنه فعل الكفرة، وذكر الاستغناء، فإنه في هذا الموضع

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٥٨).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢٧٣).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢٧٤).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢٧٥).

مما يدل على المقت والخذلان(١).

ﻟ ﴿مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾ عطف بيان لقوله: ﴿ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ﴾، وصح بيان الجماعة بالواحد؛ لأنه وحده بمنزلة آيات كثيرة، لظهور شأنه، وقوة دلالته على قدرة الله تعالى، ونبوة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، من تأثير قدمه في حجر صلد، أو لاشتماله على آيات؛ لأن أثر القدم في الصخرة الصماء آية، وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخرة دون بعض آية، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية لإبراهيم خاصة، على أن ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ عطف بيان لآيات، وإن كان جملة ابتدائية أو شرطية من حيث المعنى؛ لأنه يدل على أمن داخله، فكأنه قيل: فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن داخله، والاثنان في معنى الجمع، ويجوز أن يذكر هاتان الآيتان ويطوى ذكر غيرهما للدلالة على تكاثر الآيات، كأنه قيل: فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن داخله وكثير سواهما(٢).

ﻟ ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لم يقل: (عنه)، وفيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان؛ لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل، فكان أدل على عظيم السخط الذى وقع عبارة عنه(٣).

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ٩٨ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٩٩﴾ [آل عمران:٩٩]

ﻟ ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ لما كان إنكارهم للقرآن مجاهرة منهم قال: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾، ولكن الصد عن الإسلام والتحريف من أسرارهم قال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ﴾(٤).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ١٠٠﴾ [آل عمران:١٠٠]

ﻟ إنما خاطبهم الله بنفسه بعد ما أمر الرسول بأن يخاطب أهل الكتاب؛ إظهارًا

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٣٠).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢٧٥).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢٧٨).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٣٠)، جامع البيان، للإيجي (١/ ٢٧٦).

لجلالة قدرهم، وإشعارًا بأنهم هم الأحقاء بأن يخاطبهم الله ويكلمهم[١].

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)﴾ [آل عمران:١٠٣]

قال ابن الأنباري: سمي عهد الله: حبلًا؛ لأنه سبب النجاة، كالحبل الذي يتمسك به للنجاة من بئر ونحوها[٢].

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)﴾ [آل عمران:١٠٤]

الآية دليل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، وقوله: ﴿مِنْكُمْ﴾: دليل على أنه فرض كفاية؛ لأن من للتبعيض، وقيل: إنها لبيان الجنس، وأن المعنى: كونوا أمة[٣].

المقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه[٤].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)﴾ [آل عمران:١٠٧]

يعني الجنة والثواب المخلد، عبر عن ذلك بالرحمة، تنبيهًا على أن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى لا يدخل الجنة إلا برحمته وفضله، وكان حق الترتيب أن يقدم ذكرهم، لكن قصد أن يكون مطلع الكلام ومقطعه حلية المؤمنين وثوابهم[٥].

﴿رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ جنته، عبّر عنها بالرحمة، إشارة إلى أنه لا ينالها من ينالها إلا برحمته[٦].

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٣١).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٤٧٤).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٦١).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٩١).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٣٢).
(٦) جامع البيان، للإيجي (١/ ٢٨٠).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩)﴾ [آل عمران:١٠٩]

كثيرا ما يذكر الله أحكامه الثلاثة مجتمعة، يبين لعباده أنه الحاكم المطلق، فله الأحكام القدرية والأحكام الشرعية، والأحكام الجزائية، فهو الحاكم بين عباده في الدنيا والآخرة، ومن سواه من المخلوقات، محكوم عليها ليس لها من الأمر شيء(١).

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)﴾ [آل عمران:١١٠]

قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خير الناس للناس؛ يأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في دين الإسلام(٢).

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يتضمن الإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به؛ لأن الإيمان به إنما يحق ويعتد به إذا حصل الإيمان بكل ما أمر أن يؤمن به، وإنما أخره وحقه أن يقدم؛ لأنه قصد بذكره الدلالة على أنهم أمروا بالمعروف وَنَهَوْا عَنِ المنكر إيمانًا بالله وتصديقًا به وإظهارًا لدينه، واستدل بهذه الآية على إن الاجماع حجة؛ لأنها تقتضي كونهم آمرين بكل معروف وناهين عن كل منكر، إذ اللام فيهما للاستغراق فلو أجمعوا على باطل كان أمرهم على خلاف ذلك(٣).

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١١١)﴾ [آل عمران:١١١]

هذا وعد من الله تعالى لنبيه والمؤمنين بالنصرة على أهل الكتاب وهزيمتهم عند القتال، فلم يقاتل يهود المدينة رسول الله ﷺ والمسلمين إلا ولوا منهزمين(٤).

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ مجرد أذى بالكلام، وفيه إشارة إلى أن الكلام يؤذي، وأن لا يكترث به من جبان(٥).

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٧٢).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٤٧٧).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٣٣).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٤٨٠).
(٥) وجه النهار، للحربي (ص٥٧).

ﭑ ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ ابتداء إخبار معطوف على جملة الشرط والجزاء، وليس بمعطوف على ﴿يُوَلُّوكُمُ﴾؛ إذ لو كان معطوفًا عليه لقيل: ثم لا ينصروا، وإنما استؤنف ليؤذن أن الله لا ينصرهم قاتلوا أو لم يقاتلوا، وتقدير الكلام: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون، و(ثم) للتراخي في المرتبة؛ لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار[1].

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران:١١٤]

ﭑ وصفهم بما ليس في اليهود إلا نقيضه، كإلحاد في صفاته، ووصفهم اليوم الآخر بخلاف صفته، وهم مداهنون في الحق، متباطئون عن الخير[2].

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران:١١٥]

ﭑ بشارة لهم وإشعار بأن التقوى مبدأ الخير وحسن العمل، وأن الفائز عند الله هو أهل التقوى[3].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [آل عمران:١١٦]

ﭑ لن تغني عنهم أموالهم في الصدقات، ولا أولادهم في الشفاعات، بخلاف المؤمن، فإن المؤمن ينفعه ماله في الكفارات والصدقات، وأولاده في الشفاعة[4].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران:١١٨]

ﭑ عن ابن أبي الدهقانة قال: قيل لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن ههنا غلاما

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢٨٣).
(٢) جامع البيان، للإيجي (١/ ٢٨٥).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٣٤).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٤٨٢).

من أهل الحيرة، حافظ كاتب، فلو اتخذته كاتبا؟ فقال: قد اتخذت إذا بطانة من دون المؤمنين؛ ففي هذا الأثر مع هذه الآية دلالة على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين واطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب[1].

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران:١٢٠]

هذا تعليم من الله وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى، وقال الحكماء: إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلًا في نفسك[2].

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران:١٢٣]

إنما قال: ﴿أَذِلَّةٌ﴾ ولم يقل: (ذلائل)؛ تنبيهًا على قلتهم مع ذلتهم، لضعف الحال وقلة المراكب والسلاح[3].

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [آل عمران:١٢٤]

إنما جيء بـ(لن) إشعارًا بأنهم كانوا كالآيسين من النصر، لضعفهم وقلتهم، وقوة العدو، وكثرتهم[4].

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران:١٢٦]

أراد الله أن لا يركن المؤمنون إلى الملائكة، وأعلمهم أنهم وإن حضروا وقاتلوا، فما النصر إلا من عند الله، ليستعينوا به ويتوكلوا عليه[5].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ١٠٧).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢٨٧).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٣٦).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٣٧).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٤٨٩).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ ﴾ [آل عمران: ١٣٠]

✍ كل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ افعلوا كذا، أو اتركوا كذا، يدل على أن الإيمان هو السبب الداعي والموجب لامتثال ذلك الأمر، واجتناب ذلك النهي؛ لأن الإيمان هو التصديق الكامل بما يجب التصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح[١].

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ ﴾ [آل عمران: ١٣١]

✍ كان أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: هي أخوف آية في القرآن، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه، وقد أمد ذلك بما أتبعه من تعليق رجاء المؤمنين لرحمته بتوفرهم على طاعته وطاعة رسوله ﷺ بقوله: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾[٢].

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]

✍ قيل: فيه تنبيه على اتساع طولها، أي: هذا عرضها فكيف طولها؟!، كما قال تعالى: ﴿ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ ﴾ [الرحمن: ٥٤] أي: فما ظنك بالظهائر؟![٣]

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ ﴾ [آل عمران: ١٣٤]

✍ افتتح بذكر الإنفاق؛ لأنه أشق شيء على النفس، وأدلّه على الإخلاص؛ ولأنه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال للحاجة إليه في مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين[٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٤٧).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢٩١).
(٣) ينظر: مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢٩٢)، جامع البيان، للإيجي (١/ ٢٩٣). وجه النهار، للحربي (ص٥٨).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢٩٣).

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران:١٣٥-١٣٦]

﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ﴾ خبر لـ﴿الَّذِينَ﴾ [البقرة:١٦]-إن ابتدأت به-، وجملة مستأنفة مبينة لما قبلها -إن عطفته على ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٨٠]-.. وتنكير ﴿جَنَّاتٍ﴾ [آل عمران:١٩٥] على الأول يدل على أن ما لهم أدون مما للمتقين الموصوفين بتلك الصفات المذكورة في الآية المتقدمة، وكفاك فارقًا بين القبيلين: أنه فصل آيتهم بأن بين أنهم محسنون مستوجبون لمحبة الله؛ وذلك لأنهم حافظوا على حدود الشرع وتخطوا إلى التخصص بمكارمه، وفصل آية هؤلاء بقوله: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾؛ لأن المتدارك لتقصيره كالعامل لتحصيل بعض ما فوت على نفسه، وكم بين المحسن والمتدارك والمحبوب والأجير، ولعل تبديل لفظ الجزاء بالأجر لهذه النكتة[١].

﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ هذه جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه، وفيه تطييب لنفوس العباد وتنشيط للتوبة، وبعث عليها، وردع عن اليأس والقنوط، وبيان لسعة رحمته، وقرب مغفرته من التائب، وإشعار بأن الذنوب وإن جلّت فإن عفوه أجل، وكرمه أعظم[٢].

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران:١٤٠]

في هذا إشارة إلى أنه إنما يديل الكافرين على المؤمنين لما ذكر، لا لأنه يحبهم، وإذا أدال المؤمنين أدالهم نصرة لهم ومحبة منه إياهم[٣].

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ فيها سلوان للعقلاء، وتنبيه للمستيئسين[٤].

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٣٩).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢٩٤).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٤٩٧).
(٤) وجه النهار، للحربي (ص٥٩).

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)﴾ [آل عمران:١٤٤]

❁ في هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه، فقدُ رئيس ولو عظم، وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه، إذا فقد أحدهم قام به غيره، وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله، والجهاد عنه، بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس، فبهذه الحال يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم[1].

❁ وفي هذه الآية أيضا أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر، وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله ﷺ؛ لأنهم هم سادات الشاكرين.[2]

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)﴾ [آل عمران:١٤٥]

❁ فيه تحريض على الجهاد، وتشجيع على لقاء العدو، وإعلام بأن الحذر لا ينفع، وأن أحدًا لا يموت قبل بلوغ أجله، وإن خاض المهالك واقتحم المعارك[3].

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧)﴾ [آل عمران:١٤٧]

❁ قدم الدعاء بالاستغفار من الذنوب على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على الأعداء؛ لأنه أقرب إلى الإجابة، لما فيه من الخضوع والاستكانة[4].

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)﴾ [آل عمران:١٤٨]

❁ ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ خُص بالحسن دلالة على فضله وتقدمه وأنه هو المعتد

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٥٠).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٥٠).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢٩٨).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢٩٩).

به عنده[١].

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٢]

جاءت المخاطبة في هذا لجميع المؤمنين، وإن كان المخالف بعضهم؛ وعظاً للجميع، وستراً على من فعل ذلك[٢].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٥]

الإضافة إلى الشيطان: لطف وتقريب، والتعليل بكسبهم: وعظ وتأديب[٣].

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٧]

لوقوع اسم الله في هذا الموضع مع تقديمه وإدخال اللام على الحرف المتصل به شأن غني عن البرهان[٤].

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٩]

(ما) مزيدة للتوكيد، والدلالة على أن لينه لهم ما كان إلا برحمة من الله[٥].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٢٩٩).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٦٧).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣٠٤).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣٠٥).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣٠٥).

﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ فيه دلالة جواز الاجتهاد، وبيان أن القياس حجة[١].

﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ أي: الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر، فإن في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره: منها: أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله[٢].

ومنها: أن فيها تسميحا لخواطرهم، وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث، فإن من له الأمر على الناس -إذا جمع أهل الرأي والفضل وشاورهم في حادثة من الحوادث- اطمأنت نفوسهم وأحبوه، وعلموا أنه ليس يستبد عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع، فبذلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته، لعلمهم بسعيه في مصالح العموم، بخلاف من ليس كذلك، فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة، ولا يطيعونه وإن أطاعوه فطاعة غير تامة[٣]، قال قتادة: أمر الله تعالى نبيه أن يشاور أصحابه في الأمور، وهو يأتيه وحي السماء؛ لأنه أطيب لأنفس القوم إذا شاور بعضهم بعضا، وقال الضحاك: ما أمر الله نبيه بالمشورة إلا لما يعلم ما فيها من الفضل[٤].

ومنها: أن في الاستشارة تنور الأفكار، بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول.

ومنها: ما تنتجه الاستشارة من الرأي المصيب، فإن المشاور لا يكاد يخطئ في فعله، وإن أخطأ أو لم يتم له مطلوب، فليس بملوم، فإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ وهو أكمل الناس عقلا وأغزرهم علما، وأفضلهم رأيا-: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ فكيف بغيره؟!

الأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟! أليس من أوجب الواجبات،

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣٠٦).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٥٤).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٥٤).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٥١٢).

وأهم المهمات، الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به ﷺ، من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالا لأمر الله، وجذبا لعباد الله لدين الله[١].

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [آل عمران: ١٦١]

لم يقل: ثم يوفى ما كسب -ليتصل بقوله: ﴿يَغْلُلْ﴾- بل جيء بعام، ليدخل تحته كل كاسب من الغال وغيره، فاتصل به من حيث المعنى وهو أبلغ؛ لأنه إذا علم الغال أن كل كاسب خيرًا أو شرًا مجزي، فموفى جزاءه، علم أنه غير متخلص من بينهم مع عظم ما اكتسب[٢].

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾ [آل عمران: ١٦٢]

الفرق بينه وبين المرجع: أن المصير يجب أن يخالف الحالة الأولى ولا كذلك المرجع[٣].

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران: ١٦٧]

استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال، فيكون في حال أقرب إلى الكفر، وفي حال أقرب إلى الإيمان[٤].

يستدل بهذه الآية على قاعدة «ارتكاب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما، وفعل أدنى المصلحتين، للعجز عن أعلاهما»؛ لأن المنافقين أُمروا أن يقاتلوا للدين، فإن لم يفعلوا فللمدافعة عن العيال والأوطان[٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٥٤).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣٠٧).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٤٦).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ١٦٠).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٥٦).

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران:١٦٨]

في هذه الآيات دليل على أن العبد قد يكون فيه خصلة كفر وخصلة إيمان، وقد يكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الأخرى[١].

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧١]

فيها حث على الجهاد، وترغيب في الشهادة، وبعث على ازدياد الطاعة، وإحماد لمن يتمنى لإخوانه مثل ما أنعم عليه، وبشرى للمؤمنين بالفلاح[٢].

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم، سواء الشهداء وغيرهم، وقلما ذكر الله فضلا ذكر به الأنبياء، وثوابا أعطاهم، إلا ذكر ما أعطى الله المؤمنين من بعدهم[٣].

هذه الآيات الكريمات فيها فضل الشهداء وكرامتهم، وما منَّ الله عليهم به من فضله وإحسانه، وفي ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم، وتنشيطهم للقتال في سبيل الله والتعرض للشهادة[٤].

ولفظ: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يقتضي علو درجتهم، وقربهم من ربهم[٥].

وفي هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقي أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضا، وتبشير بعضهم بعضا[٦].

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٥٦).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٤٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ١٦٥).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٥٦).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٥٦).
(٦) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٥٦).

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران:١٨١]

أي: قتل آبائهم للأنبياء، وأسند إليهم؛ لأنهم راضون به، ومتبعون لمن فعله من آبائهم[١].

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران:١٨٧]

في هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويسلك بهم مسلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئا[٢].

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران:١٨٨]

دلت الآية بمفهومها على أن من أحب أن يحمد ويثنى عليه بما فعله من الخير واتباع الحق، إذا لم يكن قصده بذلك الرياء والسمعة، أنه غير مذموم، بل هذا من الأمور المطلوبة، التي أخبر الله أنه يجزي بها المحسنين له الأعمال والأقوال، وأنه جازى بها خواص خلقه، وسألوها منه، كما قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء:٨٤][٣].

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾ [آل عمران:١٨٩]

هذا تكذيب للذين قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾[٤].

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾ [آل عمران:١٩٢]

فيه إشعار بأن العذاب الروحاني أفظع[٥].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٧٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ١٨١).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٦٠).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٥٣٢).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٥٤)، جامع البيان، للإيجي (١/ ٣٢٥).

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ أراد بهم المدخلين، ووضع المظهر موضع المضمر للدلالة على أن ظلمهم سبب لإدخالهم النار وانقطاع النصرة عنهم في الخلاص منها، ولا يلزم من نفي النصرة نفي الشفاعة؛ لأن النصر دفع بقهر[1].

هذا دليل على أن المراد بالدخول هاهنا الخلود؛ لأن للداخلين من المؤمنين أنصارًا[2].

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾ [آل عمران:١٩٣]

﴿يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ﴾ لأجل الإيمان بالله، وفيه تفخيم لشأن المنادي؛ إذ لا منادي أعظم من مناد ينادي للإيمان[3].

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾ [آل عمران:١٩٤]

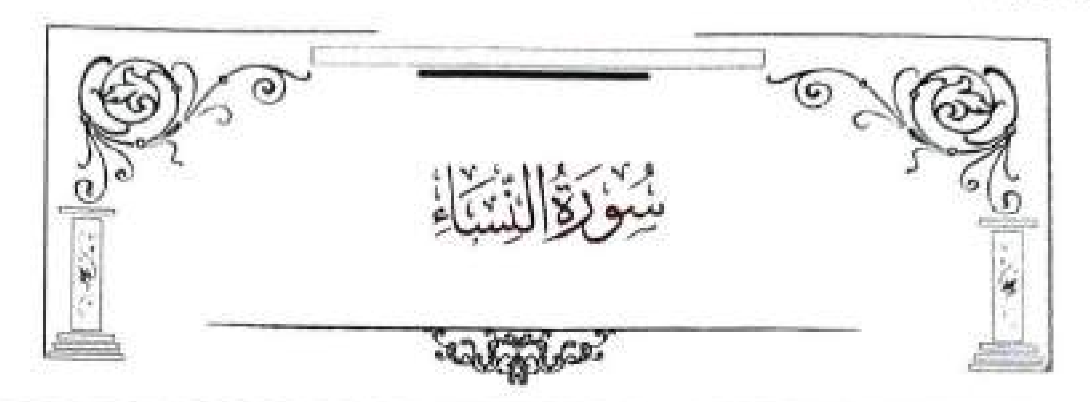
تكرير ﴿رَبَّنَا﴾ للمبالغة في الابتهال، والدلالة على استقلال المطالب، وعلو شأنها[4].

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾ [آل عمران:١٩٥]

﴿ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ أضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم؛ لأن العظيم الكريم لا يعطي إلا جزيلا كثيرا[5].

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٥٥).
(٢) جامع البيان، للإيجي (١/ ٣٢٥).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣٢٢).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٥٥).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ١٩١).



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء:١]

ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة؛ ليعطف بعضهم على بعض، ويحننهم على ضعفائهم[1].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ فصِلُوها ولا تقطعوها، وهذا ينبئ بوجوب صلة الرحم[2].

نبّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذ قرن الأرحام باسمه الكريم على أن صلتها بمكان منه[3].

﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢﴾ [النساء:٢]

سماهم يتامى لقرب عهدهم إذا بلغوا بالصغر، وفيه إشارة إلى أن لا يؤخر دفع أموالهم إليهم عن حد البلوغ إن أونس منهم الرشد، وأن يؤتوها قبل أن يزول عنهم اسم اليتامى والصغار[4].

﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤﴾ [النساء:٤]

أمر الأزواج بإعطاء مهور النساء من غير مطالبة منهن، ولا مخاصمة فيه؛ لأن

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٢٠٦).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٥).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٥٨).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣٢٨).

ما يأخذ بالمحاكمة لا يقال له نحلة[١].

﴿نِحۡلَةٗ﴾ هبة وعطية جُعل المهر نحلة إكراما للزوجات؛ لأن منافع المرأة ليس لها عوض[٢].

﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا﴾ في الآية دليل على ضيق المسلك في ذلك ووجوب الاحتياط، حيث بنى الشرط على طيب النفس.. ولم يقل: فإن وهبن لكم، إعلامًا بأن المراعى هو تجافي نفسها عن الموهوب طيبة[٣].

﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٥﴾ [النساء:٥]

إنما قال: فيها، ولم يقل: منها؛ لأنه أراد: اجعلوا لهم فيها رزقًا، كأنه أوجب ذلك لهم في المال[٤].

في إضافته تعالى الأموال إلى الأولياء، إشارة إلى أنه يجب عليهم أن يعملوا في أموال السفهاء ما يفعلونه في أموالهم، من الحفظ والتصرف وعدم التعريض للأخطار[٥].

وفي الآية دليل على أن نفقة المجنون والصغير والسفيه في مالهم، إذا كان لهم مال، لقوله: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ﴾[٦].

وفيه دليل على أن قول الولي مقبول فيما يدعيه من النفقة الممكنة والكسوة؛ لأن الله جعله مؤتمنا على مالهم فلزم قبول قول الأمين[٧].

﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ۝٦﴾ [النساء:٦]

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٩).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص٦٤).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣٣٠).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ١٢).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٦٤).
(٦) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٦٤).
(٧) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٦٤).

تنكير الرشد يفيد أن المراد رشد مخصوص، وهو الرشد في التصرف والتجارة، أو يفيد التقليل، أي: طرفًا من الرشد، حتى لا ينتظر به تمام الرشد[١].

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٧﴾ [النساء:٧]

أي: أعطوهم ما تيسر من هذا المال الذي جاءكم بغير كد ولا تعب، ولا عناء ولا نَصَب، فإن نفوسهم متشوفة إليه، وقلوبهم متطلعة، فاجبروا خواطرهم بما لا يضركم وهو نافعهم، ويؤخذ من المعنى أن كل من له تطلع وتشوف إلى ما حضر بين يدي الإنسان، ينبغي له أن يعطيه منه ما تيسر، كما كان النبي ﷺ يقول: «**إذا جاء أحدَكم خادمُه بطعامه فليجلسه معه، فإن لم يجلسه معه، فليناوله لقمة أو لقمتين**»[٢] أو كما قال[٣].

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١١﴾ [النساء:١١]

قال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ بالاسم الظاهر، ولم يقل: يوصيكم؛ لأنه أراد تعظيم الوصية، فجاء بالاسم الذي هو أعظم الأسماء[٤].

استنبط بعض الأذكياء من قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾ أنه تعالى أرحم بخلقه من الوالد بولده، حيث أوصى الوالدين بأولادهم، فعلم أنه أرحم بهم منهم[٥].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣٣٢).
(٢) رواه البخاري، باب إذا أتاه خادمه بطعامه، برقم (٢٥٥٧).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٦٥).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٨٠).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٢٢٥).

۞ بدأ بحظ الذكر، ولم يقل: للأنثيين مثل حظ الذكر، أو للأنثى نصف حظ الذكر، لفضله، كما ضوعف حظه لذلك؛ ولأنهم كانوا يورثون الذكر دون الإناث، وهو السبب لورود الآية، فقيل: كفى الذكور أن ضوعف لهم نصيب الإناث، فلا يتمادى في حظهن، حتى يحرمن مع إدلائهن من القرابة بمثل ما يدلون به[1].

۞ نص على أن للبنت النصف إذا انفردت، ودليل على أن للابن جميع المال إذا انفرد؛ لأن للذكر مثل حظ الأنثيين[2].

۞ أجمع العلماء سلفا وخلفا: أن الدين مقدم على الوصية، وذلك عند إمعان النظر يفهم من فحوى الآية الكريمة[3].

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ [النساء:١٧]

۞ قَالَ سَعِيد بن جُبَيْر: نزلت الأولى فِي الْمُؤْمِنِين، يعني قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ ﴾، والوسطى فِي المنافقين، يعني قوله: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ ..﴾ [النساء:١٨]، والأخرى فِي الكافرين، يعني: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ﴾ [النساء:١٨][4].

۞ ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ أي قبل حضور الموت، وسماه قريبًا؛ لأن أمد الحياة قريب[5].

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ ﴿١٨﴾ ﴾ [النساء:١٨]

۞ سوَّى بين من سوف يتوب إلى حضور الموت من الفسقة والكفار، وبين من مات على الكفر في نفي التوبة للمبالغة في عدم الاعتداد بها في تلك الحالة[6].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣٣٤).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٨٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٢٢٨).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٢٨).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٦٥).
(٦) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٦٥).

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾ [النساء:٢٠]

في هذه الآية دلالة على جواز الإصداق بالمال الجزيل[١].



الجُزْءُ الخَامِسُ

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء:٢٥]

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ﴾ تحذير عن التعيير بالأنساب، والتفاخر بالأحساب[٢].

﴿نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ﴾ خمسون جلدة ولا رجم ثَمَّ؛ لأن العذاب لا يطلق على الموت، ولا نصف له[٣].

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النساء:٢٦]

قال الزمخشري: أصله يريد الله أن يبين لكم، فزيدت اللام مؤكدة لإرادة التبيين[٤].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء:٢٩]

نهى الله تَعَالَى بهذه الآية عَنْ جميع المكاسب الباطلة بالشرع[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٢٤٣).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣٤٩).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص٦٨).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٨٨).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٣٨).

خص التجارة بالذكر؛ لأن أسباب الرزق أكثرها متعلق بها[١].

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢)﴾ [النساء:٣٢]

يدخل في النهي: تمني مخالفة الأحكام الشرعية كلها[٢].

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤)﴾ [النساء:٣٤]

﴿وَبِمَا أَنفَقُوا﴾ فيه دليل وجوب نفقتهن عليه[٣].

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤)﴾ تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب، فإن الله العلي الكبير وليهن وهو منتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن[٤].

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥)﴾ [النساء:٣٥]

فيه تنبيه على أن من أصلح نيته فيما يتحراه أصلح الله مبتغاه[٥].

الصلح بين الأزواج أسهل الصلوح؛ فبينهم شفيع -من الود وغيره- لا يُرد[٦].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣٥١).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٩٠).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣٥٥).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٢٩٦).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٧٣).
(٦) وجه النهار، للحربي (ص٦٩).

﴿ ۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦) ﴾ [النساء:٣٦]

عن عبد الله بن واقد أبي رجاء الهروي قال: لا تجد سيء المَلَكة إلا وجدته مختالا فخورا -وتلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ ولا عاقا إلا وجدته جبارا شقيا-وتلا: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم:٣٢][(١)].

﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (٣٧) ﴾ [النساء:٣٧]

وضع الظاهر فيه موضع المضمر؛ إشعارًا بأن من هذا شأنه فهو كافر لنعمة الله، ومن كان كافرًا لنعمة الله فله عذاب يهينه كما أهان النعمة بالبخل والإخفاء[(٢)].

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩) ﴾ [النساء:٣٩]

توبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة، والاعتقاد في الشيء على خلاف ما هو عليه، وتحريض على الفكر لطلب الجواب، لعله يؤدي بهم إلى العلم بما فيه من الفوائد الجليلة، والعوائد الجميلة، وتنبيه على أن المدعو إلى أمر لا ضرر فيه ينبغي أن يجيب إليه احتياطًا، فكيف إذا تضمن المنافع، وإنما قدّم الإيمان ههنا وأخّره في الآية الأخرى؛ لأن القصد بذكره إلى التخصيص ههنا والتعليل[(٣)].

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) ﴾ [النساء:٤٠]

وما وصفه الله بالعظم فمن يعرف مقداره، مع أنه سمى متاع الدنيا قليلا[(٤)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٣٠٢).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٧٤).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٧٤).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣٥٨).

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء:٤١]

عند هذه الكلمة ذرفت عينا النبي ﷺ واستوقف ابن مسعود، وفيه دليل على جواز قطع القراءة، ولو كان المعنى متعلقا بما بعده[(١)].

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء:٤٢]

إن قيل: كيف هذا مع قولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام:٢٣]؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن الكتم لا ينفعهم؛ لأنهم إذا كتموا تنطق جوارحهم، فكأنهم لم يكتموا.

والآخر: أنهم طوائف مختلفة، ولهم أوقات مختلفة، وقيل: إن قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ﴾ عطف على ﴿تُسَوَّىٰ﴾ أي: يتمنون أن لا يكتموا؛ لأنهم إذا كتموا افتضحوا[(٢)].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء:٤٣]

في الآية تنبيه على أن المصلي ينبغي أن يتحرز عما يلهيه ويشغل قلبه، ويزكي نفسه عما يجب تطهيرها عنه[(٣)]، ففيه تنبيه إلى ترك الشواغل، وإفراغ القلب منها، وكم من داخل في الصلاة وسكرة الأماني تجري في قلبه، لا يدري ماذا قال في صلاته![(٤)]

﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ يظهر من هذا أن السكر: أن لا يعلم ما يقول، فأخذ بعض الناس من ذلك أنّ السكران لا يلزم طلاقه ولا إقراره[(٥)].

(١) وجه النهار، للحربي (ص٦٩).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٩٢).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٧٦).
(٤) وجه النهار، للحربي (ص٦٩).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٩٢).

هذه الآية الكريمة فيها تنزيه الصلاة أن تفعل على هيئة ناقصة من سكر حتى يصحو المكلف ويعقل ما يقول، أو جنابة حتى يغتسل، أو حدث حتى يتوضأ، إلا أن يكون مريضا أو عادما للماء، فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد أرخص في التيمم والحالة هذه، رحمة بعباده ورأفة بهم، وتوسعة عليهم(١).

يؤخذ من المعنى منع الدخول في الصلاة في حال النعاس المفرط، الذي لا يشعر صاحبه بما يقول ويفعل، بل لعل فيه إشارة إلى أنه ينبغي لمن أراد الصلاة أن يقطع عنه كل شاغل يشغل فكره، كمدافعة الأخبثين والتوق لطعام ونحوه كما ورد في ذلك الحديث الصحيح(٢)(٣)

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [النساء:٤٥]

قال الزجاج: أعلمهم الله تعالى أن عداوة اليهود وغيرهم من الكفار لا تضرهم شيئا؛ إذ ضمن لهم النصرة والولاية في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾(٤).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء:٤٨]

قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما في القرآن آية أحب إليّ من هذه الآية(٥).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء:٥١]

قال الزجاج: وهذا دليل على معاندة اليهود؛ لأنهم زعموا أن المشركين الذين لا يصدقون بشيء من الكتب وعبدوا الأصنام أهدى طريقا من الذين يوافقونهم على كثير مما يصدقون به(٦).

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٣٢١).
(٢) الحديث رواه مسلم، باب لا صلاة بحضرة طعام ولا وهو يدافعه الأخبثان، برقم: (٥٦٠).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٧٩).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٦١).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣٦٤).
(٦) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٦٢).

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤)﴾ [النساء:٥٤]

أنكر عليهم الحسد كما ذمهم على البخل، وهما شر الرذائل، وكأن بينهما تلازمًا وتجاذبًا(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩)﴾ [النساء:٥٩]

الأمر برد المختلف إلى المنصوص عليه بعد الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ يدل على أن الأحكام ثلاثة مثبت بالكتاب ومثبت بالسنة ومثبت بالرد إليهما على وجه القياس(٢).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤)﴾ [النساء:٦٤]

﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ إنما عدل الخطاب تفخيمًا لشأنه ﷺ، وتنبيهًا على أن من حق الرسول أن يقبل اعتذار التائب وإن عظم جرمه، ويشفع له، ومِن منصبه أن يشفع في كبائر الذنوب(٣)، وتنبيهًا على أن شفاعة من اسمُه الرسول من الله بمكان(٤).

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩)﴾ [النساء:٦٩]

سُمي الصاحب رفيقا لارتفاقك به وبصحبته، ويقال للجماعة في السفر: رفقة لارتفاق بعضهم ببعض، ووحد الرفيق؛ لأن الواحد في التمييز ينوب عن الجماعة(٥).

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٧٩).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٨٠).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٨١).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣٧٠).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٧٨).

﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ [النساء:٧٤]

إنما قال: ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ تنبيهًا على أن المجاهد ينبغي أن يثبت في المعركة حتى يعز نفسه بالشهادة، أو الدين بالظفر والغلبة، وأن لا يكون قصده بالذات إلى القتل، بل إلى إعلاء الحق وإعزاز الدين[١].

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء:٧٥]

قال المفسرون: هذا حض من الله تعالى على الجهاد في سبيله لاستنقاذ المؤمنين من أيدي المشركين[٢].

إنما ذكر الوِلدان مبالغة في الحث، وتنبيهًا على تناهي ظلم المشركين، بحيث بلغ أذاهم الصبيان، وأن دعوتهم أجيبت بسبب مشاركتهم في الدعاء حتى يشاركوا في استنزال الرحمة واستدفاع البلية[٣].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء:٧٧]

قال الحسن: هذا كان منهم لما في طبع البشر من المخافة، لا على كراهة أمر الله بالقتال[٤].

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء:٨٠]

ذكر الشافعي في الرسالة، في باب فرض طاعة الرسول هذه الآية، وقال: إن

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٨٤).

(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٨٠).

(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٨٤).

(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٨٢).

كل فريضة فرضها الله في كتابه كالحج والصلاة والزكاة، لولا بيان رسول الله ﷺ ما كنا نعرف كيف نأتيها، ولا كيف يمكننا أداء شيء من العبادات، وإذا كان الرسول ﷺ من الشريعة بهذه المنزلة، كانت طاعته على الحقيقة طاعة لله عز جل[١].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:٨٢]

أفلا يتأملون معانيه ومبانيه.. وهذا يرد قول من زعم من الروافض أن القرآن لا يفهم معناه إلا بتفسير الرسول ﷺ والإمام المعصوم، ويدل على صحة القياس[٢].

كلما ازداد العبد تأملا فيه ازداد علما وعملا وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك وحث عليه، وأخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن.. ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله، لأنه يراه يصدق بعضه بعضا، ويوافق بعضه بعضا، فترى الحكم والقصة والإخبارات تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضا، فبذلك يعلم كمال القرآن وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور[٣].

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء:٨٣]

إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها، فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة[٤].

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ [النساء:٨٥]

قال الحسن: من يشفع شفاعة حسنة كان له فيها أجر وإن لم يُشفَّع؛ لأن الله

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٨٤).

(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣٧٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٨٩).

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٣٦٥).

تعالى قال: من يشفع، ولم يقل: من يُشفَّع[1].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء:٩٢]

سمي العفو عن الدية: صدقة؛ حثًّا عليه وتنبيهًا على فضله[2].

قيل: لما أخرج نفسًا مؤمنة من جملة الأحياء، لزمه أن يدخل نفسًا مثلها في جملة الأحرار؛ لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها[3].

من علمه وحكمته أن أوجب على القاتل كفارة مناسبة لما صدر منه، فإنه تسبب لإعدام نفس محترمة، وأخرجها من الوجود إلى العدم، فناسب أن يعتق رقبة ويخرجها من رق العبودية للخلق إلى الحرية التامة، فإن لم يجد هذه الرقبة صام شهرين متتابعين، فأخرج نفسه من رق الشهوات واللذات الحسية القاطعة للعبد عن سعادته الأبدية إلى التعبد لله تعالى بتركها تقربا إلى الله[4].

﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء:٩٨-٩٩]

﴿عَسَى﴾ وإن كان للإطماع، فهو من الله واجب؛ لأن الكريم إذا أطمع أنجز[5].

هم وإن كانوا عاجزين لكن ربما تمكنوا من الهجرة وقتا ما، بنوع ما، ولم يدروا؛ ولهذا أطمعهم في العفو، وليعلم أن تلك الهجرة أمر خطير، من شأنه أن لا يأمن

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٨٩).

(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٩٠).

(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣٨٤).

(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٩٢).

(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣٨٩).

المعذور، فكيف بغيره؟![١]

۞ في الآية الكريمة دليل على أن من عجز عن المأمور من واجب وغيره فإنه معذور[٢].

۞ وفي الآية تنبيه على أن الدليل في الحج والعمرة ونحوهما مما يحتاج إلى سفر من شروط الاستطاعة[٣].

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ [النساء: ١٠١]

۞ نفي الحرج فيه يدل على جوازه دون وجوبه[٤].

۞ لم يقل: أن تقصروا الصلاة، **فيه فائدتان: إحداهما**: أنه لو قال: أن تقصروا الصلاة، لكان القصر غير منضبط بحد من الحدود، فربما ظن أنه لو قصر معظم الصلاة وجعلها ركعة واحدة لأجزأ، فإتيانه بقوله: ﴿مِنَ الصَّلَاةِ﴾ ليدل ذلك على أن القصر محدود مضبوط، مرجوع فيه إلى ما تقرر من فعل النبي ﷺ وأصحابه. **الثانية**: أن ﴿مِنَ﴾ تفيد التبعيض ليعلم بذلك أن القصر لبعض الصلوات المفروضات لا جميعها، فإن الفجر والمغرب لا يقصران، وإنما الذي يقصر الصلاة الرباعية من أربع إلى ركعتين[٥].

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء: ١٠٢]

۞ جعل الحذر، وهو التحرز والتيقظ آلة يستعملها الغازي، فجمع بينه وبين

---

(١) جامع البيان، للإيجي (١/ ٣٩٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٩٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٩٥).

(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٩٣).

(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٩٧).

الأسلحة في الأخذ[١].

ﭸ إن قيل: كيف طابق الأمر بالحذر للعذاب المهين؟ فالجواب: أن الأمر بالحذر من العدوّ يقتضي توهُّم قوّتهم وعزتهم، فنفى ذلك الوهم بالإخبار أن الله يُهينهم ولا ينصرهم؛ لتقوى قلوب المؤمنين -قال ذلك الزمخشري- وإنما يصح ذلك إذا كان العذاب المهين في الدنيا[٢].

ﭸ وعدٌ للمؤمنين بالنصر، وإشارة على أن الأمر بالحزم ليس لضعفهم وغلبة عدوهم، بل لأن الواجب في الأمور التيقظ[٣].

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء:١٠٣]

ﭸ هذا دليل على أن المراد بالذكر: الصلاة، وأنها واجبة الأداء حال المسايفة والاضطراب في المعركة[٤].

ﭸ يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقيب صلاة الخوف، وإن كان مشروعا مرغبا فيه أيضا بعد غيرها، ولكن ههنا آكد لما وقع فيها من التخفيف في أركانها، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب وغير ذلك، مما ليس يوجد في غيرها[٥].

ﭸ فاذكروا الله في جميع أحوالكم وهيئاتكم، **ولكن خصت صلاة الخوف بذلك لفوائد:**

منها: أن القلب صلاحه وفلاحه وسعادته بالإنابة إلى الله تعالى في المحبة وامتلاء القلب من ذكره والثناء عليه، وأعظم ما يحصل به هذا المقصود الصلاة، التي حقيقتها أنها صلة بين العبد وبين ربه[٦].

---

(١) جامع البيان، للإيجي (١/ ٤٠٠).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٠٨).
(٣) جامع البيان، للإيجي (١/ ٤٠٢).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٩٤).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن جزي (٢/ ٤٠٣).
(٦) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٩٨).

ومنها: أن فيها من حقائق الإيمان ومعارف الإيقان ما أوجب أن يفرضها الله على عباده كل يوم وليلة. ومن المعلوم أن صلاة الخوف لا تحصل فيها هذه المقاصد الحميدة بسبب اشتغال القلب والبدن والخوف فأمر بجبرها بالذكر بعدها.

ومنها: أن الخوف يوجب من قلق القلب وخوفه ما هو مظنة لضعفه، وإذا ضعف القلب ضعف البدن عن مقاومة العدو، والذكر لله والإكثار منه من أعظم مقويات القلب.

ومنها: أن الذكر لله تعالى مع الصبر والثبات سبب للفلاح والظفر بالأعداء، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال:٤٥] أمر بالإكثار منه في هذه الحال إلى غير ذلك من الحِكَم[1].

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء:١٠٥]

فيه دلالة جواز الاجتهاد في حقه ﷺ[2].

يحتمل أن يريد بالوحي أو بالاجتهاد، أو بهما، وإذا تضمنت الاجتهاد، ففيها دليل على إثبات النظر والقياس[3].

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ [النساء:١٠٧]

﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ يخونونها بالمعصية، والعاصي خائن؛ لأنه مؤتمن على دينه، وقد صرحت الآية بالنهي عن المجادلة عن الظالمين، ألا ترى أن رسول الله ﷺ قد جادل عن طعمة على غير بصيرة فعاتبه الله بهذا، وأمره بالاستغفار، ونهاه عن المعاودة إلى مثله، فما ظنك بمن يعلم ظلم الظالم ثم يستجيز معاونته؟[4]

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص١٩٨).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣٩٣).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٠٩).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ١١٢).

﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [النساء:١١٤]

بني الكلام على (الأمر) ورتب الجزاء على (الفعل)؛ ليدل على أنه لما دخل الآمر في زمرة الخيرين كان الفاعل أدخل فيهم، وأن العمدة والغرض هو الفعل[١].

إذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يقرن بالنهي عن المنكر، دخل فيه النهي عن المنكر؛ وذلك لأن ترك المنهيات من المعروف، وأيضا لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر، وأما عند الاقتران فيفسر المعروف بفعل المأمور، والمنكر بترك المنهي[٢].

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء:١١٥]

استدل الأصوليون بها على صحة إجماع المسلمين وأنه لا يجوز مخالفته[٣].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ [النساء:١١٦]

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ عن الحق فإن الشرك أعظم أنواع الضلالة.. وإنما ذكر في الآية الأولى [النساء ٤٨]: ﴿فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ﴾ ؛ لأنها متصلة بقصة أهل الكتاب، ومنشأ شركهم كان نوع افتراء وهو دعوى التبني على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[٤].

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء:١٢٠]

فالعاقل من لم يعرّج على هذا، وجدّ في الطاعة، وعلم أنه سينقطع عن الدنيا قريبا[٥].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء:١٢٢]

فائدة هذه التوكيدات: مقابلة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٩٦).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٢٠٢).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٩٧)، التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢١٠).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٩٧).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ١١٨).

لأوليائه[١].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء:١٢٤]

قال المفسرون: بيّن الله تعالى بهذه الآية فضيلة المؤمنين على غيرهم[٢].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء:١٢٥]

هذا من باب الترغيب في اتباعه عليه السلام؛ لأنه إمام يقتدى به، حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له[٣].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ دخلت ﴿مِن﴾ للتبعيض؛ رفقًا بالعباد؛ لأن الصالحات على الكمال لا يطيقها البشر[٤].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾ [النساء:١٢٦]

إخبار عن سعة قدرته، وكثرة مملوكاته ليرغب إليه بالطاعة[٥].

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾ [النساء:١٢٧]

تهييجا على فعل الخيرات وامتثال الأمر، وأن الله عز وجل عالم بجميع ذلك، وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه[٦].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣٩٨).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ١٢٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٤٢٢).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢١١).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ١٢٢).
(٦) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٤٢٥).

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾ [النساء:١٢٨]

﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ۚ﴾ الأول: للترغيب في المصالحة، والثاني: لتمهيد العذر في المماكسة[1].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ [النساء:١٣١]

تقرير لما هو موجب تقواه؛ لأن الخلق لما كان كله له وهو خالقهم ومالكهم فحقه أن يكون مطاعًا في خلقه غير معصي، وفيه دليل على أن التقوى أصل الخير كله[2].

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ [النساء:١٣٤]

تقتضي الترغيب في طلب ثواب الآخرة؛ لأنه خير من ثواب الدنيا، وتقتضي أيضًا أن يطلب ثواب الدنيا والآخرة من الله وحده؛ فإنّ ذلك بيده لا بيد غيره[3].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء:١٣٦]

قال في القرآن: ﴿نَزَّلَ﴾؛ لأنه نزل مفرقا منجما على الوقائع، بحسب ما يحتاج إليه العباد إليه في معادهم ومعاشهم، وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة؛ ولهذا قال: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ﴾[4].

---

(١) جامع البيان، للإيجي (١/ ٤١٤)، أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٠١).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٤٠٣).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢١٢).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٤٣٤).

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ١٣٩﴾ [النساء:١٣٩]

المقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله، والالتجاء إلى عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد[1].

﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠﴾ [النساء:١٤٠]

الواجب على كل مكلف في آيات الله الإيمان بها وتعظيمها وإجلالها وتفخيمها، وهذا المقصود بإنزالها، وهو الذي خَلَق الله الخَلْق لأجله، فضد الإيمان الكفر بها، وضد تعظيمها الاستهزاء بها واحتقارها، ويدخل في ذلك مجادلة الكفار والمنافقين لإبطال آيات الله ونصر كفرهم، وكذلك المبتدعون على اختلاف أنواعهم، فإن احتجاجهم على باطلهم يتضمن الاستهانة بآيات الله لأنها لا تدل إلا على حق، ولا تستلزم إلا صدقا، بل وكذلك يدخل فيه حضور مجالس المعاصي والفسوق التي يستهان فيها بأوامر الله ونواهيه، وتقتحم حدوده التي حدها لعباده[2].

ويدل على أن من رضي بمنكر يراه خالط أهله، كان في الإثم بمنزلة المباشر، وقد ورد النهي في هذه الآية عن القعود مع الذين يخوضون في آيات الله بالباطل، فلا يجوز القعود عند من يتكلم في القرآن وتفسيره بالباطل[3].

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾ [النساء:١٤١]

سمى ظفر المسلمين فتحا؛ تعظيما لشأنهم؛ لأنه أمر عظيم تفتح له أبواب

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٤٣٥).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٢١٠).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ١٣٠).

السماء، وظفر الكافرين نصيبًا تخسيسًا لحظهم؛ لأنه لُمظة من الدنيا يصيبونها[١].

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء:١٤٢]

قال الحسن: إنما قلّ ذلك لأنهم يعملونه رياء، ولو أرادوا به وجه الله لكان كثيرا. وقال قتادة: إنما قلّ؛ لأن الله لم يقبله، وما رد الله فهو قليل، وما قبله فهو كثير[٢].

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء:١٤٥-١٤٦]

لم يقل: فأولئك المؤمنون، أو: من المؤمنين؛ غيظا عليهم، ثم أوقع أجر المؤمنين في التسويف لانضمام المنافقين إليهم، فقال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾[٣]؛ لأن هذه القاعدة الشريفة -لم يزل الله يبدئ فيها ويعيد، إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يترتب عليه ثوابًا أو عقابا وكان ذلك مشتركًا بينه وبين الجنس الداخل فيه، رتب الثواب في مقابلة الحكم العام الذي تندرج تحته تلك القضية وغيرها، ولئلا يتوهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئي، فهذا من أسرار القرآن البديعة، فالتائب من المنافقين مع المؤمنين وله ثوابهم[٤].

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء:١٤٧]

قال قتادة في هذه الآية: إن الله لا يعذب شاكرا ولا مؤمنا[٥].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٤٠٦).

(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ١٣١).

(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ١٣٣).

(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص ٢١١).

(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ١٣٤).



﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء:١٤٩]

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ على الانتقام، وهو إشارة إلى حث المظلوم على العفو، وإن جاز له الشكاية[١].

﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ في هذه الآية إرشاد إلى التفقه في معاني أسماء الله وصفاته، وأن الخلق والأمر صادر عنها، وهي مقتضية له، ولهذا يعلل الأحكام بالأسماء الحسنى، كما في هذه الآية، لما ذكر عمل الخير والعفو عن المسيء رتب على ذلك بأن أحالنا على معرفة أسمائه، وأن ذلك يغنينا عن ذكر ثوابها الخاص[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ [النساء:١٥٢]

﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ الموعودة لهم، وتصديره بسوف لتأكيد الوعد والدلالة على أنه كائن لا محالة وإن تأخر[٣].

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء:١٥٣]

هذا السؤال وإن كان من آبائهم أسند إليهم؛ لأنهم كانوا آخذين بمذهبهم تابعين لهديهم، والمعنى: إن عرقهم راسخ في ذلك، وأن ما اقترحوه عليك ليس بأول جهالاتهم وخيالاتهم[٤].

---

(١) جامع البيان، للإيجي (١/ ٤٢٤).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٢١٢).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٠٦).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٠٦).

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء:١٥٧]

إن قيل: كيف قالوا فيه: ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾، وهم يكفرون به ويسبونه؟ **فالجواب من ثلاثة أوجه: أحدها**: أنهم قالوا ذلك على وجه التهكم والاستهزاء، **والثاني**: أنهم قالوه على حسب اعتقاد المسلمين فيه، كأنهم قالوا: رسول الله عندكم أو بزعمكم، **والثالث**: أنه من قول الله، لا من قولهم، فيوقف قبله، **وفائدته**: تعظيم ذنبهم، وتقبيح قولهم: إنا قتلناه[(١)].

﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء:١٦١]

﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ فيه دليل على: دلالة النهي على التحريم[(٢)].

﴿لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ۚ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [النساء:١٦٢]

﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ منصوب على المدح، لبيان فضل الصلاة[(٣)].

﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ۚ﴾ منصوب بين مرفوعين على إضمار: «أعني»؛ ليتنبه السامع والقارئ بأن هؤلاء لهم مزية ليست لغيرهم[(٤)].

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء:١٦٤]

الآية تدل على أن معرفة الرسل بأعيانهم ليست بشرط لصحة الإيمان، بل

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢١٥).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٠٩).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٤١٥).
(٤) وجه النهار، للحربي (ص٧٨).

من شرطه أن يؤمن بهم جميعًا؛ إذ لو كان معرفة كل واحد منهم شرطًا لقص علينا كل ذلك[١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٦٧﴾ [النساء:١٦٧]

الآية تدل على أن الكفار مخاطبون بالفروع؛ إذ المراد بهم الجامعون بين الكفر والظلم[٢].

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٧١﴾ [النساء:١٧١]

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٧١﴾ فلا يحتاج إلى ولد؛ لأن الولد وكيل والده، وهو وكيل كل شيء[٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ١٧٤﴾ [النساء:١٧٤]

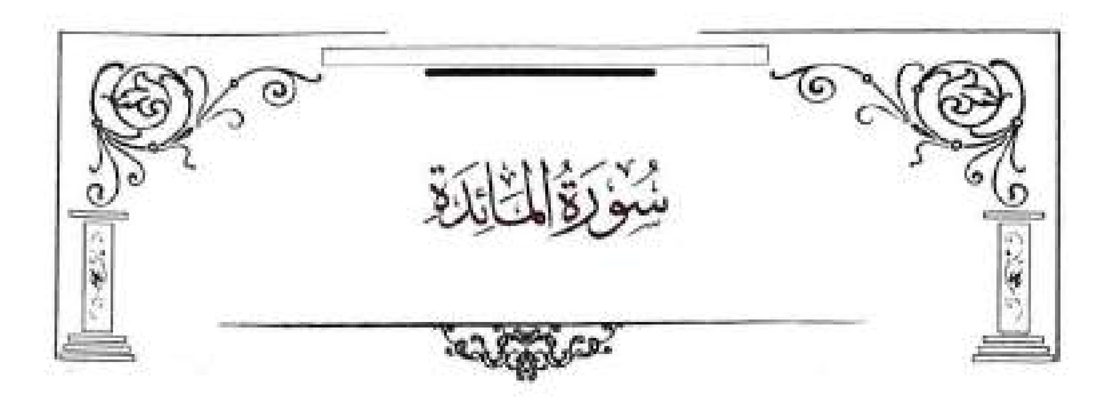
يريد: القرآن، سماه نورا؛ لأنه يتبين به الأحكام كما تتبين الأشياء بالنور[٤].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ١٧٥﴾ [النساء:١٧٥]

وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات[٥].

❁❁❁❁❁❁❁

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٤١٦).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١١٠).
(٣) جامع البيان، للإيجي (١/ ٤٣٣).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ١٤٤).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٤٨١).



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١﴾ [المائدة:١]

استدل ابن عمر، وابن عباس، وغير واحد بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وجد ميتا في بطن أمه إذا ذبحت(١).

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣﴾ [المائدة:٣]

﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾ غير متعاط لمعصية الله، كما قال في سورة البقرة: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة:١٧٣]، وقد استدل بهذه الآية من يقول بأن العاصي بسفره لا يترخص بشيء من رخص السفر؛ لأن الرخص لا تنال بالمعاصي(٢).

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤﴾ [المائدة:٤]

﴿قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ ما لم تستخبثه الطباع السليمة ولم تنفر عنه، ومن

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٣١).

مفهومه حرم مستخبثات العرب، أو ما لم يدل نص ولا قياس على حرمته[١].

﴿مُكَلِّبِينَ﴾ حال من ﴿عَلَّمْتُم﴾، وفائدة هذه الحال مع أنه استغنى عنها بـ ﴿عَلَّمْتُم﴾: أن يكون من يعلم الجوارح موصوفا بالتكليب، والمكلب مؤدب الجوارح ومعلمها. وفيه دليل على أن كل آخذ علما ألا يأخذه إلا من أقتل أهله علمًا وأنحرهم دراية، فكم من آخذ من غير متقن قد ضيع أيامه وعض عند لقاء النحارير أنامله[٢].

﴿مُكَلِّبِينَ﴾ يحتمل أن يكون حالا من الضمير في ﴿عَلَّمْتُم﴾ فيكون حالا من الفاعل، ويحتمل أن يكون حالا من المفعول وهو ﴿الْجَوَارِحِ﴾ أي: وما علمتم من الجوارح في حال كونهن مكلبات للصيد، وذلك أن تقتنصه بمخالبها أو أظفارها، فيستدل بذلك -والحالة هذه- على أن الجارحة إذا قتل الصيد بصدمته أو بمخلابه وظفره أنه لا يحل[٣].

فيه بيان شرف العلم، وقد فضل الله المعلم من الكلاب على غير المعلم[٤].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)﴾ [المائدة:٦]

﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي: إذا أردتم القيام، عبّر عن إرادة الفعل المسبب عنها؛ للإيجاز، والتنبيه على أن من أراد العبادة ينبغي أن يبادر إليها، بحيث لا ينفك الفعل عن الإرادة[٥].

استدل بقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ على وجوب

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١١٥).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٤٢٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٣٤).
(٤) وجه النهار، للحربي (ص٨١).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١١٦).

النية في الوضوء؛ لأن تقدير الكلام: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾، كما تقول العرب: «إذا رأيت الأمير فقم» أي: له[1].

﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ نصبه نافع وابن عامر وحفص والكسائي ويعقوب، عطفًا على: وجوهكم.. وجره الباقون على الجوار.. وفائدته: التنبيه على أنه ينبغي أن يقتصد في صب الماء عليها ويغسل غسلًا يقرب من المسح، وفي الفصل بينه وبين أخويه إيماء على وجوب الترتيب[2].

قال محمد بن كعب: وكنت إذا سمعت الحديث من رجل من أصحاب رسول الله ﷺ التمسته في القرآن، فالتمست هذا فوجدته: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ [الفتح:١-٢]، فعلمت أن الله لم يتم النعمة عليه حتى غفر ذنوبه، ثم قرأت الآية التي في سورة المائدة: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ حتى بلغت ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾، فعرفت أن الله لم يتم عليهم النعمة حتى غفر لهم[3].

هذه آية عظيمة قد اشتملت على أحكام كثيرة، نذكر منها ما يسره الله وسهله[4]:

أحدها: أن هذه المذكورات فيها امتثالها والعمل بها من لوازم الإيمان الذي لا يتم إلا به، لأنه صدرها بقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إلى آخرها، أي: يا أيها الذين آمنوا، اعملوا بمقتضى إيمانكم بما شرعناه لكم.

الثاني: الأمر بالقيام بالصلاة لقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

الثالث: الأمر بالنية للصلاة، لقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: بقصدها ونيتها.

الرابع: اشتراط الطهارة لصحة الصلاة، لأن الله أمر بها عند القيام إليها، والأصل في الأمر الوجوب.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٤٧)، جامع البيان، للإيجي (١/ ٤٤٥).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١١٧).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ١٦٤).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٢٢٢).

الخامس: أن الطهارة لا تجب بدخول الوقت، وإنما تجب عند إرادة الصلاة.

السادس: أن كل ما يطلق عليه اسم الصلاة، من الفرض والنفل، وفرض الكفاية، وصلاة الجنازة، تشترط له الطهارة، حتى السجود المجرد عند كثير من العلماء، كسجود التلاوة والشكر.

السابع: الأمر بغسل الوجه، وهو: ما تحصل به المواجهة من منابت شعر الرأس المعتاد، إلى ما انحدر من اللحيين والذقن طولا. ومن الأذن إلى الأذن عرضا.

ويدخل فيه المضمضة والاستنشاق، بالسنة، ويدخل فيه الشعور التي فيه. لكن إن كانت خفيفة فلا بد من إيصال الماء إلى البشرة، وإن كانت كثيفة اكتفي بظاهرها.

الثامن: الأمر بغسل اليدين، وأن حدهما إلى المرفقين و«إلى» كما قال جمهور المفسرين بمعنى «مع»، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾؛ ولأن الواجب لا يتم إلا بغسل جميع المرفق.

التاسع: الأمر بمسح الرأس.

العاشر: أنه يجب مسح جميعه، لأن الباء ليست للتبعيض، وإنما هي للملاصقة، وأنه يعم المسح بجميع الرأس.

الحادي عشر: أنه يكفي المسح كيفما كان، بيديه أو إحداهما، أو خرقة أو خشبة أو نحوهما؛ لأن الله أطلق المسح ولم يقيده بصفة، فدل ذلك على إطلاقه.

الثاني عشر: أن الواجب المسح، فلو غسل رأسه ولم يمر يده عليه لم يكف؛ لأنه لم يأت بما أمر الله به.

الثالث عشر: الأمر بغسل الرجلين إلى الكعبين، ويقال فيهما ما يقال في اليدين.

الرابع عشر: فيها الرد على الرافضة، على قراءة الجمهور بالنصب، وأنه لا يجوز مسحهما ما دامتا مكشوفتين.

الخامس عشر: فيه الإشارة إلى مسح الخفين، على قراءة الجر في ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾.

وتكون كل من القراءتين، محمولة على معنى، فعلى قراءة النصب فيها،

غسلهما إن كانتا مكشوفتين، وعلى قراءة الجر فيها، مسحهما إذا كانتا مستورتين بالخف.

السادس عشر: الأمر بالترتيب في الوضوء؛ لأن الله تعالى ذكرها مرتبة؛ ولأنه أدخل ممسوحا -وهو الرأس- بين مغسولين، ولا يعلم لذلك فائدة غير الترتيب.

السابع عشر: أن الترتيب مخصوص بالأعضاء الأربعة المسميات في هذه الآية، وأما الترتيب بين المضمضة والاستنشاق والوجه، أو بين اليمنى واليسرى من اليدين والرجلين، فإن ذلك غير واجب، بل يستحب تقديم المضمضة والاستنشاق على غسل الوجه، وتقديم اليمنى على اليسرى من اليدين والرجلين، وتقديم مسح الرأس على مسح الأذنين.

الثامن عشر: الأمر بتجديد الوضوء عند كل صلاة، لتوجد صورة المأمور به.

التاسع عشر: الأمر بالغسل من الجنابة.

العشرون: أنه يجب تعميم الغسل للبدن، لأن الله أضاف التطهر للبدن، ولم يخصصه بشيء دون شيء.

الحادي والعشرون: الأمر بغسل ظاهر الشعر وباطنه في الجنابة.

الثاني والعشرون: أنه يندرج الحدث الأصغر في الحدث الأكبر، ويكفي من هما عليه أن ينوي، ثم يعمم بدنه، لأن الله لم يذكر إلا التطهر، ولم يذكر أنه يعيد الوضوء.

الثالث والعشرون: أن الجنب يصدق على من أنزل المني يقظة أو مناما، أو جامع ولو لم ينزل.

الرابع والعشرون: أن من ذكر أنه احتلم ولم يجد بللا فإنه لا غسل عليه، لأنه لم تتحقق منه الجنابة.

الخامس والعشرون: ذكر مِنَّة الله تعالى على العباد، بمشروعية التيمم.

السادس والعشرون: أن من أسباب جواز التيمم وجود المرض الذي يضره غسله بالماء، فيجوز له التيمم.

﴿ **السابع والعشرون:** أن من جملة أسباب جوازه، السفر والإتيان من البول والغائط إذا عدم الماء، فالمرض يجوز التيمم مع وجود الماء لحصول التضرر به، وباقيها يجوزه العدم للماء ولو كان في الحضر.

﴿ **الثامن والعشرون:** أن الخارج من السبيلين من بول وغائط، ينقض الوضوء.

﴿ **التاسع والعشرون:** استدل بها من قال: لا ينقض الوضوء إلا هذان الأمران، فلا ينتقض بلمس الفرج ولا بغيره.

﴿ **الثلاثون:** استحباب التكنية عما يستقذر التلفظ به؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾.

﴿ **الحادي والثلاثون:** أن لمس المرأة بلذة وشهوة ناقض للوضوء.

﴿ **الثاني والثلاثون:** اشتراط عدم الماء لصحة التيمم.

﴿ **الثالث والثلاثون:** أن مع وجود الماء ولو في الصلاة، يبطل التيمم لأن الله إنما أباحه مع عدم الماء.

﴿ **الرابع والثلاثون:** أنه إذا دخل الوقت وليس معه ماء، فإنه يلزمه طلبه في رحله وفيما قرب منه، لأنه لا يقال «لم يجد» لمن لم يطلب.

﴿ **الخامس والثلاثون:** أن من وجد ماء لا يكفي بعض طهارته، فإنه يلزمه استعماله، ثم يتيمم بعد ذلك.

﴿ **السادس والثلاثون:** أن الماء المتغير بالطاهرات، مقدم على التيمم، أي: يكون طهورا، لأن الماء المتغير ماء، فيدخل في قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾.

﴿ **السابع والثلاثون:** أنه لا بد من نية التيمم؛ لقوله: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟﴾ أي: اقصدوا.

﴿ **الثامن والثلاثون:** أنه يكفي التيمم بكل ما تصاعد على وجه الأرض من تراب وغيره. فيكون على هذا، قوله: ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ إما من باب التغليب، وأن الغالب أن يكون له غبار يمسح منه ويعلق بالوجه واليدين، وإما أن يكون إرشادا للأفضل، وأنه إذا أمكن التراب الذي فيه غبار فهو أولى.

التاسع والثلاثون: أنه لا يصح التيمم بالتراب النجس، لأنه لا يكون طيبا بل خبيثا.

الأربعون: أنه يمسح في التيمم الوجه واليدان فقط، دون بقية الأعضاء.

الحادي والأربعون: أن قوله: ﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾ شامل لجميع الوجه وأنه يعممه بالمسح، إلا أنه معفو عن إدخال التراب في الفم والأنف، وفيما تحت الشعور، ولو خفيفة.

الثاني والأربعون: أن اليدين تمسحان إلى الكوعين فقط، لأن اليدين عند الإطلاق كذلك، فلو كان يشترط إيصال المسح إلى الذراعين لقيده الله بذلك، كما قيده في الوضوء.

الثالث والأربعون: أن الآية عامة في جواز التيمم، لجميع الأحداث كلها، الحدث الأكبر والأصغر، بل ونجاسة البدن؛ لأن الله جعلها بدلا عن طهارة الماء، وأطلق في الآية فلم يقيد وقد يقال: إن نجاسة البدن لا تدخل في حكم التيمم لأن السياق في الأحداث وهو قول جمهور العلماء.

الرابع والأربعون: أن محل التيمم في الحدث الأصغر والأكبر واحد، وهو الوجه واليدان.

الخامس والأربعون: أنه لو نوى مَنْ عليه حدثان التيمم عنهما، فإنه يجزئ أخذا من عموم الآية وإطلاقها.

السادس والأربعون: أنه يكفي المسح بأي شيء كان، بيده أو غيرها، لأن الله قال: ﴿فَامْسَحُواْ﴾ ولم يذكر الممسوح به، فدل على جوازه بكل شيء.

السابع والأربعون: اشتراط الترتيب في طهارة التيمم، كما يشترط ذلك في الوضوء، ولأن الله بدأ بمسح الوجه قبل مسح اليدين.

الثامن والأربعون: أن الله تعالى -فيما شرعه لنا من الأحكام- لم يجعل علينا في ذلك من حرج ولا مشقة ولا عسر، وإنما هو رحمة منه بعباده ليطهرهم، وليتم نعمته عليهم.

التاسع والأربعون: أن طهارة الظاهر بالماء والتراب، تكميل لطهارة الباطن بالتوحيد، والتوبة النصوح.

الخمسون: أن طهارة التيمم، وإن لم يكن فيها نظافة وطهارة تدرك بالحس والمشاهدة، فإن فيها طهارة معنوية ناشئة عن امتثال أمر الله تعالى.

الحادي والخمسون: أنه ينبغي للعبد أن يتدبر الحِكَم والأسرار في شرائع الله، في الطهارة وغيرها ليزداد معرفة وعلما، ويزداد شكرا لله ومحبة له، على ما شرع من الأحكام التي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة[١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة:٨]

إذا كان هذا للعدل مع الكفار فما ظنك بالعدل مع المؤمنين؟[٢]

﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ من باب استعمال أفعل التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء[٣].

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المائدة:١٤]

إنما قال: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾؛ ولم يقل: من النصارى؛ لأنهم إنما سموا أنفسهم بذلك ادعاء لنصر الله، وهم الذين قالوا لعيسى: نحن أنصار الله، ثم اختلفوا بعد: نسطورية ويعقوبية وملكانية، أنصارًا للشيطان[٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٢٢٢).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١١٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٦٢).
(٤) ينظر: أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١١٩)، مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٤٣٥).

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة:١٨]

﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ لأن الحبيب لا يهلك حبيبه بذنبه، وفي الآية بشارة لمن أحبه الله، ومنهم: المحسنون والصابرون والمتقون[١].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة:٢٠]

قيل: الملِك من له مسكن وامرأة وخادم[٢].

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة:٢٧]

فيه إشارة إلى أن الحاسد ينبغي أن يرى حرمانه من تقصيره، ويجتهد في تحصيل ما به صار المحسود محظوظًا، لا في إزالة حظه؛ فإن ذلك مما يضره ولا ينفعه، وأن الطاعة لا تقبل إلا من مؤمن متقٍ[٣].

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة:٣٢]

تمثيل قاتل الواحد بقاتل الجميع يتصور من ثلاث جهات:

إحداها: القصاص؛ فإن القصاص في قاتل الواحد والجميع سواء.

الثانية: انتهاك الحرمة والإقدام على العصيان.

والثالثة: الإثم والعذاب الأخروي؛ قال مجاهد: وعد الله قاتل النفس بجهنم والخلود فيها، والغضب واللعنة والعذاب العظيم، فلو قتل جميع الناس لم يزد على

(١) وجه النهار، للحربي (ص٨٣).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٢٦).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٢٣).

ذلك، وهذا الوجه هو الأظهر[١].

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المائدة:٣٣]

أما المقبوض عليه فنفيه من الأرض بالحبس والسجن؛ لأنه إذا سجن وضع من التقلب في البلاد، فقد نفي منها، أنشد ابن قتيبة، وابن الأنباري قول بعض المسجونين:

خرجنا من الدنيا ونحن مِنَ أهلها... فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى[٢].

قال بعض العلماء: «لم يرد أن أحدا يؤخذ بذنبه في الدنيا والآخرة معا إلا المحاربين؛ لأن عقوبتهم لا تكون كفارة كما تكون في سائر الحدود»[٣].

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة:٣٨]

بدأ بالرجل؛ لأن السرقة من الجراءة، وهي في الرجال أكثر، وأخر الزاني؛ لأن الزنا ينبعث من الشهوة، وهي في النساء أوفر[٤].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [المائدة:٤٠]

قدم التعذيب على المغفرة هنا، لتقدم السرقة على التوبة[٥].

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة:٤٤]

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٢٩).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ١٨١).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص٨٥).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٤٤٥).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٤٤٦)، التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٣١).

﴿ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾ صفة أجريت للنبيين على سبيل المدح، وأريد بإجرائها التعريض باليهود؛ لأنهم بُعداء من ملة الإسلام التي هي دين الأنبياء كلهم[1].

﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤٧﴾ [المائدة:٤٧]

الآية تدل على أن الإنجيل مشتمل على الأحكام، وأن اليهودية منسوخة ببعثة عيسى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأنه كان مستقلًا بالشرع[2].

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٤٨﴾ [المائدة:٤٨]

كرر النهي عن اتباع أهوائهم لشدة التحذير منها؛ ولأن ذلك في مقام الحكم والفتوى، وهو أوسع، وهذا في مقام الحكم وحده، وكلاهما يلزم فيه أن لا يتبع أهواءهم المخالفة للحق، ولهذا قال: ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ أي: إياك والاغترار بهم، وأن يفتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك، فصار اتباع أهوائهم سببا موصلا إلى ترك الحق الواجب، والفرض اتباعه[3].

﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ٤٩﴾ [المائدة:٤٩]

﴿بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ﴾ هذا الإبهام لتعظيم التولي، وفيه تعظيم الذنوب؛ فإن الذنوب بعضها مهلك، فكيف بكلها؟[4]

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٤٤٩)، جامع البيان، للإيجي (١/ ٤٦٨).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٢٩).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٢٣٤).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٤٥٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤]

- فيه دليل نبوته عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ حيث أخبرهم بما لم يكن فكان، وإثبات خلافة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنه جاهد المرتدين، وفي صحة خلافته وخلافة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[١].

- ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ لأن المنافقين كانوا يراقبون الكفار ويظاهرونهم، ويخافون لومهم، فأعلم الله أن الصحيح الإيمان لا يخاف في نصرة الدين بيده ولسانه لومة لائم[٢].

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة: ٥٥]

- إنما قال: ﴿وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل: أولياؤكم؛ للتنبيه على أن الولاية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الأصالة، ولرسوله ﷺ وللمؤمنين على التبع[٣].

- إنما أفرد الركوع بالذكر تشريفا له[٤].

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة: ٥٨]

- فيه دليل على ثبوت الأذان بنص الكتاب لا بالمنام وحده[٥].

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة: ٦٠]

- ﴿مَثُوبَةً﴾ هي من الثواب، ووضع الثواب موضع العقاب تهكما بهم[٦].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٤٥٤).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٢٠٠).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٣٢).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٢٠٢).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٤٥٧).
(٦) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٣٧).

﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ فيه مبالغة ليست في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ﴾، قيل: لأن مكانهم سقر[1].

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة: ٦٢-٦٣]

قال الضحاك: ما في القرآن آية أخوف عندي من هذه الآية، ذم الله الفريقين: اليهود، والعلماء بترك النكير عليهم فيما صنعوا، ودلت الآيتان على أن: تارك النهي عن المنكر بمنزلة مرتكبه[2].

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أبلغ من قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾؛ من حيث إن الصنع عمل الإنسان بعد تدرب فيه وتروٍّ وتحري إجادة، ولذلك ذم به خواصهم؛ ولأن ترك الحسبة أقبح من مواقعة المعصية؛ لأن النفس تلتذ بها وتميل إليها، ولا كذلك ترك الإنكار عليها، فكان جديرا بأبلغ الذم[3].

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: ما في القرآن آية أشد توبيخا من هذه الآية[4].

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: ٦٤]

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ جعلوا بخلاء وألزموا البخل، فهم أبخل قوم، ولا يلقى يهودي أبدا غير لئيم بخيل[5].

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ قال قتادة: هذا عام في كل حرب طلبتها

---

(١) جامع البيان، للإيجي (١/ ٤٧٩).
(٢) ينظر: التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٢٠٥).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٣٤).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ١٤٤).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٢٠٦).

اليهود، فلا تلقى اليهود ببلدة إلا وجدتهم من أذل الناس[1]، فيكون على هذا إخبار بغيب، وبشارة للمسلمين[2].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة:٦٦]

دلت الآية على أن العمل بطاعة الله تعالى سبب لسعة الرزق[3].

جعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد، وهو أوسط مقامات هذه الأمة، وفوق ذلك رتبة السابقين، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر:٣٢][4].

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة:٧٣]

﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وضعه موضع: (ليمسنهم)؛ تكريرًا للشهادة على كفرهم، وتنبيهًا على أنَّ العذاب على مَن دام على الكفر ولم ينقلع عنه[5]، أو للتبعيض، أي: ليمسن الذين بقوا على الكفر منهم؛ لأن كثيرًا منهم تابوا عن النصرانية[6].

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة:٧٥]

﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ أي: مؤمنة به مصدقة له، وهذا أعلى مقاماتها، فدل على أنها ليست بنبيَّة[7].

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٢٠٧).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٣٧).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٤٦٠).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ١٤٩).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٣٨).
(٦) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٤٦٥).
(٧) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ١٥٨).

﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٧٩﴾ [المائدة:٧٩]

فيه دليل على أن ترك النهي عن المنكر من العظائم، فيا حسرة على المسلمين في إعراضهم عنه[1].



﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٨٢﴾ [المائدة:٨٢]

فيه دليل على أن التواضع والإقبال على العلم والعمل والإعراض عن الشهوات محمود، وإن كانت من كافر[2].

﴿قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ أي علماء وعبادًا.. وفيه دليل على أن العلم أنفع شيء، وأهداه إلى الخير[3].

إخبار عن شدة عداوة اليهود وعبدة الأوثان للمسلمين.. وهذا الأمر باق إلى آخر الدهر، فكل يهودي شديد العداوة للإسلام والكيد لأهله[4].

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ﴾ وما ذاك إلا لأن كفر اليهود عناد وجحود ومباهتة للحق، وغمط للناس وتنقص بحملة العلم[5].

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ﴾ وما ذاك

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٤٦٧).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٤٠).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٤٦٨).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٤٠).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ١٦٦).

إلا لما في قلوبهم -إذ كانوا على دين المسيح- من الرقة والرأفة[1].

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) ﴾ [المائدة:٨٣]

جُعلت أعينهم من كثرة البكاء كأنها تسيل بأنفسها[2].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) ﴾ [المائدة:٨٧-٨٨]

كأنه لما تضمن ما قبله مدح النصارى على ترهبهم والحث على كسر النفس ورفض الشهوات، عقبه النهي عن الإفراط في ذلك والاعتداء عما حد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بجعل الحلال حرامًا[3].

دلت الآية الكريمة على أنه إذا حرم حلالا عليه من طعام وشراب، وسرية وأمة، ونحو ذلك، فإنه لا يكون حراما بتحريمه، لكن لو فعله فعليه كفارة يمين.. ويدخل في هذه الآية أنه لا ينبغي للإنسان أن يتجنب الطيبات ويحرمها على نفسه، بل يتناولها مستعينا بها على طاعة ربه[4].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) ﴾ [المائدة:٩٠]

قال الزجاج: بالغ الله تعالى في ذم هذه الأشياء فسماها رجسا، وأعلم أن الشيطان يسول ذلك لبني آدم، وقد قرن الله تعالى تحريم الخمر بتحريم عبادة الأوثان تغليظا وإبلاغا في النهي عن شربها[5].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ١٦٧).
(٢) جامع البيان، للإيجي (١/ ٤٨٩).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٤١).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٢٤٢).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٢٢٦).

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة: ٩١]

خص الصلاة من الذكر بالإفراد للتعظيم، والإشعار بأن الصاد عنها كالصاد عن الإيمان من حيث إنها عماده، والفارق بينه وبين الكفر[١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾ [المائدة: ٩٤]

إنما قلَّله في قوله: ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ إشعارًا بأنه ليس من الفتن العظيمة، وإنما هو من الأمور التي يمكن الصبر عنها[٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾ [المائدة: ٩٥]

قال جمهور الفقهاء: المتعمد والناسي سواء في وجوب الجزاء، ثم اختلفوا في قوله: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ على ثلاثة أقوال: أحدها: أن المتعمد إنما ذكر ليناط به الوعيد في قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾؛ إذ لا وعيد على الناسي، والثاني: أن الجزاء على الناسي بالقياس على المتعمد، والثالث: أن الجزاء على المتعمد ثبت بالقرآن، وأنّ الجزاء على الناسي ثبت بالسنة[٣] من أحكام النبي ﷺ وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ.. وأيضا فإن قتل الصيد إتلاف، والإتلاف مضمون في العمد وفي النسيان، لكن المتعمد مأثوم والمخطئ غير ملوم[٤].

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ [المائدة: ٩٧]

قال ابن الأنباري: ذكر الله في هذه السورة غيوبا كثيرة من أخبار الأنبياء عليهم

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٤٢).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٤٣).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٤٤).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ١٩٢).

السلام وأتباعهم، وأشياء من أحوال المنافقين واليهود كانت مستورة عن النبي ﷺ والمسلمين، فلما دل عليها قال: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [المائدة:١٠٦-١٠٨]

﴿إِذَا حَضَرَ﴾ ظرف للشهادة، ﴿حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ﴾ بدل منه، وفي إبداله منه دليل على وجوب الوصية؛ لأن حضور الموت من الأمور الكائنة، وحين الوصية بدل منه، فيدل على وجوب الوصية، ولو وجدت بدون الاختيار لسقط الابتلاء، فنقل إلى الوجوب[2].

وفيه دليل على أن الوصية مما لا ينبغي التساهل فيها[3].

أضيفت الشهادة إلى الله لأمره بإقامتها، والنهي عن كتمانها[4].

وأضافها إلى الله تشريفا لها، وتعظيما لأمرها[5].

يستدل بالآيات الكريمات على عدة أحكام: منها:[6] أنها معتبرة، ولو كان الإنسان وصل إلى مقدمات الموت وعلاماته، ما دام عقله ثابتا.

ومنها: أن شهادة الوصية لا بد فيها من اثنين عدلين.

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٢٣٢).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٤٨١).
(٣) جامع البيان، للإيجي (١/ ٥٠٤).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٢٤١).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٢١٧).
(٦) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (١/ ٢٤٦).

ومنها: أن شهادة الكافرين في هذه الوصية ونحوها مقبولة لوجود الضرورة، وهذا مذهب الإمام أحمد. وزعم كثير من أهل العلم: أن هذا الحكم منسوخ، وهذه دعوى لا دليل عليها.

ومنها: أنه ربما استفيد من تلميح الحكم ومعناه: أن شهادة الكفار -عند عدم غيرهم، حتى في غير هذه المسألة- مقبولة، كما ذهب إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية.

ومنها: جواز سفر المسلم مع الكافر إذا لم يكن محذور.

ومنها: جواز السفر للتجارة.

ومنها: أن الشاهدين إذا ارتيب منهما، ولم تبد قرينة تدل على خيانتهما، وأراد الأولياء أن يؤكدوا عليهم اليمين، ويحبسوهما من بعد الصلاة، فيقسمان بصفة ما ذكر الله تعالى.

ومنها: أنه إذا لم تحصل تهمة ولا ريب لم يكن حاجة إلى حبسهما، وتأكيد اليمين عليهما.

ومنها: أنه يجوز امتحان الشاهدين عند الريبة منهما، وتفريقهما لينظر عن شهادتهما.

ومنها: أنه إذا وجدت القرائن الدالة على كذب الوصيين في هذه المسألة، قام اثنان من أولياء الميت فأقسما بالله: أن أيماننا أصدق من أيمانهما، ولقد خانا وكذبا، ثم يدفع إليهما ما ادعياه، فتكون القرينة -مع أيمانهما- قائمة مقام البينة[1].

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة:١١٠]

هذا الامتنان يكون واقعا يوم القيامة، وعبر عنه بصيغة الماضي دلالة على

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (١/ ٢٤٦).

وقوعه لا محالة، وهذا من أسرار الغيوب التي أطلع الله عليها رسوله محمداً ﷺ[1].

- ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ وما وصل إلى سن من الكهولة، ففيه إشارة إلى نزوله من السماء، وهو آية من آياته[2].

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة:١١٨]

- ما مناسبة قوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾، لقوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ والأليق مع ذكر المغفرة أن لو قيل: فإنك أنت الغفور الرحيم؟ **والجواب من ثلاثة أوجه:**

الأول: يظهر لي أنه لما قصد التسليم لله والتعظيم له، كان قوله: فإنك أنت العزيز الحكيم أليق؛ فإن الحكمة تقتضي التسليم له، والعزة تقتضي التعظيم له.

الجواب الثاني: إنما لم يقل: الغفور الرحيم؛ لئلا يكون في ذلك تعريض في طلب المغفرة لهم، فاقتصر على التسليم والتفويض دون الطلب؛ إذ لا تطلب المغفرة للكفار..

الثالث:.. الوقف على قوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ويجعل: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ استئنافا، وجواب (إن) في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ كأنه قال: إن تعذبهم وإن تغفر لهم فإنهم عبادك على كل حال[3].

- قد يكون العفو من المخلوق للمخلوق لضعف، أو لا يكون في موضعه، والله يغفر عن عزة وحكمة[4].

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة:١٢٠]

- إشارة إلى أن الآمال يجب أن تتعلق بالله تعالى لعظيم ملكه وسعة قدرته[5].



(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٢٢٤).
(٢) جامع البيان، للإيجي (١/ ٥٠٩).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٥٢).
(٤) وجه النهار، للحربي (ص٩٢).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٢٤٩).



قال كعب: أول الأنعام هو أول التوراة(١).

اعلم أن هذه السورة الكريمة، قد اشتملت على تقرير التوحيد، بكل دليل عقلي ونقلي، بل كادت أن تكون كلها في شأن التوحيد ومجادلة المشركين بالله المكذبين لرسوله ﷺ(٢). قال أبو إسحاق الإسفرائيني: «عقائد التوحيد كلها جمعت في هذه السورة»(٣).

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام:١]

الفرق بين ﴿خَلَقَ﴾ و﴿جَعَلَ﴾ الذي له مفعول واحد: أن الخلق فيه معنى التقدير، والجعل فيه معنى التضمن؛ ولذلك عبر عن إحداث النور والظلمة بالجعل، تنبيهًا على أنهما لا يقومان بأنفسهما كما زعمت الثنوية، وجمع الظلمات لكثرة أسبابها والأجرام الحاملة لها، أو لأن المراد بالظلمة الضلال، وبالنور الهدى، والهدى واحد والضلال متعدد(٤).

جمع السماوات؛ لظهور تعددها دون الأرض(٥).

جمع لفظ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ووحد لفظ ﴿ٱلنُّورَ﴾؛ لكونه أشرف، كما قال: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل:٤٨]، وكما قال في آخر هذه السورة: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام:١٥٣](٦).

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٥٢).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٢٥١).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص٩٢).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٥٣).
(٥) جامع البيان، للإيجي (١/ ٥١٥).
(٦) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٢٣٩).

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [الأنعام:٧]

اللمس أبلغ في إيقاع العلم من المعاينة، فإن الأكثر أنه بعد المعاينة، وأكثر السحر والتزوير في المراءي، ولا يقع التزوير في اللمس، فلا يمكنهم أن يقولوا: إنما سكرت أبصارنا[١].

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨﴾ [الأنعام:٨]

معنى ﴿ثُمَّ﴾ [الأنعام:١] بُعد ما بين الأمرين: قضاء الأمر وعدم الإنظار، جعل عدم الإنظار أشد من قضاء الأمر؛ لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة[٢].

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾ [الأنعام:١١]

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾ الفرق بين ﴿فَٱنظُرُوا۟﴾ [آل عمران:١٣٧] وبين ﴿ثُمَّ ٱنظُرُوا۟﴾ [الأنعام:١] أن النظر جعل مسببًا عن السير في ﴿فَٱنظُرُوا۟﴾، فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر ولا تسيروا سير الغافلين، ومعنى ﴿ثُمَّ ٱنظُرُوا۟﴾ [الأنعام:١] إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ونبه على ذلك بثم لتباعد ما بين الواجب والمباح[٣].

﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝١٩﴾ [الأنعام:١٩]

كان مجاهد يقول: حيثما يأتي القرآن فهو داع ونذير، ثم قرأ هذه الآية، وقال القرظي: من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ وكلمه[٤].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢١﴾ [الأنعام:٢١]

إنما ذكر ﴿أَوْ﴾ وهم قد جمعوا بين الأمرين، تنبيهًا على أن كلًّا منهما وحده

---

(١) جامع البيان، للإيجي (١/ ٥١٦).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٤٩٢).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٤٩٢)، التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٥٥).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٢٥٩).

بالغ غاية الإفراط في الظلم على النفس[١].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام:٢٥]

هذه الآية دلالة صريحة على أن الله تعالى يقلب القلوب، فيشرح بعضها للهدى، ويجعل بعضها في أكنة، فلا يفقه صاحبها كلام الله تعالى ولا يؤمن به، وهو قوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾[٢].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنعام:٣٠]

وضع ﴿إِذْ﴾ موضع ﴿إِذَا﴾؛ لتحقيق وقوع الفعل حتى كأنه ماض[٣].

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام:٣٢]

فيه دليل على أن ما سوى أعمال المتقين لعب ولهو[٤].

﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام:٣٦]

يعني بذلك: الكفار؛ لأنهم موتى القلوب، فشبههم الله بأموات الأجساد، فقال: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ وهذا من باب التهكم بهم، والازدراء عليهم[٥].

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام:٣٧]

إن قيل: فقد أتى بآية ومعجزاته كثيرة فلِمَ طلبوا آية؟ **فالجواب من وجهين:**

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٥٧).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٢٦١).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٥٨).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٠٠).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٢٥٣).

أحدهما: أنهم لم يعتدّوا بما أتى به، وكأنه لم يأت بشيء عندهم، لعنادهم وجحدهم، والآخر: أنهم إنما طلبوا آية تضطرهم إلى الإيمان من غير نظر ولا تفكر[1].

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام:٣٨]

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ إتيان الصفة لدابة وطائر لزيادة التعميم والمبالغة، بحيث لا يبقى وهْم خروجِ شيءٍ من الأفراد؛ لكون الوصفين من أوصاف الجنس دون النوع، فيشعر بأن القصد فيها إلى الجنس[2].

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام:٤٣]

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ حاصله نفي التضرع، لكن جاء بـ﴿لَوْلَآ﴾ ليفيد أنه لم يكن لهم عذر سوى العناد والقساوة؛ لأن ﴿لَوْلَآ﴾ يفيد اللوم والتنديم، وذلك إنما يحسن إذا لم يكن في ترك الفعل عذر وعنه مانع[3].

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام:٤٤]

قال الحسن: من وسع عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له، ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر إليه فلا رأي له، ثم قرأ هذه الآية، وقال: مكر بالقوم ورب الكعبة، أعطوا حاجاتهم ثم أخذوا[4].

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام:٤٥]

قال الزجاج: حمد الله نفسه على أن قطع دابرهم؛ لأن ذلك نعمة على الرسل الذين كذبوهم، فذكر الحمد ههنا تعليم لهم ولمن آمن بهم أن يحمدوا الله على كفايته

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٦٠).
(٢) جامع البيان، للإيجي (١/ ٥٢٩).
(٣) جامع البيان، للإيجي (١/ ٥٣٣).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٢٧١).

شر الذين ظلموا، وليحمد محمد وأصحابه ربهم إذا أهلك المشركين المكذبين[١].

✍ ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على إهلاكهم؛ فإن هلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم وأعمالهم، نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها[٢].

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنعام:٤٩]

✍ جعل العذاب ماسًا، كأنه حي يفعل بهم ما يريد من الآلام[٣].

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام:٥٤]

✍ كل من عصى الله، فهو جاهل[٤].

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنعام:٥٦]

✍ فيه إشارة إلى علة النهي، ومبدأ ضلالهم؛ فإن طريقهم اتباع الهوى لا الهدى[٥].

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام:٦٣-٦٤]

✍ إنما وضع ﴿تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ موضع لا تشكرون، تنبيهًا على أن من أشرك في عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فكأنه لم يعبده رأسًا[٦].

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٢٧٢).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٦٢).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٠٥).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٢٦٢).
(٥) جامع البيان، للإيجي (١/ ٥٤٠).
(٦) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٦٦).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام:٧٣]

هذا يدل على سرعة أمر البعث والساعة، كأنه قال: ويوم يقول للخلق: موتوا فيموتون، وانتشروا فينتشرون[١].

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنعام:٧٧]

إنما احتج عليهم بالأفول دون البزوغ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال؛ لأن الاحتجاج به أظهر؛ لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب[٢].

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام:٨١]

إنما لم يقل: (أينا؟ أنا أم أنتم)؛ احترازًا من تزكية نفسه[٣].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام:٨٤]

﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ عدَّ هُداه نعمةً على إبراهيم، من حيث إنه أبوه، وشرف الوالد يتعدى إلى الولد[٤].

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام:٨٥]

﴿وَعِيسَىٰ﴾ هو ابن مريم، وفي ذكره دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنت[٥]،

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٢٨٨).

(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥١٧).

(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٧٠)، مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥١٨).

(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٧٠)، جامع البيان، للإيجي (١/ ٥٥٤).

(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٧١)، مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥١٩)، التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٦٨).

فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته، أو وقف على ذريته أو وهبهم، دخل أولاد البنات فيهم[١].

﴿وَعِيسَىٰ﴾ ذكر ضمن ذرية نوح، واستدل بذلك على أن الذرية تصدق على ولد البنت[٢].

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام:٨٦]

فيه دليل على فضلهم على من عداهم من الخلق[٣].

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام:٩١]

أمره بأن يجيب عنهم؛ إشعارًا بأن الجواب متعين لا يمكن غيره، وتنبيهًا على أنهم بهتوا بحيث إنهم لا يقدرون على الجواب[٤].

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام:٩٢]

خُصت الصلاة بالذكر؛ لأنها عَلم الإيمان وعماد الدين فمن حافظ عليها يحافظ على أخواتها ظاهرًا[٥].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام:٩٣]

في هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه، فإن هذا الخطاب، والعذاب الموجه

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٢٩٨).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص١٠٠).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٧١).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٧٢).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٢١).

إليهم، إنما هو عند الاحتضار وقبيل الموت وبعده[1].

❁ وفيه دليل، على أن الروح جسم، يدخل ويخرج، ويخاطب، ويساكن الجسد، ويفارقه، فهذه حالهم في البرزخ[2].

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام:٩٦]

❁ ما أحسن ذكر هذين الاسمين هنا؛ لأن ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ يغلب كل شيء ويقهره، وهو قد قهر الشمس والقمر وسخرهما كيف شاء، و﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ لما في تقدير الشمس والقمر والليل والنهار من العلوم والحكمة العظيمة وإتقان الصنعة[3].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام:٩٧-٩٨]

❁ ذكر مع ذكر النجوم: ﴿يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾؛ لأن أمرها ظاهر، ومع ذكر تخليق بني آدم: ﴿يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾؛ لأن إنشاءهم من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة دقيق غامض يحتاج إلى استعمال فطنة وتدقيق نظر[4].

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنعام:١٠٠]

❁ **إن قيل**: فكيف عُبِدت الجن وإنما كانوا يعبدون الأصنام؟ **فالجواب**: أنهم إنما عبدوا الأصنام عن طاعة الجن، وأمرهم إياهم بذلك[5].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٢٦٤).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٢٦٤).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٧٠).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٧٤)، مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٢٥)، جامع البيان، للإيجي (١/ ٥٦٢).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٣٠٧).

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام:١٠١]

لم يقل: وهو به عليم؛ لأن علمه أشمل من خلقه[١].

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام:١٠٨]

فيه دليل على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة وجب تركها؛ فإن ما يؤدي إلى الشر شر[٢].

في هذه الآية الكريمة، دليل للقاعدة الشرعية، وهي أن الوسائل تعتبر بالأمور التي توصل إليها، وأن وسائل المحرم -ولو كانت جائزة- تكون محرمة إذا كانت تفضي إلى الشر[٣].

الآية أصل أصيل في أن درء المفسدة مقدم على طلب المصلحة، وسد الذرائع[٤].



الجُزْءُ الثَّامِنُ

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام:١١٤]

﴿حَكَمًا﴾ أبلغ من: حاكم؛ ولذلك لا يوصف به غير العادل[٥].

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأنعام:١٢٠]

نهى الله عباده، عن اقتراف الإثم الظاهر والباطن، أي: السر والعلانية،

---

(١) جامع البيان، للإيجي (١/ ٥٦٤).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٧٧).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٢٦٨).
(٤) وجه النهار، للحربي (ص١٠٣).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٧٩).

المتعلقة بالبدن والجوارح، والمتعلقة بالقلب، ولا يتم للعبد ترك المعاصي الظاهرة والباطنة إلا بعد معرفتها والبحث عنها، فيكون البحث عنها ومعرفة معاصي القلب والبدن، والعلمُ بذلك واجبا متعينا على المكلف، وكثير من الناس تخفى عليه كثير من المعاصي، خصوصا معاصي القلب، كالكبر والعجب والرياء، ونحو ذلك، حتى إنه يكون به كثير منها، وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم، وعدم البصيرة[١].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾ [الأنعام:١٢١]

استدل بهذه الآية الكريمة على أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها، وإن كان الذابح مسلمًا[٢].

قال الزجاج: وفي هذا دليل على أن كل من أحل شيئا مما حرم الله، أو حرم شيئا مما أحل الله فهو مشرك[٣].

﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)﴾ [الأنعام:١٢٢]

وجه المناسبة في ضرب المثلين ههنا بالنور والظلمات: ما تقدم في أول السورة: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[٤].

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣)﴾ [الأنعام:١٢٣]

خص الأكابر وهم الرؤساء؛ لأن ما فيهم من الرياسة والسعة أدعى لهم إلى المكر والكفر من غيرهم[٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٢٧١).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٤٠).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٣١٧).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٣٣٠).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٣٤).

قال عطاء: وهذه الآية أمر بذكر الله على الذبح والأكل والشرب[1].

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤)﴾ [الأنعام:١٢٤]

لما كان المكر غالبا إنما يكون خفيا، وهو التلطف في التحيل والخديعة، قوبلوا بالعذاب الشديد جزاء وفاقا[2].

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠)﴾ [الأنعام:١٣٠]

إن قيل: لِم كرّر شهادتهم على أنفسهم؟ **فالجواب أن قولهم**: ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا﴾ قول قالوه هم، وقوله: ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا﴾ ذل لهم وتقبيح لحالهم[3].

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥)﴾ [الأنعام:١٣٥]

فيه مع الإنذار، إنصاف في المقال وحسن الأدب، وتنبيه على وثوق المنذر بأنه محق[4].

﴿۞ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١)﴾ [الأنعام:١٤١]

في هذه الآية دليل على وجوب الزكاة في الثمار، وأنه لا حول لها، بل حولها حصادها في الزروع، وجذاذ النخيل، وأنه لا تتكرر فيها الزكاة، لو مكثت عند العبد

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٧٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٣٣٤).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٧٥).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٨٣).

أحوالا كثيرة، إذا كانت لغير التجارة، لأن الله لم يأمر بالإخراج منه إلا وقت حصاده، وأنه لو أصابها آفة قبل ذلك بغير تفريط من صاحب الزرع والثمر، أنه لا يضمنها، وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يحسب ذلك من الزكاة، بل يزكي المال الذي يبقى بعده[١]؛ لقوله: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ فقيل: فائدته: رخصة المالك في الأكل منه قبل أداء حق الله تعالى[٢].

❁ فائدة ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾ أن يعلم أن أول وقت الإباحة وقت إطلاع الشجر الثمر، ولا يتوهم أنه لا يباح إلا إذا أدرك[٣].

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام: ١٥٠]

❁ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر، للدلالة على أن من كذب بآيات الله فهو متبع للهوى؛ إذ لو تبع الدليل لم يكن إلا مصدقًا بالآيات موحدًا له[٤].

﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: ١٥١]

❁ هذه الآيات إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ قال المفسرون: هذه الآيات محكمات لم ينسخهن شيء، من عمل بهن دخل الجنة، ومن تركهن دخل النار[٥].

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٢٧٦).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٥٤٢)، جامع البيان، للإيجي (١/ ٥٨٥).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٤٢).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٤٧).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٣٣٩).

ذكر في هذه الآيات (المحرمات) التي أجمعت عليها جميع الشرائع، ولم تنسخ قط في ملة[١].

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وضعه موضع النهي عن الإساءة إليهما؛ للمبالغة وللدلالة على أن ترك الإساءة في شأنهما غير كاف، بخلاف غيرهما[٢].

قال في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾، أي: لا تقتلوهم خوفا من الفقر في الآجل؛ ولهذا قال هناك: ﴿نحن نرزقهم وإياكم﴾ فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي: لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم، فهو على الله، وأما في هذه الآية، فلما كان الفقر حاصلا قال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾؛ لأنه الأهم ههنا[٣].

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام:١٥٢]

﴿بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إنما أتبع الأمر بإيفاء الكيل والميزان ذلك؛ لأن مراعاة الحد من القسط الذي لا زيادة ولا نقصان فيه، مما فيه حرج، فأمر ببلوغ الوسع، وأن ما وراءه معفو عنه[٤].

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣]

إنما وحد سبيله؛ لأن الحق واحد، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها[٥].

قدم ﴿تَتَّقُونَ﴾ و﴿تَذَكَّرُونَ﴾ على التقوى؛ لأنهما من أسبابها[٦].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٧٩).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٨٨)، جامع البيان، للإيجي (١/ ٥٩١).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٣٦٢).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٤٨).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٣٦٧).
(٦) وجه النهار، للحربي (ص١٠٧).

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأنعام:١٥٤]

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ معطوف على ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾، **فإن قيل**: فإن إيتاء موسى الكتاب متقدم على هذه الوصية، فكيف عطفه عليها بـ ﴿ثُمَّ﴾؟ **فالجواب**: أن هذه الوصية قديمة لكل أمة على لسان نبيها، فصح الترتيب، **وقيل**: إنها هنا لترتيب الأخبار والقول، لا لترتيب الزمان[١].

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام:١٥٥]

فيه الدعوة إلى اتباع القرآن، يرغب سبحانه عباده في كتابه ويأمرهم بتدبره والعمل به والدعوة إليه، ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به في الدنيا والآخرة؛ لأنه حبل الله المتين[٢].

﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأنعام:١٥٦]

دليل على أن المجوس ليسوا بأهل كتاب[٣].

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام:١٥٨]

في هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى كالاستواء والنزول والإتيان لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من غير تشبيه له بصفات المخلوقين، وفي الكتاب والسنة من هذا شيء كثير[٤].

وفيه: أن من جملة أشراط الساعة: طلوع الشمس من مغربها.

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٨١).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٣٦٩).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٥٠).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٢٨١).

ﭬ وأن الله تعالى حكيم قد جرت عادته وسنته أن الإيمان إنما ينفع إذا كان اختياريا لا اضطراريا.

ﭬ وأن الإنسان يكتسب الخير بإيمانه، فالطاعة والبر والتقوى إنما تنفع وتنمو إذا كان مع العبد الإيمان، فإذا خلا القلب من الإيمان لم ينفعه شيء من ذلك[1].

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)﴾ [الأنعام:١٦٥]

ﭬ وصف العقاب ولم يضفه إلى نفسه، ووصف ذاته بالمغفرة وضم إليه الوصف بالرحمة، وأتى ببناء المبالغة واللام المؤكدة تنبيهًا على أنه تعالى كثير الرحمة مبالغ فيها،كثير العقوبة مسامح فيها[2].



---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٢٨١).

(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ١٩٢).



سورة الأعراف

﴿الٓمٓصٓ ١﴾ [الأعراف:١]

یتمثل في خلدي: أن هذه الحروف ترمز إلى أشياء وردت في السورة المفتتحة بها، ولذلك شواهد[١].

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾ [الأعراف:٢]

سمي الشك: حرجًا؛ لأن الشاك ضيق الصدر حرجه، كما أن المتيقن منشرح الصدر منفسحه[٢].

﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ٤﴾ [الأعراف:٤]

في التعبيرين مبالغة في غفلتهم وأمنهم من العذاب؛ ولذلك خص الوقتين؛ ولأنهما وقت دعة واستراحة، فيكون مجيء العذاب فيهما أفظع[٣].

﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨﴾ [الأعراف:٨]

الذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل: الأعمال.. وقيل: يوزن كتاب الأعمال، كما جاء في حديث البطاقة..وقيل: يوزن صاحب العمل.. وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحا، فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها[٤].

---

(١) وجه النهار، للحربي (ص١٠٩).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٥٤).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٥).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٣٨٩).

﴿ إنما قال: ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾ على الجمع؛ لأن ﴿مَن﴾ في معنى الجمع، ألا ترى أنه قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨﴾ بالجمع، وبعض المفسرين يذهب إلى أن الوزن يعود إلى الصحف التي فيها أعمال العباد[١].

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ١١﴾ [الأعراف:١١]

﴿ ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ يعني: آدم، وإنما قال بلفظ الجمع؛ لأنه أبو البشر، وفي خلقه خلق من يخرج من صلبه[٢].

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾ [الأعراف:١٢]

﴿ دليل على أن الأمر المطلق للوجوب والفور؛ ولذلك وقع العقاب على ترك المبادرة بالسجود.[٣]

﴿ السؤال عن المانع من السجود مع علمه به، للتوبيخ، ولإظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله، وتحقيره أصل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ[٤].

﴿ قال ابن عباس: كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس، فعصى ربه وقاس، وأول من قاس إبليس، فكفر بقياسه، فمن قاس الدين بشيء من رأيه، قرنه الله مع إبليس، وإنما كفر إبليس؛ لأنه قاس في مخالفة النص، وإنما يذم من القياس ما خالف النص[٥].

﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾ [الأعراف:١٣]

﴿ به عُلِم أن الصَّغار لازم للاستكبار[٦].

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٣٥٠).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٣٥٢).
(٣) ينظر: أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٧)، مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٥٧)، التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٨٥).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٥٧).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٣٥٣).
(٦) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٥٨).

﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ۝ ﴾ [الأعراف:١٤-١٥]

إنما أجيب إلى ذلك: لما فيه من الابتلاء، وفيه تقريب لقلوب الأحباب؛ أي: هذا بري بمن يسبني، فكيف بمن يحبني؟ وإنما جسّره على السؤال مع وجود الزلل منه في الحال، علمُه بحلم ذي الجلال[١].

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۝ ﴾ [الأعراف:١٧]

قيل: لم يقل: (من فوقهم)؛ لأن الرحمة تنزل منه، ولم يقل: (من تحتهم)؛ لأن الإتيان منه يوحش الناس[٢].

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝ ﴾ [الأعراف:٢٠]

فيه دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور، وأنه لم يزل مستقبحًا في الطباع والعقول[٣].

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ ﴾ [الأعراف:٢٣]

فمن أشبه آدم بالاعتراف وسؤال المغفرة والندم والإقلاع -إذا صدرت منه الذنوب- اجتباه ربه وهداه، ومن أشبه إبليس -إذا صدر منه الذنب لا يزال يزداد من المعاصي- فإنه لا يزداد من الله إلا بُعْدًا[٤].

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝ ﴾ [الأعراف:٢٦]

هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدوّ السوآت، وخصف الورق عليها، إظهارًا للمنة فيما خلق من اللباس، ولما في العري من الفضيحة، وإشعارا بأن

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٥٨).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٧)، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٣٩٥).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٦٠).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٢٨٥).

التستر من التقوى[(١)].

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأعراف:٢٨-٣٠]

☜ في هذه الآيات دليل على أن الأوامر والنواهي تابعة للحكمة والمصلحة؛ حيث ذكر تعالى أنه لا يتصور أن يأمر بما تستفحشه وتنكره العقول، وأنه لا يأمر إلا بالعدل والإخلاص[(٢)].

☜ وفيه دليل على أن الهداية بفضل الله ومَنِّه، وأن الضلالة بخذلانه للعبد، إذ تولى -بجهله وظلمه- الشيطانَ، وتسبب لنفسه بالضلال، وأن من حسب أنه مهتدٍ وهو ضالٌّ، أنه لا عذر له، لأنه متمكن من الهدى، وإنما أتاه حسبانه من ظلمه بترك الطريق الموصل إلى الهدى[(٣)].

﴿ ۞ يَا بَنِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف:٣١]

☜ فيه دليل على وجوب ستر العورة في الصلاة[(٤)].

☜ قال الأطباء: إن الطب كله مجموع في هذه الآية[(٥)].

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأعراف:٣٢]

☜ فيه دليل على أن الأصل في المطاعم والملابس وأنواع التجملات الإباحة[(٦)].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٦٢).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٢٨٦).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٢٨٦).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١١).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٨٧).
(٦) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١١).

﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا يشركهم فيها أحد، ولم يقل: للذين آمنوا ولغيرهم، لينبه على أنها خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة، والكفار تبع لهم[١].

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف:٣٥-٣٦]

إدخال الفاء في الخبر الأول دون الثاني؛ للمبالغة في الوعد والمسامحة في الوعيد[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأعراف:٤٢]

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ جملة معترضة بين المبتدأ والخبر؛ للترغيب والإعلام بأن هذه المرتبة الجليلة ممكنة الوصول إليها بسهولة[٣].

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف:٤٣]

قال: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ بلفظ (الماضي) وهو (مستقبل)؛ لتحقق وقوعه في المستقبل، حتى عبر عنه بما يعبر عن الواقع.

وكذلك كل ما جاء بعد هذا من الأفعال الماضية في اللفظ، وهي تقع في الآخرة؛ كقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٤٤]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ﴾ [الأعراف:٤٨]، وغير ذلك[٤].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٦٥).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٤١٥)، جامع البيان، للإيجي (١/ ٦١٥).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٨٨).

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [الأعراف:٤٤]

﴿فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗا﴾ إنما لم يقل: ما وعدكم، كما قال: ﴿مَا وَعَدَنَا﴾؛ لأن ما ساءهم من الموعود لم يكن بأسره مخصوصًا وعدُهُ بهم، كالبعث والحساب ونعيم أهل الجنة[١].

﴿وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧﴾ [الأعراف:٤٧]

فيه إشارة إلى أن نظرهم إلى أصحاب النار لا برغبة منهم وميل[٢].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠﴾ [الأعراف:٥٠]

فيه دليل على أن الجنة فوق النار.. وإنما سألوا ذلك مع يأسهم عن الإجابة؛ لأن المتحيّر ينطق بما يفيد، وبما لا يفيد[٣].

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف:٥٤]

لم يقل: ويغشي النهار الليل؛ لأن في الكلام دليلا عليه، وهذا كما قال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل:٨١]، ولم يذكر البرد للعلم به[٤].

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥﴾ [الأعراف:٥٥]

السنة والأدب في الدعاء أن يكون خفيا لهذه الآية[٥]، و﴿ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾: قيل هنا هو: رفع الصوت بالدعاء[٦].

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٤).
(٢) جامع البيان، للإيجي (١/ ٦١٧).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٧١).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٣٧٦).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٣٧٧).
(٦) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٩٠).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف:٥٧]

﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ رياح المطر في جميع القرآن؛ وهي ريح رحمة، والريح بالإفراد: للعذاب، إلا موضعا في سورة يونس[1].

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف:٥٨]

الآية مثل لمن تدبر الآيات وانتفع بها، ولمن لم يرفع إليها رأسًا ولم يتأثر بها[2].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾ [الأعراف:٦١]

لم يقل: ضلال -كما قالوا-؛ لأن الضلالة أخص من الضلال، فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه، كأنه قال: ليس بي شيء من الضلال[3]، كما إذا قيل لك: عندك تمر؟ فتقول: ما عندي تمرة، فتعم بالنفي[4].

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأعراف:٦٦]

من أشرافهم من آمن به -فظهر فائدة قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، حيث لم يقل: قال الملأ من قومه، كما في قصة نوح[5].

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأعراف:٦٦-٦٧]

اكتفى بنفي ما نسبوه إليه، ولم يسفههم كما سفهوه، وذلك خلق عظيم وأدب

(١) وجه النهار، للحربي (ص١١٤).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٧).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٧٦).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٩٢).
(٥) جامع البيان، للإيجي (١/ ٦٢٥).

حسن، مع كمال النصح والشفقة، وهضم النفس، وحسن الجدل، وفي ذلك أيضا: تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء، وهكذا ينبغي لكل ناصح[١].

إنما وصف الملأ بالذين كفروا، دون الملأ من قوم نوح؛ لأن في أشراف قوم هود من آمن، منهم مرثد بن سعد، فأريد التفرقة بالوصف، ولم يكن في أشراف قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مؤمن[٢].

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأعراف:٧٥]

عدلوا به عن الجواب السوي الذي هو: نعم؛ تنبيهًا على أن إرساله أظهر من أن يشك فيه عاقل ويخفى على ذوي رأي[٣]، كأنهم قالوا: العلم بإرساله وبما أرسل به لا شبهة فيه، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به فنخبركم: أنا به مؤمنون[٤].

﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف:٧٧]

أسند العقر إلى جميعهم -وإن كان العاقر قدار بن سالف- لأنه كان برضاهم[٥].

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف:٧٨]

أخبر تعالى هاهنا أنهم أخذتهم الرجفة؛ كما أرجفوا شعيبا وأصحابه، وتوعدوهم بالجلاء، كما أخبر عنهم في سورة «هود»، فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ..﴾ [هود:٩٤] والمناسبة في ذلك -والله أعلم- أنهم لما تهكموا بنبي الله شعيب في قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ

(١) ينظر: أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٩)، وجه النهار، للحربي (ص١١٤).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٧٧)، التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٩٢).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢١).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٨٢).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٨٢).

ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود:٨٧]، فجاءت الصيحة فأسكتتهم، وقال تعالى إخبارا عنهم في سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ..﴾ [الشعراء:١٨٩] وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الشعراء:١٨٧]..وقد اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم عذاب يوم الظلة.. ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس وخمدت الأجساد، ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف:٧٨][1].



الجزء التاسع

﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف:٨٨]

إن قيل: إن (العود) إلى الشيء يقتضي: أنه قد كان فُعِلَ قبل ذلك، فيقتضي قولهم: ﴿لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ أن (شعيبًا) كان على ملة قومه، وذلك محال؛ فإن الأنبياء معصومون من الكفر قبل النبوة وبعدها، فالجواب من وجهين: أحدهما: أن (عاد) قد تكون بمعنى (صار)، فلا يقتضي تقدم ذلك الحال الذي صار إليه، والثاني: أن المراد بذلك: (الذين آمنوا بشعيب) دون شعيب، وإنما أدخلوه في الخطاب معهم بذلك كما أدخلوه في الخطاب معهم في قولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ﴾[2].

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف:٩٢]

في التكرار مبالغة واستعظام لتكذيبهم، ولما جرى عليهم[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٤٤٨).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٩٥).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٨٧).

﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف:٩٩]

هذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ، على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمنا على ما معه من الإيمان، بل لا يزال خائفا وجلا أن يبتلى ببلية تسلب ما معه من الإيمان، وأن لا يزال داعيا بقوله: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)[1]، وأن يعمل ويسعى، في كل سبب يخلصه من الشر عند وقوع الفتن، فإن العبد - ولو بلغت به الحال ما بلغت - فليس على يقين من السلامة[2].

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأعراف:١٠٩]

حكى هذا الكلام هنا عن (الملأ)، وفي الشعراء عن (فرعون)، كأنه قاله هو وهم، أو قاله هو ووافقوه عليه، كعادة جلساء الملوك في اتباعهم لما يقول الملك[3].

﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [الأعراف:١١٥]

فيه دلالة على أن رغبتهم في أن يُلقوا قبله، حيث أكد ضميرهم المتصل بالمنفصل، وعرّف الخبر[4]، فغيروا نظم الكلام إلى آكد وجه[5].

انظر كيف عبروا عن إلقاء موسى (بالفعل)، وعن إلقاء أنفسهم (بالجملة الاسمية)، إشارة إلى: أنهم أهل الإلقاء المتمكنون فيه[6].

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢]

أبدلوا الثاني من الأول، لئلا يتوهم أنهم أرادوا به فرعون[7].

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف:١٢٤]

قال ابن عباس: وكان أول من صلب، وأول من قطع الأيدي والأرجل من

---

(١) جاء في حديث أنس عن النبي ﷺ أنه كان يكثر أن يقوله، رواه الترمذي، بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيِ الرَّحْمَنِ، برقم: (٢١٤٠)، وصححه الألباني.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٢٩٨).

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٩٧).

(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٩٣).

(٥) جامع البيان، للإيجي (١/ ٦٤١).

(٦) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٩٨).

(٧) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢٨).

خلاف: فرعون[١].

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف:١٢٨]

- فيه: تمنيته إياهم أرض مصر.

- وفيه: بشارة بأن الخاتمة المحمودة للمتقين منهم ومن القبط[٢].

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٣١﴾ [الأعراف:١٣١]

- إنما عرّف (الحسنة) وذكرها مع أداة التحقيق؛ لكثرة وقوعها، وتعلق الإرادة بإحداثها بالذات، ونكّر (السيئة) وأتى بها مع حرف الشك؛ لندورها وعدم القصد لها إلا بالتبع[٣].

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ١٣٢﴾ [الأعراف:١٣٢]

- إنما سموها آية اعتبارا لتسمية موسى، أو قصدوا بذلك الاستهزاء[٤].

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ١٣٧﴾ [الأعراف:١٣٧]

- ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بسبب صبرهم وحسبك به حاثًا على الصبر ودالًا على أن من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر ضمن الله له الفرج[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٤٥٩).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٩٦).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٣٠)، التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٩٩).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٩٨).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٥٩٩).

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف:١٤٣]

لو كانت الرؤية لا تصح في وصف الله، ما سأل موسى ذلك؛ لأنه كان أعلم بالله من أن يسأل ما يستحيل في وصفه، وفي قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ دليل على جواز الرؤية؛ لأنه لو كان مستحيل الرؤية لقال: لا أُرى[١].

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف:١٤٤]

اتخذتك صفوة برسالاتي وبكلامي يعني: تخصيصه بكلامه من غير واسطة، وذلك أن من أخذ العلم عن العالم المعظم، كان أجل رتبة ممن أخذه عن واحد أخذه عنه، كما تقول في الأسانيد إلى النبي ﷺ فإن أقربها إليه أعزها وأجلها[٢].

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف:١٤٩-١٥٠]

وكان ابن أمه وأبيه، وإنما ذكر الأم؛ لأنها كانت مؤمنة، ولأن ذكرها أدعى إلى العطف[٣].

في هذا دلالة على ما جاء في الحديث: «**ليس الخبر كالمعاينة**»[٤][٥].

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٤٠٦).

(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٤٠٨).

(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٦٠٧).

(٤) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس الخَبَرُ كالمعاينة، إن الله عَزَّجَلَّ أخبر موسى بما صنَع قومُه في العجل، فلم يُلْقِ الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت**». رواه أحمد في المسند، برقم: (٢٤٤٧)، والحاكم في المستدرك، برقم: (٣٢٥٠)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني.

(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٤٧٧).

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأعراف:١٥١]

ضمه إلى نفسه في الاستغفار ترضية له ودفعًا للشماتة عنه[١].

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٤]

هذا الكلام مبالغة وبلاغة من حيث أنه جعل الغضب الحامل له على ما فعل كالأمر به والمغري عليه حتى عبر عن سكونه بالسكوت[٢].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٢]

قال ابن عيينة: هي لكل مفتر ومبتدع إلى يوم القيامة[٣].

﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٣]

﴿ٱلَّذِينَ﴾ هذا حكم عام يدخل تحته متخذو العجل وغيرهم، عظّم جنايتهم أولًا[٤]، ثم أردفها بعظم رحمته، ليعلم أن الذنوب وإن عظمت فعفوه أعظم[٥].

﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٣٥).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٣٦).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٤٧٨)، وجه النهار، للحربي (ص ١٢٠).
(٤) في الآية السابقة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [الأعراف:١٥٢] الآية.
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٦٠٨).

وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (١٥٧)﴾ [الأعراف:١٥٦-١٥٧]

من تمام الإيمان بآيات الله معرفة معناها، والعمل بمقتضاها، ومن ذلك اتباع النبي ﷺ ظاهرا وباطنا، في أصول الدين وفروعه[1].

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (١٥٨)﴾ [الأعراف:١٥٨]

لم يقل: فآمنوا بالله وبي، بعد قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ﴾؛ لتجري عليه الصفات التي أجريت عليه، ولما في الالتفات من مزية البلاغة، وليعلم أن الذي وجب الإيمان به هو هذا الشخص الموصوف بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته كائنا من كان أنا أو غيري إظهارا للنصفة، وتفاديًا من العصبية لنفسه[2].

﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ (١٦٠) وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١٦١)﴾ [الأعراف:١٦١]

﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١٦١)﴾ لم يأت بالعطف إشعارا على أنه تفضُّل محض[3].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٠٥).

(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٦١١).

(٣) جامع البيان، للإيجي (١/ ٦٦٣).

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف:١٦٤-١٦٥]

قال ابن زيد: نجت الناهية وهلكت الفرقتان، وهذه الآية أشد آية في ترك النهي عن المنكر(١).

نص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحا فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيما فيذموا(٢).

﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ﴾ أي: فضرب فانبجست، وحذفه للإيماء على أن موسى ﷺ لم يتوقف في الامتثال، وأن ضربه لم يكن مؤثرًا يتوقف عليه الفعل في ذاته(٣).

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٨]

قال ابن زيد: كان هواه مع القوم، وهذه الآية هي أشد الآي على ذوي العلم؛ وذلك أن الله تعالى أخبر أنه أتاه آياته من اسمه الأعظم، والدعوات المستجابة والعلم والحكمة، فاستوجب بالسكون إلى الدنيا وإتباع الهوى تغيير النعمة عليه والانسلاخ منها، ومن الذي يسلم من هاتين الخلتين إلا من عصمه الله(٤).

﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ الإفراد في الأول والجمع في الثاني باعتبار اللفظ والمعنى، تنبيه على أن المهتدين كواحد؛ لاتحاد

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٤٢١).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٤٩٤).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٣٨).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٤٢٧).

طريقهم، بخلاف الضالين، والاقتصار في الإخبار عمن هداه الله بالمهتدي؛ تعظيمٌ لشأن الاهتداء، وتنبيه على أنه في نفسه كمال جسيم ونفع عظيم لو لم يحصل له غيره لكفاه، وأنه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة والعنوان لها[١].

۞ في هذه الآيات الترغيب في العمل بالعلم، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه، وعصمة من الشيطان، والترهيب من عدم العمل به، وأنه نزول إلى أسفل سافلين، وتسليط للشيطان عليه، وفيه أن اتباع الهوى، وإخلاد العبد إلى الشهوات، يكون سببا للخذلان[٢].

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾ [الأعراف:١٨١]

۞ فيه دلالة على أن إجماع كل عصر حجة[٣]؛ لأن المراد منه أن في كل قرن طائفة بهذه الصفة[٤].

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٧]

۞ كرر ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ و﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ للتأكيد، ولزيادة ﴿كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ﴾، وعلى هذا تكرير العلماء في كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة، منهم: محمد بن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٥].

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٩٩]

۞ هذه الآية جامعة لمكارم الأخلاق آمرة للرسول باستجماعها[٦].

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٤٣)، جامع البيان، للإيجي (١/ ٦٧٢).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٠٨).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٦٢٠).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٤٣).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٦٢٣).
(٦) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٤٧).

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف:٢٠٤]

هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه، وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيرا كثيرا وعلما غزيرا، وإيمانا مستمرا متجددا، وهدى متزايدا، وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تُلِيَ عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير، ومن أوكد ما يؤمر به مستمع القرآن، أن يستمع له وينصت في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه، فإنه مأمور بالإنصات، حتى إن أكثر العلماء يقولون: إن اشتغاله بالإنصات، أولى من قراءته الفاتحة، وغيرها[1].

قال بعض العلماء: الرحمة أقرب شيء إلى مستمع القرآن؛ لهذه الآية[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف:٢٠٦]

إنما ذكرهم بهذا ليقتدى بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم؛ ولهذا شرع لنا السجود هنا -لما ذكر سجودهم لله عَزَّوَجَلَّ-..وهذه أول سجدة في القرآن، مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع[3].



(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣١٤).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص١٢٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٥٣٩).



﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنفال:٢-٣]

إنما المؤمن الذي إذا خوف بالله فرق قلبه، وانقاد لأمره خوفا من عقابه، وفيه إشارة إلى إلزام أصحاب بدر بطاعة الرسول ﷺ فيما يرى من قسمة الغنائم[1].

قدم تعالى أعمال القلوب، لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها، وفيها دليل على أن الإيمان، يزيد وينقص، فيزيد بفعل الطاعة وينقص بضدها[2].

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأنفال:٧]

كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمة المكذبة.. فلما بعث موسى عليه السلام وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق في اليم، ثم أنزل على موسى التوراة، شرع فيها قتال الكفار، واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك.. وقتل المؤمنين الكافرين أشد إهانة للكافرين، وأشفى لصدور المؤمنين[3].

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال:٩]

في هذه القصة من آيات الله العظيمة ما يدل على أن ما جاء به محمد ﷺ رسول الله حقا: منها: أن الله وعدهم وعدا، فأنجزهموه[4].

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٤٤٤).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣١٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٢١).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (٣١٦).

۞ ومنها: ما قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران:١٣] الآية.

۞ ومنها: إجابة دعوة الله للمؤمنين لما استغاثوه بما ذكره من الأسباب.

۞ وفيها: الاعتناء العظيم بحال عباده المؤمنين، وتقييض الأسباب التي بها ثبت إيمانهم، وثبتت أقدامهم، وزال عنهم المكروه والوساوس الشيطانية.

۞ ومنها: أن من لطف الله بعبده أن يسهل عليه طاعته، وييسرها بأسباب داخلية وخارجية[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال:٢٠]

۞ أي: ولا تتولوا عن الرسول؛ فإن المراد من الآية الأمر بطاعته والنهي عن الإعراض عنه، وذكر طاعة الله للتوطئة، والتنبيه على أن طاعة الله في طاعة الرسول[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال:٢٤]

۞ ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وحد الضمير؛ لأن استجابة رسول الله ﷺ كاستجابته[3]، ولأن دعوة الله تسمع من رسوله[4].

﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال:٢٥]

۞ الآية تنبيه إلى أخذ الحذر من الفتن قبل وقوعها[5].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال:٢٩]

۞ دليل على أن (التقوى) تنوّر القلب، وتشرح الصدر، وتزيد في العلم

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (٣١٦).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٥٤).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٦٣٩).
(٤) جامع البيان، للإيجي (٢/ ١٤).
(٥) وجه النهار، للحربي (ص١٣٠).

والمعرفة[١].

ﮤ امتثال العبد لتقوى ربه عنوان السعادة، وعلامة الفلاح، وقد رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئا كثيرا، فذكر هنا أن من اتقى الله حصل له أربعة أشياء، **كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها:**

ﮤ **الأول: الفرقان:** وهو العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة من أهل الشقاوة.

ﮤ **الثاني والثالث:** تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق وعند الاجتماع يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر.

ﮤ **الرابع:** الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن اتقاه وآثر رضاه على هوى نفسه. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾[٢].

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال:٣٨]

ﮤ به احتج أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ في أن المرتد إذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات المتروكة[٣].



﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنفال:٤٤]

ﮤ ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلًّا من الفريقين بالآخر، وقلله في عينه ليطمع فيه،

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٢٥).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣١٩).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٦٤٥).

وذلك عند المواجهة، فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران:١٣]، وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال:٤٥]

قال قتادة: أمر الله بذكره، وهم أشغل ما يكونون عند الضراب بالسيف[٢].

فيه تنبيه على أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله، وأن يلتجئ إليه عند الشدائد ويقبل عليه بشراشره فارغ البال واثقًا بأن لطفه لا ينفك عنه في شيء من الأحوال[٣].

﴿فِئَةً﴾ ترك وصفها؛ لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار[٤].

عن كعب الأحبار قال: ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر، ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾[٥].

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال:٦٣]

قال الزجاج: وهذا من الآيات العظام، وذلك أن النبي ﷺ بعث إلى قوم أنفتهم شديدة، ونصرة بعضهم لبعض بحيث لو لُطم رجل من قبيلة لطمة، قاتل عنه قبيلته حتى يدركوا ثأره، فألف الإيمان بين قلوبهم حتى قتل الرجل أخاه وابنه وأباه[٦].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٧٠).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٤٦٤).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٦٢).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٦٤٩).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٧١).
(٦) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٤٦٩).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنفال:٦٥]

تكرير مقاومة الجماعة لأكثر منها مرتين، قبل التخفيف وبعده، للدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة لا تتفاوت؛ إذ الحال قد تتفاوت بين مقاومة العشرين المائتين، والمائة الألف، وكذلك بين مقاومة المائة المائتين، والألف الألفين[1]، ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة[2].

﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأنفال:٦٦]

﴿مِّائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ بالتاء؛ لأن التأنيث ههنا أشد مبالغة، حيث وصفت المائة بالصابرة، ولم يقل: صابرون[3].

تكرير المعنى الواحد بذكر الأعداد المتناسبة للدلالة على أن حكم القليل والكثير واحد، والضعف ضعف البدن، وقيل: ضعف البصيرة[4].

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنفال:٦٧]

الآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجتهدون، وأنه قد يكون خطأ، ولكن لا يقرون عليه[5].

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنفال:٧٥]

استدل به على توريث ذوي الأرحام[6].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٦٥٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٨٧).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٤٧٠).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٦٦)، جامع البيان، للإيجي (٢/ ٣٧).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٦٧).
(٦) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٦٩)، التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٣٠).



سورة التوبة

﴿ اتفقت المصاحف والقراء على إسقاط البسملة من أولها، قال علي بن أبي طالب: البسملة أمان، وبراءة نزلت بالسيف؛ فلذلك لم تبدأ بالأمان[١].

﴿ كتبت هذه السورة من غير بسملة؛ لأنها في نقض العهد الذي كان بين النبي ﷺ وبين المشركين، ولم يكونوا يبسملون في مثله.. أو لأنها مع سورة الأنفال سورة واحدة في الأصل[٢].

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ [التوبة:١]

﴿ الخطاب في: ﴿عَاهَدتُّم﴾ لأصحاب رسول الله ﷺ، والمتولي للعقد رسول الله ﷺ، لكنهم أدخلوا في الخطاب؛ لأنهم راضون بفعله[٣].

﴿ ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١﴾، ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة:٣] الفرق بين الجملة الأولى والثانية: أن الأولى إخبار بثبوت البراءة، والثانية إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت، وإنما عُلقت البراءة بالذين عوهدوا من المشركين، وعلق الأذان بالناس؛ لأن البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم، وأما الأذان فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد، ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث[٤].

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [التوبة:٥]

﴿ نبّه بأعلاها على أدناها، فإن أشرف الأركان بعد الشهادة: الصلاة، التي هي حق

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٣١).

(٢) وجه النهار، للحربي (ص١٣٤).

(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٤٧٦).

(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٦٦٣).

الله عَزَّوَجَلَّ، وبعدها: أداء الزكاة التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين؛ ولهذا كثيرا ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة[١].

✧ وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم: إنها نسخت كل عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين، وكل عهد، وكل مدة[٢].

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [التوبة:٨]

✧ تخصيص الأكثر لما في بعض الكفرة من التفادي عن الغدر والتعفف عما يجر إلى أحدوثة السوء[٣].

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [التوبة:١١]

✧ قال ابن زيد: رحم الله أبا بكر ما كان أفقهه، أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة[٤].

﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التوبة:١٢]

✧ قال الزجاج: وهذه الآية توجب قتل الذمي إذا طعن في الإسلام؛ لأن العهد معقود عليه ألا يطعن فإن طعن فقد نكث[٥].

✧ ومن ههنا أخذ قتل من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه[٦].

﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [التوبة:١٣]

✧ هذا يدل على أن قتال الناكثين أولى من قتال غيرهم من الكفار، ليكون ذلك

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ١١١).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ١١٢).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٧٢).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٤٨٠)، التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٣٢).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٤٨٠).
(٦) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ١١٦).

زجرًا لغيرهم عن النكث[١].

﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾ [التوبة: ١٤-١٥]

﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ يريد: بالقتل والأسر، وفي ذلك وعد للمسلمين بالظفر[٢].

دلت الآية على محبة الله لعباده المؤمنين واعتنائه بأحوالهم، حتى إنه جعل من جملة المقاصد الشرعية: شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم[٣].

﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨﴾ [التوبة: ١٨]

ذكره بصيغة التوقع؛ قطعًا لأطماع المشركين في الاهتداء والانتفاع بأعمالهم، وتوبيخًا لهم بالقطع بأنهم مهتدون؛ فإن هؤلاء مع كمالهم إذا كان اهتداؤهم دائرًا بين عسى ولعل فما ظنك بأضدادهم، ومنعًا للمؤمنين أن يغتروا بأحوالهم ويتكلوا عليها[٤].

لم يذكر الإيمان بالرسول عليه السلام لما علم أن الإيمان بالله قرينته الإيمان بالرسول، لاقترانهما في الأذان والإقامة، وكلمة الشهادة، وغيرها[٥].

﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١﴾ [التوبة: ٢١]

﴿وَجَنَّٰتٖ﴾ تنكير المبشر به، لوقوعه وراء صفة الواصف، وتعريف المعرِّف[٦].

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٤٨١).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٣٣).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (١/ ٣٣١).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٧٥)، جامع البيان، للإيجي (٢/ ٥٢).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٦٦٩).
(٦) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٦٧١).

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة:٢٤]

هذه الآية لم تترك لأحد حظًا من حظوظ الدنيا يؤثره على الدين، ولا مجال لاضطراب اليقين(١).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [التوبة:٢٨]

قيده بالمشيئة لتنقطع الآمال إلى الله تعالى، ولينبه على أنه تعالى متفضل في ذلك، وأن الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض، وفي عام دون عام(٢).

دلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك، كما دلت على طهارة المؤمن(٣).

﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ هو الحرم كله، وفيه دليل لمن جعل الصلاة مضاعفة في الحرم كله؛ لأنه يسمى: المسجد الحرام(٤).

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [التوبة:٣٠]

﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ إما تأكيد لنسبة هذا القول إليهم ونفي للتجوز عنها، أو إشعار بأنه قول مجرد عن برهان وتحقيق، مماثل للمهمل الذي يوجد في الأفواه ولا يوجد مفهومه في الأعيان(٥).

(١) وجه النهار، للحربي (ص١٣٥).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٧٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ١٣١).
(٤) وجه النهار، للحربي (ص١٣٥).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٧٨)، التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٣٦).

هذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال المشركين الكفار من اليهود والنصارى، لمقالتهم هذه المقالة الشنيعة، والفرية على الله تعالى[١].

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة:٣٢]

﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ فيه -أيضا- إشارة إلى ضعف حيلتهم فيما أرادوا[٢].

﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة:٣٤-٣٥]

كان أبو بكر الوراق يقول: خصت هذه المواضع؛ لأن صاحب المال إذا رأى الفقير قبض جبهته، وزوى ما بين عينيه، وطوى عنه كشحه، وولاه ظهره[٣].

ولهذا يقال: من أحب شيئا وقدمه على طاعة الله، عذب به، وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم، عذبوا بها، كما كان أبو لهب -لعنه الله- جاهدا في عداوة رسول الله ﷺ، وامرأته تعينه في ذلك، كانت يوم القيامة عونا على عذابه أيضا[٤].

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، أصل معناه: يوم تحمى النار، أي: توقد ذات حمي وحر شديد على الكنوز، ثم طوى ذكر النار، وحول الإسناد إلى الجار والمجرور؛ للمبالغة في شدة حر الكنوز[٥].

ذكر الله في الآيتين، انحراف الإنسان في ماله، وذلك بأحد أمرين: إما أن ينفقه

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ١٣٤).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٣٦).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٤٩٣).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ١٤١).
(٥) جامع البيان، للإيجي (٢/ ٦٢).

في الباطل الذي لا يجدي عليه نفعا، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كإخراج الأموال في المعاصي والشهوات التي لا تعين على طاعة الله، وإخراجها للصد عن سبيل الله، وإما أن يمسك ماله عن إخراجه في الواجبات، والنهي عن الشيء أمر بضده[1].

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة:٣٦]

- إذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم[2].

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة:٤٠]

- ﴿وَكَلِمَةُ﴾ بالرفع، فيه إشعار بأن (كلمة الله) عالية في نفسها، وإن فاق غيرها، فلا ثبات لتفوقه ولا اعتبار، ولذلك وسط الفصل[3].

- أسند الإخراج إلى الكفار؛ لأنهم حيث هموا بإخراجه، أذن الله له في الخروج، فكأنهم أخرجوه[4].

- في هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المنقبة الجليلة، والصحبة الجميلة، وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدوا من أنكر صحبة أبي بكر للنبي ﷺ كافرا؛ لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها[5].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٣٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ١٥٠).

(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٨٢).

(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٦٨٠).

(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٣٧).

ﭬ وفيها: فضيلة السكينة، وأنها من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش بها الأفئدة، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه، وثقته بوعده الصادق، وبحسب إيمانه وشجاعته.

ﭬ وفيها: أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين، مع أن الأولى -إذا نزل بالعبد- أن يسعى في ذهابه عنه، فإنه مضعف للقلب، موهن للعزيمة[١].

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة:٤٣]

ﭬ هو من لطف العتاب بتصدير العفو في الخطاب، وفيه دلالة فضله على سائر الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، حيث لم يذكر مثله لسائر الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.. وفيه دليل جواز الاجتهاد للأنبياء عليهم السلام؛ لأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما فعل ذلك بالاجتهاد، وإنما عوتب -مع أن له ذلك- لتركه الأفضل، وهم يعاتبون على ترك الأفضل[٢].

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة:٤٤-٤٥]

ﭬ تخصيص الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ واليوم الآخر في الموضعين: للإشعار بأن الباعث على الجهاد والوازع عنه الإيمان وعدم الإيمان بهما[٣].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة:٥٩]

ﭬ ذكر الله للتعظيم وللتنبيه على أن ما فعله الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان بأمره[٤].

ﭬ تضمنت هذه الآية الكريمة أدبا عظيما وسرا شريفا، حيث جعل الرضا بما

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٣٧).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٦٨٢).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٨٢).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٨٥).

آتاه الله ورسوله، والتوكل على الله وحده، وهو قوله: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾، وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول وامتثال أوامره، وترك زواجره، وتصديق أخباره، والاقتفاء بآثاره[١].

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة: ٦٠]

ﻟ العدول عن (اللام) إلى (في)؛ للدلالة على أن الاستحقاق للجهة لا للرقاب،[٢] **وقيل:** عدل عن اللام إلى (في) في الأربعة الأخيرة، للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره؛ لأن (في) للوعاء، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات، ويجعلوا مظنة لها، وتكرير (في) في قوله: ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فيه: فضل وترجيح لهذين على الرقاب والغارمين، وإنما وقعت هذه الآية في تضاعيف ذكر المنافقين ليدل بكون هذه الأصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم، على أنهم ليسوا منهم، حسمًا لأطماعهم، وإشعارًا بأنهم بعداء عنها وعن مصارفها، فما لهم ومالها، وما سلطهم على التكلم فيها، ولمز قاسمها[٣].

ﻟ **إن قيل:** لِم ذكر مصرف الزكاة في تضاعيف ذكر المنافقين؟ **فالجواب:** أنه حصر مصرف الزكاة في تلك الأصناف ليقطع طمع المنافقين فيها، فاتصلت هذه الآية في المعنى بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ..﴾ [التوبة:٥٨] الآية[٤].

ﻟ إنما قدم الفقراء ههنا؛ لأنهم أحوج من البقية على المشهور، لشدة فاقتهم وحاجتهم[٥]، والمعنى اللغوي يفيد ذلك أيضا[٦].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ١٦٤).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٨٦).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٦٨٨).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٤١).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ١٦٥).
(٦) وجه النهار، للحربي (ص١٣٩).

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ۝٦٢﴾ [التوبة:٦٢]

إنما وحد الضمير؛ لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسول الله، فكانا في حكم شيء واحد(١).

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ۝٦٦﴾ [التوبة:٦٥- ٦٦]

في هذه الآيات دليل على أن من أسرّ سريرة، خصوصا السريرة التي يمكر فيها بدينه ويستهزئ به وبآياته ورسوله، فإن الله تعالى يظهرها ويفضح صاحبها ويعاقبه أشد العقوبة، وأن من استهزأ بشيء من كتاب الله أو سنة رسوله الثابتة عنه، أو سخر بذلك أو تنقصه أو استهزأ بالرسول أو تنقصه، فإنه كافر بالله العظيم، وأن التوبة مقبولة من كل ذنب وإن كان عظيما(٢).

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٦٨﴾ [التوبة:٦٨]

فيه دلالة على عظم عذابها، وأنه بحيث لا يزاد عليه(٣).

الأصل في الشر أن يقال: (أوعد)، وإنما يقال فيه: (وعد) إذا صرح بالشر(٤).

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝٦٩﴾ [التوبة:٦٩]

إنما قدم ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾ وقوله: ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٦٩٠)، جامع البيان، للإيجي (٢/ ٧٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٤٢).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٦٩٢).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٤٢).

﴿خَلَٰقِهِمْ﴾ مغن عنه؛ ليذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا والتهائهم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة وطلب الفلاح في الآخرة[1].

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة:٧١]

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾ السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة، فهي تؤكد الوعد كما تؤكد الوعيد في: سأنتقم منك يوما[2].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة:٧٢]

إنما صار الرضوان أكبر من الثواب؛ لأنه لا يوجد شيء من الثواب إلا بالرضوان؛ إذ هو الموجب له، وقال الحسن: لأن ما يصل إلى قلب المؤمن من السرور برضوان الله أكبر من جميع ذلك[3].

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة:٧٤]

لم يقل: بعد إيمانهم؛ لأنهم كانوا يقولون بألسنتهم آمنا ولم يدخل الإيمان في قلوبهم[4].

﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ﴾ وهذه الصيغة تقال حيث

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٦٩٣).

(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٦٩٤).

(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٥١١).

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٤٣).

لا ذنب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج:٨][1].

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨٤﴾ [التوبة:٨٤]

إنما لم ينه عن التكفين في قميصه ونهى عن الصلاة عليه؛ لأن الضن بالقميص كان مخلًا بالكرم؛ ولأنه كان مكافأة لإلباسه العباس قميصه حين أسر ببدر[2].

في هذه الآية دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين، والوقوف عند قبورهم للدعاء لهم، كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك في المؤمنين، فإن تقييد النهي بالمنافقين يدل على أنه قد كان متقررا في المؤمنين[3].

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٨٩﴾ [التوبة:٨٩]

قوله: ﴿أَعَدَّ﴾، دليل على أنها مخلوقة[4].

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ۝٩٢﴾ [التوبة:٩٢]

أبلغ من: يفيض دمعها؛ لأنه يدل على أن العين صارت كأنها من كثرة البكاء دمعا فياضا[5].

في الآية دليل على أنه يجوز إظهار الحزن على فوات الطاعة.. وإن كان الفوات عن عذر[6].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ١٨٣).

(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٩٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٤٧).

(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٧٠٢).

(٥) ينظر: أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٩٤)، مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٧٠٢)، جامع البيان، للإيجي (٢/ ٩٣).

(٦) وجه النهار، للحربي (ص١٤٢).



﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٩٩﴾ [التوبة:٩٩]

هذا شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات، وتصديق لرجائه على طريق الاستئناف، مع حرفي التنبيه والتحقيق المؤذنين بثبات الأمر وتمكنه، وكذلك ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي: جنته، وما في السين من تحقيق الوعد، وما أدل هذا الكلام على رضا الله عن المتصدقين، وأن الصدقة منه بمكان إذا خلصت النية من صاحبها[1].

في هذه الآية دليل على أن الأعراب كأهل الحاضرة، منهم الممدوح ومنهم المذموم، فلم يذمهم الله على مجرد تعربهم وباديتهم، إنما ذمهم على ترك أوامر الله، وأنهم في مظنة ذلك[2].

ومنها: أن الكفر والنفاق يزيد وينقص ويغلظ ويخف بحسب الأحوال.

ومنها: فضيلة العلم، وأن فاقده أقرب إلى الشر ممن يعرفه؛ لأن الله ذم الأعراب، وأخبر أنهم أشد كفرا ونفاقا، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله.

ومنها: أن العلم النافع الذي هو أنفع العلوم، معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، من أصول الدين وفروعه، كمعرفة حدود الإيمان، والإسلام، والإحسان، والتقوى، والفلاح، والطاعة، والبر، والصلة، والإحسان، والكفر، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والزنا، والخمر، والربا، ونحو ذلك. فإن في معرفتها يتمكن من فعلها -إن كانت مأمورا بها، أو تركها إن كانت محظورة- ومن الأمر بها أو النهي عنها.

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٧٠٤).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٤٩).

ومنها: أنه ينبغي للمؤمن أن يؤدي ما عليه من الحقوق، منشرح الصدر، مطمئن النفس، ويحرص أن تكون مغنما، ولا تكون مغرما[١].

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)﴾ [التوبة: ١٠٠]

عن أبي صخر حميد بن زياد، قال: قلت لمحمد بن كعب القرظي يوما: ألا تخبرني عن أصحاب رسول الله ﷺ فيما كان من رأيهم؟ وإنما أريد الفتن، فقال: إن الله قد غفر لجميع أصحاب النبي ﷺ، وأوجب لهم الجنة في كتابه، محسنهم، ومسيئهم، قلت: في أي موضع أوجب لهم الجنة في كتابه؟ فقال: سبحان الله، ألا تقرأ قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ إلى آخر الآية، فأوجب الله لجميع أصحاب النبي ﷺ الجنة والرضوان، وشرط على التابعين شرطا لم يشترطه عليهم، قلت: وما اشترط عليهم؟ قال: اشترط عليهم أن يتبعوهم بإحسان، يقول: يقتدون بأعمالهم الحسنة ولا يقتدون بهم في غير ذلك، قال أبو صخر: فوالله لكأني لم اقرأها قط[٢].

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢)﴾ [التوبة: ١٠٢]

قال أبو عثمان النهدي: ما في القرآن آية أرجى لهذه الأمة من هذه الآية[٣].

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣)﴾ [التوبة: ١٠٣]

في هذه الآية، دلالة على وجوب الزكاة، في جميع الأموال[٤].

وفيها: أن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكى حتى يخرج زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها؛ لأن الزكاة والتطهير متوقف على إخراجها.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٤٩).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٥٢٠).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٥٢٢).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٤٩).

وفيها: استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه لمن أدى زكاته بالبركة، وأن ذلك ينبغي، أن يكون جهرا، بحيث يسمعه المتصدق فيسكن إليه.

ويؤخذ من المعنى، أنه ينبغي إدخال السرور على المؤمن بالكلام اللين، والدعاء له، ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة، وسكون لقلبه. وأنه ينبغي تنشيط من أنفق نفقة وعمل عملا صالحا بالدعاء له والثناء، ونحو ذلك.

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [التوبة:١٠٤]

﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ فائدة الضمير المؤكد: تخصيص الله تعالى بقبول التوبة دون غيره[1].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [التوبة:١٠٧]

في هذه الآيات فوائد عدة:

منها: أن اتخاذ المسجد الذي يقصد به الضرار لمسجد آخر بقربه، أنه محرم، وأنه يجب هدم مسجد الضرار، الذي اطلع على مقصود أصحابه[2].

ومنها: أن العمل وإن كان فاضلا تغيره النية، فينقلب منهيا عنه، كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم إلى ما ترى.

ومنها: أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين، فإنها من المعاصي التي يتعين تركها وإزالتها، كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين وائتلافهم، يتعين اتباعها والأمر بها والحث عليها، لأن الله علل اتخاذهم لمسجد الضرار بهذا المقصد الموجب للنهي عنه، كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله.

ومنها: النهي عن الصلاة في أماكن المعصية، والبعد عنها، وعن قربها.

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٤٧).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٥١).

ومنها: أن المعصية تؤثر في البقاع، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار، ونهي عن القيام فيه، وكذلك الطاعة تؤثر في الأماكن كما أثرت في مسجد «قباء» حتى قال الله فيه: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة:١٠٨].

ومنها: أن الأعمال الحسية الناشئة عن معصية الله لا تزال مبعدة لفاعلها عن الله بمنزلة الإصرار على المعصية حتى يزيلها ويتوب منها توبة تامة بحيث يتقطع قلبه من الندم والحسرات.

ومنها: أنه إذا كان مسجد قباء مسجدا أسس على التقوى، فمسجد النبي ﷺ الذي أسسه بيده المباركة وعمل فيه واختاره الله له من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن العمل المبني على الإخلاص والمتابعة، هو العمل المؤسس على التقوى، الموصل لعامله إلى جنات النعيم، والعمل المبني على سوء القصد وعلى البدع والضلال، هو العمل المؤسس على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين[1].

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة:١٠٨]

دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع جماعة الصالحين، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء، والتنزه عن ملابسة القاذورات[2].

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [التوبة:١٠٩]

لا ترى أبلغ من هذا الكلام، ولا أدل على حقيقة الباطل وكنه أمره[3].

قال بعضهم: ما في القرآن آية أرجى لهذه الأمة من هذه الآية[4].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٥١).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٢١٦).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٧١١).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٤٦).

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾ دليل على أن أهل كل ملة أمروا بالقتال، ووعدوا عليه[1].

قال بعضهم: ما أكرم الله، فإن (أنفسنا) هو خلقها، (وأموالنا) هو رزقها، ثم وهبها لنا، ثم اشتراها منا بهذا الثمن الغالي، فإنها لصفقة رابحة[2].

قرأ بعض القراء السبعة: ﴿فَيُقْتَلُونَ وَيَقْتُلُونَ﴾ ولا علينا أن نستنبط من هذه القراءة: جواز التضحيات بالأنفس في ميادين جهاد الكفار، عند التحام الصفين، وحين يجود الإنسان بنفسه؛ ليجعلها وسيلة فتك بأعداء الله، وليكن ذلك من إعجاز القراءة[3].

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: ١١٢]

وضع ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ موضع ضميرهم؛ للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك، وحذف المبشر به للتعظيم، كأنه قيل: وبشرهم بما يجل عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام[4].

ذكر لفظ المؤمنين دون الضمير، للإشعار بأن الإيمان داع إلى ذلك، وحذف المبشر به للتعظيم، كأنه شيء لا يمكن بيانه[5].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٧١٢).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٤٨).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص١٤٤).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٩٩).
(٥) جامع البيان، للإيجي (٢/ ١٠٦).

من أخص الأقوال الحمد؛ فلهذا قال: ﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ ومن أفضل الأعمال الصيام..وهو المراد بالسياحة ههنا؛ ولهذا قال: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾.. وكذا الركوع والسجود، وهما عبارة عن الصلاة، ولهذا قال: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾[١].

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ يدخل فيه السائحون في الأرض.. وللسفر والسياحة أثر عظيم في تكميل النفس وتهذيبها، وزيادة الاعتبار والنظر في الملكوت، وما خلق الله من شيء[٢].

﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ جاء بحرف العطف، إشارة إلى أن ما عطف عليه في حكم خصلة واحدة[٣].

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة:١١٣]

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ بأن ماتوا على الكفر، وفيه دليل على جواز الاستغفار لأحيائهم؛ فإنه طلب توفيقهم للإيمان، وبه دفع النقض باستغفار إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لأبيه الكافر فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ﴾ [التوبة:١١٤] بأن مات على الكفر، أو أوحي إليه بأنه لن يؤمن ﴿تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾ [التوبة:١١٤] قطع استغفاره[٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾﴾ [التوبة:١١٦]

قال ابن جرير: هذا تحريض من الله لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأن يثقوا بنصر الله مالك السماوات والأرض، ولا يرهبوا من أعدائه[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٢١٩).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص١٤٤).
(٣) جامع البيان، للإيجي (٢/ ١٠٥).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٩٩).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٢٢٧).

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة:١١٧]

ما من أحد إلا وله مقام يستنقص دونه ما هو فيه، والترقي إليه توبة من تلك النقيصة، وإظهار لفضلها بأنها مقام الأنبياء والصالحين من عباده[١].

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة:١١٨]

في هذه الآيات دليل على أن توبة الله على العبد أجلّ الغايات، وأعلى النهايات؛ فإن الله جعلها نهاية خواص عباده، وامتن عليهم بها، حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها[٢].

ومنها: لطف الله بهم وتثبيتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة.

ومنها: أن العبادة الشاقة على النفس، لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلما عظمت المشقة عظم الأجر.

ومنها: أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبالي بالذنب ولا يحرج إذا فعله، فإن توبته مدخولة، وإن زعم أنها مقبولة.

ومنها: أن علامة الخير وزوال الشدة، إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقا تاما، وانقطع عن المخلوقين.

ومنها: أن من لطف الله بالثلاثة، أن وسمهم بوسم، ليس بعار عليهم فقال: ﴿خُلِّفُوا۟﴾ إشارة إلى أن المؤمنين خلفوهم، أو خلفوا عن من بُتّ في قبول عذرهم أو في ردّه، وأنهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير، ولهذا لم يقل: «**تخلفوا**».

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٠٠).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٥٤).

- ومنها: أن الله تعالى منّ عليهم بالصدق، ولهذا أمر بالاقتداء بهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة:١١٩][1].

- للمربي أن يهجر العاصي إذا كان في الهجر منفعة، وكان ممن يؤدبه ذلك، وأما الهجر من أجل المعصية بلا مصلحة فضرره أكبر من نفعه[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة:١١٩]

- الآية تدل على أن الاجماع حجة؛ لأنه أمر بالكون مع الصادقين، فلزم قبول قولهم[3].

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة:١٢٠]

- قال عطية العوفي: في الآية من الفقه أن من قصد طاعة كان قيامه وقعوده ونصبه ومشيه وحركاته كلها حسنات مكتوبة له، وكذلك في المعصية، فما أعظم بركة الطاعة، وما أعظم شؤم المعصية[4].

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ تعليل لـ(كُتِبَ)، وتنبيه على أن الجهاد إحسان، أما في حق الكفار: فلأنه سعي في تكميلهم بأقصى ما يمكن كضرب المداوي للمجنون، وأما في حق المؤمنين: فلأنه صيانة لهم عن سطوة الكفار واستيلائهم[5].

- فيه دليل على أن المدد يشارك الجيش في الغنيمة بعد انقضاء الحرب؛ لأن وطء ديارهم مما يغيظهم[6].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٥٤).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص١٤٥).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٧١٦).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٥٣٤).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٠١).
(٦) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٧١٦).

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة:١٢١]

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ لم يقل ههنا «به»؛ لأن هذه أفعال صادرة عنهم؛ ولهذا قال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة:١٢١] [وفي الآية التي قبلها: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ [التوبة:١٢٠]؛ لأنها أعمال ليست داخلة تحت قدرتهم][1].

في هذه الآيات أشد ترغيب وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد في سبيل الله، والاحتساب لما يصيبهم فيه من المشقات، وأن ذلك لهم رفعة درجات، وأن الآثار المترتبة على عمل العبد له فيها أجر كبير[2].

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة:١٢٢]

﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقاهة إرشاد القوم وإنذارهم، وتخصيصه بالذكر؛ لأنه أهم، وفيه دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفاية، وأنه ينبغي أن يكون غرض المتعلم فيه أن يستقيم ويقيم لا الترفع على الناس والتبسط في البلاد[3].

في هذا فضيلة العلم، وخصوصا الفقه في الدين، وأنه أهم الأمور، وأن من تعلم علما، فعليه نشره وبثه في العباد، ونصيحتهم فيه فإن انتشار العلم عن العالم، من بركته وأجره، الذي ينمى له[4].

وفي هذه الآية أيضا دليل وإرشاد وتنبيه لطيف، لفائدة مهمة، وهي: أن المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها، لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم،

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٢٣٥).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٥٥).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٠٢).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٥٥).

ولتكون وجهة جميعهم، ونهاية ما يقصدون قصدا واحدا، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب، فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور[١].

دليل على أن طالب العلم ليس كغيره، وأنه إن قام غيره بما يجب فُرِّغ للعلم وطلبه[٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة:١٢٣]

اعلموا أن الله معكم إن اتقيتموه وأطعتموه، وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة، في غاية الاستقامة، والقيام بطاعة الله تعالى، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم..ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك، طمع الأعداء في أطراف البلاد، وتقدموا إليها..فكلما قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله، وتوكل على الله، فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه، وبقدر ما فيه من ولاية الله[٣].

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة:١٢٤]

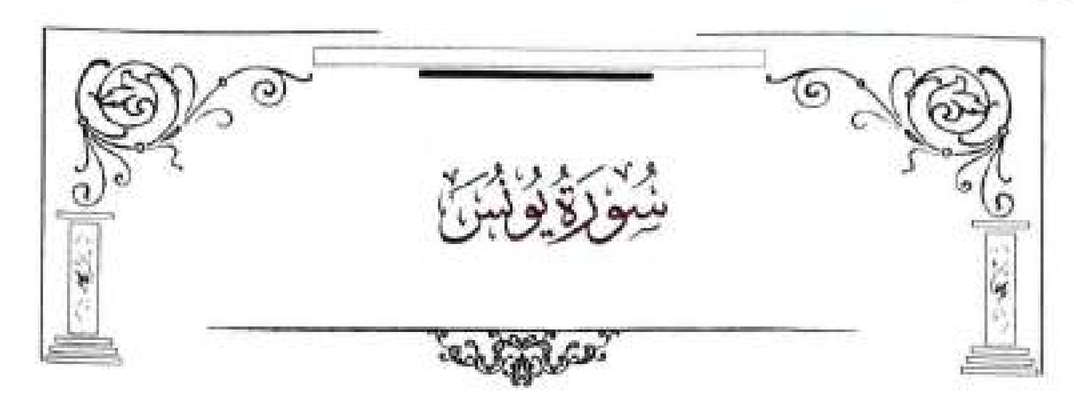
هذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد[٤].

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة:١٢٨]

قيل: لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله ﷺ[٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٥٥).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص١٤٦).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٢٣٩).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٢٣٩).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٧١٩).



﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [يونس:٢]

عمّم (الإنذار)؛ إذ قلما من أحد ليس فيه ما ينبغي أن ينذر منه، وخصص (البشارة) بالمؤمنين؛ إذ ليس للكفار ما يصح أن يبشروا به حقيقة.

﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ إضافتها إلى الصدق لتحققها، والتنبيه على أنهم إنما ينالونها بصدق القول والنية[1].

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس:٤]

حاصله: ليجزي الذين كفروا بشراب، لكن غير النظم للمبالغة في استحقاقهم للعذاب، وللإشارة إلى أن المقصود بالذات من الإعادة هو الإثابة، وأما عقاب الكفرة فشيء ساقه إليهم شؤم أعمالهم، وهذا أيضا عدل، لكن خصص المؤمنين بذكره لمزيد عناية وبشارة[2].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [يونس:٥-٦]

خصهم بالذكر؛ لأنهم يحذرون الآخرة، فيدعوهم الحذر إلى النظر[3].

---

(١) جامع البيان، للإيجي (٢/ ١١٦).
(٢) جامع البيان، للإيجي (٢/ ١١٨).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٨).

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [يونس:١١]

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ أصله: ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله لهم الخير، فوضع: ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ موضع: تعجيله لهم الخير، إشعارًا بسرعة إجابته لهم[1].

في هذه الآيات الحث والترغيب على التفكر في مخلوقات الله، والنظر فيها بعين الاعتبار، فإن بذلك تنفتح البصيرة، ويزداد الإيمان والعقل، وتقوى القريحة، وفي إهمال ذلك، تهاون بما أمر الله به، وإغلاق لزيادة الإيمان، وجمود للذهن والقريحة[2].

هذا من لطفه وإحسانه بعباده، أنه لو عجل لهم الشر إذا أتوا بأسبابه، وبادرهم بالعقوبة على ذلك، كما يعجل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أي: لمحقتهم العقوبة، ولكنه تعالى يمهلهم ولا يهملهم، ويعفو عن كثير من حقوقه، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة، ويدخل في هذا: أن العبد إذا غضب على أولاده أو أهله أو ماله.

ربما دعا عليهم دعوة لو قبلت منه لهلكوا، ولأضره ذلك غاية الضرر، ولكنه تعالى حليم حكيم[3].

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس:١٢]

عتاب في ضمنه: نهي لمن يدعو الله عند الضر، ويغفل عنه عند العافية[4].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٥٨).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٥٩).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٥٣).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)﴾ [يونس:١٥]

أمر بأن يجيب عن التبديل؛ لأنه داخل تحت قدرة الإنسان، وهو أن يضع مكان آية عذاب آية رحمة.. وأما الإتيان بقرآن آخر فلا يقدر عليه الإنسان، وقد ظهر لهم العجز عنه[١].

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢)﴾ [يونس:٢٢]

﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ عدل إلى الغيبة للمبالغة، كأنه يذكرهم لغيرهم حالهم ليعجبهم منها[٢].

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥)﴾ [يونس:٢٥]

عمّ بالدعوة وخص بالهداية من شاء؛ لأن الحكم له في خلقه يفعل ما يشاء[٣].

﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ الريح إذا أفردت فهي ريح عذاب، عدا هذا الموضع[٤].

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤)﴾ [يونس:٣٤]

إنما ذكر: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، وهم غير مقرين بالإعادة؛ لأنه لظهور برهانها جعل أمرًا مسلمًا، على أن فيهم من يقر بالإعادة[٥].

الآية: إن قيل: كيف يحتج عليهم بإعادة الخلق، وهم لا يعترفون بها؟ فالجواب: أنهم

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ١١).
(٢) جامع البيان، للإيجي (٢/ ١٢٧).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٥٤٤).
(٤) وجه النهار، للحربي (ص١٤٩).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٢١)، التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٥٦).

معترفون أن شركاءهم لا يقدرون على الابتداء ولا على الإعادة، وفي ذلك إبطال لربوبيتهم[1].

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يونس:٣٦]

فيه دليل على أن تحصيل العلم في الأصول واجب، والاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز[2].

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [يونس:٣٩]

في هذا دليل على التثبت في الأمور، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يبادر بقبول شيء أو رده، قبل أن يحيط به علمًا[3].

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يونس:٤٣]

دل قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ الآية، أن النظر إلى حالة النبي ﷺ، وهديه وأخلاقه وأعماله وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه وصحة ما جاء به، وأنه يكفي البصير عن غيره من الأدلة[4].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [يونس:٤٥]

قال الضحاك: قصر عندهم مقدار الوقت الذي بين موتهم وبعثهم فصار كالساعة من النهار، لهول ما استقبلوا من أمر البعث والقيامة[5].

﴿۞ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [يونس:٥٣]

هذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٥٦).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١١٣).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٦٤).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٦٥).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٥٤٩).

يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ:٣]، وفي التغابن: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾ [التغابن:٧][1].

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦٠﴾ [يونس:٦٠]

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ في إبهام الوعيد: تهديد شديد[2].

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦١﴾ [يونس:٦١]

الخطاب للنبي ﷺ، وأمته داخلون في هذا الخطاب؛ لأن خطاب الرئيس خطاب له ولأتباعه، يدل على هذا قوله: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾، قال ابن الأنباري: جمع في هذا ليدل على أنهم داخلون في الفعلين الأولين[3].

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ إضماره قبل الذكر ثم بيانه تفخيم له[4].

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝٦٦﴾ [يونس:٦٦]

خصّهم ليؤذن أن هؤلاء إذا كانوا له وفي مملكته، ولا يصلح أحد منهم للربوبية، ولا أن يكون شريكًا له فيها، فما وراءهم مما لا يعقل أحق ألَّا يكون له ندًّا وشريكًا[5].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٢٧٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ١٤٢).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٥٥٢).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١١٧)، مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٢٩)، التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٥٩).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٣١).

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [يونس:٦٨]

فيه دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة، وأن العقائد لا بد لها من قاطع، وأن التقليد فيها غير سائغ[١].

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [يونس:٨٤-٨٥]

في تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغي له أن يتوكل أولًا لتجاب دعوته[٢].

﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ إنما قالوا ذلك لأن القوم كانوا مخلصين، لا جرم أن الله قبل توكلهم، وأجاب دعاءهم، ونجاهم، وأهلك من كانوا يخافونه، وجعلهم خلفاء في أرضه، فمن أراد أن يصلح للتوكل على ربه، فعليه برفض التخليط إلى الإخلاص[٣].

المعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ومما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن؛ قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يونس:٨٧]

إنما ثنى الضمير أولًا؛ لأن التبوأ للقوم واتخاذ المعابد مما يتعاطاه رؤوس القوم بتشاور، ثم جمع؛ لأن جعل البيوت مساجد والصلاة فيها مما ينبغي أن يفعله كل أحد، ثم وحّد؛ لأن البشارة في الأصل وظيفة صاحب الشريعة[٤]، وتعظيمًا للبشارة وللمبشر بها[٥].

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١١٩).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٢٢).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٣٦).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٢٢).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٣٧).

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾ [يونس:٨٩]

قيل: كان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يدعو وهارون يؤمن، فثبت أن التأمين دعاء، فكان إخفاؤه أولى[1].

﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠﴾ [يونس:٩٠]

﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠﴾ كرر فرعون المعنى الواحد ثلاث مرات، في ثلاث عبارات، حرصًا على القبول، ثم لم يقبل منه، حيث أخطأ وقته، وكانت المرة الواحدة تكفي في حالة الاختيار[2].

هذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا، في حاله ذلك، من أسرار الغيب التي أعلم الله بها رسوله[3].

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٩٤﴾ [يونس:٩٤]

فيه تنبيه على أن كل من خالجته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى أهل العلم[4].

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٧﴾ [يونس:١٠٧]

قطع بهذه الآية على عباده طريق الرغبة والرهبة إلا إليه، والاعتماد إلا عليه[5].

إنما قال: ﴿لِفَضْلِهِۦ﴾، مكان «له»؛ إشارة إلى أنه متفضل بالخير[6].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٣٨).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٣٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٢٩٢).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٢٤).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤٥).
(٦) جامع البيان، للإيجي (٢/ ١٦٠).



﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود:٦]

إن قيل: كيف قال: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ بلفظ الوجوب، وإنما هو تفضل؛ لأن الله لا يجب عليه شيء؟ **فالجواب**: أنه ذكره كذلك تأكيدًا في الضمان؛ لأنه لما وعد به صار واقعًا لا محالة؛ لأنه لا يخلف الميعاد[١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [هود:٧]

دليل على أن العرش والماء كانا موجودين قبل خلق السموات والأرض[٢].

لم يقل: أكثر عملا بل ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ولا يكون العمل حسنا حتى يكون خالصا لله عَزَّوَجَلَّ، على شريعة رسول الله ﷺ[٣].

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨﴾ [هود:٨]

إنما وضع ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ موضع (يستعجلون)؛ لأن استعجالهم كان على وجه الاستهزاء[٤].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٦٦).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٦٦).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٣٠٨).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤٩).

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾ [هود:١٠]

في لفظ الإذاقة والمس تنبيه على أن ما يجده الإنسان في الدنيا من النعم والمحن كالأنموذج لما يجده في الآخرة، وأنه يقع في الكفران والبطر بأدنى شيء؛ لأن الذوق إدراك الطعم والمس مبتدأ الوصول(١).

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ [هود:١٢]

لم يقل: ضيّق، ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت؛ لأنه عليه السلام كان أفسح الناس صدرًا؛ ولأنه أشكل بـ(تارك)(٢).

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود:١٣-١٤]

في هذه الآيات إرشاد إلى أنه لا ينبغي للداعي إلى الله أن يصده اعتراض المعترضين، ولا قدح القادحين، خصوصا إذا كان القدح لا مستند له، ولا يقدح فيما دعا إليه، وأنه لا يضيق صدره، بل يطمئن بذلك، ماضيا على أمره، مقبلا على شأنه، وأنه لا يجب إجابة اقتراحات المقترحين للأدلة التي يختارونها، بل يكفي إقامة الدليل السالم عن المعارض، على جميع المسائل والمطالب(٣).

وفيها أن هذا القرآن، معجز بنفسه، لا يقدر أحد من البشر أن يأتي بمثله، ولا بعشر سور من مثله، بل ولا بسورة من مثله، لأن الأعداء البلغاء الفصحاء، تحداهم الله بذلك، فلم يعارضوه، لعلمهم أنهم لا قدرة فيهم على ذلك.

وفيها: أن مما يطلب فيه العلم، ولا يكفي غلبة الظن، علم القرآن، وعلم

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٢٩).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤٩)، التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٦٦).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٧٨).

التوحيد، لقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [هود: ١٤][1].

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ [هود: ٢٦]

وصف اليوم بالأليم للمبالغة، وهو في الحقيقة صفة المعذب[2].

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [هود: ٣١]

الإسناد إلى الأعين؛ لأنهم استرذلوهم بما عاينوا من رثاثتهم، لا لأن فيهم عيبا معنوي[3].

﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [هود: ٤١]

تستحب التسمية في ابتداء الأمور: عند الركوب على السفينة وعلى الدابة[4].

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود: ٤٤]

الآية في غاية الفصاحة لفخامة لفظها وحسن نظمها والدلالة على كنه الحال مع الإيجاز الخالي عن الإخلال، وفي إيراد الأخبار على البناء للمفعول دلالة على تعظيم الفاعل، وأنه متعين في نفسه مستغن عن ذكره، إذ لا يذهب الوهم إلى غيره للعلم بأن مثل هذه الأفعال لا يقدر عليها سوى الواحد القهار[5].

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٢]

إنما قصد استمالتهم إلى الإيمان بكثرة المطر وزيادة القوة؛ لأنهم كانوا أصحاب زروع وبساتين، فكانوا أحوج شيء إلى الماء، وكانوا مدلين بما أوتوا من

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٧٨).
(٢) جامع البيان، للإيجي (٢/ ١٧١).
(٣) جامع البيان، للإيجي (٢/ ١٧٣).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٣٢٢).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٣٦).

شدة البطش والقوة[1].

۞ دليل على أن الاستغفار والتوبة سبب لنزول الأمطار[2].

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤-٥٦]

۞ قال الزجاج: وهذا من أعظم آيات الأنبياء، أي: يقبل النبي على قومه مع كثرة عددهم، فيقول لهم هذا القول، وذلك للثقة بنصر الله تعالى[3].

۞ لما ذكر توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته من كيدهم وصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم، ومن كون كل دابة في قبضته وملكته، وتحت قهره وسلطانه، والأخذ بالناصية تمثيل لذلك[4].

﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ [هود: ٥٩]

۞ إنما جمع الرسل، وكان قد بعث إليهم هودًا؛ لأن من كذب رسولًا واحدًا فقد كفر بجميع الرسل[5]؛ لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به، فعاد كفروا بهود، فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل[6].

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود: ٦٥]

۞ عبر عن الحياة بالتمتع؛ لأن الحي يكون متمتعا بالحواس[7].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٦٦).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٧٢).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٥٧٨).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٦٨).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٥٧٩).
(٦) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٣٣١).
(٧) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٥٧٩).

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ [هود:٦٩]

﴿قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ﴾ قال علماء البيان: هذا أحسن مما حيوه به؛ لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام[1].

﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود:٧١]

توجيه البشارة إليها للدلالة على أن الولد المبشر به يكون منها لا من هاجر، ولأنها كانت عقيمة حريصة على الولد[2].

خصت بالبشارة؛ لأن النساء أعظم سرورًا بالولد من الرجال، ولأنه لم يكن لها ولد، وكان لإبراهيم ولد، وهو إسماعيل[3].

من ههنا استدل من استدل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق؛ لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده، ووعد الله حق لا خلف فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعين أن يكون هو إسماعيل وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه، ولله الحمد[4].

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [إبراهيم:٧٥]

هذه الصفات دالة على رقة القلب والرأفة والرحمة، فبين أن ذلك مما حمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة كما حمله على الاستغفار لأبيه[5].

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ [هود:٨٤]

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ..﴾ الآيات.. شعيب عليه السلام كان يسمى خطيب

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٧٤)، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٣٣٢).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٤١).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٧٢).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٣٣٤).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٧٤).

الأنبياء، لحسن مراجعته لقومه، وفي قصته من الفوائد والعبر، شيء كثير: منها: أن الكفار كما يعاقبون، ويخاطبون، بأصل الإسلام، فكذلك بشرائعه وفروعه؛ لأن شعيبا دعا قومه إلى التوحيد، وإلى إيفاء المكيال والميزان، وجعل الوعيد مرتبا على مجموع ذلك[1].

ومنها: أن نقص المكاييل والموازين من كبائر الذنوب، وتخشى العقوبة العاجلة على من تعاطى ذلك، وأن ذلك من سرقة أموال الناس، وإذا كان سرقتهم في المكاييل والموازين موجبة للوعيد، فسرقتهم -على وجه القهر والغلبة- من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن الجزاء من جنس العمل، فمن بخس أموال الناس يريد زيادة ماله، عوقب بنقيض ذلك، وكان سببا لزوال الخير الذي عنده من الرزق لقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ أي: فلا تسببوا إلى زواله بفعلكم.

ومنها: أن على العبد أن يقنع بما آتاه الله، ويقنع بالحلال عن الحرام، وبالمكاسب المباحة عن المكاسب المحرمة، وأن ذلك خير له لقوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [هود:٨٦] ففي ذلك من البركة وزيادة الرزق ما ليس في التكالب على الأسباب المحرمة من المحق، وضد البركة.

ومنها: أن ذلك من لوازم الإيمان وآثاره، فإنه رتب العمل به على وجود الإيمان، فدل على أنه إذا لم يوجد العمل، فالإيمان ناقص أو معدوم.

ومنها: أن الصلاة لم تزل مشروعة للأنبياء المتقدمين، وأنها من أفضل الأعمال، حتى إنه متقرر عند الكفار فضلها وتقديمها على سائر الأعمال، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي ميزان للإيمان وشرائعه، فبإقامتها تكمل أحوال العبد، وبعدم إقامتها تختل أحواله الدينية.

ومنها: أن المال الذي يرزقه الله الإنسان -وإن كان الله قد خوله إياه- فليس له أن يصنع فيه ما يشاء، فإنه أمانة عنده، عليه أن يقيم حق الله فيه بأداء ما فيه من

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٨٨).

الحقوق، والامتناع من المكاسب التي حرمها الله ورسوله، لا كما يزعمه الكفار، ومن أشبههم، أن أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاءون ويختارون، سواء وافق حكم الله، أو خالفه.

• **ومنها**: أن من تكملة دعوة الداعي وتمامها أن يكون أول مبادر لما يأمر غيره به، وأول منته عما ينهى غيره عنه، كما قال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود:٨٨] ولقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف:٢-٣].

• **ومنها**: أن وظيفة الرسل وسنتهم وملتهم إرادة الإصلاح بحسب القدرة والإمكان، فيأتون بتحصيل المصالح وتكميلها أو بتحصيل ما يقدر عليه منها وبدفع المفاسد وتقليلها ويراعون المصالح العامة على المصالح الخاصة، وحقيقة المصلحة: هي التي تصلح بها أحوال العباد وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية.

• **ومنها**: أن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح لم يكن ملوما ولا مذموما في عدم فعله ما لا يقدر عليه، فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه وفي غيره ما يقدر عليه.

• **ومنها**: أن العبد ينبغي له أن لا يتكل على نفسه طرفة عين بل لا يزال مستعينا بربه متوكلا عليه، سائلا له التوفيق، وإذا حصل له شيء من التوفيق فلينسبه لموليه ومسديه، ولا يعجب بنفسه؛ لقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود:٨٨].

• **ومنها**: الترهيب بأخذات الأمم وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أن تذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر، كما أنه ينبغي ذكر ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب والحث على التقوى.

• **ومنها**: أن التائب من الذنب كما يسمح له عن ذنبه ويعفى عنه، فإن الله تعالى يحبه ويوده ولا عبرة بقول من يقول: «إن التائب إذا تاب فحسبه أن يغفر له ويعود عليه العفو وأما عود الود والحب فإنه لا يعود»، فإن الله قال: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود:٩٠].

ومنها: أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة قد يعلمون بعضها وقد لا يعلمون شيئا منها، وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم أو أهل وطنهم الكفار، كما دفع الله عن شعيب رجم قومه بسبب رهطه، وأن هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين لا بأس بالسعي فيها، بل ربما تعين ذلك؛ لأن الإصلاح مطلوب على حسب القدرة والإمكان، فعلى هذا لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفار وعملوا على جعل الولاية جمهورية يتمكن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدنيوية لكان أولى من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم الدينية والدنيوية وتحرص على إبادتها وجعلهم عمَلَةً وخَدَمًا لهم، نعم إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام فهو المتعين، ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا مقدمة[1].

﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥﴾ [هود:٨٥]

صرح بالأمر بالإيفاء بعد النهي عن ضده؛ مبالغة وتنبيهًا على أنه لا يكفيهم الكف عن تعمدهم التطفيف، بل يلزمهم السعي في الإيفاء ولو بزيادة لا يتأتى بدونها[2].

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦﴾ [هود:٨٦]

شرط الإيمان في كونه خيرا لهم؛ لأنهم إن كانوا مؤمنين بالله عرفوا صحة ما يقول[3].

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [هود:٨٨]

لهذه الأجوبة الثلاثة على هذا النسق شأن: وهو التنبيه على أن العاقل يجب أن يراعي في كل ما يأتيه ويذره أحد حقوق ثلاثة: **أهمها وأعلاها:** حق الله تعالى، **وثانيها:**

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٨٨).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٤٤).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٥٨٦).

حق النفس، **وثالثها**: حق الناس، وكل ذلك يقتضي أن آمركم بما أمرتكم به وأنهاكم عما نهيتكم عنه[١].

﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود:٩١]

قيل: لنراك قليل المعرفة بمصالح الدنيا وأمر السياسة، وهي مقالة تلوكها ألسنة أشباههم إلى اليوم[٢].

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود:٩٤]

إنما ذكر في آخر قصة عاد ومدين: ﴿وَلَمَّا جَآءَ﴾، وفي آخر قصة ثمود ولوط: ﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾ [هود:٩٤]؛ لأنهما وقعا بعد ذكر الموعد، وذلك قوله: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ [هود:٨١]، ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود:٦٥]، فجيء بالفاء الذي هو للتسبيب، كقولك: وعدته فلما جاء الميعاد كان كيت وكيت، وأما الأخريان فقد وقعتا مبتدأتين، فكان حقهما أن تعطفا بحرف الجمع على ما قبلها، كما تعطف قصة على قصة[٣].

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود:٩٨]

نزّل النار لهم منزلة الماء، ثم قبحه؛ لأن الورد لتسكين العطش وتبريد الأكباد، والنار ضده[٤].

﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود:١٠١]

قال ابن الأنباري: إنهم ادعوا أن عبادتها تنفعهم عند الله، فلما جرى الأمر بخلاف ما قدّروا، وصفها الله تعالى بأنها زادتهم بلاء وهلاكا[٥].

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٤٥).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص١٥٩).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٨١).
(٤) جامع البيان، للإيجي (٢/ ١٩٧).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٥٨٩).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢]

۞ هذا تحذير لكل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها، فعلى كل ظالم أن يبادر التوبة ولا يغتر بالإمهال[(١)].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود:١٠٣]

۞ ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ إنما آثر اسم المفعول على فعله لما في اسم المفعول من دلالته على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه أثبت أيضًا لإسناد الجمع إلى الناس، وأنهم لا ينفكون منه، يجمعون للحساب والثواب والعقاب[(٢)].

﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود:١٠٨]

۞ صرّح في الجنة بأنه غير مقطوع؛ لئلا يتوهم متوهم بعد ذكر المشيئة أن ثمة انقطاعا، ولم يذكر في شق النار[(٣)].

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود:١١٢]

۞ في الآية دليل على وجوب اتباع النصوص من غير تصرف وانحراف بنحو قياس واستحسان[(٤)].

۞ يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد، ونهى عن الطغيان، وهو البغي، فإنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك[(٥)].

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود:١١٣]

۞ إذا كان الركون إلى من وجد منه ما يسمى ظلمًا كذلك، فما ظنك بالركون

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٨٣).

(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٨٤).

(٣) جامع البيان، للإيجي (٢/ ٢٠٢).

(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٥١).

(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٣٥٤).

إلى الظالمين، أي: الموسومين بالظلم، ثم بالميل إليهم كل الميل، ثم بالظلم نفسه والانهماك فيه، ولعل الآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه[1].

جعل الله تعالى الدِّين بين لاءين: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ [هود:١١٢] و ﴿وَلَا تَرْكَنُوا﴾[2].

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [هود:١١٦]

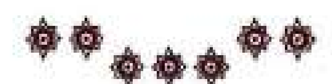
في هذا حث لهذه الأمة، أن يكون فيهم بقايا مصلحون لما أفسد الناس، قائمون بدين الله، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويبصرونهم من العمى[3].

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود:١٢٠]

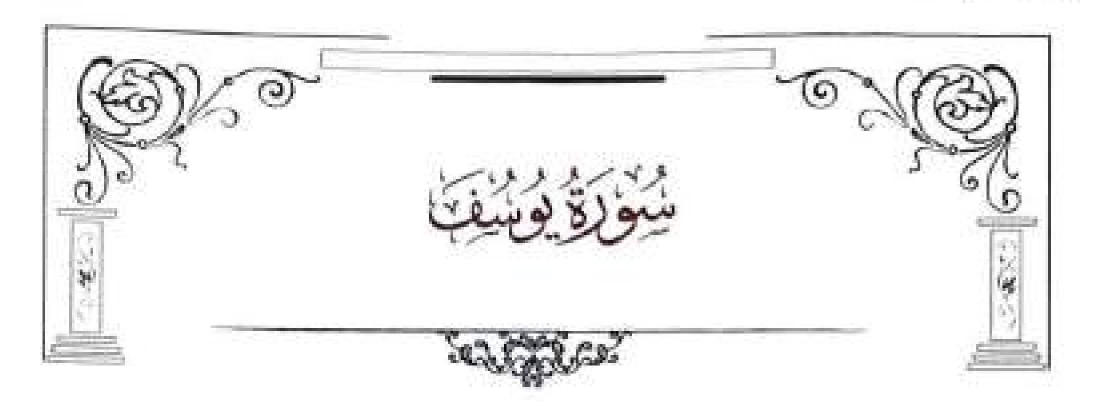
خصت هذه السورة بمجيء الحق فيها، تشريفا للسورة ورفعا لمنزلتها[4].

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود:١٢٣]

في تقديم الأمر بالعبادة على التوكل تنبيه على أنه إنما ينفع العابد[5].



(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٥١)، تيسير الكريم الرحن، للسعدي (ص٣٩٠).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص١٦١).
(٣) تيسير الكريم الرحن، للسعدي (ص٣٩١).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٥٩٨).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٥٣).



﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف:٣]

اعلم أن الله ذكر أنه يقص على رسوله ﷺ أحسن القصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه القصة وبسطها، وذكر ما جرى فيها، فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة، فمن أراد أن يكملها أو يحسنها بما يذكر في الإسرائيليات التي لا يعرف لها سند ولا ناقل وأغلبها كذب، فهو مستدرك على الله، ومكمل لشيء يزعم أنه ناقص، وحسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبحا، فإن تضاعيف هذه السورة قد ملئت في كثير من التفاسير من الأكاذيب والأمور الشنيعة المناقضة لما قصه الله تعالى بشيء كثير، فعلى العبد أن يفهم عن الله ما قصه، ويدع ما سوى ذلك مما ليس عن النبي ﷺ ينقل[١].

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾ [يوسف:٥]

إنما لم يقل: (فيكيدوك) كما قال: (فكيدوني)؛ لأنه ضُمن معنى فعل يتعدى باللام، ليفيد معنى فعل الكيد مع الفعل المضمن، فيكون آكد وأبلغ في التخويف، وذلك نحو: فيحتالوا لك، ألا ترى إلى تأكيده بالمصدر وهو ﴿كَيْدًا﴾[٢].

﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ استدل به على جواز إخفاء النعمة إذا خاف صاحبها من ذلك[٣].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٣٩٣).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٩٥).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص١٦٢).

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف:٦]

قال قتادة: كل ذلك فعل الله به: اجتباه واصطفاه وعلمه من تأويل الأحاديث، فكان أعبر الناس للرؤيا، وأتم النعمة عليه[١].

﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾ [يوسف:٨]

﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ اللام لام الابتداء، وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة، أرادوا: أن زيادة محبته لهما أمر ثابت، لا شبهة فيه، وإنما قالوا: وأخوه وهم إخوته أيضًا؛ لأن أمهما كانت واحدة[٢].

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ [يوسف:٩]

أخطأوا في هذا التدبير؛ لأنه لما فقد يوسف أعرض عنهم بالكلية، قال الله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤][٣].

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [يوسف:١١]

فيه دليل على أنه أحس منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه[٤].

﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يوسف:١٣-١٤]

أجابوا عن عذره الثاني دون الأول؛ لأن ذلك كان يغيظهم[٥].

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٦٠١).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٩٦).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٦٠١).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٩٨).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٩٨).

﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ لقنهم العذر -دون أن يشعر- وكان بلاؤه موكلا بمنطقه[1].

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يوسف:١٥]

﴿وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ هذا فيه تعظيم لما فعلوه؛ أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب[2].

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف:١٨]

﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، وصف بالمصدر مبالغة، كأنه نفس الكذب[3].

في القميص ثلاث آيات: هذه، وحين قد من دبر، وحين ألقي على وجه أبيه[4].

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يوسف:١٩]

في هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ، وإعلامه له بأنني عالم بأذى قومك، وأنا قادر على الإنكار عليهم، ولكني سأملي لهم، ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته[5].

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف:٢٤]

قال الحسن: إن الله لم يقصص عليكم ذنوب الأنبياء تعييرا لهم، ولكنه قصها عليكم لئلا تقنطوا من رحمته. وقال أبو عبيد: يذهب الحسن إلى أن الحجة من الله على

---

(١) وجه النهار، للحربي (ص١٦٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٣٧٤).
(٣) جامع البيان، للإيجي (٢/ ٢١٤).
(٤) وجه النهار، للحربي (ص١٦٤).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٣٧٦).

أنبيائه أوكد، وهي لهم ألزم، فإذا كان يقبل التوبة منهم، فهي إلى قبولها منكم أسرع[١].

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف:٢٩]

حذف منه حرف النداء؛ لأنه منادى قريب، مفاطن للحديث، وفيه تقريب له وتلطيف لمحله.. ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾ من جملة القوم المتعمدين للذنب، يقال: خطىء إذا أذنب متعمدًا، وإنما قال بلفظ التذكير تغليبا للذكور على الإناث، وكان العزيز رجلًا حليمًا، قليل الغيرة، حيث اقتصر على هذا القول[٢].

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف:٣٢]

الاستعصام بناء مبالغة، يدل على الامتناع البليغ، والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة، وهو يجتهد في الاستزادة منها، وهذا بيان جلي على أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بريء مما فسر به أولئك الفريق الهم والبرهان[٣].

قال بعضهم: لما رأين جماله الظاهر، أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن، وهي العفة مع هذا الجمال[٤].

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ وضع (ذلك) موضع (هذا)؛ رفعا لمنزلته، واستبعادا لمحله في الحسن[٥].

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٦٠٨).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ١٠٦).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ١٠٨)، ومراده: القول بأن همّ يوسف أنه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع.. والبرهان: بأنه سمع صوتًا: إياك وإياها مرتين، فسمع ثالثًا أعرض عنها، فلم ينجع فيه، حتى مثل له يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ عاضًا على أنملته، والخلاف في المراد بالهم مما وقع فيه خلاف بين المفسرين، (ينظر: تفسير الطبري ١٦/ ٣٥، الوسيط للواحدي ٢/ ٦٠٧ وما بعدها، مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ١٠٤).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٣٨٦).
(٥) جامع البيان، للإيجي (٢/ ٢٢٢).

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف:٣٧-٣٨]

فيه أن العالم إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده وغرضه أن يقتبس منه لم يكن من باب التزكية[١].

هكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع المرسلين، وأعرض عن طريق الظالمين؛ فإنه يهدي قلبه، ويعلمه ما لم يكن يعلمه، ويجعله إماما يقتدى به في الخير، وداعيا إلى سبيل الرشاد[٢].

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف:٣٨]

كلام مبتدأ لتمهيد الدعوة وإظهار أنه من بيت النبوة؛ لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه والوثوق عليه، ولذلك جوز للخامل أن يصف نفسه حتى يعرف فيقتبس منه[٣].

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يوسف:٤١]

﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا، ولكنه لم يعيِّنه لئلا يحزن ذاك؛ ولهذا أبهمه في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ﴾ وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا[٤].

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يوسف:٤٦]

﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ لما جرّب كمال علمه، كلّمه كلام

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ١١٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٣٨٩).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٦٤).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٣٩٠).

محترز، وبناه على الرجاء لا على اليقين، فربما اخترم دون الرجوع، وربما لم يعلموا[١].

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝٥٠﴾ [يوسف:٥٠]

فيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها[٢].

لم يذكر امرأة العزيز؛ رعيًا لذمام زوجها وسترًا لها، بل ذكر النسوة اللاتي قطعن أيديهن[٣]. قال الزجاج: ولم يفرد يوسف امرأة العزيز لحسن عشرة منه وأدب، فخلطها بالنسوة[٤].



الجزء الثالث عشر

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾ [يوسف:٥٥]

دليل على جواز طلب التولية، وإظهار أنه مستعد لها، والتولي من يد الكافر إذا علم أنه لا سبيل إلى إقامة الحق وسياسة الخلق إلا بالاستظهار به[٥].

يستدل بذلك أنه يجوز للرجل أن يُعرِّف بنفسه ويمدح نفسه بالحق إذا جهل أمره، وإذا كان في ذلك فائدة[٦].

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦٨﴾ [يوسف:٦٨]

مدحه الله بالعلم لقوله: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف:٦٧] علِمَ أن

(١) جامع البيان، للإيجي (٢/ ٢٢٩).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ١١٦).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٨٩).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٦١٧).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٦٨)، التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٩٠).
(٦) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٩٠)، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٣٩٥).

الحذر لا ينفع من القدر، وأن المقدور كائن[1].

﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾ [يوسف:٧٢]

فيه دليل على جواز الجعالة، وضمان الجعل قبل تمام العمل[2].

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف:٧٦]

استدل به على جواز الحيلة في التوصل إلى مباح[3].

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف:٨٤]

فيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند التفجع، ولعل أمثال ذلك لا تدخل تحت التكليف؛ فإنه قل من يملك نفسه عند الشدائد[4].

إنما تأسف على يوسف دون أخيه وكبيرهم، لتمادي أسفه على يوسف دون الآخرين، وفيه دليل على أن الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضًا عنده طريًا[5].

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف:٨٧]

لم يذكر الولد الثالث؛ لأنه بقي هناك اختيارًا منه؛ ولأن يوسف وأخاه كانا أحب إليه[6].

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٦٢٢).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٧١).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص١٦٩).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٧٤).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ١٢٩).
(٦) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٩٤).

جعل اليأس من صفة الكافر؛ لأن سببه تكذيب الربوبية، أو جهلًا بصفات الله من قدرته وفضله ورحمته[١].

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨)﴾ [يوسف:٨٨]

﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨)﴾ قال النقاش: هو من المعاريض؛ وذلك أنهم كانوا يعتقدون أنه كافر؛ لأنهم لم يعرفوه، فظنوا أنه على دين أهل مصر، فلو قالوا: (إن الله يجزيك بصدقتك) كُذِّبوا، فقالوا لفظًا يوهم أنهم أرادوه وهم لم يريدوه[٢].

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩)﴾ [يوسف:٨٩]

يعني: ما فعلوه به بإدخال الهم والجزع بإفراده عن أخيه، ولم يذكر أباه يعقوب مع عظم ما دخل عليه من الغم بفراقه تعظيما ورفعا من قدره، وعلما أن ذلك كان له بلاء من الله ليزيد في درجته عنده[٣].

﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠)﴾ [يوسف:٩٠]

قال ابن الأنباري: أظهر الاسم ولم يقل: (أنا هو) تعظيما لما وقع به من ظلم إخوته، كأنه قال: أنا المظلوم المستحل منه المحرم، المراد قتله، فكفى ظهور الاسم من هذه المعاني، ولهذا قال: ﴿وَهَذَا أَخِي﴾ وهم يعرفونه؛ لأن قصده: وهذا المظلوم كظلمي[٤].

وإنما ذكر أخاه وهم قد سألوه عن نفسه؛ لأنه كان في ذكر أخيه بيان لما سألوه عنه[٥].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٩٥).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٩٥).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٦٣٠).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٦٣١).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ١٣١).

الاستفهام يدل على الاستعظام، أي: إنهم تعجبوا من ذلك، أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر، وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه[١].

وضع المحسنين موضع الضمير للتنبيه على أن المحسن من جمع بين التقوى والصبر[٢].

التقوى والصبر هما سببا السعادة في الدارين[٣].

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يوسف:٩٩]

ضم إليه أباه وخالته واعتنقهما، نزّلها منزلة الأم، تنزيل العم منزلة الأب في قوله: ﴿وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة:١٣٣][٤].

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف:١٠٠]

إنما لم يقل: أخرجني من (الجب) لوجهين: أحدهما: أن في ذكر الجب خزي لإخوته، وتعريفهم بما فعلوه، فترك ذكره توقيرًا لهم، ولئلا يكون تثريبًا عليهم، **والآخر:** أنه خرج من الجب إلى الرِّق، ومن السجن إلى الملك، فالنعمة به أكثر[٥]، وأيضا عدّ لهم نعما غير معلومة لهم، وإخراجه من الجب معلوم لإخوته[٦].

من لطفه وحسن خطابه عَلَيْهِ السَّلَامُ ذكر أن إتيانهم من البادية من إحسان الله إليه، فلم يقل: جاء بكم من الجوع والنصب، ولا قال: «أحسن بكم» بل قال ﴿أَحْسَنَ بِي﴾

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٤٠٨).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٧٥).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص١٧١).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٧٦).
(٥) ينظر: التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٦٣٥)، أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٧٧)، التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٣٩٦).
(٦) جامع البيان، للإيجي (٢/ ٢٥٠).

جعل الإحسان عائدا إليه[١].

❁ لم يقل «نزغ الشيطان إخوتي»، بل كأن الذنب والجهل صدر من الطرفين، فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره، وجمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة[٢].

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف:١٠٨]

❁ قال الفراء: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ يدعو إلى الله كما أدعو، وهذا قول الكلبي، قال: حق على من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه، ويذكر بالقرآن والموعظة، وينهى عن معاصي الله[٣].

❁ **من فوائد قصة يوسف:** أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأبينها، لما فيها من أنواع التنقلات، من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة ومنَّة، ومن ذل إلى عز، ومن رقٍّ إلى ملك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وائتلاف، ومن حزن إلى سرور، ومن رخاء إلى جدب، ومن جدب إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة، ومن إنكار إلى إقرار، فتبارك من قصها فأحسنها، ووضحها وبيَّنها[٤].

❁ ومنها: أن فيها أصلا لتعبير الرؤيا، وأن علم التعبير من العلوم المهمة التي يعطيها الله من يشاء من عباده، وإن أغلب ما تبنى عليه المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة.

❁ ومنها: ما فيها من الأدلة على صحة نبوة محمد ﷺ، حيث قصَّ على قومه هذه القصة الطويلة، وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس أحدا.

❁ ومنها: أنه ينبغي البعد عن أسباب الشر، وكتمان ما تخشى مضرته، لقول يعقوب ليوسف ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف:٥].

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٠٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٠٥).

(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٦٣٧).

(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (١/ ٤٠٧).

ومنها: أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره لقوله: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾.

ومنها: أن نعمة الله على العبد، نعمة على من يتعلق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملتهم، وحصل لهم ما حصل له بسببه، كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف:٥]، ولما تمت النعمة على يوسف حصل لآل يعقوب من العز والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف.

ومنها: أن العدل مطلوب في كل الأمور، لا في معاملة السلطان رعيته ولا فيما دونه، حتى في معاملة الوالد لأولاده، في المحبة والإيثار وغيره، وأن في الإخلال بذلك يختل عليه الأمر، وتفسد الأحوال، ولهذا لما قدم يعقوب يوسف في المحبة وآثره على إخوته، جرى منهم ما جرى على أنفسهم، وعلى أبيهم وأخيهم.

ومنها: الحذر من شؤم الذنوب، وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوبا متعددة، ولا يتم لفاعله إلا بعدة جرائم، فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه، احتالوا لذلك بأنواع من الحيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاء يبكون، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها في تلك المدة، بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلما صار البحث، حصل من الإخبار بالكذب والافتراء ما حصل، وهذا شؤم الذنب، وآثاره التابعة والسابقة واللاحقة.

ومنها: أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ جرى منهم ما جرى في أول الأمر، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف ومن أبيهم، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد عن حقه، فالله خير الراحمين، ولهذا -في أصح الأقوال- أنهم كانوا أنبياء..

ومنها: ما منَّ الله به على يوسف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من العلم والحلم، ومكارم الأخلاق، والدعوة إلى الله وإلى دينه، وعفوه عن إخوته الخاطئين عفوا بادرهم به،

وتمم ذلك بأن لا يثرب عليهم ولا يعيرهم به، ثم برُّه العظيم بأبويه، وإحسانه لإخوته، بل لعموم الخلق.

ﭺ **ومنها**: أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما، فإن إخوة يوسف لما اتفقوا على قتل يوسف أو إلقائه أرضا، وقال قائل منهم: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف:١٠] كان قوله أحسن منهم وأخف، وبسببه خف عن إخوته الإثم الكبير.

ﭺ **ومنها**: أن الشيء إذا تداولته الأيدي وصار من جملة الأموال، ولم يعلم أنه كان على غير وجه الشرع، أنه لا إثم على من باشره ببيع أو شراء، أو خدمة أو انتفاع، أو استعمال، فإن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ باعه إخوته بيعا حراما لا يجوز، ثم ذهبت به السيارة إلى مصر فباعوه بها، وبقي عند سيده غلاما رقيقا، وسماه الله شراء، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم.

ﭺ **ومنها**: الحذر من الخلوة بالنساء التي يخشى منهن الفتنة، والحذر أيضا من المحبة التي يخشى ضررها، فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى، بسبب توحّدها بيوسف، وحبها الشديد له، الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه، فسجن بسببها مدة طويلة.

ﭺ **ومنها**: أن الهمَّ الذي همَّ به يوسف بالمرأة ثم تركه لله، مما يقربه إلى الله زلفى؛ لأن الهمّ داع من دواعي النفس الأمارة بالسوء، وهو طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته، غلبت محبة الله وخشيته داعي النفس والهوى، فكان ممن ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝٤٠﴾ [النازعات:٤٠]، ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، أحدهم: «رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله»[1]، وإنما الهم الذي يلام عليه العبد، الهم الذي يساكنه، ويصير عزما، ربما اقترن به الفعل.

ﭺ **ومنها**: أن من دخل الإيمان قلبه، وكان مخلصا لله في جميع أموره فإن الله يدفع

---

(١) رواه البخاري، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، برقم: (٦٦٠)، ومسلم، باب فضل إخفاء الصدقة، برقم: (١٠٣١).

عنه ببرهان إيمانه وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف:٢٤] على قراءة من قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح، فإنه من إخلاص الله إياه، وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله لله أخلصه الله، وخلصه من السوء والفحشاء.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلًا فيه فتنة وأسباب معصية، أن يفر منه ويهرب غاية ما يمكنه، ليتمكن من التخلص من المعصية؛ لأن يوسف عَلَيهِ السَّلَامُ -لما راودته التي هو في بيتها- فر هاربا، يطلب الباب ليتخلص من شرها.

ومنها: أن القرائن يعمل بها عند الاشتباه، فلو تخاصم رجل وامرأته في شيء من أواني الدار، فما يصلح للرجل فإنه للرجل، وما يصلح للمرأة فهو لها، إذا لم يكن بينة، وكذا لو تنازع نجار وحداد في آلة حرفتهما من غير بينة، والعمل بالقافة في الأشباه والأثر من هذا الباب، فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة، وحكم بها في قد القميص، واستدل بقدِّه من دبره على صدق يوسف وكذبها، ومما يدل على هذه القاعدة، أنه استدل بوجود الصُّواع في رحل أخيه على الحكم عليه بالسرقة، من غير بينة شهادة ولا إقرار، فعلى هذا إذا وجد المسروق في يد السارق، خصوصا إذا كان معروفا بالسرقة، فإنه يحكم عليه بالسرقة، وهذا أبلغ من الشهادة، وكذلك وجود الرجل يتقيأ الخمر، أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيد حاملا فإنه يقام بذلك الحد، ما لم يقم مانع منه، ولهذا سمى الله هذا الحاكم شاهدا فقال: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف:٢٦].

ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الظاهر والباطن؛ فإن جماله الظاهر، أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعتهن حين لمنها على ذلك أن قطعن أيديهن وقلن: ﴿مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف:٣١]، وأما جماله الباطن، فهو العفة العظيمة عن المعصية، مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها، وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببراءته، ولهذا قالت امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف:٣٢]، وقالت بعد ذلك: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ [يوسف:٥١]، وقالت النسوة: ﴿حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف:٢٤].

ومنها: أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ اختار السجن على المعصية، فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين -إما فعل معصية، وإما عقوبة دنيوية- أن يختار العقوبة الدنيوية على مواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة، ولهذا من علامات الإيمان أن يكره العبد أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته، لقول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف:٣٣].

ومنها: أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير، وينهيانه عن الشر، وأن الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس، وإن كان معصية ضارا لصاحبه.

ومنها: أنه كما على العبد عبودية لله في الرخاء، فعليه عبودية له في الشدة، فـ «يوسف» عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يزل يدعو إلى الله، فلما دخل السجن، استمر على ذلك، ودعا الفتيين إلى التوحيد، ونهاهما عن الشرك، ومن فطنته عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته، حيث ظنا فيه الظن الحسن وقالا له: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [يوسف:٣٦] وأتياه لأن يعبر لهما رؤياهما، فرآهما متشوفين لتعبيرها عنده - رأى ذلك فرصة فانتهزها، فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أنجح لمقصوده، وأقرب لحصول مطلوبه، وبين لهما أولًا أن الذي أوصله إلى الحال التي رأياه فيها من الكمال والعلم، إيمانه وتوحيده، وتركه ملة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا دعاء لهما بالحال، ثم دعاهما بالمقال، وبين فساد الشرك وبرهن عليه، وحقيقة التوحيد وبرهن عليه.

ومنها: أنه يبدأ بالأهم فالأهم، وأنه إذا سئل المفتي، وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد، أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله، فإن هذا علامة على نصح المعلم وفطنته، وحسن إرشاده وتعليمه، فإن يوسف -لما سأله الفتيان عن الرؤيا- قدم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له.

ومنها: أن من وقع في مكروه وشدة، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على

تخليصه، أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض؛ ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج من الفتيين: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾[يوسف:٤٢].

ومنها: أنه ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه، وأن لا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع، وأن لا يمتنع من التعليم، أو لا ينصح فيه إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم، فإن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قد قال ووصى أحد الفتيين أن يذكره عند ربه، فلم يذكره ونسي، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى، وجاءه سائلا مستفتيا عن تلك الرؤيا، فلم يعنفه يوسف ولا وبخه لتركه ذكره، بل أجابه عن سؤاله جوابا تاما من كل وجه.

ومنها: أنه ينبغي للمسئول أن يدل السائل على أمر ينفعه مما يتعلق بسؤاله، ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه، فإن هذا من كمال نصحه وفطنته، وحسن إرشاده، فإن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلهم -مع ذلك- على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع، وكثرة جبايته.

ومنها: أنه لا يلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه، وطلب البراءة لها، بل يحمد على ذلك، كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطعن أيديهن.

ومنها: فضيلة العلم، علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية؛ وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف، فإن يوسف -بسبب جماله- حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض، فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

ومنها: أن علم التعبير من العلوم الشرعية، وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه، وأن تعبير المَرائي داخل في الفتوى، لقوله للفتيين: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ۝٤١﴾ [يوسف:٤١]، وقال الملك: ﴿أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَـٰيَ﴾ [يوسف:٤٣]، وقال الفتى

ليوسف: ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ﴾ [يوسف:٤٦] الآيات.. فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم.

ومنها: أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل، إذا كان في ذلك مصلحة، ولم يقصد به العبد الرياء، وسلم من الكذب، لقول يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف:٥٥]، وكذلك لا تذم الولاية إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله وحقوق عباده، وأنه لا بأس بطلبها إذا كان أعظم كفاءة من غيره، وإنما الذي يذم إذا لم يكن فيه كفاية، أو كان موجودا غيره مثله، أو أعلى منه، أو لم يرد بها إقامة أمر الله، فبهذه الأمور ينهى عن طلبها والتعرض لها.

ومنها: أن الله واسع الجود والكرم، يجود على عبده بخير الدنيا والآخرة، وأن خير الآخرة له سببان: الإيمان والتقوى، وأنه خير من ثواب الدنيا وملكها، وأن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه، ويشوقها لثواب الله، ولا يدعها تحزن إذا رأت أهل الدنيا ولذاتها، وهي غير قادرة عليها، بل يسليها بثواب الله الأخروي، وفضله العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف:٥٧].

ومنها: أن جباية الأرزاق -إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم- لا بأس بها؛ لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات، للاستعداد للسنين المجدبة، وأن هذا غير مناقض للتوكل على الله، بل يتوكل العبد على الله، ويعمل بالأسباب التي تنفعه في دينه ودنياه.

ومنها: حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الأرض، حتى كثرت عندهم الغلات جدا حتى صار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها، لعلمهم بوفورها فيها، وحتى إنه كان لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل، لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف؛ لقول

يوسف لإخوته: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ۝٥٩﴾ [يوسف:٥٩].

ﻙ **ومنها**: أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم، فإن يعقوب قال لأولاده بعد ما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشد المعالجة، ثم قال لهم بعد ما أتوه، وزعموا أن الذئب أكله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف:٨٣]، وقال لهم في الأخ الآخر: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:٦٤]، ثم لما احتبسه يوسف عنده، وجاء إخوته لأبيهم قال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، فهم في الأخيرة -وإن لم يكونوا مفرطين- فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال، من غير إثم عليه ولا حرج.

ﻙ **ومنها**: أن استعمال الأسباب الدافعة للعين أو غيرها من المكاره، أو الرافعة لها بعد نزولها، غير ممنوع، بل جائز، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر، فإن الأسباب أيضا من القضاء والقدر، لأمر يعقوب حيث قال لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف:٦٧].

ﻙ **ومنها**: جواز استعمال المكايد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد، وإنما الممنوع، التحيل على إسقاط واجب، أو فعل محرم.

ﻙ **ومنها**: أنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره بأمر لا يحب أن يطلع عليه، أن يستعمل المعاريض القولية والفعلية المانعة له من الكذب، كما فعل يوسف حيث ألقى الصُّواع في رحل أخيه، ثم استخرجها منه، موهما أنه سارق، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته، وقال بعد ذلك: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف:٧٩] ولم يقل: «من سرق متاعنا»، وكذلك لم يقل: «إنا وجدنا متاعنا عنده»، بل أتى بكلام عام يصلح له ولغيره، وليس في ذلك محذور، وإنما فيه إيهام أنه سارق، ليحصل المقصود الحاضر، وأنه يبقى عند أخيه، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعد ما تبينت الحال.

ﻙ **ومنها**: أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه وتحققه، إما بمشاهدة أو

خبر من يثق به وتطمئن إليه النفس؛ لقولهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ [يوسف:٨١].

ومنها: هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف، الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة، ويحزنه ذلك أشد الحزن، فحصل التفريق بينه وبينه مدة طويلة، لا تقصر عن خمس عشرة سنة، ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه في هذه المدة ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف:٨٤]، ثم ازداد به الأمر شدة حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، هذا وهو صابر لأمر الله، محتسب الأجر من الله، قد وعد من نفسه الصبر الجميل، ولا شك أنه وفى بما وعد به، ولا ينافي ذلك قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٦] فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافيه الشكوى إلى المخلوقين.

ومنها: أن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا؛ فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتد به إلى أنهى ما يكون، ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب ومسهم الضر، أذن الله حينئذ بالفرج، فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة واضطرارا، فتم بذلك الأجر وحصل السرور، وعلم من ذلك أن الله يبتلي أولياءه بالشدة والرخاء، والعسر واليسر، ليمتحن صبرهم وشكرهم، ويزداد -بذلك- إيمانهم ويقينهم وعرفانهم.

ومنها: جواز إخبار الإنسان بما يجد، وما هو فيه من مرض أو فقر ونحوهما، على غير وجه التسخط؛ لأن إخوة يوسف قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ [يوسف:٨٨]، ولم ينكر عليهم يوسف.

ومنها: فضيلة التقوى والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلهما أحسن العواقب؛ لقوله: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾ [يوسف:٩٠].

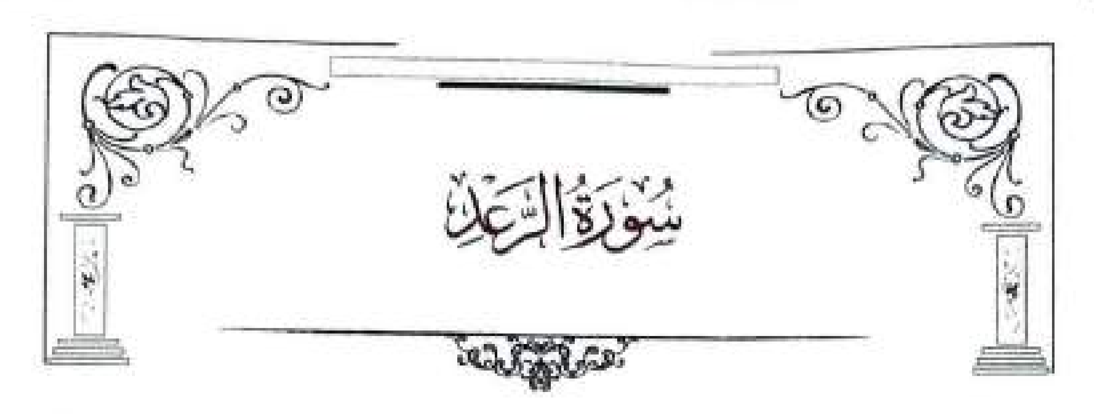
ومنها: أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة وفقر وسوء حال، أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن لا يزال ذاكرا حاله الأولى، ليحدث لذلك شكرا كلما ذكرها؛ لقول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف:١٠٠].

- ومنها: لطف الله العظيم بيوسف، حيث نقله في تلك الأحوال، وأوصل إليه الشدائد والمحن، ليوصله بها إلى أعلى الغايات ورفيع الدرجات.

- ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يتملق إلى الله دائما في تثبيت إيمانه، ويعمل الأسباب الموجبة لذلك، ويسأل الله حسن الخاتمة، وتمام النعمة؛ لقول يوسف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف:١٠١][1].



(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (١/ ٤٠٧).



سورة الرعد

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد:٤]

﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ حجة وبرهان على أنه تعالى قدير ومريد؛ لأن اختلاف مذاقها وأشكالها وألوانها مع اتفاق الماء الذي تسقى به: دليل على القدرة والإرادة، وفي ذلك ردّ على القائلين بالطبيعة[١].

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾ [الرعد:٥]

﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾ لا ينفكون عنها، وتوسيط الفصل لتخصيص الخلود بالكفار[٢].

دل تكرار ﴿أُولَٰئِكَ﴾ على تعظيم الأمر[٣].

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرعد:٦]

تلا مطرّف يوما هذه الآية، فقال: لو يعلم الناس قدر رحمة الله ومغفرة الله وعفو الله وتجاوز الله، لَقَرَّتْ أعينهم، ولو يعلم الناس قدر عذاب الله، وبأس الله ونكال الله ونقمة الله، ما رَقأَ لهم دمع، ولا قَرَّتْ أعينهم بشيء[٤].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٤٠٠).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٨١).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ١٣٥).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٦).

ه هي أرجى آية في كتاب الله؛ حيث ذكر المغفرة مع الظلم، وهو بدون التوبة، فإن التوبة تزيلها وترفعها[1].

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ الصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ۝١٣﴾ [الرعد:١٣]

ه ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ أي: يرسلها نقمة ينتقم بها ممن يشاء، ولهذا تكثر في آخر الزمان[2].

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَٰتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ الْوَٰحِدُ الْقَهَّٰرُ ۝١٦﴾ [الرعد:١٦]

ه السؤال والجواب جاء من جهة واحدة؛ لأن المشركين لا ينكرون أن الله خالق السموات والأرض والمخلوقات كلها[3].

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَٰطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۝١٧﴾ [الرعد:١٧]

ه ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾ إنما نكّر؛ لأن المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين البقاع فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض[4].

ه قال ابن الأنباري: شبه نزول القرآن الجامع للهدى والبيان بنزول المطر؛ إذ نفع نزول القرآن يعم، كعموم نفع نزول المطر، وشبه الأودية بالقلوب؛ إذ الأودية يستكن فيها الماء كما يستكن الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين[5].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ١٤٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٤٤٢).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ١١).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ١٤٩).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ١٢).

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد:٢٢]

﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة، فإن هذا هو الصبر النافع الذي يحبس به العبد نفسه، طلبا لمرضاة ربه، ورجاء للقرب منه، والحظوة بثوابه، وهو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان، وأما الصبر المشترك الذي غايته التجلد ومنتهاه الفخر، فهذا يصدر من البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فليس هو الممدوح على الحقيقة[١].

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الرعد:٢٣]

في التقييد بالصلاح دلالة على أن مجرد الأنساب لا تنفع[٢].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد:٣٧]

قال بعضهم: سماه حُكما؛ لأنه منه يحكم في الوقائع، أو لأن الله تعالى حكم على الخلق بقبوله[٣].

هذا من باب التهييج والبعث للسامعين على الثبات في الدين، وأن لا يزلّ عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة، وإلا فكان رسول الله ﷺ من شدة الثبات بمكان[٤].

في هذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعدما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية[٥].

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد:٤٣]

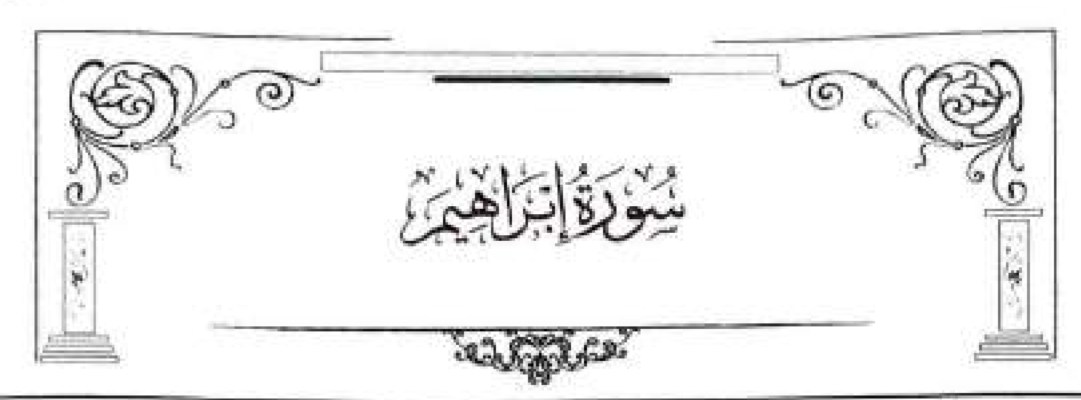
إنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب؛ لأنهم أهل هذا الشأن، وكل أمر إنما

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤١٦).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٨٦).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ١٥٨).
(٤) جامع البيان، للإيجي (٢/ ٢٧٨).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٤٦٧)، جامع البيان، للإيجي (٢/ ٢٧٨).

يستشهد فيه أهله ومن هم أعلم به من غيرهم، بخلاف من هو أجنبي عنه، كالأميين من مشركي العرب وغيرهم، فلا فائدة في استشهادهم لعدم خبرتهم ومعرفتهم[1].

❁❁❁❁❁❁❁

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٢٠).



سورة إبراهيم

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٣﴾ [إبراهيم:٣]

وصفه بالبعد مع أنه في الحقيقة للضال، للمبالغة[1].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾ [إبراهيم:٤]

يستدل بهذه الآية الكريمة على أن علوم العربية الموصلة إلى تبيين كلامه وكلام رسوله أمور مطلوبة محبوبة لله؛ لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها إلا إذا كان الناس بحالة لا يحتاجون إليها، وذلك إذا تمرنوا على العربية، ونشأ عليها صغيرهم، وصارت طبيعة لهم فحينئذ قد اكتفوا المؤنة، وصلحوا أن يتلقوا عن الله وعن رسوله ابتداء، كما تلقى عنهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[2].

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٥﴾ [إبراهيم:٥]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٥﴾ كأنه قال: لكل مؤمن؛ إذ الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر[3].

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٦﴾ [إبراهيم:٦]

﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ جاء بالواو على أنه عذاب آخر، وفي سورة البقرة

(١) جامع البيان، للإيجي (٢/ ٢٨٤).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٢١).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ١٦٢).

﴿يُذَبِّحُونَ﴾ [البقرة:٤٩] من غير واو؛ بيان للعذاب[1].

﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ⑩﴾ [إبراهيم:١٠]

﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ بعض ذنوبكم، وهو ما بينكم وبينه تعالى، فإن الإسلام يجبه دون المظالم، وقيل: جيء بـ(من) في خطاب الكفرة دون المؤمنين في جميع القرآن؛ تفرقة بين الخطابين، ولعل المعنى فيه: أن المغفرة حيث جاءت في خطاب الكفار مرتبة على الإيمان، وحيث جاءت في خطاب المؤمنين مشفوعة بالطاعة والتجنب عن المعاصي ونحو ذلك، فتتناول الخروج عن المظالم[2].

﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ⑯﴾ [إبراهيم:١٦]

إنما ذكر هذا (السقي) تجريدًا بعد ذكر جهنم؛ لأنه من أشد عذابها[3].

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ㉑﴾ [إبراهيم:٢١]

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ إنما جيء به بلفظ الماضي؛ لأن ما أخبر به عَزَّ وَجَلَّ لصدقه كأنه قد كان ووجد[4].

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ㉒﴾ [إبراهيم:٢٢]

في حكاية أمثال ذلك لطف للسامعين وإيقاظ لهم حتى يحاسبوا أنفسهم

---

(١) وجه النهار، للحربي (ص١٧٩).

(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٩٤).

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٤١٠).

(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ١٦٨).

ويتدبروا عواقبهم[١].

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٠]

قال ابن عباس في هذه الآية: لو صار الكافر مريضا سقيما لا ينام ليلا ولا نهارا، جائعا لا يجد ما يأكل ويشرب، لكان هذا كله نعيما يتمتع به بالقياس إلى ما يصير إليه من شدة العذاب، ولو كان المؤمن في الدنيا في أنعم عيشه، لكان بؤسا عندما يصير إليه من نعيم الآخرة[٢].

ليس الضلال ولا الإضلال غرضهم في اتخاذ الأنداد، لكن لما كان نتيجته جعل كالغرض[٣].

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٥]

قال في هذه القصة: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ فعرَّفه، كأنه دعا به بعد بنائها؛ ولهذا قال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٩]، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة، فإنه دعا أيضا فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾[٤].

﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٧]

هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه، تأكيدا ورغبة إلى الله، عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا قال: ﴿عِندَ

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٩٧).

(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٣٢).

(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ١٩٩).

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٥١٣).

بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾[١].

۞ ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ توسيط النداء للإشعار بأنها المقصودة بالذات، والغرض من إسكانهم[٢].

۞ قال ابن عباس ومجاهد: لو قال أفئدة الناس، لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند. وقال سعيد بن جبير: لو قال أفئدة الناس، لحجت اليهود والنصارى والمجوس، ولكنه قال: ﴿أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[٣].

۞ ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، وقد استجاب الله ذلك.. وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته: أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة، وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها، استجابة لخليله إبراهيم، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ[٤].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم:٣٩]

۞ إنما ذكر حال الكبر؛ لأن المنة بهبة الولد فيها أعظم؛ لأنها حال وقوع اليأس من الولادة، والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجلّ النعم؛ ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم[٥].

۞ هذا دليل على أن الدعاء بعد بناء البيت[٦].

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم:٤٠]

۞ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ إنما بعّض؛ لأنه علم بأعلام الله أنه يكون في ذريته كفار، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لا يزال من ولد إبراهيم ناس على الفطرة إلى أن تقوم الساعة[٧].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٥١٣).
(٢) جامع البيان، للإيجي (٢/ ٢٩٩).
(٣) ينظر: التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٣٤)، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٥١٥).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٥١٤).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ١٧٦).
(٦) جامع البيان، للإيجي (٢/ ٢٩٩).
(٧) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ١٧٧).

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤٧﴾ [إبراهيم:٤٧]

إن قيل: هلا قال: (مخلف رسله وعده)، ولم قدم المفعول الثاني على الأول؟ **فالجواب:** أنه قدم الوعد؛ ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلًا على الإطلاق، ثم قال: ﴿رُسُلَهُۥٓ﴾؛ ليعلم أنه إذا لم يخلف وعد أحد من الناس، فكيف يخلف وعد رسله وخيرة خلقه؛ فقدم الوعد أولًا بقصد (الإطلاق)، ثم ذكر الرسل لقصد (التخصيص)[1].

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨﴾ [إبراهيم:٤٨]

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨﴾ توصيفه بالوصفين؛ للدلالة على أن الأمر في غاية الصعوبة كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝١٦﴾ [غافر:١٦]؛ فإن الأمر إذا كان لواحد غلاب لا يغالب، فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار[2].

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ [إبراهيم:٥٠]

جعلت سرابيلهم من قطران، لأنه أبلغ في اشتعال النار في جلودهم[3].

خص الوجه؛ لأنه أعز موضع في ظاهر البدن، كالقلب في باطنه، ولذا قال: ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة:٧][4].

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٢﴾ [إبراهيم:٥٢]

اعلم أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكر لهذا البلاغ ثلاث فوائد هي الغاية والحكمة في إنزال الكتب: تكميل الرسل للناس، واستكمال القوة النظرية التي منتهى كمالها التوحيد، واستصلاح القوة العملية الذي هو التدرع بلباس التقوى[5].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٤١٤).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢٠٣).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٣٧).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ١٨١).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢٠٥).

❁ ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٢﴾ أي: العقول الكاملة ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وبذلك صاروا أولي الألباب والبصائر، إذ بالقرآن ازدادت معارفهم وآراؤهم، وتنورت أفكارهم لما أخذوه غضًّا طريًّا فإنه لا يدعو إلا إلى أعلى الأخلاق والأعمال وأفضلها، ولا يستدل على ذلك إلا بأقوى الأدلة وأبينها، وهذه القاعدة إذا تدرب بها العبد الذكي لم يزل في صعود ورقي على الدوام في كل خصلة حميدة[1].

❁ هذه الآية جمعت مقاصد القرآن كلها[2].



(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٢٨).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص١٨٣).



الجزء الرابع عشر
سورة الحجر

﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢ ﴾ [الحجر:٢]

إنما قلّل بـ(رُبّ)؛ لأن أهوال القيامة تشغلهم عن التمني، فإذا أفاقوا من سكرات العذاب ودوا لو كانوا مسلمين(١).

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾ [الحجر:٣]

فيه تنبيه على أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدي إليه طول الأمل، ليس من أخلاق المؤمنين(٢).

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥ ﴾ [الحجر:٤-٥]

هذا تنبيه لأهل مكة، وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم فيه من الشرك والعناد والإلحاد، الذي يستحقون به الهلاك(٣).

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١ ﴾ [الحجر:٢١]

ضرب الخزائن مثلا لاقتداره على كل مقدور(٤).

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ۝٢٢ ﴾ [الحجر:٢٢]

ذكرها بصيغة الجمع، ليكون منها الإنتاج، بخلاف (الريح) العقيم فإنه أفردها،

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ١٨٢).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ١٨٣).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٥٢٦).
(٤) جامع البيان، للإيجي (٢/ ٣٠٩).

وصفها بالعقيم، وهو عدم الإنتاج؛ لأنه لا يكون إلا من شيئين فصاعدا[١].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر:٢٦]

المقصود من الآية التنبيه على شرف آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وطيب عنصره وطهارة محتده[٢].

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [الحجر:٣٤]

لأنه عارض أمر الله بقياسه الفاسد، ومن عارض النص بالقياس فهو مطرود[٣].

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر:٢٩]

دليل على أنه يجوز تقدم الأمر عن وقت الفعل[٤].

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [الحجر:٣٦-٣٨]

قيل: ﴿ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ الذي أُنظر إليه: هو يوم النفخ في الصور النفخة الأولى، حين يموت من في السموات ومن في الأرض، وكان سؤال إبليس الانتظار إلى يوم القيامة جهلًا منه ومغالطة..؛ لأنه لو أعطي ما سأل لم يمت أبدًا؛ لأنه لا يموت أحد بعد البعث، فلما سأل مالا سبيل إليه: أعرض الله عنه، وأعطاه الانتظار إلى النفخة الأولى[٥].

﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]

في ذكر المغفرة دليل على أنه لم يرد بالمتقين من يتقي الذنوب بأسرها كبيرها

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٥٣٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٥٣٤).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص١٨٥).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ١٨٨).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٤١٨).

وصغيرها، وفي توصيف ذاته بالغفران والرحمة دون التعذيب ترجيح الوعد وتأكيده[١].

العبد ينبغي أن يكون قلبه دائما بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته وجوده وإحسانه، أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه، أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع عنها[٢].

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الحجر:٥١]

ذكره لهذه القصة عقيب هذه الآية -[نبئ عبادي أني أنا الغفور..]-، لتحقق أن رحمته واسعة وعذابه أليم[٣].

﴿ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الحجر:٥٥-٥٦]

﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ ﴾ هذا يدل على أن إبراهيم لم يكن قانطا، ولكنه استبعد ذلك، فظنت الملائكة به قنوطا، فنفى ذلك عن نفسه وأخبر أن القانط من رحمة الله ضال[٤].

فيها دليل على تحريم القنوط[٥].

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الحجر:٥٧]

لعله علم أن كمال المقصود ليس البشارة؛ لأنهم كانوا عددًا، والبشارة لا تحتاج إلى العدد، ولذلك اكتفى بالواحد في بشارة زكريا ومريم عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، أو لأنهم بشروه في تضاعيف الحال لإزالة الوجل ولو كانت تمام المقصود لابتدؤوا بها[٦].

﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الحجر:٦٠]

إنما أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم، ولم يقولوا: قدر الله؛ لقربهم، كما

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢١٣).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٣١).
(٣) جامع البيان، للإيجي (٢/ ٣١٦).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٤٧).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٤١٩).
(٦) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢١٣).

يقول خاصة الملك: أمرنا بكذا، والآمر هو الملك[1].

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحجر:٧٢]

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أقسم تعالى بحياة نبيِّه، صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريف عظيم، ومقام رفيع وجاه عريض..قال ابن عباس: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسا أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره[2].

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحجر:٧٥-٧٧]

في هذه القصة من العبر: عنايته تعالى بخليله إبراهيم، فإن لوطا عَلَيْهِ السَّلَامُ من أتباعه، وممن آمن به فكأنه تلميذ له، فحين أراد الله إهلاك قوم لوط حين استحقوا ذلك، أمر رسله أن يمروا على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كي يبشروه بالولد ويخبروه بما بعثوا له، حتى إنه جادلهم عَلَيْهِ السَّلَامُ في إهلاكهم حتى أقنعوه، فطابت نفسه، وكذلك لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، لما كانوا أهل وطنه، فربما أخذته الرقة عليهم والرأفة بهم قدَّر الله من الأسباب ما به يشتد غيظه وحنقه عليهم، حتى استبطأ إهلاكهم لما قيل له: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ [هود:٨١].

ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أن يهلك قرية ازداد شرهم وطغيانهم، فإذا انتهى أوقع بهم من العقوبات ما يستحقونه.[3]

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الحجر:٨٥]

وهو الصفح الذي لا أذية فيه، بل يقابل إساءة المسيء بالإحسان، وذنبه بالغفران، لتنال من ربك جزيل الأجر والثواب، فإن كل ما هو آت فهو قريب، وقد ظهر لي معنى أحسن مما ذكرت هنا، وهو: أن المأمور به هو الصفح الجميل، أي: الحسن

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ١٩٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٥٤٢).
(٣) تفسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٣٣).

الذي قد سلم من الحقد والأذية القولية والفعلية، دون الصفح الذي ليس بجميل، وهو الصفح في غير محله، فلا يصفح حيث اقتضى المقام العقوبة، كعقوبة المعتدين الظالمين الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة، وهذا هو المعنى(١).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر:٨٧]

هذه الآية تدل على فضيلة الفاتحة؛ لأن الله تعالى امتن على رسوله بهذه السورة، كما امتن عليه بجميع القرآن، حيث فصل هذا من القرآن بالذكر، ثم ذكر القرآن بعده(٢).

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الحجر:٩٢]

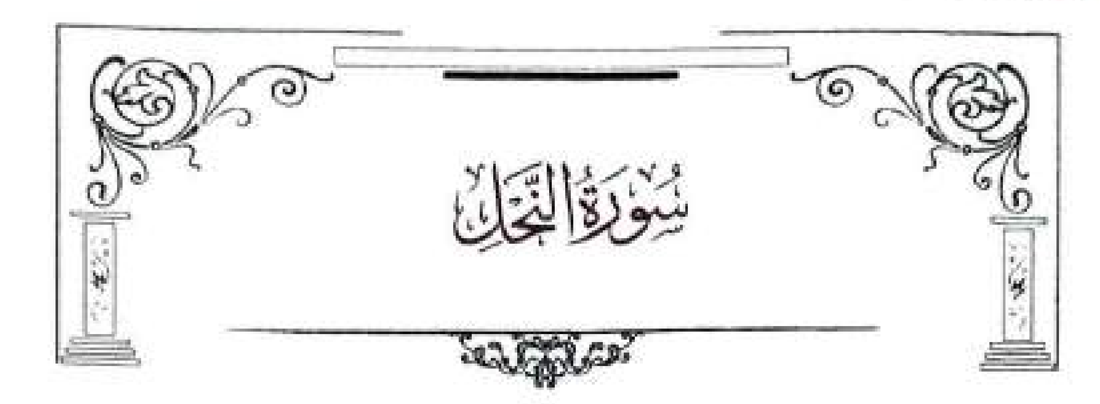
إن قيل: كيف يجمع بين هذا، وبين قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن:٣٩]؟ **فالجواب**: أن السؤال (المثبت) هو: على وجه (الحساب والتوبيخ)، وأن السؤال (المنفي) هو: على وجه (الاستفهام المحض)؛ لأن الله يعلم الأعمال، فلا يحتاج إلى السؤال عنها(٣).

﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر:٩٩]

يستدل من هذه الآية الكريمة على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتا، فيصلي بحسب حاله(٤).



(١) تفسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٣٤).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٥٢).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٤٢١).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٥٥٤).



سُورَةُ النَّحْلِ

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١﴾ [النحل:١]

أمر الله هو: القيامة، وقد ناسب أن تأتي فاتحة السورة بهذا المعنى بعد ﴿ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩] في السورة التي قبلها، واليقين: الموت، ومن مات فقد قامت قيامته[1].

﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢﴾ [النحل:٢]

سمي روحًا كلام الله؛ لأنه حياة من موت الكفر[2].

﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦﴾ [النحل:٦]

مَنَّ الله تعالى بالتجميل بها كما من بالانتفاع بها؛ لأنه من أغراض أصحاب المواشي؛ لأن الرعيان إذا روحوها بالعشي وسرحوها بالغداة تزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية، وفرحت أربابها، وأكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس، وإنما قدمت الإراحة على التسريح لأن الجمال في الإراحة أظهر، إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع[3].

﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩﴾ [النحل:٨-٩]

تغيير النظم؛ لأن الزينة بفعل الخالق والركوب ليس بفعله، ولأن المقصود مِنْ

---

(١) وجه النهار، للحربي (ص١٨٨).

(٢) ينظر: التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٥٥).

(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٢٠٤). التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٤٢٢). جامع البيان، للإيجي (٢/ ٣٢٧).

خَلقِهَا الركوب وأما التزين بها فحاصل بالعرض[١].

كثيرا ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية، كما قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧]، وقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦]، ولما ذكر في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها، التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة، شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه، فبين أن الحق منها ما هي موصلة إليه، فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل:٩][٢].

لم يذكر الأكل؛ لأن البغال والحمر محرم أكلها، والخيل لا تستعمل -في الغالب- للأكل، بل ينهى عن ذبحها لأجل الأكل خوفا من انقطاعها، وإلا فقد ثبت في الصحيحين، أن النبي ﷺ أذن في لحوم الخيل[٣][٤].

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ [النحل:١٠-١١]

لعل تقديم ما يسام فيه على ما يؤكل منه؛ لأنه سيصير غذاء حيوانيًا هو أشرف الأغذية، ومن هذا تقديم الزرع والتصريح بالأجناس الثلاثة وترتيبها[٥].

لم يقل: كل الثمرات؛ لأن كلها لا تكون إلا في الجنة، وإنما أنبت في الأرض من كلها للتذكرة[٦].

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢٢٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٥٦٠).
(٣) رواه البخاري، باب لحوم الخيل، برقم: (٥٥٢٠)، ومسلم، باب في أكل لحوم الخيل، برقم: (١٩٤١).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٣٦).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢٢١).
(٦) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٢٠٥).

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل:١٢]

❁ جمع الآية وذكر العقل؛ لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة[١].

﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل:٢٥]

❁ ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ﴾ لأنهم لم يكفر عنهم شيء من ذنوبهم بما يصيبهم في الدنيا من نكبة وبلية كما يكفر عن المؤمنين[٢].

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النحل:٣١]

❁ ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ في تقديم الظرف تنبيه على أن الإنسان لا يجد جميع ما يريده إلا في الجنة[٣].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل:٤٣]

❁ في الآية دليل على أنه تعالى لم يرسل امرأة ولا ملكًا للدعوة العامة.. وعلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم[٤].

❁ قيل للكتاب: الذكر؛ لأنه موعظة وتنبيه للغافلين[٥].

❁ عموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل؛ فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٢٠٦).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٦٠).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢٢٥).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢٢٧).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٢١٤).

لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة، فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم، والاتصاف بصفات الكمال(١).

۞ وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم، فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأولى من غيرهم بهذا الاسم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ [النحل:٤٤] أي: القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، وهذا شامل لتبيين ألفاظه وتبيين معانيه، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل:٤٤] فيه فيستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم وإقبالهم عليه(٢).

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النحل:٤٩]

۞ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أخرجهم بالذكر لخروجهم عن صفة الدبيب بما جعل لهم من الأجنحة(٣).

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل:٥٠]

۞ فيه دليل على أن الملائكة مكلفون، مدارون على الأمر والنهي، وأنهم بين الخوف والرجاء(٤).

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النحل:٥٨]

۞ لأن أكثر الوضع يتفق بالليل، (فيظل) نهاره معتما مسود الوجه من الكآبة والحياء من الناس(٥).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٤١).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٤١).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٦٥).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٢١٦).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٢١٨).

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦)﴾ [النحل:٦٦]

قال أصحابنا: هذه الآية تدل على أن منيّ الآدمي طاهر، وإن كان في باطنه مجاورا للنجاسات، كاللبن الطاهر يخرج من بين نجسين[١].

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧)﴾ [النحل:٦٧]

ناسب ذكر العقل هاهنا، فإنه أشرف ما في الإنسان؛ ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها[٢].

﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)﴾ [النحل:٦٩]

قال مجاهد: لم يصعب قط على النحل طريق؛ لأن الله ذلل له السبل[٣].

لم يقل الله عن شيء من المطعوم: هو شفاء، إلا العسل[٤].

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠)﴾ [النحل:٧٠]

قال عكرمة: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر حتى لا يعلم بعد علم شيئا[٥].

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١)﴾ [النحل:٨١]

ذكر وقاية الحر ولم يذكر وقاية البرد؛ لأن وقاية الحر أهم عندهم لحرارة

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٧٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٥٨١).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص١٩٢).
(٤) وجه النهار، للحربي (ص١٩٢).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٧٣).

بلادهم، وقيل: لأن ذكر أحدهما يغني عن ذكر الآخر[١]، وقيل: ذُكر الحر دون البرد تحذيرا من حر جهنم[٢].

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النحل:٨٣]

﴿ثُمَّ﴾ يدل على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة؛ لأن حق من عرف النعمة أن يعترف، لا أن ينكر[٣].

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل:٨٨]

هذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم[٤].

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل:٩٠]

لا يوجد من الإنسان شر إلا وهو مندرج في هذه الأقسام..ولذلك قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هي أجمع آية في القرآن للخير والشر. وصارت سبب إسلام عثمان ابن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء وهدى ورحمة للعالمين، ولعل إيرادها عقيب قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [النحل:٨٩] للتنبيه عليه[٥]. ولهذا يقرأها كل خطيب على المنبر في آخر كل خطبة لتكون عظة جامعة لكل مأمور ومنهي[٦].

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ [النحل:٩٤]

إنما وحدت القدم ونكرت؛ لاستعظام أن تزل قدم واحدة عن طريق الحق بعد

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٤٣٣).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص١٩٤).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٢٢٧).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٥٩٤).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢٣٨).
(٦) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٢٣٠).

أن تثبت عليه، فكيف بأقدام كثيرة؟![1]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [النحل:١٠٤]

قال ابن عطية: المعنى إن الذين لا يهديهم الله لا يؤمنون بالله، ولكنه قدم في هذا الترتيب وأخر، تهكمًا لتقبيح أفعالهم[2].

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل:١٠٥]

سماهم الكاذبين، وحصر فيهم الكذب، فقال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾، أي: أن الكذب نعت لازم لهم، وعادة من عاداتهم.. وفي الآية أبلغ زجر عن الكذب، حيث أخبر الله أنه إنما يفتري الكذب من لا يؤمن[3].

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل:١٠٦]

دل ذلك على أن كلام المكره على الطلاق أو العتاق أو البيع أو الشراء أو سائر العقود أنه لا عبرة به، ولا يترتب عليه حكم شرعي، لأنه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر إذا أكره عليها فغيرها من باب أولى وأحرى[4].

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل:١١٦]

وصفُ ألسنتهم الكذب، مبالغة في وصف كلامهم بالكذب، كأن حقيقة الكذب كانت مجهولة، وألسنتهم تصفها وتعرفها بكلامهم هذا، ولذلك عد من فصيح الكلام، كقولهم: وجهها يصف الجمال، وعينها تصف السحر[5].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٢٣١).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٤٣٦).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٨٥).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٥٠).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢٤٣).

ﮘ يدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلل شيئا مما حرم الله، أو حرم شيئا مما أباح الله، بمجرد رأيه وتشهيه[1].

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١]

ﮘ ﴿لِّأَنْعُمِهِ﴾ ذكر بلفظ القلة؛ للتنبيه على أنه كان لا يخل بشكر النعم القليلة، فكيف بالكثيرة؟![2]

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣]

ﮘ في ﴿ثُمَّ﴾ تعظيم منزلة نبينا عليه السلام، وإجلال محله، والإيذان بأن أشرف ما أوتي خليل الله من الكرامة: اتباع رسولنا ملته[3].

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل: ١٢٧]

ﮘ ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ﴾ قال بعضهم: حُذفت النون هنا، ولم تحذف في سورة النمل؛ لأن المقام مقام تخفيف وتصبير للنبي ﷺ[4].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٦٠٩).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢٤٤).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٢٤١).
(٤) وجه النهار، للحربي (ص١٩٦).



﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ①﴾ [الإسراء:١]

قيده بالليل، والإسراء لا يكون إلا بالليل للتأكيد، أو ليدل بلفظ التنكير على تقليل مدة الإسراء وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة[١]، وذلك أبلغ في الأعجوبة[٢].

﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ هو بيت المقدس الذي بإيلياء، معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل؛ ولهذا جمعوا له هنالك كلهم، فأمهم في محلتهم ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين[٣].

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ②﴾ [الإسراء:٢]

كثيرا ما يقرن الباري بين نبوة محمد ﷺ ونبوة موسى ﷺ، وبين كتابيهما وشريعتيهما؛ لأن كتابيهما أفضل الكتب وشريعتيهما أكمل الشرائع ونبوتيهما أعلى النبوات وأتباعهما أكثر المؤمنين[٤].

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ③﴾ [الإسراء:٣]

فيه إيماء بأن إنجاءه ومن معه كان ببركة شكره، وحث للذرية على

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٢٤٤).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٤٤٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٥).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٥٣).

الاقتداء به[١].

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء:١٣]

خُص بذلك من بين سائر أجزاء البدن؛ لأنه عضو لا نظير له في الجسد، ولأن العنق محل الطّوق الذي يُطوّقه الإنسان فلا يستطيع فكاكه.[٢].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء:١٧]

دل هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام[٣].

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء:١٨]

هذا ذم لمن أراد بعمله وطاعته وإسلامه الدنيا، ومنفعتها، وعروضها، وبيان أن من أرادها لا يدرك منها إلا ما قدر له، إن قدر[٤].

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء:١٩]

﴿وَسَعَىٰ لَهَا﴾ فائدة اللام: اعتبار النية والإخلاص[٥]. عن بعض السلف: من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله: إيمان ثابت، ونية صادقة، وعمل مصيب، وتلا الآية[٦].

﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء:٢٣]

فائدة: ﴿عِندَكَ﴾ إنهما إذا صارا كلًّا على ولدهما، ولا كافل لهما غيره، فهما

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢٤٨).
(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٥١)، وجه النهار، للحربي (ص١٩٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٦٢).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ١٠١).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢٥١).
(٦) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٢٥٠).

عنده في بيته وكنفه، وذلك أشق عليه، فهو مأمور بأن يستعمل معهما لين الخلق حتى لا يقول لهما إذا أضجره ما يستقذر منهما: أف، فضلًا عما يزيد عليه، ولقد بالغ سبحانه في التوصية بهما، حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده، ثم ضيق الأمر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجر، مع موجبات الضجر، ومع أحوال لا يكاد يصبر الإنسان معها[1].

إنما خص حالة الكبر؛ لأنهما حينئذ أحوج إلى البر والقيام بحقوقهما، لضعفهما[2].

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء:٢٤]

جعل للذل جناحا، وأمره بخفضه، مبالغة في التواضع لهما[3].

﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإسراء:٢٧]

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ قال ابن عباس: جاحدا لأنعمه. وهذا يتضمن أن المنفق في السرف كفور لربه فيما أنعم عليه[4].

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الإسراء:٣١]

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده؛ لأنه نهى عن قتل الأولاد، كما أوصى بالأولاد في الميراث[5].

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء:٣٢]

النهي عن قربانه أبلغ من النهي عن مجرد فعله؛ لأن ذلك يشمل النهي عن

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٢٥٢).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٤٤٤).
(٣) جامع البيان، للإيجي (٢/ ٣٨٤).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ١٠٥).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٧١).

جميع مقدماته ودواعيه؛ فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، خصوصا هذا الأمر الذي في كثير من النفوس أقوى داع إليه[١].

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الإسراء:٣٣]

أخذ الإمام الحبر ابن عباس من عموم هذه الآية الكريمة: ولاية معاوية السلطنة، وأنه سيملك؛ لأنه كان ولي عثمان، وقد قتل عثمان مظلوما رضي الله عنه، وقد تمكن معاوية وصار الأمر إليه، كما قاله ابن عباس واستنبط من هذه الآية الكريمة، وهذا من الأمر العجب[٢].

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الإسراء:٤٧]

استدل به على ذم المحادثة والكلام والواعظ يعظ[٣].

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [الإسراء:٥٥]

فيه إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ، وقوله: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ دلالة على وجه تفضيله، وأنه خاتم الأنبياء، وأن أمته خير الأمم؛ لأن ذلك مكتوب في زبور داود؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء:١٠٥] وهم: محمد وأمته[٤].

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [النحل:٦٠]

إن قيل: لِم لعنت شجرة الزقوم في القرآن؟ فالجواب: أن المراد لعنة آكلها،

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٥٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٧٣).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص٢٠٢).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٢٦٢). جامع البيان، للإيجي (٢/ ٣٩٦).

وقيل: اللعنة بمعنى الإبعاد؛ لأنها في أصل الجحيم[١].

﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾ [الإسراء: ٦٣]

كان الأصل أن يقال: (جزاؤهم) بضمير الغيبة؛ ليرجع إلى من اتبعك، ولكنه ذكره بلفظ المخاطب تغليبًا للمخاطب على الغائب، وليدخل إبليس معهم[٢].

﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء: ٦٤]

كل ما عصي الله فيه أو به، أو أطيع فيه الشيطان أو به، فهو مشاركة[٣].

﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ [الإسراء: ٧١]

قال بعض السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث؛ لأن إمامهم النبي ﷺ[٤].

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤]

(لولا) تدل على امتناع شيء لوجود غيره، فدلت هنا على امتناع مقاربة النبي ﷺ الركون إليهم لأجل تثبيت الله له وعصمته، و﴿كِدتَّ﴾ تقتضي نفي (الركون)؛ لأن معنى كاد فلان يفعل كذا، أي: أنه لم يفعله، فانتفى الركون إليهم ومقاربته، فليس في ذلك نقص من جانب النبي ﷺ؛ لأن التثبيت منعه من مقاربة الركون، ولو لم يثبته الله لكانت مقاربته للركون إليهم شيئًا قليلًا، وأما منع التثبيت فلم يركن قليلًا ولا كثيرًا، ولا قارب ذلك[٥].

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٤٥٠).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٤٥٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٩٤).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٩٩).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٤٥٢).

﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء:٧٥]

۞ دليل على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله[1].

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء:٧٦]

۞ في هذه الآيات، دليل على شدة افتقار العبد إلى تثبيت الله إياه، وأنه ينبغي له أن لا يزال متملقًا لربه، أن يثبته على الإيمان، ساعيا في كل سبب موصل إلى ذلك؛ لأن النبي ﷺ وهو أكمل الخلق، قال الله له: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء:٧٤] فكيف بغيره؟

۞ **وفيها**: تذكير الله لرسوله منته عليه، وعصمته من الشر، فدل ذلك على أن الله يحب من عباده أن يتفطنوا لإنعامه عليهم -عند وجود أسباب الشر- بالعصمة منه، والثبات على الإيمان.

۞ **وفيها**: أن الله إذا أراد إهلاك أمة، تضاعف جرمها، وعظم وكبر، فيحق عليها القول من الله فيوقع بها العقاب، كما هي سنته في الأمم إذا أخرجوا رسولهم[2].

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء:٧٨-٨١]

۞ قال الزجاج: وفي هذا فائدة عظيمة تدل على أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة؛ حيث سميت الصلاة قرآنا[3].

۞ إنما جعل قيام الليل في حقه ﷺ نافلة على الخصوص؛ لأنه قد غفر له ما تقدم

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٢٧١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٦٤).

(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ١٢١).

من ذنبه وما تأخر، وغيره من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التي عليه[1].

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ إضافتهما إلى الصدق مدح لهما، وكل شيء أضفته إلى الصدق فهو مدح، نحو قوله: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ [يونس:٢]، ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر:٥٥][2].

لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه؛ ولهذا يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد:٢٥] إلى قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [الحديد:٢٥][3].

في هذه الآية، ذكر الأوقات الخمسة، للصلوات المكتوبات، وأن الصلوات الموقعة فيه فرائض لتخصيصها بالأمر[4].

وفيها: أن الوقت شرط لصحة الصلاة، وأنه سبب لوجوبها؛ لأن الله أمر بإقامتها لهذه الأوقات.

وأن الظهر والعصر يجمعان، والمغرب والعشاء كذلك، للعذر؛ لأن الله جمع وقتهما جميعًا.

وفيه: فضيلة صلاة الفجر، وفضيلة إطالة القراءة فيها، وأن القراءة فيها ركن؛ لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها، دل على فرضية ذلك[5].

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء:٨٥]

في هذه الآية دليل على أن المسؤول إذا سئل عن أمر الأولى بالسائل غيره، أن يعرض عن جوابه، ويدله على ما يحتاج إليه، ويرشده إلى ما ينفعه[6].

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء:٨٨]

لعله لم يذكر الملائكة؛ لأن إتيانهم بمثله لا يخرجه عن كونه معجزًا؛ ولأنهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ١٠٣).

(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ١٢٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ١١١).

(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٦٤).

(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٦٤).

(٦) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٦٦).

كانوا وسائط في إتيانه[١].

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء:٩٧]

كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء، جزاهم الله بأن لا يزالوا على الإعادة والإفناء، وإليه أشار بقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾ [الإسراء:٩٨][٢].

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء:١٠٣-١٠٤]

في هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن هذه السورة نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع؛ فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ﴾ [الإسراء:٧٦] الآيتين؛ ولهذا أورث الله رسوله مكة، فدخلها عنوة على أشهر القولين، وقهر أهلها، ثم أطلقهم حلما وكرما[٣].

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [النحل:١٠٧]

قال عبد الأعلى التيمي: إن من أوتي من العلم ما لا يبكيه لخليق ألا يكون أوتي علما ينفعه؛ لأن الله تعالى نعت العلماء، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ تلا إلى قوله: ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [النحل:١٠٩] أي: يزيدهم القرآن تواضعا[٤].

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢٦٦).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢٦٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ١٢٦). جامع البيان، للإيجي (٢/ ٤٢٠).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ١٣٢).

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء:١٠٨]

استحب الشافعي هذا القول في سجود التلاوة[1].

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٩]

إنما خص الذقن؛ لأن أقرب الأشياء من وجهه إلى الأرض عند السجود الذقن.. وأما معنى اللام، فكأنه جعل ذقنه ووجهه للخرور واختصه به؛ إذ اللام للاختصاص، وكرر ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾؛ لاختلاف الحالين، وهما: خرورهم في حال كونهم ساجدين، وخرورهم في حال كونهم باكين[2].

لم أجد في القرآن آية تثني على الباكين حين تتلى عليهم آيات الرحمن كهذه الآية، وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ [المائدة:٨٣] **الآية**» وقوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم:٥٨] وسبب ذلك والله أعلم: أن السامع أبعد عن الرياء، وأبعد عن مدافعة المراءاة، وسماعه أجمع للقلب وحواسه؛ لأنه لا ينشغل بحفظه، ولا خوف من النسيان، وهو أدعى للإخلاص[3].

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء:١١٠]

أيًا ما تدعوا فهو حسن، فوضع موضعه قوله: ﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾؛ لأنه إذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان؛ لأنهما منها[4].

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [النحل:١١١]

رتب الحمد عليه -أنه لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك..- للدلالة على أنه الذي يستحق جنس الحمد؛ لأنه الكامل الذات المنفرد بالإيجاد، المنعم على

(١) وجه النهار، للحربي (ص٢٠٨).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٢٨٢).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص٢٠٩).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٢٨٣).

الإطلاق وما عداه ناقص مملوك نعمة، أو منعم عليه؛ ولذلك عطف عليه قوله: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ وفيه تنبيه على أن العبد وإن بالغ في التنزيه والتمجيد واجتهد في العبادة والتحميد ينبغي أن يعترف بالقصور عن حقه في ذلك[1].



---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢٧٠).



﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾ [الكهف:١-٢]

رتّب الحمد على إنزال القرآن، تنبيهًا على أنه أعظم نعمائه؛ وذلك لأنه الهادي إلى ما فيه كمال العباد، والداعي إلى ما به ينتظم صلاح المعاش والمعاد[١].

فائدة الجمع بين نفي العوج وإثبات الاستقامة، وفي أحدهما غنى عن الآخر: التأكيد؛ فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند التصفّح[٢].

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ [الكهف:٥]

﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ صفة لكلمة تفيد استعظامًا لاجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم؛ فإن كثيرًا مما يوسوسه الشيطان في قلوب الناس من المنكرات لا يتمالكون أن يتفوهوا به بل يكظمون عليه، فكيف بمثل هذا المنكر؟![٣]

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف:٦]

في هذه الآية ونحوها عبرة، فإن المأمور بدعاء الخلق إلى الله عليه التبليغ والسعي بكل سبب يوصل إلى الهداية، وسد طرق الضلال والغواية بغاية ما يمكنه، مع التوكّل على الله في ذلك، فإن اهتدوا فبها ونعمت، وإلا فلا يحزن ولا يأسف، فإن

(١) ينظر: أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢٧٢). جامع البيان، للإيجي (٢/ ٤٢٣).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٢٨٥).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ١٣٦). مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٢٨٦). جامع البيان، للإيجي (٢/ ٤٢٤).

ذلك مضعف للنفس، هادم للقوى، ليس فيه فائدة، بل يمضي على فعله الذي كلف به وتوجه إليه، وما عدا ذلك، فهو خارج عن قدرته[١].

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾ [الكهف:١٣]

استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيد وينقص[٢].

﴿ ۞ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الكهف:١٧]

هذا دليل على أن باب هذا الكهف من نحو الشمال؛ لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي: يتقلص الفيء يمنة.. ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي: تدخل إلى غارهم من شمال بابه، وهو من ناحية المشرق[٣].

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الكهف:١٨]

شملت كلبهم بركتهم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذا فائدة صحبة الأخيار؛ فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن[٤].

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الكهف:١٩]

فيه دليل على جواز الاجتهاد، والقول بالظن الغالب[٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٧٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ١٤٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ١٤٢).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ١٤٤).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٢٩١).

۞ حملهم الورق عند فرارهم دليل على أن حمل النفقة وما يصلح للمسافر هو رأي المتوكلين على الله دون المتكلين على الاتفاقات، وعلى ما في أوعية القوم من النفقات[١].

۞ ويستدل ببعث أحدهم على جواز الوكالة[٢].

۞ إن قيل: كيف اتصل بعث أحدهم بتذكر مدة لبثهم؟ **فالجواب**: أنهم كانوا قالوا: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾، ولا سبيل لكم إلى العلم بذلك، فخذوا فيما هو أهم من هذا وأنفع لكم «**فابعثوا أحدكم إِلَى الْمَدِينَةِ**»[٣].

۞ **قد دلت هاتان الآيتان، على عدة فوائد: منها**: الحث على العلم، وعلى المباحثة فيه، لكون الله بعثهم لأجل ذلك[٤].

۞ **ومنها**: الأدب فيمن اشتبه عليه العلم، أن يرده إلى عالمه، وأن يقف عند حده.

۞ **ومنها**: صحة الوكالة في البيع والشراء، وصحة الشركة في ذلك.

۞ **ومنها**: جواز أكل الطيبات، والمطاعم اللذيذة، إذا لم تخرج إلى حد الإسراف المنهي عنه لقوله ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾، وخصوصا إذا كان الإنسان لا يلائمه إلا ذلك، ولعل هذا عمدة كثير من المفسرين القائلين بأن هؤلاء أولاد ملوك لكونهم أمروه بأزكى الأطعمة، التي جرت عادة الأغنياء الكبار بتناولها.

۞ **ومنها**: الحث على التحرز والاستخفاء والبعد عن مواقع الفتن في الدين، واستعمال الكتمان في ذلك على الإنسان وعلى إخوانه في الدين.

۞ **ومنها**: شدة رغبة هؤلاء الفتية في الدين، وفرارهم من كل فتنة، في دينهم وتركهم أوطانهم في الله.

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٢٩٢). التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٤٦١).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٤٦١).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٤٦١).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٧٢).

ﵻ ومنها: ذكر ما اشتمل عليه الشر من المضار والمفاسد، الداعية لبغضه وتركه، وأن هذه الطريقة هي طريقة المؤمنين المتقدمين والمتأخرين؛ لقولهم: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ۝٢٠﴾ [الكهف:٢٠][1].

ﵻ ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ يقال: هذه اللفظة منتصف القرآن من حيث الحروف[2].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ۝٢١﴾ [الكهف:٢١]

ﵻ قال الزجاج: هذا يدل على أنه لما ظهر أمرهم، غلب المؤمنون بالبعث والنشور؛ لأن المساجد للمؤمنين[3][4].

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ۝٢٢﴾ [الكهف:٢٢]

ﵻ ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ قال الزمخشري: وفائدتها -[أي: الواو]- التوكيد، والدلالة على أن الذين قالوا: سبعة وثامنهم كلبهم، صدقوا وأخبروا بحق. قال ابن عباس: أنا من ذلك القليل، وكانوا سبعة وثامنهم كلبهم؛ لأنه قال في الثلاثة والخمسة: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾، ولم يقل ذلك في سبعة وثامنهم كلبهم[5].

ﵻ ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ۝٢٢﴾ وذلك لأن مبنى كلامهم فيهم على الرجم بالغيب والظن الذي لا يغني من الحق شيئا، ففيها دليل على المنع من استفتاء

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٧٢).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص٢١١).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ١٤١).
(٤) قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله في تفسيره: (وهذه الحالة محظورة، نهى عنها النبي ﷺ، وذم فاعليها، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها، فإن السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والثناء عليهم، وأن هؤلاء وصلت بهم الحال إلى أن قالوا: ابنوا عليهم مسجدا، بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم، وحذرهم من الاطلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢٧٧). التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٤٦٢). تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ١٤٧). جامع البيان، للإيجي (٢/ ٤٣٣).

من لا يصلح للفتوى، إما لقصوره في الأمر المستفتى فيه، أو لكونه لا يبالي بما تكلم به، وليس عنده ورع يحجزه، وإذا نهي عن استفتاء هذا الجنس، فنهيه هو عن الفتوى، من باب أولى وأحرى[١].

وفي الآية أيضا، دليل على أن الشخص، قد يكون منهيا عن استفتائه في شيء دون آخر، فيستفتى فيما هو أهل له، بخلاف غيره؛ لأن الله لم ينه عن استفتائهم مطلقا، إنما نهى عن استفتائهم في قصة أصحاب الكهف وما أشبهها[٢].

في هذه القصة دليل على أن من فر بدينه من الفتن، سلمه الله منها، وأن من حرص على العافية عافاه الله، ومن أوى إلى الله آواه الله، وجعله هداية لغيره، ومن تحمل الذل في سبيله وابتغاء مرضاته، كان آخر أمره وعاقبته العز العظيم من حيث لا يحتسب، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ١٩٨﴾ [آل عمران:١٩٨][٣].

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ٢٨﴾ [الكهف:٢٨]

قال الزجاج: من قدم العجز في أمره أضاعه الله وأهلكه[٤].

دلت الآية على أن الذي ينبغي أن يطاع، ويكون إماما للناس، من امتلأ قلبه بمحبة الله، وفاض ذلك على لسانه، فلهج بذكر الله، واتبع مراضي ربه، فقدمها على هواه، فحفظ بذلك ما حفظ من وقته، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما من الله به عليه، فحقيق بذلك، أن يتبع ويجعل إماما، والصبر المذكور في هذه الآية، هو الصبر على طاعة الله، الذي هو أعلى أنواع الصبر، وبتمامه تتم باقي الأقسام[٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٧٣).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٧٣).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٧٣).
(٤) التفسيير الوسيط، للواحدي (٣/ ١٤٦).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٧٥).

● وفي الآية: استحباب الذكر والدعاء والعبادة طرفي النهار؛ لأن الله مدحهم بفعله، وكل فعل مدح الله فاعله، دل ذلك على أن الله يحبه، وإذا كان يحبه فإنه يأمر به، ويرغب فيه[1].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف:٣١]

● خص الاتكاء؛ لأنه هيئة المتنعمين والملوك على أسرتهم[2].

﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الكهف:٣٢]

● في هذه القصة العظيمة اعتبار بحال الذي أنعم الله عليه نعما دنيوية، فألهته عن آخرته وأطغته، وعصى الله فيها، أن مآلها الانقطاع والاضمحلال، وأنه وإن تمتع بها قليلا فإنه يحرمها طويلا[3].

● وأن العبد ينبغي له -إذا أعجبه شيء من ماله أو ولده- أن يضيف النعمة إلى موليها ومسديها، وأن يقول: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف:٣٩] ليكون شاكرا لله متسببا لبقاء نعمته عليه، لقوله: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾.

● وفيها: الإرشاد إلى التسلي عن لذات الدنيا وشهواتها، بما عند الله من الخير لقوله: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ [الكهف:٣٩-٤٠].

● وفيها: أن المال والولد لا ينفعان، إن لم يعينا على طاعة الله كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ:٣٧].

● وفيه: الدعاء بتلف مال من كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه، خصوصا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٧٥).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٢٩٩).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٧٧).

إن فضل نفسه بسببه على المؤمنين، وفخر عليهم، وفيها أن ولاية الله وعدمها إنما تتضح نتيجتها إذا انجلى الغبار وحق الجزاء، ووجد العاملون أجرهم فـ ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف:٤٤] أي: عاقبة ومآلا[١].

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾ [الكهف:٣٥]

إفراد الجنة؛ لأن المراد ما هو جنته وما متع به من الدنيا، تنبيهًا على أن لا جنة له غيرها ولا حظ له في الجنة التي وُعِدَ المتقون، أو لاتصال كل واحدة من جنتيه بالأخرى، أو لأن الدخول يكون في واحدة واحدة[٢].

قال صاحب الكشاف: وترى أكثر الأغنياء من المسلمين، وإن لم يطلقوا بنحو هذا ألسنتهم؛ فإن ألسنة أحوالهم ناطقة به منادية عليه[٣].

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف:٤٧]

قال الزمخشري: إنما جاء ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ بلفظ الماضي بعد قوله: ﴿نُسَيِّرُ﴾ للدلالة على أن حشرناهم قبل تسيير الجبال[٤].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف:٥٠]

أمر نبيه أن يذكر هؤلاء المتكبرين عن مجالسة الفقراء، قصة إبليس، وما أورثه الكبر[٥].

ذكره بعد ذكر صنيع المفتخرين بالأبناء والأولاد؛ ليعلموا أن الكِبْر من سنن إبليس، أو لما نفّرهم عن الاغترار بزهرة الدنيا نبههم بقدم عداوة إبليس معهم[٦].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٧٧).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢٨١).
(٣) جامع البيان، للإيجي (٢/ ٤٤٠).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٤٦٧).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ١٥٢).
(٦) جامع البيان، للإيجي (٢/ ٤٤٥).

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف:٥٤]

يقتضي سياق الكلام ذم الجدل(١).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف:٥٧]

لما كان القرآن معجزًا من حيث اللفظ والمعنى، أثبت لمنكريه ما يمنع عن فهم المعنى وإدراك اللفظ(٢).

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٦]

قال قتادة: لو كان أحد مكتفيا من العلم لاكتفى نجي الله موسى، ولكنه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ الآية. وقال الزجاج: وفيما فعل موسى، وهو من جلة الأنبياء من طلب العلم، والرحلة في ذلك، ما يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم، وإن كان قد بلغ نهايته، وأن يتواضع لمن هو أعلم منه(٣).

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ [الكهف:٧١]

لم يستطع موسى أن يصبر على ما يراه؛ لأنه جبل على إنكار المنكر، وكذلك قلوب المؤمنين مجبولة على إنكار المنكر(٤).

وفي هذه القصة العجيبة الجليلة. من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير.. منها: فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور؛ فإن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رحل مسافة

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٤٦٨).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢٥٧).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ١٥٨). أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢٨٧). مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٣١١).
(٤) وجه النهار، للحربي (ص٢١٧).

طويلة، ولقي النصب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل، لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك[1].

❁ **ومنها**: البداءة بالأهم فالأهم، فإن زيادة العلم وعلم الإنسان أهم من ترك ذلك، والاشتغال بالتعليم من دون تزود من العلم، والجمع بين الأمرين أكمل.

❁ **ومنها**: جواز أخذ الخادم في الحضر والسفر لكفاية المؤن، وطلب الراحة، كما فعل موسى.

❁ **ومنها**: أن المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه، إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه، وأين يريده، فإنه أكمل من كتمه، فإن في إظهاره فوائد من الاستعداد له عدته، وإتيان الأمر على بصيرة، وإظهارًا لشرف هذه العبادة الجليلة، كما قال موسى: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ۝٦٠﴾ [الكهف:٦٠]، وكما أخبر النبي ﷺ أصحابه حين غزا تبوك بوجهه[2]، مع أن عادته التورية، وذلك تبع للمصلحة.

❁ **ومنها**: إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان، على وجه التسويل والتزيين، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره، لقول فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ﴾ [الكهف:٦٣].

❁ **ومنها**: جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة النفس، من نصب أو جوع، أو عطش، إذا لم يكن على وجه التسخط وكان صدقا، لقول موسى: ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ۝٦٢﴾ [الكهف:٦٢].

❁ **ومنها**: استحباب كون خادم الإنسان، ذكيا فطنا كيسا، ليتم له أمره الذي يريده.

❁ **ومنها**: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله، وأكلهما جميعا؛ لأن ظاهر قوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ [الكهف:٦٢] إضافة إلى الجميع، أنه أكل هو وهو جميعا.

❁ **ومنها**: أن المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه بالمأمور به، وأن الموافق

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٨٢).

(٢) رواه البخاري، باب من أراد غزوة فورى بغيرها، ومن أحب الخروج يوم الخميس، برقم: (٢٩٤٨)، ومسلم، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، برقم: (٢٧٦٩).

لأمر الله، يعان ما لا يعان غيره لقوله: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾، والإشارة إلى السفر المجاوز، لمجمع البحرين، وأما الأول، فلم يشتك منه التعب، مع طوله، لأنه هو السفر على الحقيقة. وأما الأخير، فالظاهر أنه بعض يوم؛ لأنهم فقدوا الحوت حين أووا إلى الصخرة، فالظاهر أنهم باتوا عندها، ثم ساروا من الغد، حتى إذا جاء وقت الغداء قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ فحينئذ تذكر أنه نسيه في الموضع الذي إليه منتهى قصده.

ومنها: أن العلم الذي يعلمه الله لعباده نوعان: علم مكتسب يدركه العبد بجده واجتهاده. ونوع علم لدني، يهبه الله لمن يمن عليه من عباده لقوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف:٦٥].

ومنها: التأدب مع المعلم، وخطاب المتعلم إياه ألطف خطاب، لقول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٦] فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة، وأنك هل تأذن لي في ذلك أم لا وإقراره بأنه يتعلم منه، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبر، الذي لا يظهر للمعلم افتقارهم إلى علمه، بل يدعي أنه يتعاون هم وإياه، بل ربما ظن أنه يعلم معلمه، وهو جاهل جدا، فالذل للمعلم، وإظهار الحاجة إلى تعليمه، من أنفع شيء للمتعلم.

ومنها تواضع الفاضل للتعلم ممن دونه، فإن موسى -بلا شك- أفضل من الخضر.

ومنها: تعلم العالم الفاضل للعلم الذي لم يتمهر فيه، ممن مهر فيه، وإن كان دونه في العلم بدرجات كثيرة؛ فإن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من أولي العزم من المرسلين، الذين منحهم الله وأعطاهم من العلم ما لم يعط سواهم، ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر، ما ليس عنده، فلهذا حرص على التعلم منه، فعلى هذا لا ينبغي للفقيه المحدث، إذا كان قاصرا في علم النحو، أو الصرف، أو نحوه من العلوم، أن لا يتعلمه ممن مهر فيه، وإن لم يكن محدثا ولا فقيها.

ومنها: إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى، والإقرار بذلك، وشكر الله عليها لقوله: ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ [الكهف:٦٦] أي: مما علمك الله تعالى.

ومنها: أن العلم النافع، هو العلم المرشد إلى الخير، فكل علم يكون فيه رشد وهداية لطرق الخير، وتحذير عن طريق الشر، أو وسيلة لذلك، فإنه من العلم النافع، وما سوى ذلك، فإما أن يكون ضارا، أو ليس فيه فائدة لقوله: ﴿أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾.

ومنها: أن من ليس له قوة الصبر على صحبة العالم والعلم، وحسن الثبات على ذلك، أنه يفوته بحسب عدم صبره كثير من العلم فمن لا صبر له لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولازمه، أدرك به كل أمر سعى فيه، لقول الخضر -يعتذر من موسى بذكر المانع لموسى في الأخذ عنه- إنه لا يصبر معه.

ومنها: أن السبب الكبير لحصول الصبر، إحاطة الإنسان علما وخبرة، بذلك الأمر، الذي أمر بالصبر عليه، وإلا فالذي لا يدريه، أو لا يدري غايته ولا نتيجته، ولا فائدته وثمرته ليس عنده سبب الصبر لقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف:٦٨] فجعل الموجب لعدم صبره، وعدم إحاطته خبرا بالأمر.

ومنها: الأمر بالتأني والتثبت، وعدم المبادرة إلى الحكم على الشيء، حتى يعرف ما يراد منه وما هو المقصود.

ومنها: تعليق الأمور المستقبلية التي من أفعال العباد بالمشيئة، وأن لا يقول الإنسان للشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل، إلا أن يقول ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

ومنها: أن العزم على فعل الشيء، ليس بمنزلة فعله، فإن موسى قال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ [الكهف:٦٩] فوطن نفسه على الصبر ولم يفعل.

ومنها: أن المعلم إذا رأى المصلحة في إيزاعه للمتعلم أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء، حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها، فإن المصلحة تتبع، كما إذا كان فهمه قاصرا، أو نهاه عن الدقيق في سؤال الأشياء التي غيرها أهم منها، أو لا يدركها ذهنه، أو يسأل سؤالا لا يتعلق في موضع البحث.

ومنها: جواز ركوب البحر، في غير الحالة التي يخاف منها.

ومنها: أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانه لا في حق الله، ولا في حقوق العباد لقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾ [الكهف:٦٨].

ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم، العفو منها، وما سمحت به أنفسهم، ولا ينبغي له أن يكلفهم ما لا يطيقون، أو يشق عليهم ويرهقهم، فإن هذا مدعاة إلى النفور منه والسآمة، بل يأخذ المتيسر ليتيسر له الأمر.

ومنها: أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها، وتعلق بها الأحكام الدنيوية، في الأموال، والدماء وغيرها، فإن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنكر على الخضر خرقه السفينة، وقتل الغلام، وأن هذه الأمور ظاهرها أنها من المنكر، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يسعه السكوت عنها في غير هذه الحال التي صحب عليها الخضر، فاستعجل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبادر إلى الحكم في حالتها العامة، ولم يلتفت إلى هذا العارض الذي يوجب عليه الصبر وعدم المبادرة إلى الإنكار.

ومنها: القاعدة الكبيرة الجليلة وهو أنه «يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير» ويراعي أكبر المصلحتين، بتفويت أدناهما، فإن قتل الغلام شر، ولكن بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما، أعظم شرا منه، وبقاء الغلام من دون قتل وعصمته، وإن كان يظن أنه خير، فالخير ببقاء دين أبويه، وإيمانهما خير من ذلك، فلذلك قتله الخضر، وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد، ما لا يدخل تحت الحصر، فتزاحم المصالح والمفاسد كلها، داخل في هذا.

ومنها: القاعدة الكبيرة أيضا وهي أن «عمل الإنسان في مال غيره، إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة، أنه يجوز، ولو بلا إذن، حتى ولو ترتب على عمله إتلاف بعض مال الغير»؛ كما خرق الخضر السفينة لتعيب، فتسلم من غصب الملك الظالم، فعلى هذا لو وقع حرق أو غرق أو نحوهما في دار إنسان أو ماله، وكان إتلاف بعض المال أو هدم بعض الدار فيه سلامة للباقي، جاز للإنسان بل شرع له ذلك، حفظا لمال الغير، وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير، ودفع إليه إنسان بعض المال افتداء للباقي جاز، ولو من غير إذن.

ومنها: أن العمل يجوز في البحر، كما يجوز في البر؛ لقوله: ﴿يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الكهف:٧٩] ولم ينكر عليهم عملهم.

ومنها: أن المسكين قد يكون له مال لا يبلغ كفايته، ولا يخرج بذلك عن اسم المسكنة؛ لأن الله أخبر أن هؤلاء المساكين، لهم سفينة.

ومنها: أن القتل من أكبر الذنوب؛ لقوله في قتل الغلام: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ۝٧٤﴾ [الكهف:٧٤].

ومنها: أن القتل قصاصا غير منكر؛ لقوله ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف:٧٤].

ومنها: أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه، وفي ذريته.

ومنها: أن خدمة الصالحين، أو من يتعلق بهم، أفضل من غيرها؛ لأنه علل استخراج كنزهما، وإقامة جدارهما، أن أباهما صالح.

ومنها: استعمال الأدب مع الله تعالى في الألفاظ، فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقولهك ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف:٧٩]، وأما الخير فأضافه إلى الله تعالى لقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف:٨٢]، كما قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء:٨٠]، وقالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الشعراء:١٠]، مع أن الكل بقضاء الله وقدره.

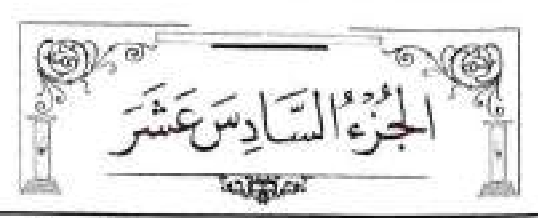
ومنها: أنه ينبغي للصاحب أن لا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال ويترك صحبته، حتى يعتبه ويعذر منه، كما فعل الخضر مع موسى.

ومنها: أن موافقة الصاحب لصاحبه، في غير الأمور المحذورة، مدعاة وسبب لبقاء الصحبة وتأكدها، كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة.

ومنها: أن هذه القضايا التي أجراها الخضر هي قدر محض أجراها الله وجعلها على يد هذا العبد الصالح، ليستدل العباد بذلك على ألطافه في أقضيته، وأنه يقدر على العبد أمورا يكرهها جدا، وهي صلاح دينه، كما في قضية الغلام، أو وهي صلاح دنياه كما في قضية السفينة، فأراهم نموذجا من لطفه وكرمه، ليعرفوا ويرضوا غاية الرضا بأقداره الكريهة[1].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٨٢).



الجزء السادس عشر

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف:٧٩]

كان حق النظم أن يتأخر قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ عن قوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾؛ لأن إرادة التعيب مسببة عن خوف الغصب، وإنما قدم للعناية، أو لأن السبب لما كان مجموع الأمرين، خوف الغصب، ومسكنة الملاك، رتبه على أقوى الجزأين وأدعاهما، وعقبه بالآخر على سبيل التقييد والتتميم[١].

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف:٨٢]

عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر منهما صلاحا. وقال محمد بن المنكدر: إن الله عَزَّوَجَلَّ ليحفظ بصلاح العبد ولده، وولد ولده، وأهل دويرته، وأهل دويرات حوله، فما يزالون في حفظ الله تعالى ما دام فيهم[٢].

ومن فوائد قصة (موسى والخضر): أن لا يعجب المرء بعلمه، ولا يبادر إلى إنكار ما لم يستحسنه، فلعل فيه سرًا لا يعرفه، وأن يداوم على التعلم ويتذلل للمعلم، ويراعي الأدب في المقابل[٣].

لما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال: ﴿مَا لَمْ تَسْطِع﴾ وقبل ذلك كان الإشكال قويا ثقيلا فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف:٧٨] فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، كما قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف:٩٧] وهو الصعود إلى أعلاه، ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف:٩٧]، وهو

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢٩٠).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ١٦٣).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢٩١).

أشق من ذلك، فقابل كلا بما يناسبه لفظا ومعنى[١].

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾ [الكهف:١٠٣]

- أعمالًا تمييز، وإنما جمع والقياس أن يكون مفردًا؛ لتنوع الأهواء، وهم أهل الكتاب، أو الرهبان[٢].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف:١٠٨]

- ﴿حِوَلًا﴾ تحولا إلى غيرها، وهذه غاية الوصف؛ لأن الإنسان في الدنيا في أي نعيم كان فهو طامح مائل الطرف إلى أرفع منه[٣]، ففيه تنبيه على رغبتهم فيها، وحبهم لها، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائما أنه يسأمه أو يمله، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي، لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولا ولا انتقالا ولا ظعنا ولا رحلة ولا بدل[٤].

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف:١٠٩]

- هذا رد على اليهود حين ادعوا أنهم أوتوا العلم الكثير، وكأنه قيل لهم: أي شيء الذي أوتيتم في علم الله تعالى وكلماته التي لا تنفد لو كتبت بماء البحر[٥].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠]

- لم يقل: ولا يشرك به؛ لأنه أراد العمل الذي يعمل لله ويحب أن يحمد عليه[٦].

- الآية جامعة لخلاصتي العلم والعمل وهما التوحيد والإخلاص في الطاعة[٧].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ١٨٨).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٣٢٢).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٣٢٢).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ١٨٨).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ١٧٢).
(٦) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ١٧٢).
(٧) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٢٩٥).



سورة مريم

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم:٣]

۞ يخفي ذلك في نفسه لا يريد رياء، وهذا يدل على أن المستحب في الدعاء الإخفاء(١)، فأخفاه لأنه أحب إلى الله(٢).

۞ لأن الإخفاء والجهر عند الله سيان، والإخفاء أشد إخباتًا وأكثر إخلاصًا، أو لئلا يلام على طلب الولد في إبان الكبر، أو لئلا يطلع عليه مواليه الذين خافهم، أو لأن ضعف الهرم أخفى صوته(٣).

﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥﴾ [مريم:٥]

۞ أي: وإني خفت من يتولى على بني إسرائيل من بعد موتي، أن لا يقوموا بدينك حق القيام، ولا يدعوا عباده إليك.. وهذا فيه شفقة زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ ونصحه، وأن طلبه للولد، ليس كطلب غيره، قصده مجرد المصلحة الدنيوية، وإنما قصده مصلحة الدين، والخوف من ضياعه، ورأى غيره غير صالح لذلك، وكان بيته من البيوت المشهورة في الدين، ومعدن الرسالة، ومظنة للخير، فدعا الله أن يرزقه ولدا، يقوم بالدين من بعده(٤).

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ [مريم:٧]

۞ أكثر المفسرين على أن معناه لم يسم أحدا قبله يحيى، ويثبت في هذا له

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ١٧٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٢١١).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٥). التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٤٧٧).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٨٩).

فضيلتان: أحدهما: أن الله تولى تسميته، ولم يكلها إلى الأبوين، والثانية: أنه سماه باسم لم يسبق إليه، يدل ذلك الاسم على فضله[١].

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ١٠﴾ [مريم:١٠]

إنما ذكر الليالي هنا، والأيام في «آل عمران» للدلالة على أنه استمر عليه المنع من كلام الناس والتجرد للذكر والشكر ثلاثة أيام ولياليهن[٢].

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ١٥﴾ [مريم:١٥]

قال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن: يوم ولد فيرى نفسه خارجا عما كان فيه، ويوم يموت فيرى أحكاما ليس له بها عهد، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر لم يره، فخص الله يحيى بن زكريا بالكرامة والسلام في المواطن الثلاثة[٣].

﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ١٨﴾ [مريم:١٨]

أي: إن كنت تخاف الله -تذكيرا له بالله- وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل، فخوفته أولا بالله عَزَّوَجَلَّ[٤].

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ٢٣﴾ [مريم:٢٣]

فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة[٥].

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ٢٥ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ٢٦﴾ [مريم:٢٥-٢٦]

استدل بعض الناس بهذه الآية على أن الإنسان ينبغي له أن يتسبب في طلب

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ١٧٦).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٦).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ١٧٩).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٢٢٠).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٢٢٣).

الرزق؛ لأن الله أمر مريم بهز النخلة[1].

قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة[2].

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم:٢٦]

وإنما أمرت أن تنذر السكوت؛ لأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يكفيها الكلام بما يبرئ به ساحتها، ولئلا تجادل السفهاء، وفيه دليل على أن السكوت عن السفيه، وما قُدعَ سفيه بمثل الإعراض، ولا أطلق عنانه بمثل العِراض[3].

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم:٣٣]

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ﴾ أدخل (لام التعريف) هنا؛ لتقدّم السلام المنكَّر في قصة يحيى، فهو كقولك: رأيت رجلا فأكرمت الرجل، وقال الزمخشري: الصحيح أن هذا التعريف تعريض بلغة من اتهم مريم، كأنه قال: السلام كله عليّ لا عليكم، بل عليكم ضدّه[4].

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم:٤٣]

لم يسم أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق، بل جعل نفسه كرفيق له في مسير يكون أعرف بالطريق، ثم ثبطه عما كان عليه بأنه مع خلوه عن النفع مستلزم للضر[5]، وفي هذا من لطف الخطاب ولينه، ما لا يخفى[6].

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم:٤٥]

قال: ﴿أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ﴾ بالتنكير المشعر بالتقليل، كأنه قال: إني أخاف

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٤٧٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٢٢٣).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٣٣٣).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٠). مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٣٣٤). التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٤٨٠).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٢).
(٦) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٩٤).

أن يصيبك نَفَيان من عذاب الرحمن، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب، كما أن رضوان الله أكبر من الثواب في نفسه، وصدر كل نصيحة بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾؛ توسلًا إليه واستعطافًا، وإشعارًا بوجوب احترام الأب وإن كان كافرا[1].

ذكر الخوف، ونكّر العذاب؛ لحسن الأدب، حيث لم يصرح بأن العذاب لاحق به[2].

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم:٤٦]

قابل استعطافه بالغلظة، حيث سماه باسمه، ولم يقل: يا ولدي، وأخره وقدم الخبر على المبتدأ، وصدره بهمزة الإنكار، ثم أوعده بأقبح وعيد[3].

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم:٤٨]

في تصدير الكلام بـ﴿عَسَىٰٓ﴾: التواضع وهضم النفس، والتنبيه على أن الإجابة والإثابة تفضل غير واجبتين، وأن ملاك الأمر خاتمته وهو غيب[4].

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ [مريم:٥١]

إنما خصه بصدق الوعد -وإن كان موجودًا في غيره من الأنبياء- تشريفًا له؛ ولأنه المشهور من خصاله[5].

ما التزم قط عبادة بنذر إلا قام بها، ووفاها حقها، وقال بعضهم: إنما قيل له: ﴿صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم:٥٤]؛ لأنه قال لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٣٣٩).
(٢) جامع البيان، للإيجي (٢/ ٤٨٢).
(٣) جامع البيان، للإيجي (٢/ ٤٨٢).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٢).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٣٤١).

[الصافات:١٠٢]، فصدق في ذلك[١].

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨)﴾ [مريم:٥٨]

﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾ أي: ومن ذرية إسرائيل، وكان منهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى، وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية[٢].

فرق أنسابهم، وإن كان يجمع جميعهم آدم؛ لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة، وهو إدريس، فإنه جد نوح[٣].

أجمع العلماء على شرعية السجود هاهنا، اقتداء بهم، واتباعا لمنوالهم[٤].

في إضافة الآيات إلى اسمه ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ دلالة على أن آياته من رحمته بعباده وإحسانه إليهم، حيث هداهم بها إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة[٥].

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢)﴾ [مريم:٦٢]

قال الحسن: كانت العرب لا تعرف شيئا من العيش أفضل من الغداء والعشاء، فذكر الله جنته، فقال: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢)﴾[٦].

﴿لَغْوًا﴾ فحشًا أو كذبا.. وفيه تنبيه على وجوب تجنب اللغو واتقائه حيث نزه الله عنه داره التي لا تكليف فيها[٧].

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (٦٣)﴾ [مريم:٦٣]

الوراثة أقوى لفظ يستعمل في التملك والاستحقاق، من حيث إنها لا تعقب

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٢٣٨).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٤).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٢٤٢).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٢٤٢).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٤٩٦).
(٦) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ١٨٩).
(٧) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٣٤٣).

بفسخ ولا استرجاع، ولا تبطل برد ولا إسقاط[١].

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ [مريم:٦٨]

❁ في إقسام الله باسمه مضافا إلى رسوله تفخيم لشأن رسوله[٢].

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾ [مريم:٧٥]

❁ ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾ أي: فئة وأنصارًا، قابل به أحسن نديًا، من حيث إن حسن النادي باجتماع وجوه القوم وأعيانهم وظهور شوكتهم واستظهارهم[٣].

﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾ [مريم:٧٩]

❁ إنما جعله (مستقبلًا)؛ لأنه إنما يظهر الجزاء والعقاب في المستقبل[٤].

❁ ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر، وهي كذلك في سائر القرآن، وهذا أول موضع لها في القرآن، ووردت في القرآن ثلاثا وثلاثين مرة. وقالت امرأةٌ للحجاج بن يوسف: لا والذي نزع ﴿كَلَّا﴾ من نصف كتابه الأعلى، فلما تبين له عفا عنها[٥].

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم:٨٥-٨٦]

❁ ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لاختيار هذا الاسم في هذه السورة شأن؛ ولعله لأن مساق هذا الكلام فيها لتعداد نعمه الجسام، وشرح حال الشاكرين لها والكافرين بها[٦].

❁ ذكر المتقون بأنهم يجمعون إلى ربهم الذي غمرهم برحمته كما يفد الوفود على الملوك تبجيلًا لهم، والكافرون بأنهم يساقون إلى النار كأنهم نعم عطش يساقون

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٥).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٣٤٦).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٨).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٤٨٥).
(٥) وجه النهار، للحربي (ص٢٢٦).
(٦) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٠).

إلى الماء استخفافًا بهم[١].

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ [مريم:٨٨-٨٩]

الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التسجيل عليهم بالجرأة على الله تعالى، وللتنبيه على عظيم قولهم[٢].

﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم:٩٢]

في اختصاص الرحمن وتكريره مرات: بيان أنه الرحمن وحده، لا يستحق هذا الاسم غيره؛ لأن أصول النعم وفروعها منه، فلينكشف عن بصرك غطاؤه، فأنت وجميع ما عندك عطاؤه، فمن أضاف إليه ولدًا فقد جعله كبعض خلقه، وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن[٣].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم:٩٦]

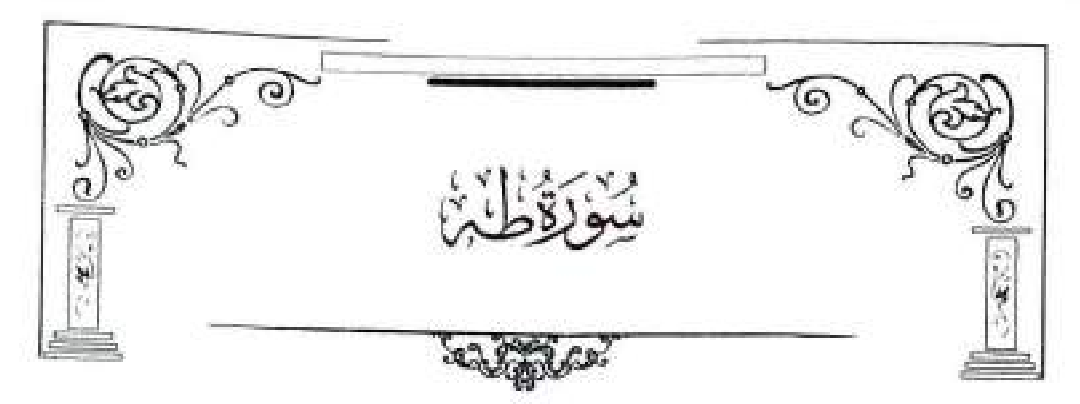
السين إما لأن السورة مكية، وكانوا ممقوتين حينئذ بين الكفرة فوعدهم ذلك إذا دجا الإسلام، أو لأن الموعود في القيامة حين تعرض حسناتهم على رؤوس الأشهاد فينزع ما في صدورهم من الغل[٤].

هذا من نعمه على عباده، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، أن وعدهم أنه يجعل لهم ودا، أي: محبة ووددا في قلوب أوليائه، وأهل السماء والأرض، وإذا كان لهم في القلوب ود تيسر لهم كثير من أمورهم وحصل لهم من الخيرات والدعوات والإرشاد والقبول والإمامة ما حصل..وإنما جعل الله لهم ودا، لأنهم ودوه، فوددهم إلى أوليائه وأحبابه[٥].

❁❁❁❁❁❁❁

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٣٥٢).
(٢) جامع البيان، للإيجي (٢/ ٤٩٦).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢١)، مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٣٥٤).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢١).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٠١).



﴿طه ۝١﴾ [طه:١]

﴿طه﴾ من الحروف المقطعة، وهي تتضمن تنبيها وإشارة إلى شيء في رأي جماعة من أهل العلم. وكل سورة مبدوءة بحرف الطاء ففي أولها قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قد يكون ذلك -والله أعلم- إشارة إلى الطور[1].

﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه:٢]

نفى عنه جميع أنواع الشقاء في الدنيا والآخرة؛ لأنه أنزل عليه القرآن الذي هو سبب السعادة[2].

﴿إِلَّا تَذۡكِرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣﴾ [طه:٣]

خص بالتذكرة مَن يَخْشَى؛ لأن غيره لا ينتفع به، وكيف ينتفع به من لم يؤمن بجنة ولا نار، ولا في قلبه من خشية الله مثقال ذرة؟[3]

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٨﴾ [طه:٨]

الانتقال من التكلم إلى الغيبة للتفنن في الكلام، وتفخيم المنزل من وجهين: إسناد إنزاله إلى ضمير الواحد العظيم الشأن، ونسبته إلى المختص بصفات الجلال والإكرام والتنبيه على أنه واجب الإيمان به والانقياد له من حيث أنه كلام من هذا شأنه[4].

---

(١) وجه النهار، للحربي (ص٢٢٧).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٥).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٠١).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٣).

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩﴾ [طه:٩]

فقفّاه بقصته؛ ليأتمّ به في تحمل أعباء الرسالة، والصبر على الشدائد؛ فإن هذه السورة من أوائل ما نزل[١].

﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾ [طه:١٠]

لما كان حصولهما مترتبًا بني الأمر فيهما على الرجاء، بخلاف الإيناس، فإنه كان محققًا، ولذلك حققه لهم ليوطنوا أنفسهم عليه[٢].

﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤﴾ [طه:١٤]

هذا دليل على أنه لا فريضة بعد التوحيد أعظم منها[٣].

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧﴾ [طه:١٧]

معنى سؤال موسى عما في يده من العصا: التنبيه له عليها ليقع المعجز بها بعد التثبيت فيها، والتأمل لها[٤].

﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨﴾ [طه:١٨]

لما ذكر بعضها شكرًا، أجمل الباقي حياء من التطويل، أو ليسأل عنها الملك العلام، فيزيد في الإكرام[٥].

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١﴾ [طه:٢١]

قال المفسرون: أراد الله تعالى أن يري موسى ما أعطاه من الآية التي لا يقدر عليها مخلوق لئلا يفزع منها إذا ألقاها عند فرعون، ولا يولي مدبرا[٦].

---

(١) جامع البيان، للإيجي (٢/ ٥٠٢).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٤).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٣٥٩).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٢٠٣).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٣٦٠).
(٦) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٢٠٤). مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٣٦١).

﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۝٤٣ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ۝٤٤﴾ [طه:٤٣-٤٤]

الفائدة في إرسالهما والمبالغة عليهما في الاجتهاد مع علمه بأنه لا يؤمن: إلزام الحجة، وقطع المعذرة، وإظهار ما حدث في تضاعيف ذلك من الآيات، والتذكر للمتحقق، والخشية للمتوهم، ولذلك قدم الأول، أي: إن لم يتحقق صدقكما ولم يتذكر، فلا أقل من أن يتوهمه فيخشى[1].

إنما قال: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ مع علمه أنه لا يتذكر؛ لأن الترجي لهما، أي: اذهبا على رجائكما وطمعكما، وباشرا الأمر مباشرة من يطمع أن يثمر عمله، وجدوى إرسالهما إليه مع العلم بأنه لن يؤمن إلزام الحجة، وقطع المعذرة[2].

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۝٢٦ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝٢٨ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَارُونَ أَخِي ۝٣٠ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۝٣٢ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ۝٣٦﴾ [طه:٢٥-٣٦]

إن قيل: لِمَ قال: اشرح ﴿لِي﴾ ويسر ﴿لِي﴾، مع أن المعنى يصح دون قوله: ﴿لِي﴾؟
فالجواب: أن ذلك تأكيد وتحقيق للرغبة[3].

إنما قال: ﴿عُقْدَةً﴾ بالتنكير؛ لأنه طلب حلّ بعضها ليفقهوا قوله، ولم يطلب الفصاحة الكاملة[4].

عَلِم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن مدار العبادات كلها والدين على ذكر الله، فسأل الله أن يجعل أخاه معه يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى، فيكثر منهما ذكر الله من التسبيح والتهليل وغيره من أنواع العبادات[5].

هذا السؤال من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يدل على كمال معرفته بالله وكمال فطنته

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٨).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٣٦٦).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٧).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٧).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٠٤).

ومعرفته للأمور وكمال نصحه؛ وذلك أن الداعي إلى الله، المرشد للخلق، خصوصا إذا كان المدعو من أهل العناد والتكبر والطغيان يحتاج إلى سعة صدر وحلم تام على ما يصيبه من الأذى، ولسان فصيح يتمكن من التعبير به عن ما يريده ويقصده، بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام من ألزم ما يكون، لكثرة المراجعات والمراوضات، ولحاجته لتحسين الحق وتزيينه بما يقدر عليه ليحببه إلى النفوس، وإلى تقبيح الباطل وتهجينه لينفر عنه، ويحتاج مع ذلك أيضا أن يتيسر له أمره، فيأتي البيوت من أبوابها، ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، يعامل الناس كلا بحسب حاله، وتمام ذلك أن يكون لمن هذه صفته أعوان ووزراء يساعدونه على مطلوبه؛ لأن الأصوات إذا كثرت لا بد أن تؤثر، فلذلك سأل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هذه الأمور فأعطيها، وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق رأيتهم بهذه الحال بحسب أحوالهم، خصوصا خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال، وله من شرح الصدر وتيسير الأمر وفصاحة اللسان وحسن التعبير والبيان والأعوان على الحق من الصحابة فمن بعدهم ما ليس لغيره[1].

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه:٤٧]

تعقيب الإتيان بإطلاق بني إسرائيل دليل على أن تخليص المؤمنين من الكفرة أهم من دعوتهم إلى الإيمان[2].

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾ ﴾ [طه:٤٨]

هي أرجى آي القرآن؛ لأنه جعل جنس السلام للمؤمن، وجنس العذاب على المكذب، وليس وراء الجنس شيء[3].

ومن لين المقال أنه ما قال: إن العذاب عليك إن كذبت وتوليت[4].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٠٤).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٩).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٣٦٧).
(٤) جامع البيان، للإيجي (٢/ ٥١٠).

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣﴾ [طه:٥٣]

انظر كيف وصف موسى ربَّه تعالى بأوصاف لا يمكن فرعون أن يتصف بها، لا على وجه الحقيقة ولا على وجه المجاز، ولو قال له: هو القادر أو الرازق وشبه ذلك، لأمكن فرعون أن يغالطه ويدعي ذلك لنفسه[١].

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧﴾ [طه:٥٧]

دليل على أنه علم كونه محقًا حتى خاف منه على ملكه، فإن الساحر لا يقدر أن يخرج ملكًا مثله من أرضه[٢].

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩﴾ [طه:٥٩]

ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم واضح بيّن، ليس فيه خفاء ولا ترويج؛ ولهذا لم يقل «ليلا» ولكن نهارا ضحى[٣].

﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾ [طه:٦٩]

لم يقل: (عصاك)؛ تحقيرًا لها، أي: لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويدة التي في يدك، أو تعظيمًا لها، أي: لا تحتفل بكثرة هذه الأجرام وعظمها؛ فإن في يمينك ما هو أعظم منها أثرًا فألقه[٤].

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾ [طه:٧٠]

قال الأخفش: من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا، فما أعجب أمرهم!، قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين[٥].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٩).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٣٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٣٠٠).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٣٢). مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٣٧٣).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٣٧٣).

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ [طه:٧٨]

فيه مبالغة ووجازة، أي: غشيهم ما سمعت قصته، ولا يعرف كنهه إلا الله[(١)].

﴿قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طه:٨٤]

هذا دليل على جواز الاجتهاد[(٢)].

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾﴾ [طه:٩٦]

الرسول: جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولعله لم يسمه لأنه لم يعرف أنه جبريل، أو أراد أن ينبه على الوقت، وهو حين أرسل إليه ليذهب به إلى الطور[(٣)].

﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ [طه:٩٧]

كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول، فعقوبتك في الدنيا أن تقول لا مساس[(٤)].

﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه:١٠٧]

المعروف في اللغة: أن (العوج) بالكسر في (المعاني)، وبالفتح في (الأشخاص)، والأرض شخص، فكان الأصل أن يقال فيها بالفتح، وإنما قاله بالكسر مبالغة في نفيه؛ فإن الذي في المعاني أدق من الذي في الأشخاص، فنفاه ليكون غاية في نفي العوج من كل وجه[(٥)].

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه:١١٤]

يؤخذ من هذه الآية الكريمة: الأدب في تلقي العلم، وأن المستمع للعلم ينبغي

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٣٤).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٣٧٧).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٣٧).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٣١٤).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١١٤).

له أن يتأنى ويصبر حتى يفرغ المملي والمعلم من كلامه المتصل بعضه ببعض، فإذا فرغ منه سأل إن كان عنده سؤال، ولا يبادر بالسؤال وقطع كلام ملقي العلم؛ فإنه سبب للحرمان، وكذلك المسئول ينبغي له أن يستملي سؤال السائل ويعرف المقصود منه قبل الجواب؛ فإن ذلك سبب لإصابة الصواب[1].

قيل: لم يؤمر الرسول ﷺ بطلب الزيادة في شيء إلا من العلم[2].

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ١١٧﴾ [طه:١١٧]

أفرده بإسناد الشقاء إليه بعد إشراكهما في الخروج اكتفاء باستلزام شقائه شقاءها من حيث إنه قيم عليها ومحافظة على الفواصل، أو لأن المراد بالشقاء التعب في طلب المعاش وذلك وظيفة الرجال ويؤيده قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ١١٩﴾ [طه:١١٨-١١٩][3].

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ١١٨﴾ [طه:١١٨]

إنما قرن بين الجوع والعري؛ لأن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر[4].

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ١١٩﴾ [طه:١١٩]

وهذان أيضا متقابلان، فالظمأ: حر الباطن، وهو العطش. والضحى: حر الظاهر[5].

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ١٢٣﴾ [طه:١٢٣]

قال الشعبي: أجار الله تابع القرآن من أن يضل في الدنيا ويشقى في الآخرة، ثم قرأ هذه الآية[6].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥١٤).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص٢٣٣).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٤٠).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٣٢٠).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٣٢٠).
(٦) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٢٢٥).

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه:١٣١]

قال أبي بن كعب في هذه الآية: فمن لم يتعز بعزاء الله تقطعت نفسه حسرات على الدنيا، ومن يتبع بصره فيما في أيدي الناس يطل حزنه ولا يشفي غيظه، ومن لم ير لله نعمة إلا في مطعمه ومشربه نقص علمه ودنا عذابه[1].

شبه نعم الدنيا بالزهر وهو النوّار؛ لأن الزهر له منظر حسن، ثم يذبل ويضمحل[2].

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾ [طه:١٣٣]

إنما ذكر ههنا أعظم الآيات التي أعطيها، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو القرآن، وإلا فله من المعجزات ما لا يحد ولا يحصر[3].



(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٢٢٧).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٣٢٩).



الجزء السابع عشر

سورة الأنبياء

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء:١]

إنما أخبر عن الساعة بالقرب؛ لأن الذي مضى من الزمان قبلها أكثر مما بقي لها، ولأن كل آت قريب[1].

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٤﴾ [الأنبياء:٤]

إن قيل: هلا قال: يعلم (السر)، مناسبة لقوله: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾؟ **فالجواب**: أن ﴿الْقَوْلَ﴾ يشمل السرّ والجهر؛ فحصل به ذكر السرّ وزيادة[2].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾ [الأنبياء:٧]

هذه الآية وإن كان سببها خاصا بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين لأهل الذكر وهم أهل العلم، فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها أن يسأل من يعلمها، ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه[3].

وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم ونهي له أن يتصدى لذلك.

وفي هذه الآية دليل على أن النساء ليس منهن نبية لا مريم ولا غيرها لقوله: ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾[4].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١٨).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١٨).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥١٩).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥١٩).

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء:٢٨]

أصل الخشية خوف مع تعظيم؛ ولذلك خص بها العلماء[(١)].

هذه الآية من أدلة إثبات الشفاعة، وأن الملائكة يشفعون[(٢)].

﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء:٢٩]

هذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف:٨١]، وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥][(٣)].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء:٣٥]

هذه الآية، تدل على بطلان قول من يقول ببقاء الخضر، وأنه مخلد في الدنيا، فهو قول، لا دليل عليه، ومناقض للأدلة الشرعية[(٤)].

﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنبياء:٣٧]

الحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا: أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك، فقال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر، ولهذا قال: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي﴾ أي: نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[(٥)].

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنبياء:٤٢]

في لفظ ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ إشارة إلى أن لا حافظ سوى رحمته[(٦)].

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٤٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٢١).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٣٣٨).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٢٣).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٣٤٣).
(٦) جامع البيان، للإيجي (٣/ ١٩).

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنبياء:٤٥]

الأصل: ولا يسمعون إذا ما ينذرون، فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامّهم وسدهم أسماعهم إذا ما أنذروا[١].

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧]

إنما جمع الموازين لتعظيم شأنها.

وصفت الموازين بالقسط، وهو العدل، مبالغة كأنها في نفسها قسط[٢].

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء:٥٠]

لا شيء أعظم بركة من هذا القرآن، فإن كل خير ونعمة، وزيادة دينية أو دنيوية، أو أخروية، فإنها بسببه، وأثر عن العمل به، فإذا كان ذكرا مباركا، وجب تلقيه بالقبول والانقياد والتسليم، وشكر الله على هذه المنحة الجليلة، والقيام بها، واستخراج بركته، بتعلم ألفاظه ومعانيه، وأما مقابلته بضد هذه الحالة، من الإعراض عنه، والإضراب عنه، صفحا وإنكاره، وعدم الإيمان به فهذا من أعظم الكفر وأشد الجهل والظلم، ولهذا أنكر تعالى على من أنكره فقال: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[٣].

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء:٥١]

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ الاهتداء لوجوه الصلاح، وإضافته ليدل على أنه رشد مثله، وأن له شأنا[٤].

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنبياء:٥٥]

انظر كيف عبر عن الحق (بالفعل)، وعن اللعب (بالجملة الاسمية)؛ لأنه أثبت

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤٠٦).

(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤٠٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٢٥).

(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٥٣).

عندهم[١].

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء:٥٨]

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أي كسرا وقطعا، وكانت مجموعة في بيت واحد، فكسرها كلها، ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾، أي: إلا صنمهم الكبير، فإنه تركه لمقصد سيبينه، وتأمل هذا الاحتراز العجيب، فإن كل ممقوت عند الله لا يطلق عليه ألفاظ التعظيم، إلا على وجه إضافته لأصحابه، كما كان النبي ﷺ إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين يقول: «**إلى عظيم الفرس**[٢]» «**إلى عظيم الروم**[٣]» ونحو ذلك، ولم يقل «**إلى العظيم**» وهنا قال تعالى: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ ولم يقل «كبيرا من أصنامهم» فهذا ينبغي التنبيه له، والاحتراز من تعظيم ما حقره الله، إلا إذا أضيف إلى من عظمه[٤].

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ أي إلا صنمهم الكبير، فإنه تركه لمقصد سيبينه، وتأمل هذا الاحتراز العجيب، فإن كل ممقوت عند الله، لا يطلق عليه ألفاظ التعظيم، إلا على وجه إضافته لأصحابه، كما كان النبي ﷺ إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين يقول: «**إلى عظيم الفرس**» «**إلى عظيم الروم**» ونحو ذلك، ولم يقل: إلى العظيم، وهنا قال تعالى: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾، ولم يقل: كبيرا من أصنامهم، فهذا ينبغي التنبيه له، والاحتراز من تعظيم ما حقره الله، إلا إذا أضيف إلى من عظّمه[٥].

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء:٦٩]

قال ابن عباس: لو لم يتبع بردها سلاما لمات إبراهيم من بردها[٦].

﴿بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ أي ذات برد وسلام، فبولغ في ذلك، كأن ذاتها برد وسلام[٧].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٤).
(٢) رواه الطبري في التاريخ (٢/ ٢٦٥) أوحسنه الألباني في فقه السيرة ص ٣٦٠.
(٣) رواه البخاري، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟ برقم: (٧)، ومسلم، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، برقم: (١٧٧٣).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٢٦).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٢٦).
(٦) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٢٤٤)، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٣٥٢).
(٧) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤١٢).

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥﴾ [الأنبياء:٧٥]

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ﴾ التي من دخلها كان من الآمنين من جميع المخاوف، النائلين كل خير وسعادة وبر وسرور وثناء، وذلك لأنه من الصالحين، الذين صلحت أعمالهم وزكت أحوالهم، وأصلح الله فاسدهم، والصلاح هو السبب لدخول العبد برحمة الله، كما أن الفساد سبب لحرمانه الرحمة والخير، وأعظم الناس صلاحا الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ولهذا يصفهم بالصلاح، وقال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩][١].

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩﴾ [الأنبياء:٧٩]

﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ دليل على أن خطأ المجتهد لا يقدح فيه[٢]، قال بعض السلف: لولا هذه الآية لرأيت الحكام قد هلكوا، ولكن الله تعالى حمد هذا بصوابه، وأثنى على هذا باجتهاده[٣].

قُدِّمت الجبال على الطير؛ لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأغرب وأدخل في الإعجاز؛ لأنها جماد[٤].

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ٨١﴾ [الأنبياء:٨١]

إن قيل: كيف يقال: ﴿عَاصِفَةً﴾؟ وقال في [سورة ص: ٣٦] ﴿رُخَآءً﴾ أي: لينة؟ فالجواب: أنها كانت في نفسها لينة طيبة، وكانت تسرع في جريها كالعاصف، فجمعت الوصفين، وقيل: كانت رخاء في ذهابه، وعاصفة في رجوعه إلى وطنه؛ لأن عادة المسافرين الإسراع في الرجوع، وقيل: كانت تشتدّ إذا رفعت البساط وتلين إذا حملته[٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٢٦).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٥٧).
(٣) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٢٩).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤١٥).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٧).

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٣]

ألطف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة، ولم يصرح بالمطلوب، فكأنه قال: أنت أهل أن ترحم، وأيوب أهل أن يُرحم، فارحمه واكشف عنه الضيم الذي مسه[1].

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٤]

أي: وجعلناه في ذلك قدوة لئلا يظن أهل البلاء أنما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا، وليتأسوا به في الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده[2].

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء:٩١]

إضافة الروح إليه تعالى لتشريف عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.. وإنما لم يقل: آيتين، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ﴾ [الإسراء:١٢]؛ لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة، وهي ولادتها إياه من غير فحل[3].

﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٣]

التفت من التكلم إلى الغيبة؛ لينعي عليهم ما أفسدوه إلى المؤمنين، ويقبح عندهم، كأنه يقول: ألا ترون إلى قبح ما ارتكب هؤلاء في ديننا؟[4]

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء:١٠٧]

فإن قيل: ﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ عموم، والكفار لم يرحموا به؟ **فالجواب من وجهين:**

أحدهما: أنهم كانوا معرَّضين للرحمة به لو آمنوا، فهم الذين تركوا الرحمة بعد تعريضها لهم.

---

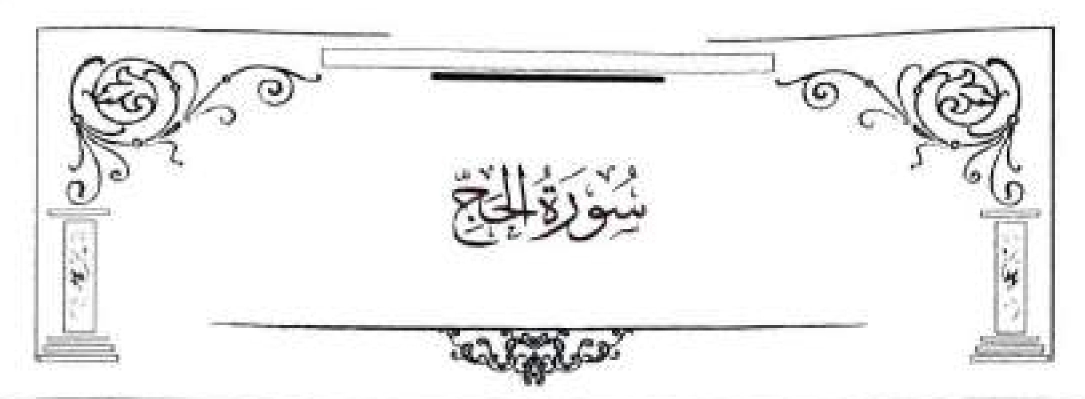
(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٥٨)، مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤١٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٣٦٣).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤١٩).
(٤) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٣٤).

والآخر: أنهم رحموا به لكونهم لم يعاقبوا بمثل ما عوقب به الكفار المتقدّمون من الطوفان والصيحة وشبه ذلك[١]. روى أبو جعفر بن جرير: عن ابن عباس قال: من آمن بالله واليوم الآخر، كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف[٢].



---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣١).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٣٨٧).



سورة الحج

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ٢]

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ قيل: ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ ليدل على أن ذلك الهول حدث وقد ألقمت الرضيع ثديها، نزعته عن فيه لما يحلقها من الدهشة؛ إذ المرضعة: هي التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي، والمرضع: التي شأنها أن ترضع، وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به[(١)].

هذا يدل على أن هذه الزلزلة تكون في الدنيا؛ لأن بعد البعث لا يكون حبلى، وعند شدة الفزع تلقي المرأة جنينها[(٢)].

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ﴾ إفراده بعد جمعه؛ لأن الزلزلة يراها الجميع، وأثر السكر إنما يراه كل أحد على غيره[(٣)].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾ [الحج: ٣]

الأولى: بيان حال المقلِّدين؛ ولهذا قال: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ﴾، وهذه الآية حال المقلِّدين؛ ولذلك يقول: ﴿لِيُضِلَّ ٱلنَّاسَ﴾ [الأنعام: ١٤٤][(٤)].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤١٩). تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٣٩٤)، التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣٢).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٢٥٧).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٦٤).
(٤) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٤٤).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥﴾ [الحج:٥]

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ قال عكرمة: من قرأ القرآن لم يصر بهذه الحالة[١].

﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾ [الحج:١٣]

الإشكال أنه تعالى نفى الضر والنفع عن الأصنام قبل هذه الآية، وأثبتهما لها هنا، **والجواب**: أن المعنى إذا فهم ذهب هذا الوهم، وذلك أن الله تعالى سفه الكافر بأنه يعبد جمادا لا يملك ضرًا ولا نفعًا، وهو يعتقد فيه أنه ينفعه، ثم قال يوم القيامة: يقول هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالأصنام ولا يرى لها أثر الشفاعة: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾[٢].

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥۤ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩ ١٨﴾ [الحج:١٨]

قوله: ﴿وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ﴾: إنما ذكر هذه على التنصيص؛ لأنها قد عبدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة[٣].

﴿۞هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩﴾ [الحج:١٩]

﴿قُطِّعَتۡ﴾ اختير لفظ الماضي؛ لأنه كائن لا محالة، فهو كالثابت المتحقق[٤].

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٢٦٠).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤٣١)، التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣٤).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٤٠٣).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤٣٣).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحج:٢٣]

غير الأسلوب فيه، وأسند الإدخال إلى الله تعالى وأكده بـ(إن)؛ إحمادًا لحال المؤمنين وتعظيمًا لشأنهم[١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج:٢٥]

في هذه الآية الكريمة: وجوب احترام الحرم، وشدة تعظيمه، والتحذير من إرادة المعاصي فيه وفعلها[٢].

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج:٢٦]

لعله عبر عن الصلاة بأركانها للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك كيف وقد اجتمعت[٣].

ذكر مكان البيت؛ لأن البيت ما كان حينئذ[٤].

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ أضافه الرحمن إلى نفسه، لشرفه، وفضله، ولتعظم محبته في القلوب، وتنصب إليه الأفئدة من كل جانب، وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه، لكونه بيت الرب للطائفين به والعاكفين عنده، المقيمين لعبادة من العبادات من ذكر، وقراءة، وتعلم علم وتعليمه، وغير ذلك من أنواع القرب.. ويدخل في تطهيره، تطهيره من الأصوات اللاغية والمرتفعة التي تشوش المتعبدين، بالصلاة والطواف[٥].

وقدم الطواف على الاعتكاف والصلاة، لاختصاصه بهذا البيت، ثم الاعتكاف،

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٦٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٣٦).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٦٩).
(٤) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٥٣).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٣٦).

لاختصاصه بجنس المساجد[1].

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ [الحج:٢٧]

قد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشيا لمن قدر عليه أفضل من الحج راكبا؛ لأنه قدمهم في الذكر، فدل على الاهتمام بهم وقوة هممهم وشدة عزمهم، والذي عليه الأكثرون أن الحج راكبا أفضل؛ اقتداء برسول الله ﷺ، فإنه حج راكبا مع كمال قوته[2].

﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾ [الحج:٢٨]

قال الحسن، ومجاهد: يعني أيام العشر، قيل لها (معلومات) للحرص على علمها بحسابها من أجل وقت الحج في آخرها[3].

قيل: كنّى بالذكر عن النحر؛ لأن ذبح المسلمين لا ينفك عنه، تنبيهًا على أنه المقصود مما يتقرب به إلى الله تعالى[4].

﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ نكّرها؛ لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة، دينية ودنيوية، لا توجد في غيرها من العبادة، وهذا لأن العبادة شرعت للابتلاء بالنفس، كالصلاة والصوم، أو بالمال كالزكاة، وقد اشتمل الحج عليهما، مع ما فيه من تحمل الأثقال وركوب الأهوال وخلع الأسباب وقطيعة الأصحاب وهجر البلاد والأوطان وفرقة الأولاد والخلان، والتنبيه على ما يستمر عليه إذا انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء، فالحاج إذا دخل البادية لا يتكل فيها إلا على عتاده ولا يأكل إلا من زاده، فكذا المرء إذا خرج من شاطئ الحياة وركب بحر الوفاة لا ينفع وحدته إلا ما سعى في معاشه لمعاده، ولا يؤنس وحشته إلا ما كان يأنس به من أوراده، وغسل من يحرم وتأهبه،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٣٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٤١٤).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٢٦٨).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٧٠).

ولبسه غير المخيط وتطيبه مرآة لما سيأتي عليه من وضعه على سريره لغسله وتجهيزه مطيبًا بالحنوط ملفقًا في كفن غير مخيط، ثم المحرم يكون أشعث حيران فكذا يوم الحشر يخرج من القبر لهفان، ووقوف الحجيج بعرفات آملين رغبًا ورهبًا سائلين خوفًا وطمعًا، وهم من بين مقبول ومخذول، كموقف العرصات ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ۝١٠٥﴾ [هود:١٠٥]، والإفاضة إلى المزدلفة بالمساء هو السوق لفصل القضاء، ومنى هو موقف المنى للمذنبين إلى شفاعة الشافعين، وحلق الرأس والتنظيف كالخروج من السيئات بالرحمة والتخفيف، والبيت الحرم الذي من دخله كان آمنًا من الإيذاء والقتال أنموذج لدار السلام التي هي من نزلها بقي سالمًا من الفناء والزوال غير أن الجنة حفت بمكاره النفس العادية كما أن الكعبة حفت بمتالف البادية، فمرحبًا بمن جاوز مهالك البوادي شوقًا إلى اللقاء يوم التنادي[1].

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝٢٩﴾ [الحج:٢٩]

المراد هنا طواف الإفاضة عند جميع المفسرين[2].

قال عكرمة: إنما سمي البيت العتيق؛ لأنه أعتق يوم الغرق زمان نوح، وقال خصيف: إنما سمي البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبار قط[3].

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢﴾ [الحج:٣٢]

أضاف التقوى إلى القلوب؛ لأن حقيقة التقوى تقوى القلوب[4].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۗ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤﴾ [الحج:٣٤]

الآية دالة على أن الذبائح ليست من خصائص هذه الأمة، وأن التسمية على الذبائح كانت مشروعة قبلنا[5].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤٣٦).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٤١٨).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٢٧١).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٢٧١).

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦)﴾ [الحج:٣٦]

احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تجزأ ثلاثة أجزاء: فثلث لصاحبها يأكله منها، وثلث يهديه لأصحابه، وثلث يتصدق به على الفقراء[1].

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)﴾ [الحج:٣٧]

في هذا دليل على أن شيئا من العبادات لا يصلح إلا بالنية، وهو أن ينوي بها التقرب إلى الله واتقاء عقابه[2].

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)﴾ [الحج:٤٠]

قال بعض العلماء: هذا ترقٍّ من الأقل إلى الأكثر إلى أن ينتهي إلى المساجد، وهي أكثر عمارا وأكثر عبادا، وهم ذوو القصد الصحيح[3].

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)﴾ [الحج:٤١]

هذا يدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ إذ قرنا بالصلاة والزكاة[4].

وصف للذين أخرجوا، وهو ثناء قبل بلاء، وفيه دليل على صحة أمر الخلفاء

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٤٢٩).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٢٧٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٤٣٦).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٢٧٤).

الراشدين إذ لم يستجمع ذلك غيرهم من المهاجرين(١).

﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [الحج:٤٤]

لم يقل: وقوم موسى؛ لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل، وإنما كذبه غير قومه، أو كأنه قيل بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم: وكُذِّب موسى أيضًا مع وضوح آياته وظهور معجزاته، فما ظنك بغيره؟!(٢)

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٦]

فيه دليل على أن العقل متصل بالقلب، وليس فيه ما يمنع أن يكون في الرأس(٣).

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الحج:٤٩-٥٠]

الاقتصار على الإنذار مع عموم الخطاب وذكر الفريقين؛ لأن صدر الكلام ومساقه للمشركين، وإنما ذكر المؤمنين وثوابهم زيادة في غيظهم(٤).

إنما لم يقل: بشير ونذير، لذكر الفريقين بعده؛ لأن الحديث مسوق إلى المشركين، ويا أيها الناس نداء لهم، وهم الذين قيل فيهم: أفلم يسيروا، ووصفوا بالاستعجال، وإنما أقحم المؤمنون وثوابهم ليغاظوا(٥).

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الحج:٥٢]

استدل به من ذهب إلى أن كل نبي رسول؛ لأنه قال في الصنفين: ﴿أَرْسَلْنَا﴾(٦).

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٧٣).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤٤٥).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص٢٤٧).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٧٥).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤٤٦).
(٦) وجه النهار، للحربي (ص٢٤٨).

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٖ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ٥٥﴾ [الحج: ٥٥]

يعني: يوم بدر في قول ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والسدي، وسمى الله ذلك اليوم عقيما؛ لأنه لم تكن فيه للكفار بركة ولا خير، فهو كالريح العقيم التي لا تأتي بخير[١].

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥٧﴾ [الحج: ٥٦-٥٧]

إدخال الفاء في خبر الثاني دون الأول؛ تنبيه على أن إثابة المؤمنين بالجنات تفضل من الله تعالى، وأن عقاب الكافرين مسبب عن أعمالهم[٢].

﴿۞ ذَٰلِكَۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠﴾ [الحج: ٦٠]

﴿لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ ما مناسبة هذين الوصفين للمعاقبة؟ فالجواب: من وجهين: أحدهما: أن في ذكر هذين الوصفين إشعار بأن العفو أفضل من العقوبة، فكأنه حض على العفو، والثاني: أن في ذكرهما إعلامًا بعفو الله عن المعاقب حين عاقب، ولم يأخذ بالعفو الذي هو أولى[٣].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ٦٣﴾ [الحج: ٦٣]

﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ العدول إلى المضارع، للدلالة على بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان[٤].

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٢٧٧).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٧٦). جامع البيان، للإيجي (٣/ ٦٦).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٥).
(٤) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٦٨).

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [الحج:٧٨]

أضاف الجهاد إلى الله؛ ليبين بذلك فضله واختصاصه بالله[1].

يؤخذ من هذه الآية، قاعدة شرعية وهي: «أن المشقة تجلب التيسير» و«الضرورات تبيح المحظورات» فيدخل في ذلك من الأحكام الفرعية، شيء كثير معروف في كتب الأحكام[2].



(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٤٦).



﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون:١-١١]

❁ أضيفت الصلاة إلى المصلين لا إلى المصلى له، لانتفاع المصلي بها وحده، وهي عدته وذخيرته، وأما المصلى له فغني عنها[١].

❁ افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة، فدل على أفضليتها[٢].

❁ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢﴾ وهذا يدل على وجوب الطمأنينة في الصلاة[٣].

❁ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ أبلغ من (الذين لا يلهون) من وجوه: جعل الجملة اسمية، وبناء الحكم على الضمير، والتعبير عنه بالاسم، وتقديم الصلة عليه، وإقامة الإعراض مقام الترك ليدل على بعدهم عنه رأسًا مباشرة وتسببًا وميلًا وحضورًا، فإن أصله أن يكون في عرض غير عرضه[٤].

❁ لما وصفهم بالخشوع في الصلاة، أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو، ليجمع

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤٥٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٤٦٤).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٢٢٦).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٨٢).

لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس، اللذين هما قاعدتا بناء التكليف[١].

۞ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَاعِلُونَ ۝٤ ﴾ إن قيل: لِم قال ﴿فَاعِلُونَ﴾ ولم يقل (مؤدّون)؟ فالجواب: أن الزكاة لها معنيان: أحدهما: (الفعل) الذي يفعله المزكي، أي: أداء ما يجب على المال، والآخر (المقدار) المخرج من المال، والمراد هنا: (الفعل) لقوله: ﴿فَاعِلُونَ﴾، ويصح المعنى الآخر على حذف تقديره: هم لأداء الزكاة فاعلون[٢].

۞ لفظ ﴿فَاعِلُونَ﴾ يدل على المداومة، والزكاة بمعناها الشرعي من مصطلحات القرآن[٣].

۞ ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧﴾ فيه دليل تحريم المتعة، والاستمتاع بالكف لإرادة الشهوة[٤].

۞ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ ﴾ لفظ الفعل فيه؛ لما في الصلاة من التجدد والتكرر، وليس ذلك تكريرًا لما وصفهم به أولًا؛ فإن الخشوع في الصلاة غير المحافظة عليها، وفي تصدير الأوصاف وختمها بأمر الصلاة تعظيم لشأنها[٥].

۞ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ ﴾ إعادة ذكر الصلاة؛ لأنها أهم، ولأن الخشوع فيها غير المحافظة عليها، ولأنها وحّدت أولًا ليفيد الخشوع في جنس الصلاة، أيّة صلاة كانت، وجُمعت آخرًا ليفيد المحافظة على أنواعها من الفرائض والواجبات والسنن والنوافل[٦].

۞ قال مجاهد: من حفظ عمل العشرة من سورة المؤمنين ورث الفردوس[٧].

۞ هذا تنويه من الله، بذكر عباده المؤمنين، وذكر فلاحهم وسعادتهم، وبأي

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤٥٩).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٨).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص ٢٥٠).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤٦٠).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٨٣).
(٦) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤٦٠).
(٧) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٢٨٥).

شيء وصلوا إلى ذلك، وفي ضمن ذلك، الحث على الاتصاف بصفاتهم، والترغيب فيها، فليزن العبد نفسه وغيره على هذه الآيات، يعرف بذلك ما معه وما مع غيره من الإيمان، زيادة ونقصا، كثرة وقلة[1].

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون:١٩-٢٠]

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ يعني: شجرة الزيتون، وخصت بالذكر؛ لأنه لا يتعاهدها أحد بالسقي، وهي تخرج الثمرة التي يكون منها الدهن الذي تعظم به المنفعة، فذكرت النعمة فيها[2].

قيل [شجرة الزيتون] هي أول شجرة نبتت بعد الطوفان، وخص هذه الأنواع الثلاثة؛ لأنها أكرم الشجر وأفضلها وأجمعها للمنافع[3].

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [المؤمنون:٢٧]

أخرج سبب الغرق من موضع الحرق، ليكون أبلغ في الإنذار والاعتبار[4].

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون:٢٩]

ثناء مطابق لدعائه، أمره بأن يشفعه به مبالغة فيه وتوسلًا به إلى الإجابة، وإنما أفرده بالأمر، والمعلق به أن يستوي هو ومن معه؛ إظهارًا لفضله وإشعارًا بأن في دعائه مندوحة عن دعائهم؛ فإنه يحيط بهم[5].

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المؤمنون:٣١]

جعل القرن موضع الإرسال؛ ليعلم أنه أوحي إليه وهو فيهم، وما جاء إليهم

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٤٧).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٢٨٧).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤٦٤).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤٦٥).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٨٦).

من مكان آخر[(١)].

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ٣٣﴾ [المؤمنون:٣٣]

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ لعله ذكر بالواو؛ لأن كلامهم لم يتصل بكلام الرسول ﷺ، بخلاف قول قوم نوح حيث استؤنف به[(٢)].

استبعدوا أن تكون النبوّة لبشر، فيا عجبًا منهم إذ أثبتوا الربوبية لحجر![(٣)]

﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٤٥ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ ٤٦ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ٤٧ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ٤٨ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٤٩﴾ [المؤمنون:٤٥-٤٩]

مر عليَّ منذ زمان طويل كلام لبعض العلماء لا يحضرني الآن اسمه، وهو أنه بعد بعث موسى ونزول التوراة، رفع الله العذاب عن الأمم، أي: عذاب الاستئصال، وشرع للمكذبين المعاندين الجهاد، ولم أدر من أين أخذه، فلما تدبرت هذه الآيات، مع الآيات التي في سورة القصص، تبين لي وجهه، أما هذه الآيات؛ فلأن الله ذكر الأمم المهلكة المتابعة على الهلاك، ثم أخبر أنه أرسل موسى بعدهم، وأنزل عليه التوراة فيها الهداية للناس، ولا يرد على هذا إهلاك فرعون، فإنه قبل نزول التوراة، وأما الآيات التي في سورة القصص، فهي صريحة جدا، فإنه لما ذكر هلاك فرعون قال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٣﴾ [القصص:٤٢]، فهذا صريح أنه آتاه الكتاب بعد هلاك الأمم الباغية، وأخبر أنه أنزله بصائر للناس وهدى ورحمة، ولعل من هذا، ما ذكر الله في سورة «يونس» من قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [يونس:٧٤] أي: من بعد نوح ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ

(١) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٨٣).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٨٧).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٥٠).

ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [يونس:٧٤-٧٥] الآيات، والله أعلم[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون:٥١]

يأمر تعالى عباده المرسلين، بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح[٢].

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون:٥٢]

جاءت الأمة في القرآن بمعنى الزمن المجتمع، وبمعنى الجماعة الكثيرة، والرجل الجامع للخير، و«الجمع» هو المعنى المشترك فيها كلها[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون:٦٠]

قال الحسن: المؤمن جمع إحسانا وشفقة، والمنافق جمع إساءة وأمنا[٤].

إيتاء المال في هذه الآية عبارة عن الأعمال الصالحة؛ إذ هو الأفضل والأشق على النفس[٥].

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون:٦٨]

أفلا يتفكرن في القرآن ويتأملونه ويتدبرونه فإنهم لو تدبروه لأوجب لهم الإيمان ولمنعهم من الكفر، ولكن المصيبة التي أصابتهم بسبب إعراضهم عنه، ودل هذا على أن تدبر القرآن يدعو إلى كل خير ويعصم من كل شر، والذي منعهم من تدبره أن على قلوبهم أقفالها[٦].

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ [المؤمنون:٧٣]

اعلم أنه سبحانه ألزمهم الحجة وأزاح العلة في هذه الآيات بأن حصر أقسام ما

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٥٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٤٧٧).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص٢٥٣).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٢٩٣).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٢٩٣).
(٦) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٥٤).

يؤدي إلى الإنكار والاتهام وبين انتفاءها، ما عدا كراهة الحق وقلة الفطنة[١].

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون:٧٥]

عن ابن عباس: كل ما فيه «لو»، فهو مما لا يكون أبدا[٢].

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون:٧٦]

إن قيل: هلا قال: فما استكانوا وما تضرعوا، أو: فما يستكينون وما يتضرعون، باتفاق الفعلين في الماضي أو في الاستقبال؟ **فالجواب**: أن ما استكانوا عند العذاب الذي أصابهم، وما يتضرعون حتى يفتح عليهم باب عذاب شديد، فنفى الاستكانة فيما مضى، ونفى التضرع في الحال والاستقبال[٣].

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [المؤمنون:٩٣-٩٤]

تكرار (رب)، حث على فضل تضرع وتواضع وإظهار عبودية وافتقار وعجز[٤].

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المؤمنون:٩٦]

أبلغ من: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾؛ لما فيه من التنصيص على التفضيل[٥].

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]

قال قتادة: أما والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولكنه تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فانظروا أمنية الكافر فاعملوا فيها[٦].

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون:١٠١]

إن قيل: كيف الجمع بين هذا وبين قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٩٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٤٨٦).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٥٥).
(٤) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٩٨).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٩٥).
(٦) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٢٩٨).

[الصفات:٢٧]؟ **فالجواب**: أن ترك التساؤل عند النفخة الأولى، ثم يتساءلون بعد ذلك؛ فإن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف كثيرة[١].

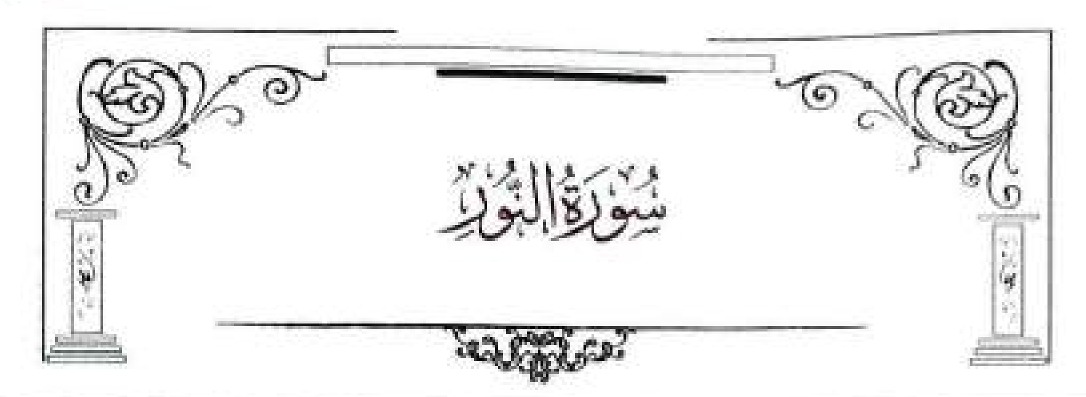
﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون:١١٧]

بدأ السورة بتقرير فلاح المؤمنين وختمها بنفي الفلاح عن الكافرين، ليبين البون بين الفريقين، فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة، ثم أمر رسوله بأن يستغفره ويسترحمه فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون:١١٨][٢].



(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٥٨).

(٢) ينظر: أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٩٧). مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤٨٥). التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٥٨).



سورة النور

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ①﴾ [النور:١]

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ فيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفي ما عداها[١].

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ②﴾ [النور:٢]

إنما قدم ﴿الزَّانِيَةُ﴾؛ لأن الزنا في الأغلب يكون بتعرضها للرجل وعرض نفسها عليه ولأن مفسدته تتحقق بالإضافة إليها[٢].

قدم الزانية؛ لأن الزنا كان حينئذ في النساء أكثر؛ فإنه كان منهنّ إماء وبغايا يجاهرن بذلك[٣].

﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ③﴾ [النور:٣]

الآية تزهيد في نكاح البغايا؛ إذ الزنا عديل الشرك في القبح، والإيمان قرين العفاف والتحصن[٤].

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ④﴾ [النور:٤]

تخصيص النساء لخصوص الواقعة؛ ولأن قذفهن أغلب وأشنع، وإلا فلا فرق

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٥).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٩٨).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٥٩).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤٨٧).

فيه بين الذكر والأنثى[1].

﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾﴾ [النور:٨]

وتزيد في الخامسة، مؤكدة لذلك، أن تدعو على نفسها بالغضب، فإذا تم اللعان بينهما، فرق بينهما إلى الأبد، وانتفى الولد الملاعن عليه، وظاهر الآيات يدل على اشتراط هذه الألفاظ عند اللعان، منه ومنها، واشتراط الترتيب فيها، وأن لا ينقص منها شيء، ولا يبدل شيء بشيء، وأن اللعان مختص بالزوج إذا رمى امرأته، لا بالعكس، وأن الشبه في الولد مع اللعان لا عبرة به، كما لا يعتبر مع الفراش، وإنما يعتبر الشبه حيث لا مرجح إلا هو[2].

﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾﴾ [النور:٩]

خُص الغضب في جانبها؛ لأن النساء يستعملن اللعن كثيرًا كما ورد به الحديث[3]، فربما يجترئن على الإقدام لكثرة جري اللعن على ألسنتهن، وسقوط وقعه على قلوبهن، فذكر الغضب في جانبهن ليكون رادعًا لهن[4].

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [النور:١٠]

جواب ﴿لَوْلَآ﴾ [النور:١٢] متروك، ليدل على أنه أمر عظيم لا يكتنه[5].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور:١١]

الإفك: أسوأ الكذب، وهو مأخوذ من: أفك الشيء، إذا قلبه عن وجهه، والإفك هو الحديث المقلوب عن وجهه، ومعنى القلب في هذا الحديث أن عائشة

---

(١) جامع البيان، للإيجي (٣/ ١٠٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٦٢).

(٣) رواه البخاري، باب ترك الحائض الصوم، برقم: (٣٠٤)، ومسلم، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات، وبيان إطلاق لفظ الكفر على غير الكفر بالله، ككفر النعمة والحقوق، برقم: (٧٩).

(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤٩٠).

(٥) جامع البيان، للإيجي (٣/ ١٠٩).

كانت تستحق الثناء بما كانت عليه من الحصانة وشرف الحسب والنسب لا القذف الذي رموها به، فالذين رموها بالسوء قلبوا الأمر عن وجهه، فهو إفك قبيح، وكذب ظاهر[١].

الله برأ أربعة بأربعة: برأ يوسف بشهادة الشاهد من أهلها، وبرأ موسى من قول اليهود بالحجر الذي ذهب بثوبه، وبرأ مريم بكلام ولدها في حجرها، وبرأ عائشة من الإفك بإنزال القرآن في شأنها، ولقد تضمنت هذه الآيات الغاية القصوى في الاعتناء بها، والكرامة لها والتشديد على من قذفها[٢].

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ [النور:١٢]

إن قيل: لِم قال: ﴿سَمِعْتُمُوهُ﴾ بلفظ الخطاب، ثم عدل إلى لفظ الغيبة في قوله: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، ولم يقل: (ظننتم)؟ **فالجواب:** أن ذلك التفات، قصد به المبالغة والتصريح (بالإيمان)، الذي يوجب أن لا يصدق المؤمن على المؤمن شرًا[٣]، ويقتضي ظن الخير بالمؤمنين والكف عن الطعن فيهم وذب الطاعنين عنهم كما يذبونهم عن أنفسهم[٤]، فإن المؤمنين كنفس واحد[٥].

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النور:١٥]

إنما قيد بالأفواه مع أن القول لا يكون إلا بالفم؛ لأن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب، ثم يترجم عنه اللسان، وهذا الإفك ليس إلا قولًا يدور في أفواهكم من غير ترجمة عن علم به في القلب[٦].

لم يغلظ الله تعالى في القرآن في شيء من المعاصي تغليظه في إفك عائشة

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٣٠٧).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٦٢).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٦٣).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٠١).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ١١١).
(٦) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤٩٣).

رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فأوجز في ذلك وأشبع، وفصل وأجمل، وأكد وكرر، وما ذلك إلا لأمر[١].

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور:١٦]

﴿لَّوْلَآ﴾ [النور:١٢] في هذه الآية عرض، وكان حقها أن يليها الفعل من غير فاصل بينهما، ولكنه فصل بينهما بقوله: ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾؛ لأن الظروف يجوز فيها ما لا يجوز في غيرها، والقصد بتقديم هذا الظرف الاعتناء به، وبيان أنه كان الواجب المبادرة إلى إنكار الكلام في أول وقت سمعتموه[٢].

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [النور:٢٠]

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ لعجل لكم العذاب، وكرر المنة بترك المعاجلة بالعقاب مع حذف الجواب، مبالغة في المنة عليهم، والتوبيخ لهم[٣].

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور:٢٢]

نزل في أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فيه دليل على فضله وشرفه رضي الله تعالى عنه[٤].

قال بعضهم: هذه أرجى آية في القرآن؛ لأن الله أوصى بالإحسان إلى القاذف، ثم إن لفظ الآية على عمومه في أن لا يحلف أحد على ترك عمل صالح[٥].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور:٢٣]

لو فتشت وعيدات القرآن لم تجد أغلظ مما نزل في إفك عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا[٦].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤٩٧).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤٩٤)التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٦٤).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٤٩٥).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٠٢).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٦٥).
(٦) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٠٢).

❁ أجمع العلماء، رَحِمَهُمُ اللَّهُ، قاطبة على أن من سبها [أي: عائشة] بعد هذا، ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية، فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن، وكذا الحكم في جميع أمهات المؤمنين[١].

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النور: ٢٦]

❁ قال الزجاج: معناه لا يتكلم بالخبيثات إلا الخبيث من الرجال والنساء، ولا يتكلم بالطيبات إلا الطيب من الرجال والنساء، وهذا ذم للذين قذفوا عائشة بالخبيث، ومدح للذين برأوها بالطهارة[٢].

❁ ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: عند الله في جنات النعيم، وفيه وعد بأن تكون زوجة النبي ﷺ في الجنة[٣].

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١]

❁ تقديم الغض؛ لأن النظر بريد الزنا[٤].

❁ التوبة واجبة على كل مؤمن مكلف؛ بدليل الكتاب والسنة وإجماع الأمة[٥].

❁ دل هذا أن المميز تستتر منه المرأة؛ لأنه يظهر على عورات النساء[٦].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣١).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٣١٤).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٥).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٠٤).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٦٨).
(٦) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٦٦).

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور:٣٢]

• قال قتادة: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب كان يقول: ما رأيت مثل رجل لم يلتمس الغنى في الباءة، والله يقول: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ﴾[١].

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور:٣٣]

• انظر كيف رتب هذه الأوامر، فأمر أولًا بما يعصم من الفتنة ويبعد عن مواقعة المعصية، وهو غض البصر، ثم بالنكاح المحصن للدين المغني عن الحرام، ثم بعزة النفس الأمارة بالسوء عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن تقدر عليه[٢].

﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور:٣٦-٣٧]

• ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ﴾ أي: يصلي له فيها بالغداة صلاة الفجر، وبالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين، وإنما وحّد الغدو؛ لأن صلاته صلاة واحدة، وفي الآصال صلوات[٣].

• إنما ذكر إقامة الصلاة بعد قوله: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ والمراد به الصلاة المفروضة، بيانا أنهم يؤدونها في وقتها؛ لأن من أخر الصلاة عن وقتها لم يكن من مقيمي الصلاة[٤].

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٣١٨).

(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٥٠٢).

(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٥٠٨).

(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٣٢١).

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۝٣٦ رِجَالٞ﴾ فيه إشارة إلى أن الأفضل للنساء الصلاة في بيوتهن[(١)].

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ۝٤١﴾ [النور:٤١]

خص الطير بالذكر من جملة الحيوان؛ لأنها تكون بين السماء والأرض، فهي خارجة عن جملة من في السموات والأرض[(٢)].

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٤٥﴾ [النور:٤٥]

﴿فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ﴾ كالحية، قدّمه، لأنه أدخل في القدرة وأغرب[(٣)].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٥٥﴾ [النور:٥٥]

الآية أوضح دليل على صحة خلافة الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين، لأن المستخلفين الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم هم[(٤)]، قال بعض السلف: خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما حق في كتابه، ثم تلا هذه الآية[(٥)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٥٨﴾ [النور:٥٨]

﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾ فيه دليل على تعليل الأحكام[(٦)].

---

(١) وجه النهار، للحربي (ص٢٦٠).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٣٢٣).
(٣) جامع البيان، للإيجي (٣/ ١٣٠).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٥١٧).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٧٩).
(٦) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١١٤).

في هاتين الآيتين فوائد، منها: أن السيد وولي الصغير، مخاطبان بتعليم عبيدهم ومن تحت ولايتهم من الأولاد، العلم والآداب الشرعية؛ لأن الله وجه الخطاب إليهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ﴾ الآية، ولا يمكن ذلك، إلا بالتعليم والتأديب، ولقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾[1].

ومنها: الأمر بحفظ العورات، والاحتياط لذلك من كل وجه، وأن المحل والمكان الذي هو مظنة لرؤية عورة الإنسان فيه، أنه منهي عن الاغتسال فيه والاستنجاء، ونحو ذلك.

ومنها: جواز كشف العورة لحاجة، كالحاجة عند النوم، وعند البول والغائط، ونحو ذلك.

ومنها: أن المسلمين كانوا معتادين للقيلولة وسط النهار، كما اعتادوا نوم الليل، لأن الله خاطبهم ببيان حالهم الموجودة.

ومنها: أن الصغير الذي دون البلوغ لا يجوز أن يمكن من رؤية العورة، ولا يجوز أن ترى عورته؛ لأن الله لم يأمر باستئذانهم، إلا عن أمر ما يجوز.

ومنها: أن المملوك أيضا لا يجوز أن يرى عورة سيده، كما أن سيده لا يجوز أن يرى عورته، كما ذكرنا في الصغير.

ومنها: أنه ينبغي للواعظ والمعلم ونحوهم، ممن يتكلم في مسائل العلم الشرعي، أن يقرن بالحكم، بيان مأخذه ووجهه، ولا يلقيه مجردا عن الدليل والتعليل، لأن الله -لما بين الحكم المذكور- علله بقوله: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾[2].

ومنها: أن الصغير والعبد مخاطبان، كما أن وليهما مخاطب، لقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٧٤).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٧٤).

ومنها: أن ريق الصبي طاهر، ولو كان بعد نجاسة، كالقيء، لقوله تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾ مع قول النبي ﷺ حين سئل عن الهرة: «**إنها ليست بنجس، إنها من الطوافين عليكم والطوافات**»[(١)].

ومنها: جواز استخدام الإنسان من تحت يده، من الأطفال على وجه معتاد، لا يشق على الطفل لقوله: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾.

ومنها: أن الحكم المذكور المفصل، إنما هو لما دون البلوغ، فأما ما بعد البلوغ، فليس إلا الاستئذان.

ومنها: أن البلوغ يحصل بالإنزال، فكل حكم شرعي رتب على البلوغ، حصل بالإنزال، وهذا مجمع عليه، وإنما الخلاف، هل يحصل البلوغ بالسن، أو الإنبات للعانة، والله أعلم[(٢)].

﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النور: ٦١]

﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم فيدخل فيها بيوت الأولاد لأن بيت الولد كبيته؛ لقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**أنت ومالك لأبيك**»[(٣)][(٤)].

قرن الله الصديق بالقرابة؛ لقرب مودّته، وقال ابن عباس: الصديق أوكد من القرابة[(٥)].

---

(١) رواه الترمذي، بَابُ مَا جَاءَ فِي سُؤْرِ الهِرَّةِ، برقم: (٩٢)، وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٧٤).
(٣) رواه أحمد، برقم: (٦٩٠٢)، وصححه الشيخ أحمد شاكر.
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١١٥).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٧٦).

قيل: إن السر في إفراد الصديق هنا، وفي قوله: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١)﴾ [الشعراء:١٠٠،١٠١]: التنبيه على قلة الأصدقاء، وأما الشافعون فكثير؛ لأنه قد يشفع لك من لا يعرفك[١].

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عنه فتفهمونها، وتعقلونها بقلوبكم، ولتكونوا من أهل العقول والألباب الرزينة، فإن معرفة أحكامه الشرعية على وجهها، يزيد في العقل، وينمو به اللب، لكون معانيها أجل المعاني، وآدابها أجل الآداب، ولأن الجزاء من جنس العمل، فكما استعمل عقله للعقل عن ربه، وللتفكر في آياته التي دعاه إليها، زاده من ذلك[٢].

وفي هذه الآيات دليل على قاعدة عامة كلية وهي: أن «العرف والعادة مخصص للألفاظ، كتخصيص اللفظ للفظ»؛ فإن الأصل أن الإنسان ممنوع من تناول طعام غيره، مع أن الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء، للعرف والعادة، فكل مسألة تتوقف على الإذن من مالك الشيء، إذا علم إذنه بالقول أو العرف، جاز الإقدام عليه.

وفيها: دليل على أن الأب يجوز له أن يأخذ ويتملك من مال ولده ما لا يضره، لأن الله سمى بيته بيتا للإنسان.

وفيها: دليل على أن المتصرف في بيت الإنسان، كزوجته، وأخته ونحوهما، يجوز لهما الأكل عادة، وإطعام السائل المعتاد.

وفيها: دليل على جواز المشاركة في الطعام، سواء أكلوا مجتمعين، أو متفرقين، ولو أفضى ذلك إلى أن يأكل بعضهم أكثر من بعض[٣].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢)﴾ [النور:٦٢]

﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فيه رفع شأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.[٤]

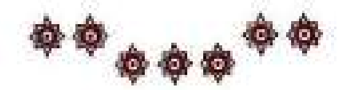
---

(١) وجه النهار، للحربي (ص٢٦٢).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٧٥).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٧٥).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٥٢٢).

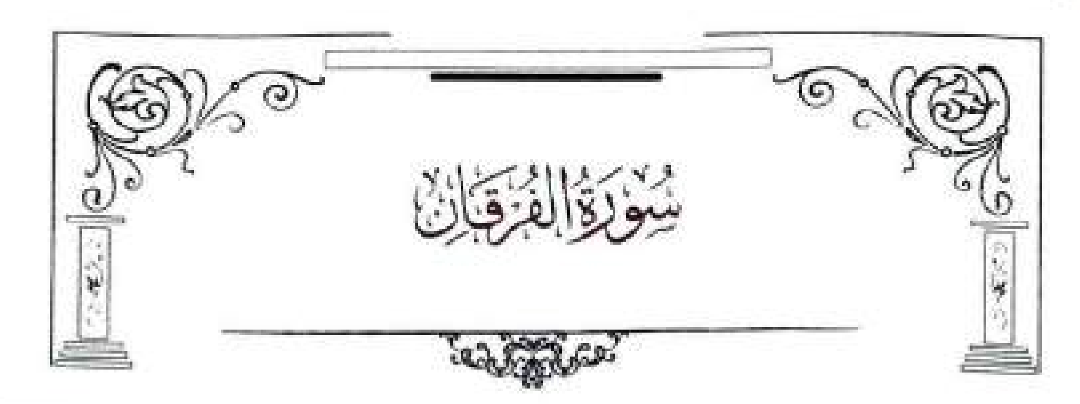
ذكر الاستغفار للمستأذنين دليل على أن الأفضل أن لا يستأذنوه، قالوا: وينبغي أن يكون الناس كذلك مع أئمتهم ومقدميهم في الدين والعلم يظاهرونهم، ولا يتفرقون عنهم إلا بالإذن[1].

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾ [النور:٦٣]

استدل به على أن الأمر للوجوب؛ فإنه يدل على أن ترك مقتضى الأمر مقتض لأحد العذابين، فإن الأمر بالحذر عنه يدل على خشية المشروط بقيام المقتضي له، وذلك يستلزم الوجوب[2].



(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٥٢٢).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١١٦).



﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان:١]

ترتيب ﴿تَبَارَكَ﴾ عن إنزاله ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾؛ لما فيه من كثرة الخير، أو لدلالته على تعاليه[1].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ نزّل: فعّل، من التكرر، والتكثر، كما قال: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦]؛ لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة، والقرآن نزل منجما مفرقا مفصلا آيات بعد آيات، وأحكاما بعد أحكام، وسورا بعد سور، وهذا أشد وأبلغ، وأشد اعتناء بمن أنزل عليه[2].

﴿عَبْدِهِۦ﴾ هذه صفة مدح وثناء؛ لأنه أضافه إلى عبوديته، كما وصفه بها في أشرف أحواله، وهي ليلة الإسراء، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]، وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:١٩][3].

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ۝١٥ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ۝١٦﴾ [الفرقان:١٥-١٦]

﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ فيه تنبيه على أن كل المرادات لا تحصل إلا في الجنة[4].

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١١٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٩٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٩٢).

(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٢٠).

﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفرقان:١٨]

﴿وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ هالكين أشقياء، راعوا الأدب، وما قالوا: أنت أضللتهم صريحا؛ لأن المقام غير مقام البسط[١].



الجزء التاسع عشر

﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الفرقان:٢٤]

﴿وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴿٢٤﴾﴾ مكان القيلولة المريح، والاستراحة فيه من عادة المترفين[٢].

﴿ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفرقان:٢٦]

في الآية تبشير للمؤمنين؛ حيث خص الكافرين بشدة ذلك اليوم[٣].

مما يرتاح له القلب، وتطمئن به النفس وينشرح له الصدر أن أضاف الملك في يوم القيامة لاسمه «الرحمن» الذي وسعت رحمته كل شيء، وعمت كل حي وملأت الكائنات وعمرت بها الدنيا والآخرة، وتم بها كل ناقص وزال بها كل نقص، وغلبت الأسماء الدالة عليه الأسماء الدالة على الغضب وسبقت رحمته غضبه وغلبته، فلها السبق والغلبة، وخلق هذا الآدمي الضعيف وشرفه وكرمه ليتم عليه نعمته، وليتغمده برحمته، وقد حضروا في موقف الذل والخضوع والاستكانة بين يديه ينتظرون ما يحكم فيهم وما يجري عليهم وهو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم فما ظنك بما يعاملهم به، ولا يهلك على الله إلا هالك ولا يخرج من رحمته إلا من غلبت عليه الشقاوة وحقت عليه كلمة العذاب[٤].

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفرقان:٣٠]

فيه تخويف لقومه؛ فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا شكوا إلى الله تعالى

(١) جامع البيان، للإيجي (٣/ ١٤٩).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص٢٦٦).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٣٣٩).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٨١).

قومهم عجل لهم العذاب[١].

﴿ كانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره، حتى لا يسمعوه. فهذا من هجرانه، وترك علمه وحفظه أيضا من هجرانه، وترك الإيمان به وتصديقه من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره -من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره- من هجرانه[٢].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان:٣٢]

﴿ كذلك أنزلناه مفرقا لنقوي بتفريقه فؤادك على حفظه وفهمه؛ لأن حاله يخالف حال موسى وداود وعيسى، حيث كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أميًا وكانوا يكتبون[٣].

﴿ وفيه إشارة لمن أراد حفظ القرآن والعلوم، أن يتدرج في حفظه قليلا قليلا؛ لأنه أثبت له وأرسخ[٤].

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان:٣٣]

﴿ في هذه الآية دليل على أنه ينبغي للمتكلم في العلم من محدث ومعلم وواعظ أن يقتدي بربه في تدبيره حال رسوله، كذلك العالم يدبر أمر الخلق، فكلما حدث موجب أو حصل موسم، أتى بما يناسب ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والمواعظ الموافقة لذلك[٥].

﴿ وفيه: رد على المتكلفين من الجهمية ونحوهم ممن يرى أن كثيرا من نصوص القرآن محمولة على غير ظاهرها ولها معان غير ما يفهم منها، فإذًا -على قولهم- لا يكون القرآن أحسن تفسيرا من غيره، وإنما التفسير الأحسن -على زعمهم- تفسيرهم

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٢٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ١٠٨).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٢٣).
(٤) وجه النهار، للحربي (٢٦٧).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٨٢).

الذي حرفوا له المعاني تحريفا[١].

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾ [الفرقان:٣٧]

من كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل.. ولهذا قال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾، ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط[٢].

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الفرقان:٤٢]

دليل على فرط مجاهدة رسول الله ﷺ في دعوتهم وعرض المعجزات عليهم، حتى شارفوا بزعمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم[٣].

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان:٤٤]

إنما ذكر الأكثر؛ لأن فيهم من لم يصده عن الإسلام إلا حب الرياسة، وكفى به داء عضالًا؛ ولأن فيهم من آمن[٤].

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾؛ لأن الأنعام تطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها، وهؤلاء يتركون أنفع الأشياء وهو الثواب، ولا يخافون أضرّ الأشياء وهو العقاب[٥].

﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الفرقان:٤٦]

فيه إشارة إلى حياة الإنسان وامتدادها، ثم تقليصها بعد ذلك، وانتهائها

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٨٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ١١٠).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٥٣٩).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٥٤٠).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٨٣).

وزوالها[١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ۝٤٨﴾ [الفرقان:٤٨]

۞ توصيف الماء بالطهور: إشعارًا بالنعمة فيه، وتتميم للمنة فيما بعده؛ فإن الماء الطهور أهنأ وأنفع مما خالطه ما يزيل طهوريته، وتنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغي أن يطهروها فبواطنهم بذلك أولى[٢].

﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ۝٤٩﴾ [الفرقان:٤٩]

۞ قدّم إحياء الأرض على سقي الأنعام والأناسي؛ لأن حياتها سبب لحياتهما، وتخصيص الأنعام من الحيوان الشارب؛ لأنّ عامة منافع الأناسي متعلقة بها فكأن الإنعام بسقي الأنعام كالإنعام بسقيهم.. ولما كان سقي الأناسي من جملة ما أُنزل له الماء وصفه بالطهور إكراما لهم، وبيانا أن من حقهم أن يؤثروا الطهارة في بواطنهم وظواهرهم؛ لأن الطهورية شرط للإحياء[٣].

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ۝٥٠﴾ [الفرقان:٥٠]

۞ قال ابن عباس: ما عام بأمطر من عام، ولكن الله يصرفه في الأرض[٤].

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ۝٥٣﴾ [الفرقان:٥٣]

۞ في ذلك تمثيل لما كان عليه الحال في مكة؛ إذ حفظ أهل الإيمان مع مجاورتهم للمشركين؛ فلم يدسوا كفرهم بينهم[٥].

---

(١) وجه النهار، للحربي (ص٢٦٨).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٢٧).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٥٤٢).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٣٤٢).
(٥) وجه النهار، للحربي (ص٢٦٨).

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان:٥٨]

قرأ هذه الآية بعض السلف فقال: لا ينبغي لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق، فإنه يموت[١].

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان:٦٣]

العبودية هنا للتشريف والكرامة[٢].

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان:٦٣-٦٤]

قال الحسن: هذا صفة نهارهم إذا انتشروا في الناس، وليلهم خير ليل إذا خلوا فيما بينهم وبين ربهم، يراوحون بين أطرافهم[٣].

الإغضاء عن السفهاء مستحسن شرعًا ومروءة[٤].

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠]

نفى عنهم أمهات المعاصي بعد ما أثبت لهم أصول الطاعات إظهارًا لكمال إيمانهم، وإشعارًا بأن الأجر المذكور موعود للجامع بين ذلك، وتعريضًا للكفرة بأضداده ولذلك عقبه بالوعيد تهديدًا لهم[٥].

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٨٥).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٨٦).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٣٤٥).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٥٤٨).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٣٠).

- نفي هذه الكبائر عن عباده الصالحين تعريض لما كان عليه أعداؤهم من قريش وغيرهم، كأنه قيل: والذين طهرهم الله مما أنتم عليه[١].

- ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ في ذلك دلالة على صحة توبة القاتل[٢].

﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ [الفرقان:٦٩]

- ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ إنما خص حفص الإشباع بهذه الكلمة مبالغة في الوعيد، والعرب تمد للمبالغة[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان:٧٤]

- قال القرظي: ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله[٤]. وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هو الولد إذا رآه يكتب الفقه[٥].

- ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ تنكير الـ ﴿أَعْيُنٍ﴾ لإرادة تنكير الـ ﴿قُرَّةَ﴾؛ تعظيمًا، وتقليلها؛ لأن المراد أعين المتقين، وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم[٦].

- أحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم، وأن يكون هداهم متعديا إلى غيرهم بالنفع، وذلك أكثر ثوابا، وأحسن مآبا[٧].

- فيه دليل على أن طلب المنزلة العالية في الدين، والرفعة والسبق في العلم طاعة وقربة؛ إذا رغب في الراغب جلالة للإسلام، وطلبا لثواب الآخرة، ومن دعاء إبراهيم الخليل: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء:٨٤][٨].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٥٤٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ١٢٦).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٥٥٠).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٣٤٩).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٥٥٢).
(٦) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٣١).
(٧) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ١٣٣).
(٨) وجه النهار، للحربي (ص٢٧١).

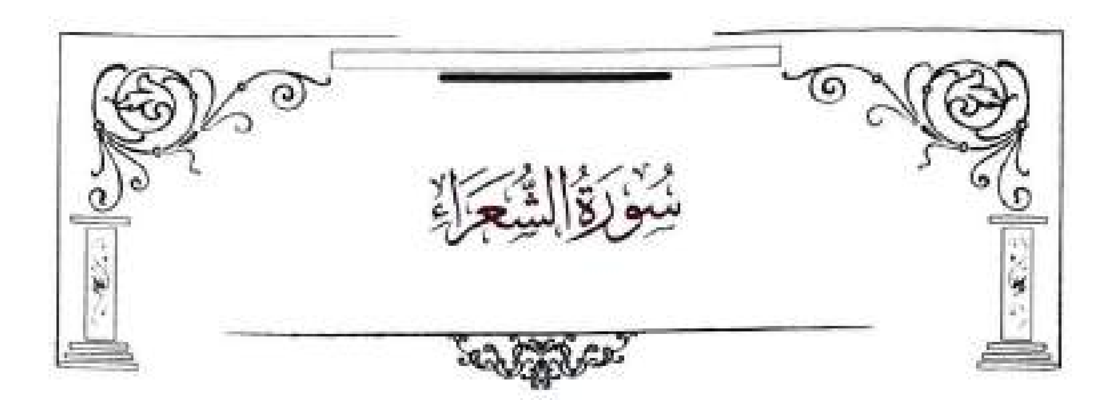
﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾ [الفرقان:٧٧]

قال مقاتل، والكلبي، والزجاج: لولا عبادتكم وتوحيدكم إياه. وفيه دليل على أن من لا يعبد الله، ولا يوحده، ولا يطيعه، لا وزن له عند الله[1].

﴿لِزَامًا﴾ يكون جزاء التكذيب لازما، إنما أضمر من غير ذكر؛ للتهويل والتنبيه على أنه لا يكتنهه الوصف[2].

❁❁❁❁❁❁❁

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٣٤٩).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٣٢).



﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ④﴾ [الشعراء:٤]

جمع ﴿خَٰضِعِينَ﴾ جمع العقلاء؛ لأنه أضاف الأعناق إلى العقلاء؛ ولأنه وصفها بفعل لا يكون إلا من العقلاء، وقيل: الأعناق الرؤساء من الناس شبهوا بالأعناق كما يقال لهم: رؤوس وصدور، وقيل: هم الجماعات من الناس، فلا يحتاج جمع خاضعين إلى تأويل[١].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ⑦﴾ [الشعراء:٧]

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ⑦﴾ فائدة الجمع بين كلمتي الكثرة والإحاطة: أن كلمة ﴿كُلِّ﴾ تدل على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل، و﴿كَمْ﴾ تدل على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة، وبه نبه على كمال قدرته[٢].

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ⑩﴾ [الشعراء:١٠]

أعاد الباري تعالى قصة موسى وثناها في القرآن ما لم يثن غيرها، لكونها مشتملة على حكم عظيمة وعبر، وفيها نبأه مع الظالمين والمؤمنين، وهو صاحب الشريعة الكبرى، وصاحب التوراة أفضل الكتب بعد القرآن[٣].

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ⑯﴾ [الشعراء:١٦]

إن قيل: لِم أفرده وهما اثنان؟ **فالجواب من ثلاثة أوجه: الأول**: أنَّ التقدير كل واحد منا رسول. **الثاني**: أنهما جعلا كشخص واحد؛ لاتفاقهما في الشريعة؛ ولأنهما

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٨٨).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٥٥٥).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٨٩).

أخوان فكأنهما واحد. الثالث: أنّ رسول هنا مصدر وصف به؛ فلذلك أطلق على الواحد والاثنين والجماعة؛ فإنه يقال: رسول بمعنى رسالة، بخلاف قوله: إنا رسولا؛ فإنه بمعنى الرسل[١].

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الشعراء:٢٦]

إنما قال: ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ﴾؛ لأن فرعون كان يدعي الربوبية على أهل عصره، دون من تقدمهم[٢].

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء:٢٨]

إن كنتم عقلاء، عارض به [﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾]، قيل: سؤال فرعون بقوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء:٢٣] عن حقيقة المرسل، وموسى عرفه بأظهر خواصه وآثاره، إشارة إلى أن بيان حقيقته ممتنع[٣].

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء:٣٥]

إنما قال فرعون: ﴿تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ مع أن الأمر من الأعلى إلى الأدنى؛ لأنه أراد استعطافهم، أو أذهله ما شاهد فحار عقله[٤].

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الشعراء:٣٧]

جاءوا بكلمة الإحاطة وصيغة المبالغة، ليسكنوا بعض قلقه[٥].

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء:٤٠]

لم يقولوا: نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى، بل الرعية على دين ملكهم[٦].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٨٩).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٥٥٩).
(٣) جامع البيان، للإيجي (٣/ ١٧٧).
(٤) وجه النهار، للحربي (ص٢٧٣).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٥٦٢).
(٦) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ١٤٠).

﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الشعراء:٤٦]

إنما بدل الخرور بالإلقاء؛ ليشاكل ما قبله، ويدل على أنهم لما رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أنفسهم، كأنهم أخذوا فطرحوا على وجوههم وأنه تعالى ألقاهم بما خولهم من التوفيق[١].

﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الشعراء:٥٧-٥٨]

﴿وَكُنُوزٍ﴾ يعني: الأموال الظاهرة من الذهب والفضة، سمي كنزا؛ لأنه لم يعط حق الله منها، وما لم يعط حق الله منه فهو كنز، وإن كان ظاهرا[٢].

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الشعراء:٧٠-٧١]

إن قيل: لِم صرحوا بقولهم: ﴿نَعْبُدُ﴾، مع أن السؤال وهو قوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ يغني عن التصريح بذلك؟ -وقياس مثل هذا الاستغناء بدلالة السؤال كقوله: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ﴾- **فالجواب**: أنهم صرحوا بذلك على وجه (الافتخار والابتهاج) بعبادة الأصنام، ثم زادوا قولهم: ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ مبالغة في ذلك[٣].

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الشعراء:٧٧]

أراد أن يقول: عدو لكم، لكن بنى الكلام على التعريض؛ لأنه أدخل في القبول، كقولك لمن يسيء الأدب: ليت والدي أدبني، يعني هل عرفتم أنكم عبدتم أعداءكم؟[٤]

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء:٨٠]

عطف على ﴿يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾؛ لأنه من روادفهما من حيث إن الصحة والمرض في الأغلب يتبعان المأكول والمشروب، وإنما لم ينسب المرض إليه تعالى؛ لأن المقصود تعديد النعم[٥].

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٣٨). مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٥٦٢).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٣٥٤). مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٥٦٥).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٩١).
(٤) جامع البيان، للإيجي (٣/ ١٨٥).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٤١).

إنما لم يقل: أمرضني؛ لأنه قصد الذكر بلسان الشكر فلم يضف إليه ما يقتضي الضير[١]. تأدبا مع الله[٢]. كما قال تعالى آمرا للمصلي أن يقول: ﴿ آهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٥-٦] فأسند الإنعام إلى الله، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والغضب حذف فاعله أدبا، وأسند الضلال إلى العبيد، كما قالت الجن: «**وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا**»[٣].

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الشعراء:٨٢]

هذا تلطف من إبراهيم في حسن الاستدعاء، وخضوع لله تعالى[٤].

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ ذكر ذلك هضمًا لنفسه، وتعليمًا للأمة أن يجتنبوا المعاصي ويكونوا على حذر، وطلب لأن يغفر لهم ما يفرط منهم، واستغفارًا لما عسى يندر منه من الصغائر. وحمل الخطيئة على كلماته الثلاث: إِنِّي سَقِيمٌ، بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا، وقوله: «هي أختي»[٥] ضعيف؛ لأنها معاريض وليست خطايا[٦].

﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء:٨٧-٨٩]

القلب السليم معناه: الذي سلم من الشرك والشك ومحبة الشر والإصرار على البدعة والذنوب، ويلزم من سلامته مما ذكر اتصافه بأضدادها من الإخلاص والعلم واليقين ومحبة الخير وتزيينه في قلبه وأن تكون إرادته ومحبته تابعة لمحبة الله، وهواه تابعا لما جاء عن الله[٧].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٥٦٨).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٩٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ١٤٦).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٣٥٥).
(٥) رواه البخاري، باب شراء المملوك من الحربي وهبته وعتقه، برقم: (٢٢١٧)، ومسلم، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ، برقم: (٢٣٧١).
(٦) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٤٢).
(٧) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٩٣).

﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الشعراء:٩٤]

الكبكبة تكرير الكب، جعل التكرير في اللفظ دليلًا على التكرير في المعنى، كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة إثر مرة، حتى يستقر في قعرها، نعوذ بالله منها[١].

﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء:١٠٠-١٠١]

جمع (الشافع) ووحد الـ ﴿صَدِيقٍ﴾؛ لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق، أو لأن الـ ﴿صَدِيقٍ﴾ الواحد يسعى أكثر مما يسعى (الشفعاء)[٢].

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء:١٠٥]

إن قيل: كيف قال: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ بالجمع، وإنما كذبوا نوحًا وحده؟ **فالجواب من وجهين: أحدهما**: أنه أراد الجنس، كقولك: فلان يركب الخيل، وإنما لم يركب إلا فرسًا واحدًا، **والآخر**: أن من كذب نبيًا واحدًا فقد كذب جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لأن قولهم واحد ودعوتهم سواء، وكذلك الجواب في: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾، وغيره[٣].

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء:١٣٠]

قال الزجاج: وإنما أنكر عليهم ذلك لأنه ظلم، فأما في الحق فالبطش بالسيف والسوط جائز[٤].

﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الشعراء:١٣٣]

قرن البنين بالأنعام؛ لأنهم يعينونهم على حفظها والقيام عليها[٥].

﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [الشعراء:١٤٧-١٤٨]

إفراد النخل لفضله على الأشجار[٦].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٥٧٠).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٤٣). مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٥٧١). التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٩٢). جامع البيان، للإيجي (٣/ ١٨٨).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٩٣).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٣٥٩).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٥٧٥).
(٦) جامع البيان، للإيجي (٣/ ١٩٣).

﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الشعراء:١٥٦]

عظم اليوم لعظم ما يحل فيه، وهو أبلغ من تعظيم العذاب[1].

﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [الشعراء:١٦٨]

هو أبلغ من أن يقول: (قالٍ)؛ فقولك: فلان من العلماء، أبلغ من قولك: فلان عالم؛ لأنك تشهد بأنه مساهم لهم في العلم[2].

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الشعراء:١٧٦-١٧٧]

لم يقل: أخوهم؛ لأحد وجهين:

١- إما لأنه ليس من قبيلتهم، وهم غير مدين.

٢- أو لأنه حين نسبهم إلى **الأيكة** التي هلكوا فيها نُزّه عن النسبة إليها[3].

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾ [الشعراء:١٩١]

كرر في هذه السورة في أول كل قصة وآخرها ما كرر، تقريرا لمعانيها في الصدور، ليكون أبلغ في الوعظ والزجر، ولأن كل قصة منها كتنزيل برأسه، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها، فكانت جديرة بأن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها، وأن تختم بما اختتمت به[4].

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ [الشعراء:١٩٢-٢٠٣]

﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ لأنه بلسانك ولغتك، فتفهمه أولا من غير أن تلاحظ الألفاظ

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٤٧).

(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٥٧٨).

(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٤٨). تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ١٥٨). جامع البيان، للإيجي (٣/ ١٩٦). وجه النهار، للحربي (ص٢٧٥).

(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٥٨١).

كيف جرت، ولو لم يكن بلغتك لكان نازلا على سمعك تسمع الألفاظ أولا، ثم تخرج المعاني منها، وإن كنت ماهرا بتلك اللغة أيضا[١].

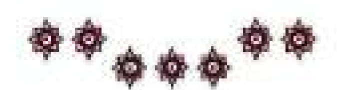
تأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم، فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل بضعة فيه وهي قلبه، على أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفصحها، وأوسعها، وهو: اللسان العربي المبين[٢].

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ [الشعراء:٢١٣]

قال ابن عباس: يحذر به غيره، يقول: أنت أكرم الخلق علي، ولو اتخذت من دوني إلها لعذبتك[٣].

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء:٢٢٤-٢٢٦]

كأنه لما كان إعجاز القرآن من جهة اللفظ والمعنى، وقد قدحوا في المعنى بأنه مما تنزلت به الشياطين، وفي اللفظ بأنه من جنس كلام الشعراء، تكلم في القسمين وبيّن منافاة القرآن لهما، ومضادة حال الرسول ﷺ لحال أربابهما[٤].



(١) جامع البيان، للإيجي (٣/ ١٩٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٥٩٧).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٣٦٤).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٥٢).



سورة النمل

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣﴾ [النمل:٢-٣]

تغيير النظم للدلالة على قوة يقينهم وثباته وأنهم الأوحدون فيه(١).

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل:٦]

أيُّ حكيم وأي عليم، والجمع بينهما مع أن العلم داخل في الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على اتقان الفعل، والإشعار بأن علوم القرآن منها ما هي حكمة كالعقائد والشرائع ومنها ما ليس كذلك كالقصص والأخبار عن المغيبات(٢).

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١﴾ [النمل:١٠-١١]

في هذا إشارة إلى أن موسى وإن ظلم نفسه بقتل القبطي وخاف من ذلك، فإن الله يغفر له؛ لأنه ندم على ذنب وتاب عنه حين قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القصص:١٦](٣).

هذا استثناء منقطع، وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على عمل سيء ثم أقلع عنه، ورجع وأناب، فإن الله يتوب عليه(٤).

﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ حية خفيفة الحركة، وقال في موضع آخر: ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه:٢٠]

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٥٤).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٥٤).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٣٧٠).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ١٨٠).

وفي موضع: ﴿ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف:١٠٧]، وهو الكبير من الحيات؛ ولا اختلاف في ذلك؛ لأنها في طولها وكبرها كالثعبان، وفي حجمها وهي مجتمعة كالحية، وفي خفة حركتها كأنها جان. ووجه أحسن من هذا ظهر لي؛ وهو أن موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حينما كان في طور التمرين رآها حية أصغر من الثعبان تهتز، فلما كان أمام فرعون كانت ثعبانا كبيرا، وفي الثعبان من العداوة والشر ما ليس في غيره، فناسب أن يكون ذلك أمام أعدى الأعداء[1].

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣﴾ [النمل:١٣]

إشعارا بأنها لفرط اجتلائها للأبصار بحيث تكاد تبصر نفسها لو كانت مما يبصر، أو ذات تبصر من حيث إنها تهدي والعمي لا تهتدي فضلًا عن أن تهدي[2].

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥﴾ [النمل:١٥]

فيه دليل على فضل العلم وشرف أهله؛ حيث شكرا على العلم وجعلاه أساس الفضل، ولم يعتبرا دونه ما أوتيا من الملك الذي لم يؤت غيرهما، وتحريض للعالم على أن يحمد الله تعالى على ما آتاه من فضله، وأن يتواضع ويعتقد أنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه كثير[3].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾ [النمل:١٨]

لما كان ذلك الصوت مفهوما لسليمان عبر عنه بالقول[4].

قال مقاتل: قد علمت النملة إنه ملك لا بغي فيه، وإنه إن علم بها قبل أن يغشاها لم يتوطأها، لذلك قالت: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، وهذا يدل على أن سليمان وجنوده كانوا ركبانا ومشاة على الأرض، ولم تحملهم الريح؛ لأن الريح لو حملتهم بين السماء

---

(١) وجه النهار، للحربي (ص٢٧٧).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٥٦).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٥٦).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٣٧٣).

والأرض ما خافت النمل أن يتواطأها بأرجلهم، ولعل هذه القصة كانت قبل تسخير الله الريح لسليمان(١).

﴿ لم يقل: ادخلن؛ لأنه لما جعلها قائلة، والنمل مقولا لهم، كما يكون في أولي العقل، أجرى خطابهن مجرى خطابهم(٢).

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾ [النمل:١٩]

﴿ تبسم لأحد أمرين: **أحدهما:** سروره بما أعطاه الله. **والآخر:** ثناء النملة عليه وعلى جنوده؛ فإن قولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:١] وصف لهم بالتقوى والتحفظ من مضرة الحيوان(٣).

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ٢٦﴾ [النمل:٢٦]

﴿ هو الذي يستحق العبادة لا غيره، وهو رب العرش العظيم، لا ملكة سبأ؛ لأن عرشها، وإن كان عظيما، لا يبلغ عرش الله في العظمة، فلما فرغ الهدهد من كلامه(٤).

﴿وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ٣١﴾ [النمل:٣٠-٣١]

﴿ هذا كلام في غاية الوجازة مع كمال الدلالة على المقصود؛ لاشتماله على البسملة الدالة على ذات الصانع تعالى وصفاته صريحًا أو التزامًا، والنهي عن الترفع الذي هو أم الرذائل، والأمر بالإسلام الجامع لأمهات الفضائل(٥).

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ٤٢﴾ [النمل:٤٢]

﴿ **قال مقاتل:** عرفته، ولكنها شبهت عليهم كما شبهوا عليها، ولو قيل لها: أهذا عرشك؟ لقالت: نعم. قال عكرمة: كانت حكمية، قالت: لئن قلت هو هو، خشيت أن

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٣٧٣).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٥٩٧).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١٠٠).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٣٧٦).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٥٩).

أكذب، وإن قلت: لا، خشيت أن أكذب، فقالت: كأنه هو[1].

﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النمل:٤٩]

إن قيل: إن قولهم يقتضي التبري من دم أهله، دون التبري من دمه، **فالجواب من ثلاثة أوجه: الأول**: أنهم أرادوا ما شهدنا مهلكه ومهلك أهله، وحذف مهلكه؛ لدلالة قولهم: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾، **والثاني**: أن أهل الإنسان قد يراد به هو وهم؛ لقوله: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة:٥٠] يعني فرعون وقومه، **الثالث**: أنهم قالوا: ﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ خاصة؛ ليكونوا صادقين؛ فإنهم شهدوا مهلكه ومهلك أهله معا، وأرادوا التعريض في كلامهم؛ لئلا يكذبوا[2].

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [النمل:٥٤]

كأنها لقبحها ليست الفاحشة إلا إياها[3].



الجزء العشرون

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل:٦٠]

﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾ عدل إلى التكلم، للتنبيه على أن الإنبات الذي هو عندكم من أنفع الأشياء مختص به لا يقدر عليه غيره[4].

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [النمل:٦٨]

قدّم هنا: ﴿هَٰذَا﴾ على ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا﴾، وفي: المؤمنون ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ [٨٣]

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٣٧٩). أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٦١). تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ١٩٤).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١٠٤).

(٣) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٢٢٣).

(٤) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٢٢٥).

على ﴿هَٰذَا﴾ ليدل على أن المقصود بالذكر هو البعث هنا، وثَم المبعوث[١].

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل:٧٩]

علل التوكل بأنه على الحق الأبلج، وهو الدين الواضح الذي لا يتعلق به شك، وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بالله وبنصرته[٢].

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [النمل:٨٠]

استدل بالآية على أن الأموات لا يسمعون في قبورهم، وفي ذلك خلاف[٣].

أكد عدم سماعهم بقوله: ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾؛ لأن الأصم إذا أدبر وبعد عن الداعي زاد صممه وعدم سماعه بالكلية[٤].

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [النمل:٨٧]

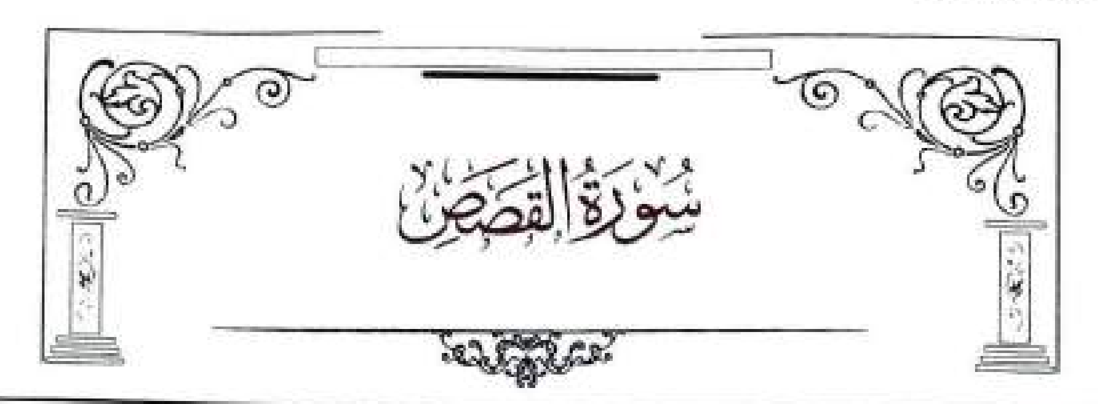
اختير: فزع على يفزع؛ للإشعار بتحقق الفزع وثبوته، وأنه كائن لا محالة[٥].

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [النمل:٩١]

خص مكة من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها؛ لأنها أحب بلاده إليه وأعظمها عنده، وأشار إليها بقوله: ﴿هَٰذِهِ﴾، إشارة تعظيم لها وتقريب، دالًا على أنها موطن نبيه ومهبط وحيه، ووصف ذاته بالتحريم الذي هو خاص وصفها[٦].



(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٦١٨).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٦٢٠).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص٢٨٢).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١٠٧).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٦٢٣).
(٦) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٦٢٥).



﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۝٨﴾ [القصص:٨]

عند التدبر والتأمل، تجد في طي ذلك من المصالح لبني إسرائيل، ودفع كثير من الأمور الفادحة بهم، ومنع كثير من التعديات قبل رسالته، بحيث إنه صار من كبار المملكة، وبالطبع إنه لا بد أن يحصل منه مدافعة عن حقوق شعبه هذا، وهو هو ذو الهمة العالية والغيرة المتوقدة، ولهذا وصلت الحال بذلك الشعب المستضعف -الذي بلغ بهم الذل والإهانة إلى ما قص الله علينا بعضه- أن صار بعض أفراده، ينازع ذلك الشعب القاهر العالي في الأرض.. وهذا مقدمة للظهور، فإن الله تعالى من سنته الجارية، أن جعل الأمور تمشي على التدريج شيئا فشيئا، ولا تأتي دفعة واحدة[1].

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾ [القصص:١٠]

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ فارغا من كل شيء إلا من أمر موسى، كأنها لم تهتم لشيء مما يهتم به الحي إلا لأمر ولدها[2].

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٤﴾ [القصص:١٤]

قال الزجّاج: جعل الله تعالى إيتاء العلم والحكمة مجازاة على الإحسان؛ لأنهما يؤديان إلى الجنة التي هي جزاء المحسنين، والعالِم الحكيم من يعمل بعلمه؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٢]،

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦١٢).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٣٩٢).

فجعلهم جهالا إذ لم يعملوا بالعلم[١].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص:١٦]

إن قيل: كيف استغفر من القتل، وكان المقتول كافرًا؟ **فالجواب**: أنه لم يُؤذن له في قتله؛ ولذلك يقول يوم القيامة: إني قتلت نفسًا لم أومر بقتلها[٢].

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص:١٧]

هذا يدل على أن الإسرائيلي الذي أعانه موسى كان كافرا[٣].

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص:٢٠]

وصفه بالرجولية؛ لأنه خالف الطريق، فسلك طريقا أقرب من طريق الذين بعثوا وراءه، فسبق إلى موسى[٤].

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص:٢٢]

يدل كلامه هذا على أنه كان عارفًا بالله قبل نبوته[٥].

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص:٢٣]

﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ حذف المفعول؛ لأن الغرض هو بيان ما يدل على عفتهما ويدعوه إلى السقي لهما ثم دونه[٦].

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القصص:٢٥]

هذا دليل كمال إيمانها وشرف عنصرها؛ لأنها كانت تدعوه إلى ضيافتها، ولم

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٦٣٣).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١١٠).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٣٩٣).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٢٢٦).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١١١).
(٦) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٧٥).

تعلم أيجيبها أم لا، فأتته مستحية قد استترت بكم درعها[١].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه دليل جواز العمل بخبر الواحد[٢].

﴿قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾، وهذا تأدب في العبارة، لم تطلبه طلبا مطلقا لئلا يوهم ريبة[٣].

﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾ [القصص:٢٦]

كلام جامع؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان: الكفاية والأمانة في القائم بأمرك، فقد فرغ بالك وتم مرادك[٤]. روي أن أباها قال لها: من أين عرفت قوته وأمانته؟ قالت: أما قوته: ففي رفعه الحجر عن فم البئر، وأما أمانته: فإنه لم ينظر إليّ[٥].

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **أفرس الناس ثلاثة:** أبو بكر حين تفرس في عمر، وصاحب يوسف حين قال: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ [يوسف:٢١]، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾[٦].

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [القصص:٢٧]

من لفظ شعيب حَسُنَ أن يقال في عقود الأنكحة: (أنكحه إياها) أكثر من أن يقال: أنكحها إياه[٧].

هذا الرجل، أبو المرأتين، صاحب مدين، ليس بشعيب النبي المعروف،

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٦٣٧).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٦٣٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٢٢٨).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٦٣٨).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١١٢).
(٦) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٢٢٩).
(٧) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١١٢).

كما اشتهر عند كثير من الناس، فإن هذا قول لم يدل عليه دليل، وغاية ما يكون أن شعيبا عَلَيْهِ السَّلَامُ قد كانت بلده مدين، وهذه القضية جرت في مدين، فأين الملازمة بين الأمرين؟ وأيضا فإنه غير معلوم أن موسى أدرك زمان شعيب، فكيف بشخصه؟ ولو كان ذلك الرجل شعيبا، لذكره الله تعالى، ولسمته المرأتان، وأيضا فإن شعيبا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه، ولم يبق إلا من آمن به، وقد أعاذ الله المؤمنين أن يرضوا لبنتي نبيهم بمنعهما عن الماء، وصد ماشيتهما، حتى يأتيهما رجل غريب، فيحسن إليهما، ويسقي ماشيتهما، وما كان شعيب ليرضى أن يرعى موسى عنده ويكون خادما له، وهو أفضل منه وأعلى درجة، والله أعلم، إلا أن يقال: هذا قبل نبوة موسى، فلا منافاة وعلى كل حال لا يعتمد على أنه شعيب النبي بغير نقل صحيح عن النبي ﷺ[1].

ذكر بعض الفوائد والعبر في هذه القصة العجيبة: فمنها: أن آيات الله تعالى وعبره، وأيامه في الأمم السابقة، إنما يستفيد بها ويستنير المؤمنون، فعلى حسب إيمان العبد تكون عبرته، وإن الله تعالى إنما يسوق القصص لأجلهم، وأما غيرهم فلا يعبأ الله بهم، وليس لهم منها نور وهدى[2].

ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أمرا هيأ أسبابه، وأتى بها شيئا فشيئا بالتدريج، لا دفعة واحدة.

ومنها: أن الأمة المستضعفة، ولو بلغت في الضعف ما بلغت، لا ينبغي لها أن يستولي عليها الكسل عن طلب حقها، ولا الإياس من ارتقائها إلى أعلى الأمور، خصوصا إذا كانوا مظلومين، كما استنقذ الله أمة بني إسرائيل، الأمة الضعيفة، من أسر فرعون وملئه، ومكنهم في الأرض، وملكهم بلادهم.

ومنها: أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة لا تأخذ حقها ولا تتكلم به، لا يقوم لها أمر دينها ولا دنياها ولا يكون لها إمامة فيه.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦١٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦١٨).

ومنها: لطف الله بأم موسى، وتهوينه عليها المصيبة بالبشارة، بأن الله سيرد إليها ابنها، ويجعله من المرسلين.

ومنها: أن الله يقدر على عبده بعض المشاق، لينيله سرورا أعظم من ذلك، أو يدفع عنه شرا أكثر منه، كما قدر على أم موسى ذلك الحزن الشديد، والهم البليغ، الذي هو وسيلة إلى أن يصل إليها ابنها على وجه تطمئن به نفسها، وتقر به عينها، وتزداد به غبطة وسرورا.

ومنها: أن الخوف الطبيعي من الخلق لا ينافي الإيمان ولا يزيله، كما جرى لأم موسى ولموسى من تلك المخاوف.

ومنها: أن الإيمان يزيد وينقص، وأن من أعظم ما يزيد به الإيمان، ويتم به اليقين، الصبر عند المزعجات، والتثبيت من الله عند المقلقات، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليزداد إيمانها بذلك ويطمئن قلبها.

ومنها: أن من أعظم نعم الله على عبده، وأعظم معونة للعبد على أموره، تثبيت الله إياه، وربط جأشه وقلبه عند المخاوف، وعند الأمور المذهلة، فإنه بذلك يتمكن من القول الصواب، والفعل الصواب، بخلاف من استمر قلقه وروعه وانزعاجه، فإنه يضيع فكره، ويذهل عقله، فلا ينتفع بنفسه في تلك الحال.

ومنها: أن العبد -ولو عرف أن القضاء والقدر ووعد الله نافذ لا بد منه- فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي أمر بها، ولا يكون ذلك منافيا لإيمانه بخبر الله، فإن الله قد وعد أم موسى أن يرده عليها، ومع ذلك اجتهدت على رده، وأرسلت أخته لتقصه وتطلبه.

ومنها: جواز خروج المرأة في حوائجها، وتكليمها للرجال من غير محذور، كما جرى لأخت موسى وابنتي صاحب مدين.

ومنها: جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع، والدلالة على من يفعل ذلك.

ومنها: أن الله من رحمته بعبده الضعيف الذي يريد إكرامه أن يريه من آياته ويشهده من بيناته ما يزيد به إيمانه، كما رد الله موسى على أمه، لتعلم أن وعد الله حق.

ومنها: أن قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عرف؛ لا يجوز، فإن موسى عليه السلام عدَّ قتله القبطي الكافر ذنبا، واستغفر الله منه.

ومنها: أن الذي يقتل النفوس بغير حق يعد من الجبارين الذين يفسدون في الأرض.

ومنها: أن من قتل النفوس بغير حق، وزعم أنه يريد الإصلاح في الأرض، وتهييب أهل المعاصي، فإنه كاذب في ذلك، وهو مفسد، كما حكى الله قول القبطي: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ على وجه التقرير له، لا الإنكار.

ومنها: أن إخبار الرجل غيره بما قيل فيه على وجه التحذير له من شر يقع فيه، لا يكون ذلك نميمة -بل قد يكون واجبا- كما أخبر ذلك الرجل لموسى، ناصحا له ومحذرا.

ومنها: أنه إذا خاف القتل والتلف في الإقامة، فإنه لا يلقي بيده إلى التهلكة، ولا يستسلم لذلك، بل يذهب عنه، كما فعل موسى.

ومنها: أنه عند تزاحم المفسدتين، إذا كان لا بد من ارتكاب إحداهما أنه يرتكب الأخف منهما والأسلم، كما أن موسى لما دار الأمر بين بقائه في مصر ولكنه يقتل، أو يذهب إلى بعض البلدان البعيدة التي لا يعرف الطريق إليها وليس معه دليل يدله غير ربه، ولكن هذه الحالة أقرب للسلامة من الأولى، فتبعها موسى.

ومنها: أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى التكلم فيه، إذا لم يترجح عنده أحد القولين، فإنه يستهدي ربه، ويسأله أن يهديه الصواب من القولين، بعد أن يقصد بقلبه الحق ويبحث عنه، فإن الله لا يخيب مَنْ هذه حاله؛ كما خرج موسى تلقاء مدين فقال: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

ومنها: أن الرحمة بالخلق، والإحسان على من يعرف ومن لا يعرف، من أخلاق: الأنبياء، وأن من الإحسان سقي الماشية الماء، وإعانة العاجز.

ومنها استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها، ولو كان الله عالما لها؛ لأنه

تعالى يحب تضرع عبده وإظهار ذله ومسكنته، كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾.

ومنها أن الحياء -خصوصا من الكرام- من الأخلاق الممدوحة.

ومنها: المكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم السابقين.

ومنها: أن العبد إذا فعل العمل لله تعالى، ثم حصل له مكافأة عليه من غير قصد بالقصد الأول، أنه لا يلام على ذلك، كما قبل موسى مجازاة صاحب مدين عن معروفه الذي لم يبتغ له، ولم يستشرف بقلبه على عوض.

ومنها: مشروعية الإجارة، وأنها تجوز على رعاية الغنم ونحوها، مما لا يقدر العمل، وإنما مرده العرف.

ومنها: أنه تجوز الإجارة بالمنفعة، ولو كانت المنفعة بضعا.

ومنها: أن خطبة الرجل لابنته الرجل الذي يتخيره، لا يلام عليه.

ومنها: أن خير أجير وعامل يعمل للإنسان، أن يكون قويا أمينا.

ومنها: أن من مكارم الأخلاق، أن يُحَسِّن خلقه لأجيره وخادمه، ولا يشق عليه بالعمل؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

ومنها: جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود من دون إشهاد لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾.

ومنها: ما أجرى الله على يد موسى من الآيات البينات، والمعجزات الظاهرة، من الحية، وانقلاب يده بيضاء من غير سوء، ومن عصمة الله لموسى وهارون من فرعون، ومن الغرق.

ومنها: أن من أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إماما في الشر، وذلك بحسب معارضته لآيات الله وبيناته، كما أن من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده أن يجعله إماما في الخير، هاديا مهديا.

ومنها: ما فيها من الدلالة على رسالة محمد ﷺ، حيث أخبر بذلك تفصيلا

مطابقا، وتأصيلا موافقا، قصه قصا، صدق به المرسلين، وأيد به الحق المبين، من غير حضور شيء من تلك الوقائع، ولا مشاهدة لموضع واحد من تلك المواضع، ولا تلاوة درس فيها شيئا من هذه الأمور، ولا مجالسة أحد من أهل العلم، إن هو إلا رسالة الرحمن الرحيم، ووحي أنزله عليه الكريم المنان، لينذر به قوما جاهلين، وعن النذر والرسل غافلين[١].

﴿ اَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص: ٣٢]

أمره الله لما خاف من الحية أن يضمه إلى جنبه؛ ليخفّ بذلك خوفه؛ فإن من شأن الإنسان إذا فعل ذلك في وقت فزعه أن يخف خوفه، وقيل: ذلك على وجه المجاز[٢].

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القصص: ٤٠]

فيه فخامة وتعظيم لشأن الآخذ، واستحقار للمأخوذين، كأنه أخذهم مع كثرتهم في كف وطرحهم في اليم[٣].

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [القصص: ٤١]

قال ابن عطاء: نزع عن أسرارهم التوفيق وأنوار التحقيق فهم في ظلمات نفوسهم لا يدلون على سبيل الرشاد، وفيه دلالة خلق أفعال العباد.[٤]

﴿ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [القصص: ٦١]

﴿ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ من الألفاظ التي جاءت في القرآن خاصة بالعذاب الإلهي[٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦١٨).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١١٣).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٧٨).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٦٤٥).
(٥) وجه النهار، للحربي (ص٢٨٨).

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٦٢﴾ [القصص:٦٢]

إنما كرر ذكر النداء للمشركين بأين شركائي، تقريعا لهم بعد تقريع[1]. ليؤذن أن لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به، كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده[2].

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ۝٦٦﴾ [القصص:٦٦]

سميت حججهم: أنباء؛ لأنها أخبار يخبرونها وهم لا ينطقون بحجة؛ لأن الله أدحض حجتهم، وكلل ألسنتهم[3].

صارت الأنباء كالعمي عليهم لا تهتدي إليهم، وأصله: فعموا عن الأنباء، لكنه عكس مبالغة، ودلالة على أن ما يحضر الذهن إنما يقبض ويرد عليه من خارج فإذا أخطأه لم يكن له حيلة إلى استحضاره[4].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢﴾ [القصص:٧١-٧٢]

لعله لم يصف الضياء بما يقابله؛ لأن الضوء نعمة في ذاته مقصود بنفسه ولا كذلك الليل، ولأن منافع الضوء أكثر مما يقابله، ولذلك قرن به: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ وبالليل: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؛ لأن استفادة العقل من السمع أكثر من استفادته من البصر[5].

إن قيل: كيف قال: ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾، وهلا قال: يأتيكم (بنهار) في مقابلة قوله: ﴿يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ﴾؟ **فالجواب**: أنه ذكر (الضياء)؛ لجملة ما فيه من المنافع والعبر[6]. والظلام ليس بتلك المنزلة، ومن ثم قرن بالضياء: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾؛ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده، وقرن بالليل: ﴿أفلا

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٤٠٧).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٦٥٦).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٤٠٥).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٨٣).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٨٧).
(٦) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١١٨).

﴿تُبۡصِرُونَ﴾؛ لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره من السكون ونحوه[١].

- وصف الليل دون النهار؛ لأن النهار مستغنٍ عن الوصف[٢].

- ختم الأولى بقوله: ﴿أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾، والثانية بـ: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾؛ لمناسبة قوة السامعة بالليل، وقوة الباصرة بالنهار[٣].

> ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص:٧٨]

- حيثما ورد في القرآن (إثبات) السؤال في الآخرة؛ فهو على معنى المحاسبة والتوبيخ، وحيثما ورد (نفيه)؛ فهو على وجه الاستخبار والتعريف[٤].

> ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص:٨٣]

- في ﴿تِلۡكَ﴾ الإشارة: تعظيم للآخرة، أي: التي سمعت بذكرها، وبلغك وصفها[٥].

> ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [القصص:٨٤]

- ﴿فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وضع فيه الظاهر موضع الضمير تهجينا لحالهم بتكرير إسناد السيئة إليهم[٦]. لزيادة تبغيض السيئة إلى قلوب السامعين[٧].

❁❁❁❁❁❁❁

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٦٥٥).
(٢) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٢٦١).
(٣) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٢٦١).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١٢٠).
(٥) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٢٦٧).
(٦) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٨٤).
(٧) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٢٦٧).



﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت:٣]

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.. ولهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ [البقرة:١٤٣]: إلا لنرى؛ وذلك أن الرؤية إنما تتعلق بالموجود، والعلم أعم من الرؤية، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود.[1]

﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ هذا أبلغ في الحصر، كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥][2].

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [العنكبوت:٨]

﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ إشعارًا بأن ما لا يعلم صحته لا يجوز اتباعه وإن لم يعلم بطلانه، فضلًا عما علم بطلانه[3].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ۝١٤﴾ [العنكبوت:١٤]

﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ لعل اختيار هذه العبارة للدلالة على كمال العدد؛ فإن تسعمائة وخمسين قد يطلق على ما يقرب منه، ولما في ذكر الألف من تخييل طول المدة إلى السامع؛ فإن المقصود من القصة تسلية رسول الله ﷺ وتثبيته على ما يكابده من الكفرة[4].

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٢٦٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٢٦٩).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٨٩).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٩٠).

﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ إن قيل: لِم قال: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾، ثم قال: ﴿إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾؟ فاختلف اللفظ مع اتفاق المعنى؟ فالجواب: أن ذلك كراهة لتكرار لفظ السنة؛ فإن التكرار مكروه، إلا إذا قصد به تفخيم أو تهويل[1].

الفرق بين السنة والعام: أن العام يطلق على الرخاء في الغالب، والسنة تستعمل في البؤس والجوع، وقد كانت مدة لبثه فيهم مدة شقاء وضلال واستكبار، فلهذا قال: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وقال في الخمسين: ﴿إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[2].

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت:١٧]

إن قيل: لِم نكّر ﴿الرِّزْقَ﴾ أولًا، ثم عرّفه في قوله: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾؟ **فالجواب**: أنه نكره في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾؛ لقصد العموم في النفي؛ فإن النكرة في سياق النفي تقتضي العموم، ثم عرّفه بعد ذلك؛ لقصد العموم في طلب الرزق كله من الله؛ لأنه لا يقتضي العموم في سياق الإثبات إلا مع التعريف، فكأنه قال: ابتغوا الرزق كله عند الله[3].

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [العنكبوت:٢٤]

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ في هذا تسفيه لهم حين أجابوا من احتج عليهم بأن يقتل أو يحرق[4].

﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت:٣٩]

تقديم قارُونَ؛ لشرف نسبه[5].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١٢٣).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص٢٩١).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١٢٤).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٤١٧).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٩٥).

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت:٤٣]

﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي: أهل العلم الحقيقي، الذين وصل العلم إلى قلوبهم، وهذا مدح للأمثال التي يضربها، وحثٌّ على تدبرها وتعقلها، ومدح لمن يعقلها، وأنه عنوان على أنه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالمين، والسبب في ذلك، أن الأمثال التي يضربها الله في القرآن، إنما هي للأمور الكبار، والمطالب العالية، والمسائل الجليلة، فأهل العلم يعرفون أنها أهم من غيرها، لاعتناء الله بها، وحثه عباده على تعقلها وتدبرها، فيبذلون جهدهم في معرفتها، وأما من لم يعقلها، مع أهميتها، فإن ذلك دليل على أنه ليس من أهل العلم؛ لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة، فعدم معرفته غيرها من باب أولى وأحرى، ولهذا أكثر ما يضرب الله الأمثال في أصول الدين ونحوها[1].

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت:٤٥]

إنما قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ﴾؛ ليستقل بالتعليل، كأنه قال: والصلاة أكبر، لأنها ذكر الله[2].

وجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أن العبد المقيم لها، المتمم لأركانها وشروطها وخشوعها، يستنير قلبه، ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تعدم رغبته في الشر، فبالضرورة، مداومتها والمحافظة عليها على هذا الوجه، تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهذا من أعظم مقاصدها وثمراتها[3].

وثَمَّ في الصلاة مقصود أعظم من هذا وأكبر، وهو ما اشتملت عليه من ذكر الله، بالقلب واللسان والبدن، فإن الله تعالى، إنما خلق الخلق لعبادته، وأفضل عبادة تقع

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٣١).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٦٧٩).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٣٢).

منهم الصلاة، وفيها من عبوديات الجوارح كلها، ما ليس في غيرها، ولهذا قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[١].

الجزء الحادي والعشرون

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت:٤٨]

ذكر اليمين زيادة تصوير لما نفى عنه من كونه كاتبا[٢].

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت:٤٩]

هما من خصائص القرآن، كون آياته بينات الإعجاز، وكونه محفوظًا في الصدور، بخلاف سائر الكتب؛ فإنها لم تكن معجزات، ولا كانت تقرأ إلا من المصاحف[٣].

فيه فضل حفظ القرآن، وأن ذلك دليل العلم[٤].

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤]

لم يقل: لهي الحياة؛ لما في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب، والحياة حركة والموت سكون، فمجيئه على بناءٍ دال على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة[٥].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [العنكبوت:٦٨]

في ﴿لَمَّا﴾ تسفيه لهم بأن لم يتوافقوا ولم يتأملوا قط حين جاءهم بل سارعوا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٣٢).
(٢) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٢٨٤).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٦٨١).
(٤) وجه النهار، للحربي (ص٢٩٣).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٦٨٦).

إلى التكذيب أول ما سمعوه[1].

﴿ وَالَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٩]

أطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول، ليتناول كل ما تجب مجاهدته من النفس والشيطان وأعداء الدين[2].

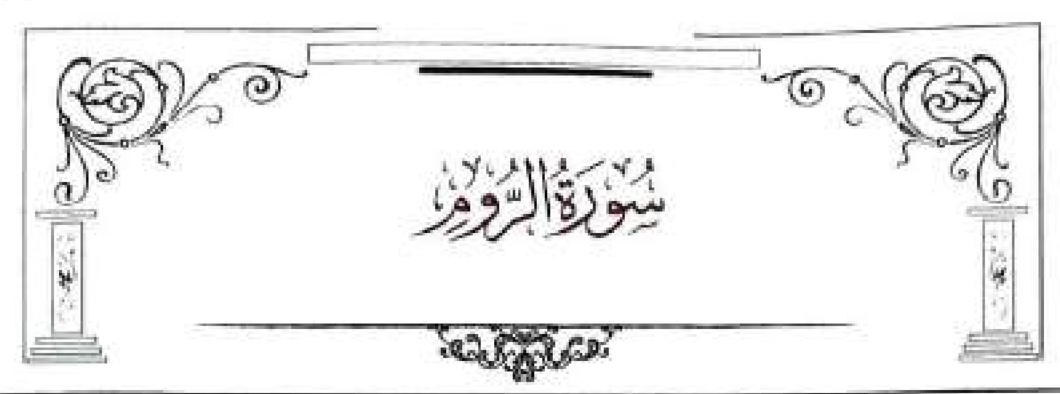
دل هذا، على أن أحرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد، وعلى أن من أحسن فيما أمر به أعانه الله ويسر له أسباب الهداية، وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي، فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية، خارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسر له أمر العلم، فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحد نَوْعَي الجهاد، الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان، للكفار والمنافقين، والجهاد على تعليم أمور الدين، وعلى رد نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين[3].



(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٠٠).

(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٦٨٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٣٥).



سورة الروم

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم:٢-٥]

قال الزجاج: وهذه من الآيات التي تدل على أن القرآن من عند الله؛ لأنه أنبأ بما سيكون، وهذا لا يعلمه إلا الله عَزَّوَجَلَّ[١].

﴿وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ۝٧﴾ [الروم:٦-٧]

﴿يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ بدل من ﴿لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾، وفيه: بيان أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز عن تحصيل الدنيا[٢].

يفيد أن للدنيا ظاهرا وباطنا، فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها، وباطنها أنها مجاز إلى الآخرة، يتزود منها إليها بالطاعة وبالأعمال الصالحة، وتنكير الظاهر يفيد أنهم لا يعلمون إلا ظاهرًا واحدًا من جملة ظواهرها[٣].

﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ۝٧﴾ فيه بيان أنهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرها[٤].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ۝١٢﴾ [الروم:١٢]

قال قتادة: هي والله الفرقة التي لا اجتماع بعدها[٥].

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٤٢٨).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٦٩١).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٦٩١).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٦٩١).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٠٧).

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم:١٦]

﴿فِى رَوْضَةٍ﴾ هي الجنة، والتنكير لإبهام أمرها وتفخيمه[١].

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم:١٧-١٨]

قال ابن عباس: جمعت هذه الآية الصلوات الخمس ومواقيتها، حين تمسون المغرب والعشاء، وحين تصبحون الفجر، وعشيا العصر، وحين تظهرون الظهر[٢].

تخصيص التسبيح بالمساء والصباح؛ لأن آثار القدرة والعظمة فيهما أظهر، وتخصيص الحمد بالعشي -الذي هو آخر النهار من عشى العين إذا نقص نورها- والظهيرة التي هي وسطه؛ لأن تجدد النعم فيهما أكثر[٣].

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الروم:١٩]

منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار فلف، وضم بين الزمانين والفعلين بعاطفين؛ إشعارًا بأن كلًا من الزمانين وإن اختص بأحدهما فهو صالح للآخر عند الحاجة[٤].

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الروم:٢٨]

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فهم هذه الآية خير من حفظ ديوان كامل في الفقه[٥].

﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم:٣١-٣٢]

في هذا تحذير للمسلمين من تشتتهم وتفرقهم فرقا كل فريق يتعصب لما معه

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٦٩٣).

(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٤٣٠).

(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٠٣).

(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٠٥).

(٥) وجه النهار، للحربي (ص٢٩٥).

من حق وباطل، فيكونون مشابهين بذلك للمشركين في التفرق بل الدين واحد والرسول واحد والإله واحد[١].

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الروم: ٣٤]

- قال بعضهم: والله لو توعدني حارس درب لخفت منه، فكيف والمتوعد ههنا هو الذي يقول للشيء: كن، فيكون[٢].

﴿ وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الروم: ٣٩]

- ﴿وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ الالتفات فيه للتعظيم، كأنه خاطب به الملائكة وخواص الخلق تعريفًا لحالهم[٣].

- هذه الآية في العمل الذي لا يؤجر عليه صاحبه؛ كالهدية بقصد المنفعة، والعطية التي لم تصحبها نية التعبد[٤].

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم: ٤١]

- قال أبو العالية: من عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة.. ولهذا إذا نزل عيسى ابن مريم عليه السلام، في آخر الزمان فحكم بهذه الشريعة المطهرة.. فإذا أهلك الله في زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج، قيل للأرض: أخرجي بركاتك، فيأكل من الرمانة الفئام من الناس، ويستظلون بقحفها، ويكفي لبن اللقحة الجماعة من الناس[٥]، وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة رسول الله ﷺ، فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير[٦].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٤٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣١٧).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٠٨).
(٤) وجه النهار، للحربي (ص٢٩٥).
(٥) رواه مسلم، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، برقم: (٢٩٣٧).
(٦) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٢٠).

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الروم:٤٥]

تكرير ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وترك الضمير إلى الصريح، لتقرير أنه لا يفلح عنده إلا المؤمن[1].

الاقتصار على جزاء المؤمن للإشعار بأنه المقصود بالذات، أو الاكتفاء على فحوى قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾، فإن فيه إثبات البغض لهم والمحبة للمؤمنين[2].

﴿مِن فَضْلِهِ﴾ دال على أن الإثابة تفضل محض[3].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم:٤٧]

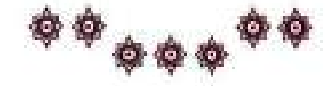
إشعار بأن الانتقام لهم، وإظهار لكرامتهم، حيث جعلهم مستحقين على الله أن ينصرهم[4].

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الروم:٥٢]

فإن قلت: الأصم لا يسمع مقبلًا أو مدبرًا، فما فائدة هذا التخصيص؟ قلت: هو إذا كان مقبلًا يفهم بالرمز والإشارة، فإذا ولى لا يسمع ولا يفهم بالإشارة[5].

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الروم:٥٩]

الأصل: على قلوبهم، وضع المظهر موضع المضمر؛ لبيان جهلهم[6].



(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٧٠٤).
(٢) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٣٠٣).
(٣) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٣٠٣).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٠٩).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٧٠٦).
(٦) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٣٠٨).



سورة لقمان

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان:١٢]

نبه الله تعالى على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي هو العمل بهما، وعبادة الله والشكر له؛ حيث فسر إيتاء الحكمة بالحث على الشكر، وقيل: لا يكون الرجل حكيمًا حتى يكون حكيما في قوله وفعله ومعاشرته وصحبته[1].

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان:١٤]

من هاهنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأنه قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الحجرات:١٥][2].

﴿يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان:١٧]

هذا دليل على أن هذه الطاعات كانت مأمورًا بها في سائر الأمم[3].

علِم أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، لا بد أن يناله من الناس أذى، فأمره بالصبر[4].

﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان:١٩]

﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ لأن أوله زفير وآخره شهيق كصوت أهل النار،

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٧١٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٣٦).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٢/ ٧١٦).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٣٨).

وعن الثوري: صياح كل شيء تسبيح إلا الحمار، فإنه يصبح لرؤية الشيطان، ولذلك سماه الله منكرًا. وفي تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالنهاق، تنبيه على أن رفع الصوت في غاية الكراهة(١).

﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ لا تبالغ في الكلام، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ هذا التشبيه في هذا بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم(٢).

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان:٢٧]

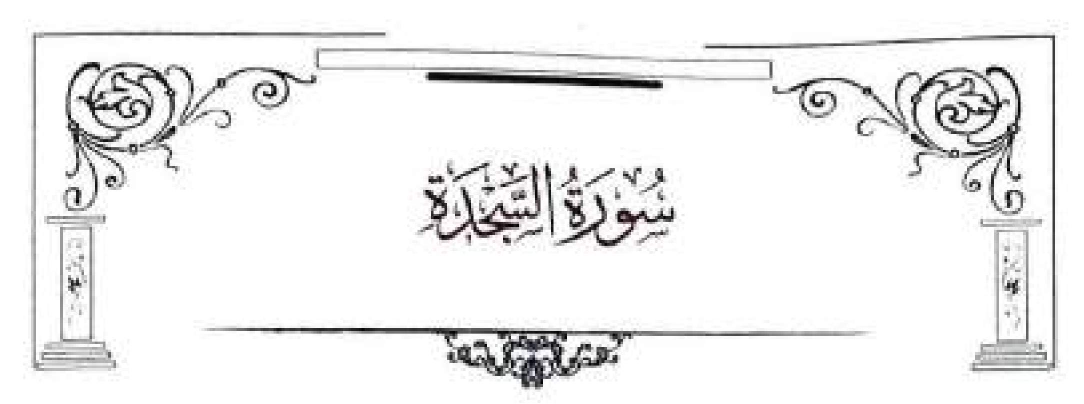
﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ إيثار جمع القلة؛ للإشعار بأن ذلك لا يفي بالقليل فكيف بالكثير(٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان:٣٣]

تغيير النظم للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزي، وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر في الآخرة(٤).



(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٤٤٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٣٩).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢١٦).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢١٨).



سورة السجدة

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ﴾ [السجدة:٧]

قال صاحب النظم: بيان ذلك أنه لما طول رجل البهيمة، والطائر طول عنقه، لئلا يتعذر عليه ما لا بد له من قوته، ولو تفاوت ذلك لم يكن له معاش، وكذلك كل شيء من أعضاء الحيوان مقدر لما يصلح به معاشه[١].

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ ﴾ [السجدة:٩]

أضافه إلى نفسه تشريفًا له وإشعارًا بأنه خلق عجيب، وأن له شأنًا له مناسبة ما إلى الحضرة الربوبية؛ ولأجله قيل: من عرف نفسه فقد عرف ربه[٢].

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١٣ ﴾ [السجدة:١٣]

في تخصيص الإنس والجن، إشارة إلى أنه عصم ملائكته عن عمل يستوجبون به جهنم[٣].

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧ ﴾ [السجدة:١٧]

قال ابن عباس في هذه الآية: هذا مما لا تفسير له، والأمر أعظم وأجل مما يعرف تفسيره[٤].

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٤٥٠).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٢٠).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٨).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٤٥٣).

۞ عن الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أخفى القوم أعمالا في الدنيا، فأخفى الله لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وفيه دليل على أن المراد الصلاة في جوف الليل، ليكون الجزاء وفاقا[1].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة: ٢٢]

۞ ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ ولم يقل: منه؛ لأنه إذا جعله أظلم كل ظالم ثم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم، فقد دل على إصابة الأظلم النصيب الأوفر من الانتقام، ولو قال بالضمير لم يفد هذه الفائدة[2].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ۖ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾﴾ [السجدة: ٢٣]

۞ وكأن هذه الآية وعد وتسلية لنبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وإرشاد لأصحابه وأمته[3].

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]

۞ فيه دليل على أن الصبر ثمرته إمامة الناس[4].

❁❁❁❁❁❁❁

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ١٠). تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٦٥).

(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ١١).

(٣) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٣٣٣).

(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ١١).



سورة الأحزاب

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾ [الأحزاب:١]

نااداه بالنبي وأمره بالتقوى؛ تعظيمًا له، وتفخيمًا لشأن التقوى[١].

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝٦﴾ [الأحزاب:٦]

يخبر تعالى المؤمنين خبرًا يعرفون به حالة الرسول ﷺ ومرتبته، فيعاملونه بمقتضى تلك الحالة فقال: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أقرب ما للإنسان، وأولى ما له نفسه، فالرسول أولى به من نفسه، لأنه عليه الصلاة والسلام، بذل لهم من النصح، والشفقة، والرأفة، ما كان به أرحم الخلق، وأرأفهم، فرسول الله أعظم الخلق مِنَّةً عليهم من كل أحد؛ فإنه لم يصل إليهم مثقال ذرة من الخير، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر، إلا على يديه وبسببه، فلذلك وجب عليهم إذا تعارض مراد النفس، أو مراد أحد من الناس، مع مراد الرسول، أن يقدم مراد الرسول، وأن لا يعارض قول الرسول، بقول أحد، كائنًا من كان، وأن يفدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، ويقدموا محبته على الخلق كلهم، وألا يقولوا حتى يقول، ولا يتقدموا بين يديه[٢].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ [الأحزاب:٧]

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ﴾ خصوصًا، وقدم رسول الله على نوح

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٢٤).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٥٩).

ومن بعده؛ لأن هذا العطف لبيان فضيلة هؤلاء؛ لأنهم أولو العزم وأصحاب الشرائع، فلما كان محمد ﷺ أفضل هؤلاء قدم عليهم، ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه[١].

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب:١٢]

وهذه عادة المنافق عند الشدة والمحنة، لا يثبت إيمانه، وينظر بعقله القاصر إلى الحالة القاصرة ويصدق ظنه[٢].

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب:٢١]

استدل الأصوليون في هذه الآية، على الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ، وأن الأصل أن أمته أسوته في الأحكام، إلا ما دل الدليل الشرعي على الاختصاص به[٣].

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب:٢٥]

سلط عليهم هواء فرق شملهم، كما كان سبب اجتماعهم من الهوى، وهم أخلاط من قبائل شتى، أحزاب وآراء، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذي فرق جماعتهم[٤].

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش، وهكذا وقع بعدها، لم يغزهم المشركون، بل غزاهم المسلمون في بلادهم[٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الأحزاب:٢٨]

تقديم التمتع على التسريح المسبب عنه، من الكرم وحسن الخلق[٦].

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٢٥)، مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ١٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٦٠).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٦٠).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٩٥).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٩٦).
(٦) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٣٠).

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠﴾ [الأحزاب:٣٠]

إنما ضوعف عذابهن على الفاحشة؛ لأنهن يشاهدن من الزاجر ما يردع عن مواقعة الذنوب ما لا يشاهد غيرهن، فإذا لم يمتنعن استحققن تضعيف العذاب[١].



الجزء الثاني والعشرون

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾ [الأحزاب:٣٢]

لما نهاهن عن الخضوع في القول، فربما توهم أنهن مأمورات بإغلاظ القول، دفع هذا بقوله: ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾ أي: غير غليظ، ولا جاف كما أنه ليس بِلَيِّنٍ خاضع[٢].

وتأمل كيف قال: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾، ولم يقل: ﴿فلا تَلِنَّ بالقول﴾؛ وذلك لأن المنهي عنه القول اللين الذي فيه خضوع المرأة للرجل، وانكسارها عنده، والخاضع هو الذي يطمع فيه، بخلاف من تكلم كلامًا لينًا، ليس فيه خضوع، بل ربما صار فيه ترفع وقهر للخصم، فإن هذا لا يطمع فيه خصمه، ولهذا مدح الله رسوله باللين، فقال: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقال لموسى وهارون: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [طه:٤٣-٤٤][٣].

ودل قوله: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ مع أمره بحفظ الفرج وثنائه على الحافظين لفروجهم والحافظات، ونهيه عن قربان الزنا، أنه ينبغي للعبد إذا رأى من

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٤٦٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٦٣).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٦٣).

نفسه هذه الحالة، وأنه يهش لفعل المحرم عندما يرى أو يسمع كلام من يهواه، ويجد دواعي طمعه قد انصرفت إلى الحرام، فَلْيَعْرِفْ أن ذلك مرض، فَلْيَجْتَهِدْ في إضعاف هذا المرض وحسم الخواطر الردية، ومجاهدة نفسه على سلامتها من هذا المرض الخطر، وسؤال الله العصمة والتوفيق، وأن ذلك من حفظ الفرج المأمور به[1].

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب:٣٣]

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ عن عكرمة قال: ليس الذي تذهبون إليه، إنما هو في أزواج النبي ﷺ خاصة، وكان عكرمة ينادي بهذا في السوق، وإنما ذكر الخطاب في قوله: ﴿عَنكُمُ﴾، ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾؛ لأن رسول الله ﷺ كان فيهم، فقلب للمذكر[2].

هذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ههنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولا واحدا، إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح[3].

خص الصلاة والزكاة بالأمر، ثم عم بجميع الطاعات تفضيلا لهما؛ لأن من واظب عليهما جرتاه إلى ما وراءهما[4].

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب:٣٤]

قال قتادة: يعني القرآن والسنة، وهذا حث لهن على حفظ القرآن والأخبار، ومذاكرتهن بهما للإحاطة بحدود الشريعة، والخطاب وإن اختص بهن فغيرهن داخل فيه؛ لأن مبنى الشريعة على هذين القرآن والسنة، وبهما يوقف على حدود الله

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٦٣).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٤٧٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٤١٠).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٣٠).

ومفترضاته[١].

من معاني ﴿اللَّطِيفُ﴾ [الأحزاب:١] الذي يسوق عبده إلى الخير، ويعصمه من الشر، بطرق خفية لا يشعر بها، ويسوق إليه من الرزق، ما لا يدريه، ويريه من الأسباب التي تكرهها النفوس ما يكون ذلك طريقا له إلى أعلى الدرجات، وأرفع المنازل[٢].

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب:٣٧]

﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ هذا يدل على أن كل امرأة أراد رسول الله ﷺ نكاحها فهو مستغن عن الولي والشهود، وكانت زينب تفاخر نساء النبي ﷺ وتقول: زوجكن أهلوكن وزوجني الله عَزَّوَجَلَّ[٣][٤].

دليل على أن حكمه ﷺ وحكم الأُمّة واحد، إلا ما خصه الدليل[٥].

في هذه الآيات المشتملات على هذه القصة فوائد،

منها: الثناء على زيد بن حارثة، **وذلك من وجهين: أحدهما:** أن الله سماه في القرآن، ولم يسم من الصحابة باسمه غيره. **والثاني:** أن الله أخبر أنه أنعم عليه، أي: بنعمة الإسلام والإيمان. وهذه شهادة من الله له أنه مسلم مؤمن، ظاهرًا وباطنًا، وإلا فلا وجه لتخصيصه بالنعمة، لو لا أن المراد بها، النعمة الخاصة[٦].

ومنها: أن المُعْتَق في نعمة الْمُعْتِق.

ومنها: جواز تزوج زوجة الدَّعِيّ، كما صرح به.

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٤٧٠).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٦٤).
(٣) رواه البخاري، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود:٧]، ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩]، برقم: (٧٤٢٠).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٤٧٣).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٣٣).
(٦) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (٦٦٥).

❁ **ومنها**: أن التعليم الفعلي، أبلغ من القولي، خصوصا إذا اقترن بالقول، فإن ذلك نور على نور.

❁ **ومنها**: أن المحبة التي في قلب العبد لغير زوجته ومملوكته ومحارمه، إذا لم يقترن بها محذور، لا يأثم عليها العبد، ولو اقترن بذلك أمنيته أن لو طلقها زوجها لتزوجها من غير أن يسعى في فرقة بينهما، أو يتسبب بأي سبب كان؛ لأن الله أخبر أن الرسول ﷺ أخفى ذلك في نفسه.

❁ **ومنها**: أن الرسول ﷺ قد بلغ البلاغ المبين، فلم يدع شيئًا مما أوحي إليه، إلا وبلغه، حتى هذا الأمر، الذي فيه عتابه، وهذا يدل على أنه رسول الله، ولا يقول إلا ما أوحي إليه، ولا يريد تعظيم نفسه.

❁ **ومنها**: أن المستشار مؤتمن، يجب عليه -إذا استشير في أمر من الأمور- أن يشير بما يعلمه أصلح للمستشير ولو كان له حظ نفس، فتقدم مصلحة المستشير على هوى نفسه وغرضه.

❁ **ومنها**: أن من الرأي الحسن لمن استشار في فراق زوجته أن يؤمر بإمساكها مهما أمكن صلاح الحال، فهو أحسن من الفرقة.

❁ **ومنها**: أنه يتعين أن يقدم العبد خشية الله على خشية الناس، وأنها أحق منها وأولى.

❁ **ومنها**: فضيلة زينب رضي الله عنها أم المؤمنين، حيث تولى الله تزويجها، من رسوله ﷺ، من دون خطبة ولا شهود، ولهذا كانت تفتخر بذلك على أزواج رسول الله ﷺ، وتقول زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات.

❁ **ومنها**: أن المرأة، إذا كانت ذات زوج لا يجوز نكاحها، ولا السعي فيه وفي أسبابه، حتى يقضي زوجها وطره منها، ولا يقضي وطره، حتى تنقضي عدتها، لأنها قبل انقضاء عدتها، هي في عصمته، أو في حقه الذي له وطر إليها، ولو من بعض الوجوه.[1]

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (٦٦٥).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب:٤١]

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إن الله لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما، ثم عذر أهلها في حال العذر، غير الذكر، فإن الله لم يجعل له حدا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدا في تركه، إلا مغلوبا على تركه[١].

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب:٤٢]

أول النهار وآخره خصوصًا، وتخصيصهما بالذكر؛ للدلالة على فضلهما على سائر الأوقات؛ لكونهما مشهودين، كإفراد التسبيح من جملة الأذكار؛ لأنه العمدة فيها[٢].

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب:٤٦]

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ بتيسيره، قيد الدعوة به، إيذانا بأنه أمر صعب لا يتيسر إلا بإعانته[٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزاب:٤٩]

الإسناد إلى الرجال للدلالة على أن العدة حق الأزواج كما أشعر به: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾..وتخصيص المؤمنات والحكم عام؛ للتنبيه على أن من شأن المؤمن أن لا ينكح إلا مؤمنة تخيرا لنطفته[٤].

هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة. منها: إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها، وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها، وقد استدل ابن عباس وغيره بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح[٥].

وإذا كان الطلاق الذي هو فرقة تامة، وتحريم تام، لا يقع قبل النكاح، فالتحريم

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٤٣٣).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٣٣).
(٣) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٣٥٩).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٣٥).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٤٣٣).

الناقص، لظهار، أو إيلاء ونحوه، من باب أولى وأحرى، أن لا يقع قبل النكاح، كما هو أصح قَوْلي العلماء[١].

ﭫ ويدل على جواز الطلاق، لأن الله أخبر به عن المؤمنين، على وجه لم يلمهم عليه، ولم يؤنبهم، مع تصدير الآية بخطاب المؤمنين.

ﭫ وعلى جوازه قبل المسيس، كما قال في الآية الأخرى ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٦].

ﭫ وعلى أن المطلقة قبل الدخول، لا عدة عليها، بل بمجرد طلاقها، يجوز لها التزوج، حيث لا مانع، وعلى أن عليها العدة، بعد الدخول.

ﭫ وهل المراد بالدخول والمسيس، الوطء كما هو مجمع عليه؟ أو وكذلك الخلوة، ولو لم يحصل معها وطء، كما أفتى بذلك الخلفاء الراشدون، وهو الصحيح. فمن دخل عليها، وطئها، أم لا إذا خلا بها، وجب عليها العدة.

ﭫ وعلى أن المطلقة قبل المسيس، تمتع على الموسع قدره، وعلى المقتر قدره، ولكن هذا، إذا لم يفرض لها مهر، فإن كان لها مهر مفروض، فإنه إذا طلق قبل الدخول، نَصَّف المهر، وكفى عن المتعة، وعلى أنه ينبغي لمن فارق زوجته قبل الدخول أو بعده، أن يكون الفراق جميلا يحمد فيه كل منهما الآخر. ولا يكون غير جميل، فإن في ذلك، من الشر المرتب عليه، من قدح كل منهما بالآخر، شيء كثير[٢].

ﭫ وعلى أن المفارقة بالوفاة، تعتد مطلقًا، لقوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ الآية.

ﭫ وعلى أن من عدا غير المدخول بها، من المفارقات من الزوجات، بموت أو حياة، عليهن العدة.[٣]

﴿۞ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾ [الأحزاب:٥١]

ﭫ ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجبا عليه

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٦٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٦٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٦٨).

-صلوات الله وسلامه عليه- واحتجوا بهذه الآية الكريمة[١].

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب:٥٢]

قال معمر، والشعبي: لما خيرهن النبي ﷺ فاخترن الله ورسوله، شكر الله لهن ذلك، فقصره عليهن، وأنزل هذه الآية[٢].

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ دليل على جواز نظر الرجل إلى من يريد نكاحها[٣].

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾ [الأحزاب:٥٥]

سئل عكرمة والشعبي: عن سبب ترك ذكر العم والخال؟ فقالا: لأنهما يصفانها لبنيهما، وقيل: لأنهما بمنزلة الوالدين فلا حاجة[٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزاب:٥٩]

استنبط بعضهم من الآية: أن ما يفعله أهل العلم والجاه، من تغيير لباسهم وعمائمهم، ويتميزون به: أمر حسن؛ لأنه أجدر أن يعرفوا، ويقدّروا حق قدرهم[٥].

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾ [الأحزاب:٦٦]

خصصت الوجوه؛ لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده[٦].

---

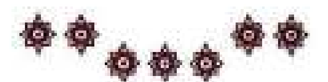
(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٤٤٦).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٤٧٨).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص٣٠٤).
(٤) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٣٦٥).
(٥) وجه النهار، للحربي (ص٣٠٥).
(٦) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٤٧).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ۚ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب:٦٩]

قال بعضهم: من وجاهته العظيمة عند الله: أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه، فأجاب الله سؤاله[١].

﴿لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب:٧٣]

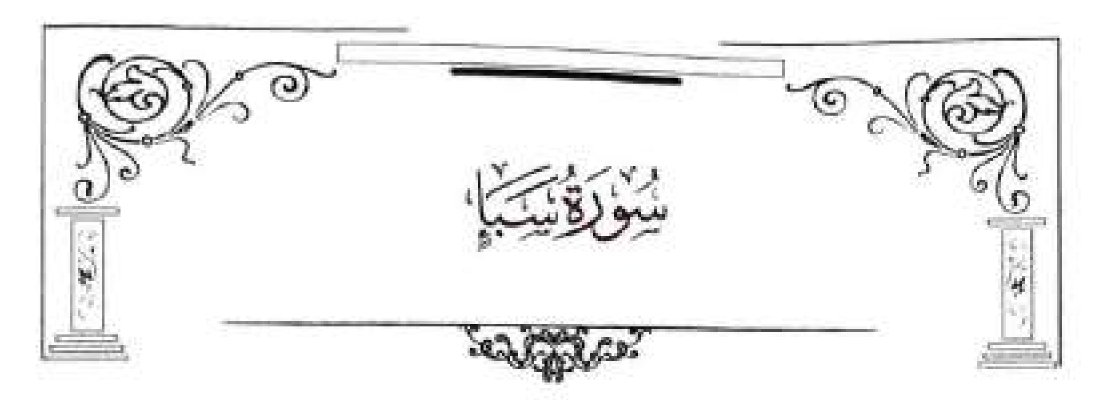
ذكر التوبة في الوعد إشعار بأنه كونهم ظلومًا جهولًا في جبلتهم لا يخليهم عن فرطات، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ حيث تاب عن فرطاتهم وأثاب بالفوز على طاعاتهم[٢].



---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٤٨٧).

(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٤٠).



﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦ ﴾ [سبأ:٦]

هذه منقبة لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علما وتصديقا بأخبار ما جاء به الرسول، وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيه، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول، احتج الله بهم على المكذبين المعاندين، كما في هذه الآية وغيرها[١].

فيه مزية لأهل العلم، وثناء على أهل الثبات منهم[٢].

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ ﴾ [سبأ:١٠]

كان الأصل: ولقد آتينا داود منا فضلًا تأويب الجبال والطير، فبدل بهذا النظم؛ لما فيه من الفخامة، والدلالة على عظم شأنه وكبرياء سلطانه، حيث جعل الجبال والطيور كالعقلاء المنقادين لأمره في نفاذ مشيئته فيها[٣]. وإشعارا بأنه ما من حيوان وجماد إلا وهو منقاد لمشيئة الله تعالى[٤].

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣ ﴾ [سبأ:١٣]

هذا يدل على أن التصوير كان مباحا في ذلك الزمان[٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٧٥).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص٣٠٦).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٤٣).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥٥).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٤٨٩).

۞ **الشكر على ثلاثة أضرب**: بالقلب وباللسان وبالجوارح، فقال: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ﴾ لينبه على التزام الأنواع الثلاثة[1].

﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦﴾ [سبأ:١٦]

۞ وصف السدر بالقلة؛ لأن جناه وهو النبق مما يطيب أكله؛ ولذلك يغرس في البساتين[2]. عن الحسن: قلل السدر؛ لأنه أكرم ما بُدّلوا؛ لأنه يكون في الجنان[3].

﴿۞قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾ [سبأ:٢٤]

۞ إنما أمر بهذا السؤال احتجاجا عليهم بأن الذي يرزق هو المستحق للعبادة لا غيره، وذلك أنه إذا استفهمهم عن الرازق لم يمكنهم أن يثبتوا رازقا غير الله، ولهذا أمر النبي ﷺ بالجواب، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾[4].

۞ ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾ اختلاف الحرفين؛ لأن الهادي: كمن صعد منارًا ينظر الأشياء ويتطلع عليها أو ركب جوادًا يركضه حيث يشاء، والضال: كأنه منغمس في ظلام مرتبك لا يرى شيئًا أو محبوس في مطمورة لا يستطيع أن يتفصى منها[5].

۞ ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾ ليس هذا على سبيل الشك، بل على الإنصاف في الحجاج، وهو أبلغ من التصريح في هذا المقام[6].

﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٥﴾ [سبأ:٢٥]

۞ وهذا أيضا من الإنصاف في غايته، حيث أسند الإجرام إلى نفسه، والعمل

---

(١) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٣٧٨).

(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٤٥).

(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥٩).

(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٤٩٤).

(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٤٧).

(٦) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٣٨٦).

إليهم[١]. وهذا أرقى أسلوب في منهج الجدل[٢].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سبأ:٢٩-٣٠]

هذا جواب إنكارهم القيامة، لوحظ في الجواب المقصود من سؤالهم، لا ما يعطيه ظاهر اللفظ -فإن ظاهر اللفظ أنهم سألوا عن وقت الساعة، وأجيبوا عن أحوالهم، ولكن ليس مقصودهم إلا إنكار الساعة.. فالجواب مطابق للمقصود[٣].

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [سبأ:٣٢]

في هذا تنبيه للكفار أن طاعة بعضهم لبعض في الدنيا تصير سبب عداوة في الآخرة[٤].

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ:٣٥]

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ أي: لا تعب في الأبدان ولا في القلب والقوى، ولا في كثرة التمتع، وهذا يدل على أن الله تعالى يجعل أبدانهم في نشأة كاملة، ويهيئ لهم من أسباب الراحة على الدوام، ما يكونون بهذه الصفة، بحيث لا يمسهم نصب ولا لغوب، ولا هم ولا حزن[٥].

ويدل على أنهم لا ينامون في الجنة؛ لأن النوم فائدته زوال التعب، وحصول الراحة به، وأهل الجنة بخلاف ذلك، ولأنه موت أصغر، وأهل الجنة لا يموتون، جعلنا الله منهم، بمنه وكرمه[٦].

---

(١) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٣٨٦).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص٣٠٩).
(٣) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٣٨٧).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٤٩٦).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٨٩).
(٦) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٨٩).

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سبأ: ٤٣]

ﭸ في تكرير الفعل والتصريح بذكر الكفرة وما في اللامين من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه، وما في (لَمَّا) من المبادهة إلى البت بهذا القول إنكار عظيم له وتعجيب بليغ منه[1].

ﭸ ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: وقالوا، والعدول عنه دليل إنكار عظيم وغضب شديد[2].



(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٥٠).

(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٦٩).



سورة فاطر

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: ٢]

﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾ اختلاف الضميرين؛ لأن الموصول الأول مفسر بالرحمة، والثاني مطلق يتناولها والغضب، وفي ذلك إشعار بأن رحمته سبقت غضبه[١].

هذه الآية دواء ناجع لداء الطمع واليأس؛ ومن ثم: فلا مخافة من شيء، ولا رجاء في شيء إلا الرب جل جلاله[٢].

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ [فاطر: ٩]

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ العدول فيهما من الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص؛ لما فيهما من مزيد الصنع[٣].

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر: ١٠]

فيه إشارة إلى أن العمل يتوقف على الرفع والكلم الطيب يصعد بنفسه، وقيل: العمل الصالح يرفع العامل ويشرفه، أي: من أراد العزة فليعمل عملًا صالحًا، فإنه هو الذي يرفع العبد[٤].

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٥٣).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص٣١١).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٥٥).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٧٩).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥]

تعريف ﴿ٱلْفُقَرَآءُ﴾؛ للمبالغة في فقرهم، كأنهم لشدة افتقارهم وكثرة احتياجهم هم الفقراء، وأن افتقار سائر الخلائق بالإضافة إلى فقرهم غير معتد به[١].

لم يسمهم بالفقراء للتحقير، بل للتعريض على الاستغناء؛ ولهذا وصف نفسه بالغني الذي هو مطعم الأغنياء، وذكر ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾؛ ليدل به على أنه الغني النافع بغناه خلقه، والجواد المنعم عليهم؛ إذ ليس كل غني نافعًا بغناه، إلا إذا كان الغني جوادًا منعمًا، وإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم[٢]. فزيادة قيد الحميد؛ ليعلم أنه جواد منعم؛ فإن الغنى بدون الجود غير محمود[٣].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر:١٨]

إنما قيل: ﴿وَازِرَةٌ﴾ ولم يقل: ولا تزر نفس وزر أخرى؛ لأن المعنى: أن النفوس الوازرات لا ترى منهن واحدة إلا حاملة وزرها لا وزر غيرها[٤].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر:٢٨]

قال سفيان الثوري، عن أبي حيان التيمي، عن رجل قال: كان يقال: العلماء ثلاثة: عالم بالله عالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله. فالعالم بالله وبأمر الله: الذي يخشى الله ويعلم الحدود والفرائض. والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله: الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض. والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله: الذي يعلم الحدود والفرائض، ولا يخشى الله عَزَّ وَجَلَّ[٥].

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٥٦).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٨٢).
(٣) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٤٠٤).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٨٣).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٥٤٥).

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فاطر: ٣٢]

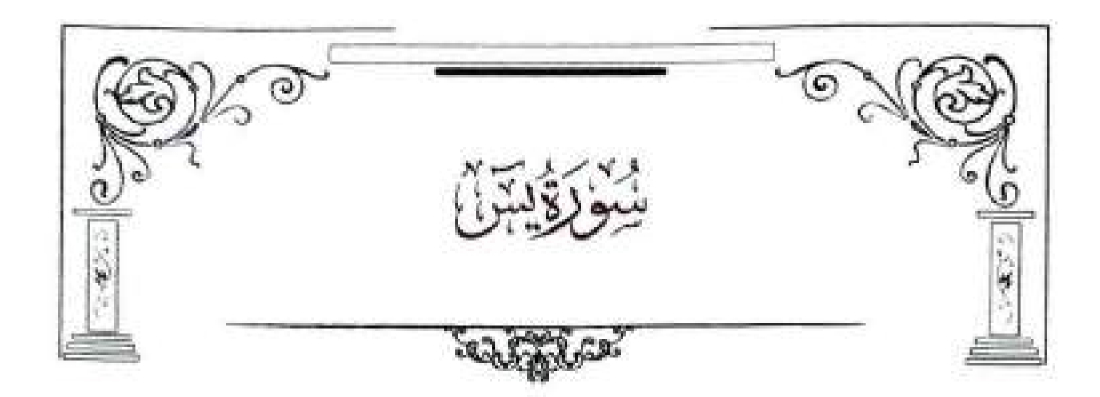
إنما قدم الظالم للإيذان بكثرتهم، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم، والسابقون أقل من القليل، وقال ابن عطاء: إنما قدم الظالم لئلا ييأس من فضله. وقيل: إنما قدمه ليعرِّفه أن ذنبه لا يبعده من ربه[1].

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فاطر: ٣٣]

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ قال بعض العلماء: حُق لهذه الواو أن تكتب بماء العينين؛ لأنها تشمل السابق والمقتصد والظالم[2].

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٨٩).

(٢) وجه النهار، للحربي (ص٣١٤).



﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ [يس:١-٢]

هذا قسم من الله تعالى بالقرآن الحكيم، الذي وصفه الحكمة، وهي وضع كل شيء موضعه، وضع الأمر والنهي في الموضع اللائق بهما، ووضع الجزاء بالخير والشر في محلهما اللائق بهما، فأحكامه الشرعية والجزائية كلها مشتملة على غاية الحكمة، ومن حكمة هذا القرآن: أنه يجمع بين ذكر الحكم وحكمته، فينبه العقول على المناسبات والأوصاف المقتضية لترتيب الحكم عليها[1].

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۝١٢﴾ [يس:١٢]

فيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب من يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق[2].

﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ وهي آثار الخير وآثار الشر، التي كانوا هم السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد وفاتهم.. وهذا الموضع، يبين لك علو مرتبة الدعوة إلى الله والهداية إلى سبيله بكل وسيلة وطريق موصل إلى ذلك، ونزول درجة الداعي إلى الشر الإمام فيه، وأنه أسفل الخليقة وأشدهم جرما، وأعظمهم إثما[3].

﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦﴾ [يس:٢٦]

قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحا لا تلقاه غاشا.. وقال ابن عباس: نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وبعد مماته في قوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٩٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٥٦٥).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٩٢).

﴿ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس:٢٦-٢٧][1].

فيه دليل على نعيم القبر، وفي هذه الآية وسياقها ما يحرك هم الداعي إلى الله، ويعلمه العزم والمضاء، واطراح الدنيا، وحسن الخطاب، والإشفاق، والحدب على الناس، وحب الخير لهم[2].



﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [يس:٢٨]

﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ بل كفينا أمرهم بصيحة ملك، وفيه استحقار لإهلاكهم، وإيماء بتعظيم الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ[3].

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يس:٣٧]

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ وذلك أن الأصل هي الظلمة والنهار داخل عليها، فإذا غربت الشمس سلخ النهار من الليل[4].

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [يس:٤١]

إنما ذكر ذرياتهم دونهم؛ لأنه أبلغ في الامتنان عليهم[5].

هذا الموضع من أشكل المواضع عليَّ في التفسير، فإن ما ذكره كثير من المفسرين، من أن المراد بالذرية: الآباء، مما لا يعهد في القرآن إطلاق الذرية على الآباء، بل فيها من الإيهام، وإخراج الكلام عن موضوعه، ما يأباه كلام رب العالمين، وإرادته البيان والتوضيح لعباده. وثَمَّ احتمال أحسن من هذا، وهو أن المراد بالذرية: الجنس، وأنهم هم بأنفسهم، لأنهم هم من ذرية بني آدم، ولكن ينقض هذا المعنى

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٥٧٢).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص٣١٧).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٦٦).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٥١٤).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ١٠٥).

قوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ إن أريد: وخلقنا من مثل ذلك الفلك، أي: لهؤلاء المخاطبين، ما يركبون من أنواع الفلك، فيكون ذلك تكريرا للمعنى، تأباه فصاحة القرآن. فإن أريد بقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ الإبل، التي هي سفن البر، استقام المعنى واتضح، إلا أنه يبقى أيضا، أن يكون الكلام فيه تشويش، فإنه لو أريد هذا المعنى، لقال: وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَاهم فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُون، وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ، فأما أن يقول في الأول: وحملنا ذريتهم، وفي الثاني: حملناهم، فإنه لا يظهر المعنى، إلا أن يقال: الضمير عائد إلى الذرية، والله أعلم بحقيقة الحال. فلما وصلت في الكتابة إلى هذا الموضع، ظهر لي معنى ليس ببعيد من مراد الله تعالى، وذلك أن من عرف جلالة كتاب الله وبيانه التام من كل وجه، للأمور الحاضرة والماضية والمستقبلة، وأنه يذكر من كل معنى أعلاه وأكمل ما يكون من أحواله، وكانت الفلك من آياته تعالى ونعمه على عباده، من حين أنعم عليهم بتعلمها إلى يوم القيامة، ولم تزل موجودة في كل زمان، إلى زمان المواجهين بالقرآن، فلما خاطبهم الله تعالى بالقرآن، وذكر حالة الفلك، وعلم تعالى أنه سيكون أعظم آيات الفلك في غير وقتهم، وفي غير زمانهم، حين يعلمهم صنعة الفلك البحرية الشراعية منها والنارية، والجوية السابحة في الجو، كالطيور ونحوها، والمراكب البرية مما كانت الآية العظمى فيه لم توجد إلا في الذرية، نبَّه في الكتاب على أعلى نوع من أنواع آياتها فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: المملوء ركبانا وأمتعة، فحملهم الله تعالى، ونجاهم بالأسباب التي علمهم الله بها، من الغرق[1].

﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢﴾ [يس:٥٢]

ﵟ لا تحسب أن ذكر ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في هذا الموضع لمجرد الخبر عن وعده، وإنما ذلك للإخبار بأنه في ذلك اليوم العظيم، سيرون من رحمته ما لا يخطر على الظنون، ولا حسب به الحاسبون، كقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان:٢٦] ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ ونحو ذلك، مما يذكر اسمه الرحمن، في هذا[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٩٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٦٩٧).

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [يس:٥٥]

في تنكير ﴿شُغُلٍ﴾ وإبهامه: تعظيم لما هم فيه من البهجة والتلذذ، وتنبيه على أنه أعلى ما يحيط به الأفهام ويعرب عن كنهه الكلام[١].

﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس:٥٨]

يسلم الله عليهم بغير واسطة، تعظيما لهم، وهذا غاية مناهم[٢].

﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس:٦٠]

فيه من الفقه: أن من أوصى لبنيه أمكن أن يشترك فيه الذكر والأنثى على سبيل التغليب؛ فإن بنات آدم داخلات في الخطاب في ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ إلا أن تكون قرينة مانعة من ذلك؛ كالعرف، والحال[٣].

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يس:٦٨]

قصد بذكر ذلك هنا للاستدلال على قدرته تعالى على مسخ الكفار، كما قدر على تنكيس الإنسان إذا هرم[٤].

المراد من هذا -والله أعلم- الإخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال، لا دار دوام واستقرار؛ ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾[٥].

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس:٦٩]

إن قيل: قد روي عنه -صلى الله تعالى عليه وآله وسلم- أنه قال: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»[٦]، وروي أيضا عنه ﷺ: «**هل أنت إلا إصبع دميت، وفي**

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٧١).
(٢) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٤٣٠).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص٣١٩).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١٨٦).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٥٨٨).
(٦) رواه البخاري، باب من قاد دابة غيره في الحرب، برقم: (٢٨٦٤)، ومسلم، باب في غزوة حنين، برقم: (١٧٧٦).

سبيل الله ما لقيت»[1]، وهذا الكلام على وزن الشعر، فالجواب: أنه ليس بشعر، وأنه لم يقصد به الشعر، وإنما جاء موزونا بالاتفاق لا بالقصد، فهو كالكلام المنثور، ومثل هذا يقال في مثل ما جاء في القرآن من الكلام الموزون[2].

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس:٧٠]

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ مؤمنا حي القلب؛ لأن الكافر كالميت في أنه لا يتدبر ولا يتفكر[3].

﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ جعلهم في مقابلة من كان حيًّا؛ إشعارًا بأنهم لكفرهم وسقوط حجتهم وعدم تأملهم: أموات في الحقيقة[4].

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس:٧٨]

فيه دليل على أن العظم ذو حياة، فيؤثر فيه الموت كسائر الأعضاء[5].

---

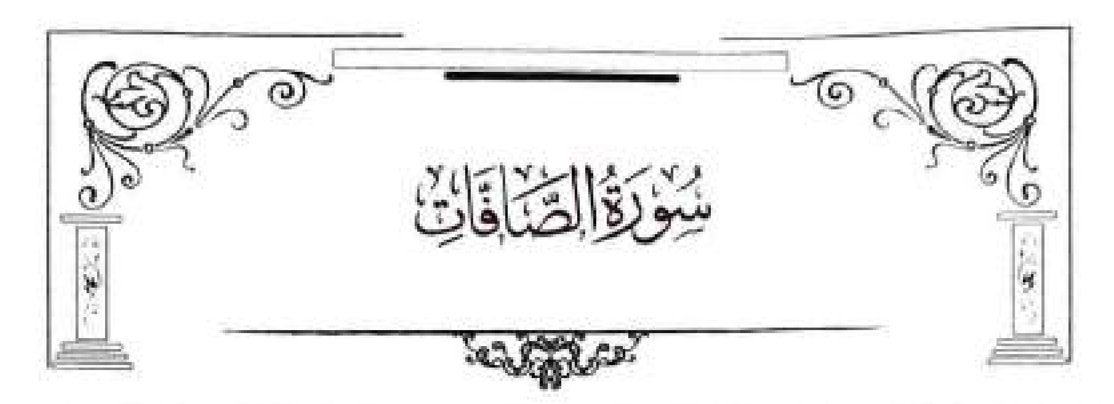
(١) رواه البخاري، باب من ينكب في سبيل الله، برقم: (٢٨٠٢)، مسلم، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، برقم: (١٧٩٦).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١٨٦).

(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٥١٩).

(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٧٣).

(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٢٧٤).



﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ٤١ فَوَٰكِهُۖ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ٤٢﴾ [الصافات:٤١-٤٢]

فسّر الرزق المعلوم بالفواكه، وهي كل ما يتلذذ به ولا يتقوت لحفظ الصحة، يعني أن رزقهم كله فواكه؛ لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات؛ لأن أجسادهم محكمة مخلوقة للأبد، فما يأكلونه للتلذذ[1].

﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٤﴾ [الصافات:٤٤]

التقابل أتم للسرور وآنس[2].

﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ٤٥﴾ [الصافات:٤٥]

وصف بما وصف به الماء؛ لأنه يجري في الجنة في أنهار، كما يجري الماء، قال الله تعالى: وأنهار من خمر[3].

﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٤٨﴾ [الصافات:٤٨]

حذف المعمول، والمقام مقام لذة وسرور، فدل ذلك على أنهم يتساءلون بكل ما يلتذون بالتحدث به، والمسائل التي وقع فيها النزاع والإشكال، ومن المعلوم أن لذة أهل العلم بالتساؤل عن العلم والبحث عنه فوق اللذات الجارية في أحاديث الدنيا، فلهم من هذا النوع النصيب الوافر، ويحصل لهم من انكشاف الحقائق العلمية في الجنة ما لا يمكن التعبير عنه[4].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ١٢٢).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ١٢٣).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ١٢٣).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٧٠٣).

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩﴾ [الصافات:٥٨-٥٩]

قال الحسن البصري: علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه، فقالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩﴾، قيل: لا، قالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ۝٦٢﴾ [الصافات:٦٢]

فيه دلالة على أن لهم غير ذلك من نعم الله -فإن النزل ما حضر للضيف من الطعام حتى يتهيأ له الضيافة[2].

﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ۝٦٥﴾ [الصافات:٦٥]

إنما شبهها برءوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين؛ لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر[3].

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧﴾ [الصافات:٦٦-٦٧]

إن قيل: لِم عطف هذه الجملة (بثم)؟ **فالجواب من وجهين: أحدهما**: أنه لترتيب تلك الأحوال في الزمان، فالمعنى أنهم يملؤون البطون من شجر الزقوم، وبعد ذلك يشربون الحميم، **والثاني**: أنه لترتيب مضاعفة العذاب، فالمعنى أن شربهم للحميم أشدّ مما ذكر قبله[4].

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝٧٠﴾ [الصافات:٦٩-٧٠]

فيه إشعار بأنهم بادروا إلى ذلك من غير توقف على نظر وبحث[5].

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝٧٤﴾ [الصافات:٧٤]

علل كونه محسنًا بأنه كان عبدًا مؤمنًا، ليريك جلالة محل الإيمان، وأنه

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ١٦).
(٢) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٤٤٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٢٠).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١٩٣).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٢).

القصارى من صفات المدح والتعظيم[١].

﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۝٧٩﴾ [الصافات:٧٩]

في ذلك: استعمال المعاريض للمصلحة[٢].

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾ [الصافات:١٠١]

انطوت البشارة على ثلاث: على أن الولد غلام ذكر، وأنه يبلغ أوان الحلم؛ لأن الصبي لا يوصف بالحلم، وأنه يكون حليمًا، وأي حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[٣]. وهو إسماعيل على الأصح نقلا ودليلا[٤].

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝١٠٢﴾ [الصافات:١٠٢]

إن قيل: لِم شاوره في أمر هو حتم من الله؟ **فالجواب**: أنه لم يشاوره ليرجع إلى رأيه، ولكن ليعلم ما عنده، فيثبت قلبه ويوطن نفسه على الصبر، فأجابه بأحسن جواب[٥].

﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥﴾ [الصافات:١٠٤،١٠٥]

إن قيل: إنه أمر بالذبح ولم يذبح، فكيف قيل له: ﴿صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾؟ **فالجواب**: أنه قد بذل جهده؛ إذ قد عزم على الذبح ولو لم يفده الله لذبحه، ولكن الله هو الذي منعه من ذبحه لما فداه، فامتناع ذبح الولد إنما كان من الله وبأمر الله، وقد قضى إبراهيم ما عليه[٦].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ١٢٧)، جامع البيان، للإيجي (٣/ ٤٤٩).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص٣٢٣).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٥)، مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ١٣٠).
(٤) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٤٥٢).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١٩٦).
(٦) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١٩٦).

۞ استدل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل، خلافا لطائفة من المعتزلة، والدلالة من هذه ظاهرة؛ لأن الله تعالى شرع لإبراهيم ذبح ولده، ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء[1].

﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الصافات:١٠٧]

۞ استدل المالكية بذلك على أن التضحية بالغنم أفضل[2].

﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الصافات:١١٢]

۞ في ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه وإيماء بأنه الغاية لها، لتضمنها معنى الكمال والتكميل بالفعل على الإطلاق[3].

﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤]

۞ فيه حث على إكثار الذكر وتعظيم لشأنه، ومن أقبل عليه في السراء أخذ بيده عند الضراء[4]. قال الضحاك بن قيس: اذكروا الله في الرخاء يذكركم عند الشدة، وإن يونس كان عبدا صالحا، وإنه كان يذكر الله، فلما وقع في بطن الحوت سأل الله تعالى، فقال الله: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾، وإن فرعون كان عبدا طاغيا، ناسيا لذكر الله فلما ﴿أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [يونس:٩٠]، فقال الله تعالى: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس:٩١][5].

﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الصافات:١٤٦]

۞ **اليقطين**: القرع، وإنما خصه الله به؛ لأنه يجمع برد الظل ولين اللمس وكبر الورق، وأن الذباب لا يقربه؛ فإن لحم يونس لما خرج من البحر كان لا يحتمل الذباب[6]. وذكر بعضهم في القرع فوائد، منها: سرعة نباته، وتظليل ورقه لكبره،

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٦). تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٣٠).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص٣٢٤).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٦).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٨).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٢/ ٥٥٨).
(٦) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١٩٨).

ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة أغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئا ومطبوخا بلبه وقشره أيضا[١].

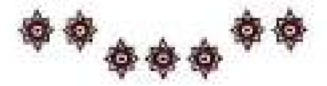
﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات:١٤٧، ١٤٨]

لعله إنما لم يختم قصته وقصة لوط بما ختم به سائر القصص، تفرقة بينهما وبين أرباب الشرائع الكبر وأولي العزم من الرسل، أو اكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين في آخر السورة[٢].

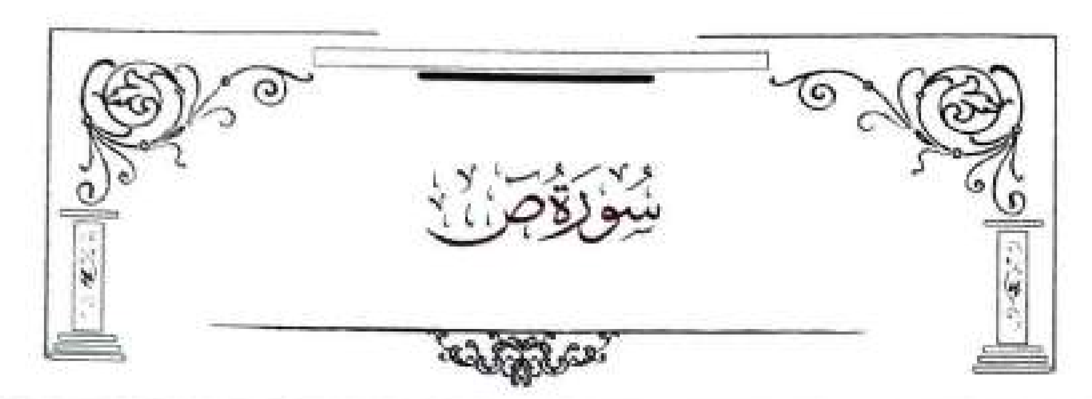
﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات:١٨٠، ١٨٢]

أي: له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال، ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه من النقص قرن بينهما في هذا الموضع، وفي مواضع كثيرة من القرآن[٣].

قال الرازي: خاتمة هذه السورة الشريفة جامعة لكل المطالب العالية[٤].



(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٤٠).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٤٦).
(٤) وجه النهار، للحربي (ص٣٢٦).



﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤﴾ [ص:٤]

وضع فيه الظاهر موضع الضمير غضبًا عليهم وذمًّا لهم، وإشعارًا بأن كفرهم جسرهم على هذا القول(١).

﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥﴾ [ص:٥]

لم يقل: وقالوا، إظهارا للغضب عليهم، ودلالة على أن هذا القول لا يجسر عليه إلا الكافرون المتوغلون في الكفر المنهمكون في الغي(٢).

﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ٨﴾ [ص:٨]

﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ فإذا ذاقوه زال عنهم الشك من العناد والحسد، وحين العذاب لم يبق عناد؛ لأن الحسد إنما يكون في حال رفاهية، فحين العذاب يزيل الحسد، فيزيل الشك(٣).

﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧﴾ [ص:١٧]

إن قيل: ما المناسبة بين أمر الله لسيدنا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالصبر على أقوال الكفار وبين أمره له بذكر داود؟ فالجواب عندي: أن ذكر داود ومن بعده من الأنبياء في هذه السورة فيه تسلية للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ووعد له بالنصر وتفريج الكرب، وإعانة له على ما أمر به من الصبر(٤).

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٤).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ١٤٤).
(٣) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٤٦٨).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٠٣).

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝١٨﴾ [ص:١٨]

اختار ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ على مسبحات، ليدل على حدوث التسبيح من الجبال شيئًا بعد شيء وحالًا بعد حال.. وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية[١].

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٢٩﴾ [ص:٢٩]

لم يزل هذا الكتاب مباركا على أهله وحملته، وكان بعض العلماء يقول: منذ أن اعتصمنا بهذا الكتاب والبركة تحوطنا[٢].

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝٣٠﴾ [ص:٣٠]

من الفوائد والحكم في قصة داود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ:

منها: أن الله تعالى يقص على نبيه محمد ﷺ أخبار من قبله، ليثبت فؤاده وتطمئن نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدة صبرهم وإنابتهم، ما يشوقه إلى منافستهم، والتقرب إلى الله الذي تقربوا له، والصبر على أذى قومه، ولهذا -في هذا الموضع- لما ذكر الله ما ذكر من أذية قومه وكلامهم فيه وفيما جاء به، أمره بالصبر، وأن يذكر عبده داود فيتسلى به[٣].

ومنها: أن الله تعالى يمدح ويحب القوة في طاعته، قوة القلب والبدن، فإنه يحصل منها من آثار الطاعة وحسنها وكثرتها ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة، وأن العبد ينبغي له تعاطي أسبابها، وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخلة بالقوى المضعفة للنفس.

ومنها: أن الرجوع إلى الله في جميع الأمور من أوصاف أنبياء الله وخواص خلقه، كما أثنى الله على داود وسليمان بذلك، فليقتد بهما المقتدون، وليهتد بهداهم السالكون ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠].

ومنها: ما أكرم الله به نبيه داود عَلَيْهِ السَّلَامُ من حسن الصوت العظيم، الذي جعل

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ١٤٨).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص٣٣٠).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٧١٢).

الله بسببه الجبال الصم، والطيور البهم، يجاوبنه إذا رجَّع صوته بالتسبيح، ويسبحن معه بالعشي والإشراق.

ومنها: أن من أكبر نعم الله على عبده أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحكم والفصل بين الناس، كما امتن الله به على عبده داود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ومنها: اعتناء الله تعالى بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الخلل بفتنته إياهم وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى، كما جرى لداود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

ومنها: أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الخطأ فيما يبلغون عن الله تعالى؛ لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك، وأنه قد يجري منهم بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصي، ولكن الله يتداركهم ويبادرهم بلطفه.

ومنها: أن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، كان في أغلب أحواله ملازما محرابه لخدمة ربه، ولهذا تسور الخصمان عليه المحراب، لأنه كان إذا خلا في محرابه لا يأتيه أحد، فلم يجعل كل وقته للناس، مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام، بل جعل له وقتا يخلو فيه بربه، وتقر عينه بعبادته، وتعينه على الإخلاص في جميع أموره.

ومنها: أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الحكام وغيرهم، فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالة غير معتادة ومن غير الباب المعهود، فزع منهم، واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

ومنها: أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغي.

ومنها: كمال حلم داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه ما غضب عليهما حين جاءاه بغير استئذان، وهو الملك، ولا انتهرهما، ولا وبخهما.

ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه «أنت ظلمتني» أو «يا ظالم» ونحو ذلك أو باغ علي لقولهما: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

ومنها: أن الموعوظ والمنصوح، ولو كان كبير القدر، جليل العلم، إذا نصحه أحد، أو وعظه، لا يغضب، ولا يشمئز، بل يبادره بالقبول والشكر، فإن الخصمين نصحا داود فلم يشمئز ولم يغضب ولم يثنه ذلك عن الحق، بل حكم بالحق الصرف.

ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة التعلقات الدنيوية المالية، موجبة للتعادي بينهم، وبغي بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن ذلك إلا استعمال تقوى الله، والصبر على الأمور، بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

ومنها: أن الاستغفار والعبادة، خصوصا الصلاة، من مكفرات الذنوب، فإن الله رتب مغفرة ذنب داود على استغفاره وسجوده.

ومنها: إكرام الله لعبده داود وسليمان، بالقرب منه، وحسن الثواب، وأن لا يظن أن ما جرى لهما منقص لدرجتهما عند الله تعالى، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين، أنه إذا غفر لهم وأزال أثر ذنوبهم، أزال الآثار المترتبة عليه كلها، حتى ما يقع في قلوب الخلق، فإنهم إذا علموا ببعض ذنوبهم، وقع في قلوبهم نزولهم عن درجتهم الأولى، فأزال الله تعالى هذه الآثار، وما ذاك بعزيز على الكريم الغفار.

ومنها: أن الحكم بين الناس مرتبة دينية، تولاها رسل الله وخواص خلقه، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق ومجانبة الهوى، فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور الشرعية، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم، ولا يحل له الإقدام عليه.

ومنها: أنه ينبغي للحاكم أن يحذر الهوى، ويجعله منه على بال، فإن النفوس لا تخلو منه، بل يجاهد نفسه بأن يكون الحق مقصوده، وأن يلقي عنه وقت الحكم كل محبة أو بغض لأحد الخصمين.

ومنها: أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ من فضائل داود، ومن منن الله عليه حيث وهبه له، وأن من أكبر نعم الله على عبده أن يهب له ولدا صالحا، فإن كان عالما، كان نورا على نور.

ﭪ **ومنها:** ثناء الله تعالى على سليمان ومدحه في قوله: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

ﭪ **ومنها:** كثرة خير الله وبره بعبيده أن يمن عليهم بصالح الأعمال ومكارم الأخلاق، ثم يثني عليهم بها، وهو المتفضل الوهاب.

ﭪ **ومنها:** تقديم سليمان محبة الله تعالى على محبة كل شيء.

ﭪ **ومنها:** أن كل ما أشغل العبد عن الله، فإنه مشئوم مذموم، فَلْيُفَارِقْه ولْيُقْبِلْ على ما هو أنفع له.

ﭪ **ومنها:** القاعدة المشهورة «من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه»؛ فسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ عقر الجياد الصافنات المحبوبة للنفوس، تقديما لمحبة الله، فعوضه الله خيرا من ذلك، بأن سخر له الريح الرخاء اللينة، التي تجري بأمره إلى حيث أراد وقصد، غدوها شهر، ورواحها شهر، وسخر له الشياطين، أهل الاقتدار على الأعمال التي لا يقدر عليها الآدميون.

ﭪ **ومنها:** أن تسخير الشياطين لا يكون لأحد بعد سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ﭪ **ومنها:** أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، كان ملكا نبيا، يفعل ما أراد، ولكنه لا يريد إلا العدل، بخلاف النبي العبد، فإنه تكون إرادته تابعة لأمر الله، فلا يفعل ولا يترك إلا بالأمر، كحال نبينا محمد ﷺ، وهذه الحال أكمل[1].

﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [ص:٣٢]

ﭪ سمى الخيل: خيرًا، كأنها نفس الخير؛ لتعلق الخير بها، كما قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة»[2][3].

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص:٣٥]

ﭪ قدم الاستغفار على طلب الملك؛ لأن أمور الدين كانت عندهم أهم من الدنيا،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٧١٢).

(٢) رواه البخاري، باب: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة برقم: (٢٨٥٠)، ومسلم، باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، برقم: (١٨٧٣).

(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ١٥٤).

فقدّم الأولى والأهمّ[١]. ووجوب تقديم ما يجعل الدعاء بصدد الإجابة[٢].جريًا على عادة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصالحين في تقديم الاستغفار على السؤال.. وإنما سأل بهذه الصفة ليكون معجزة له، لا حسدا[٣].

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩﴾ [ص:٣٩]

قال الحسن: ما أنعم الله على أحد نعمة إلا عليه تبعة إلا سليمان، فإن الله تعالى قال: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا ..﴾ الآية، إن أعطى أُجر، وإن لم يعط لم يكن عليه تبعة[٤].

﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥﴾ [ص:٤٥]

أي: أولي الأعمال، والفكر؛ كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة، ولا يجاهدون في الله، ولا يتفكرون أفكار ذوي الديات في حكم الزّمنى، الذين لا يقدرون على إعمال جوارحهم، والمسلوبي العقول الذين لا استبصار لهم، وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله ولا من المستبصرين في دين الله، وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكنين منهما[٥].

﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦﴾ [ص:٤٦]

إطلاق الدَّارِ للإشعار بأنها الدار الحقيقة والدنيا معبر[٦].

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ٥١﴾ [ص:٥١]

الاقتصار على الفاكهة للإشعار بأن مطاعمهم لمحض التلذذ، فإن التغذي للتحلل ولا تحلل ثمة[٧].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٠٩).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٣٠).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ١٥٦).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٥٥٦).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ١٥٩).
(٦) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٣١).
(٧) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٣٢).

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ ﴿٥٩﴾﴾ [ص:٥٩]

هذا إخبار أن مودتهم تنقطع وتصير عداوة[1].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ [ص:٨٧-٨٨]

هذه السورة العظيمة مشتملة على الذكر الحكيم، والنبأ العظيم، وإقامة الحجج والبراهين على من كذب بالقرآن وعارضه، وكذب من جاء به، والإخبار عن عباد الله المخلصين، وجزاء المتقين والطاغين؛ فلهذا أقسم في أولها بأنه: ذو الذكر، ووصفه في آخرها بأنه: ذكر للعالمين[2]. ختم السورة بالذكر، كما افتتحها بالذكر[3].



(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٥٦٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٧١٧).

(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ١٦٧).



سورة الزمر

﴿لَوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر:٤]

هذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال.. ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم(١).

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾ [الزمر:٨]

أمر تهديد، فيه إشعار بأن الكفر نوع تشه لا سند له، وإقناط للكافرين من التمتع في الآخرة(٢).

﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر:٩]

تحريك لطلب العلم، وتوبيخ على الرضا بالجهل(٣).

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ وهم القانتون، وفي هذه أدلة واضحة على أن غير العامل كأنه ليس بعالم(٤).

﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر:١١-١٢]

العطف لمغايرة الثاني الأول بتقييده بالعلة، والإشعار بأن العبادة المقرونة

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٨٥).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٣٨).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (١/ ٣٨٧).
(٤) جامع البيان، للإيجي (٣/ ٤٩٥).

بالإخلاص وإن اقتضت لذاتها أن يؤمر بها، فهي أيضًا تقتضيه لما يلزمها من السبق في الدين[١].

﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر:١٥]

وصف خسرانهم بغاية الفظاعة؛ حيث صدّر الجملة بحرف التنبيه، ووسط الفصل بين المبتدأ والخبر، وعرف الخسران، ونعته بالمبين، وذلك لأنهم استبدلوا بالجنة نارًا وبالدرجات دركات[٢].

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر:١٦]

﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ سمي ظلة مع أنه من تحتهم؛ باعتبار مَن تحتهم؛ لأن النار دركات[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر:١٧، ١٨]

وهذا جنس يشمل كل قول فهم يستمعون جنس القول ليميزوا بين ما ينبغي إيثاره مما ينبغي اجتنابه، فلهذا من حزمهم وعقلهم أنهم يتبعون أحسنه، وأحسنه على الإطلاق كلام الله وكلام رسوله، كما قال في هذه السورة: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ الآية، وفي هذه الآية نكتة، وهي: أنه لما أخبر عن هؤلاء الممدوحين أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه، كأنه قيل: هل من طريق إلى معرفة أحسنه حتى نتصف بصفات أولي الألباب، وحتى نعرف أن من أثره علمنا أنه من أولي الألباب؟ قيل: نعم، أحسنه ما نص الله عليه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ الآية[٤].

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٣٩).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ١٧٤).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص٣٣٥).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٧٢١).

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)﴾ [الزمر:٢٣]

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ في الابتداء باسم الله وبناء نزّل عليه: تأكيد للإسناد إليه، وتفخيم للمنزل، واستشهاد على حسنه(١).

﴿مَّثَانِيَ ..﴾ أي: تثنى فيه القصص والأحكام، والوعد والوعيد، وصفات أهل الخير، وصفات أهل الشر، وتثنى فيه أسماء الله وصفاته، وهذا من جلالته، وحسنه، فإنه تعالى، لما علم احتياج الخلق إلى معانيه المزكية للقلوب، المكملة للأخلاق، وأن تلك المعاني للقلوب بمنزلة الماء لسقي الأشجار، فكما أن الأشجار كلما بعد عهدها بسقي الماء نقصت، بل ربما تلفت، وكلما تكرر سقيها حسنت وأثمرت أنواع الثمار النافعة، فكذلك القلب يحتاج دائما إلى تكرر معاني كلام الله تعالى عليه، وأنه لو تكرر عليه المعنى مرة واحدة في جميع القرآن، لم يقع منه موقعا، ولم تحصل النتيجة منه.. وهكذا ينبغي للقارئ للقرآن، المتدبر لمعانيه، أن لا يدع التدبر في جميع المواضع منه، فإنه يحصل له بسبب ذلك خير كثير، ونفع غزير(٢).

إن قيل: لِم ذكرت الجلود أولًا وحدها، ثم ذكرت القلوب بعد ذلك معها؟ **فالجواب**: أنه لما قال **أولا**: ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ ذكر الجلود وحدها؛ لأن القشعريرة من وصف الجلود لا من وصف غيرها، ولما قال **ثانيًا**: ﴿تَلِينُ﴾ ذكر الجلود والقلوب؛ لأن اللين توصف به الجلود والقلوب: أما لين القلوب فهو ضدّ قسوتها، وأما لين الجلود فهو ضد قشعريرتها فاقشعرت أولًا من الخوف، ثم لانت بالرجاء(٣).

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: إذا ذكرت آيات الرحمة لانت جلودهم وقلوبهم.. واقتصر على ﴿ذِكْرِ اللَّهِ﴾ من غير ذكر الرحمة؛ لأن رحمته سبقت غضبه، فلأصالة رحمته إذا ذكر الله لم يخطر بالبال إلا كونه رؤوفا رحيما، وذكرت

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٤٠).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٧٢٢).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٢٠).

الجلود وحدها أولًا ثم قرنت بها القلوب ثانيًا؛ لأن محل الخشية القلب فكان ذكرها يتضمن ذكر القلوب[١].

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الزمر:٢٨]

۞ بريئًا من التناقض والاختلاف، ولم يقل: مستقيمًا، للإشعار بألا يكون فيه عوج قط[٢].

۞ إن قيل: لِم قال: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ ولم يقل: غير معوج؟ **فالجواب:** أن قوله: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ أبلغ في نفي العوج عنه، كأنه قال: ليس فيه شيء من العوج أصلًا[٣].



الجُزْءُ الرَّابِعُ وَالعِشْرُونَ

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزمر:٣٥]

۞ خص الأسوأ للمبالغة؛ فإنه إذا كفر كان غيره أولى بذلك، أو للإشعار بأنهم لاستعظامهم الذنوب يحسبون أنهم مقصرون مذنبون، وأن ما يفرط منهم من الصغائر أسوأ ذنوبهم[٤].

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوٓءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزمر:٤٧]

۞ قال الزمخشري: المراد بذلك تعظيم العذاب الذي يصيبهم، أي: ظهر لهم من عذاب الله ما لم يكن في حسابهم، فهو كقوله في الوعد: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧][٥].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ١٧٧).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ١٧٨).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٢٠).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٤٣).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٢٣).

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾ [الزمر:٥٣]

قال علي بن أبي طالب وابن مسعود: هذه أرجى آية في القرآن[١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه[٢].

قال ابن مسعود: إن أعظم آية في كتاب الله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وإن أجمع آية في القرآن بخير وشر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل:٩٠]، وإن أكثر آية في القرآن فرجا في سورة الزمر: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾[٣].

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥)﴾ [الزمر:٦٥]

قال ابن عباس: هذا أدب من الله تعالى لنبيه ﷺ، وتهديد لغيره؛ لأن الله تعالى قد عصمه من الشرك ومداهنة الكفار[٤].

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١)﴾ [الزمر:٧١]

إنما قال في الجنة: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ (بالواو) وقال في النار: ﴿فُتِحَتْ﴾ (بغير واو)؛ لأن المقام مقام إكرام في حق المؤمنين، والمؤمنون وفود على الكريم الرحمن؛ فإذا أرادوا دخول الجنة وجدوا أبوابها مفتحة قبل مجيء أهلها، والمعنى حتى إذا جاؤها وأبوابها مفتحة، فالواو واو الحال، وأهل النار يأتونها وهي مغلقة فتفتح في

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٢٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ١٠٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ١٠٨).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٥٩٢).

وجوههم؛ كما يفعل بمن يزج به إلى السجن[1].

﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الزمر:٧٢]

كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب؛ ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم مستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به[2].

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر:٧٣]

حذف جواب ﴿إِذَا﴾؛ للدلالة على أن لهم حينئذ من الكرامة والتعظيم ما لا يحيط به الوصف[3]،وإذا حذف الجواب ههنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل[4].

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ المراد سوق مراكبهم؛ لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يكرم ويشرف من الوافدين على بعض الملوك ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا ﴾ هي التي تحكى بعدها الجمل والجملة المحكية بعدها هي الشرطية إلا أن جزاءها محذوف، وإنما حذف لأنه في صفة ثواب أهل الجنة فدل بحذفه على أنه شيء لا يحيط به الوصف[5].

في الآيات دليل على أن النار والجنة لهما أبواب تفتح وتغلق، وأن لكل منهما خزنة، وهما الداران الخالصتان، اللتان لا يدخل فيهما إلا من استحقهما، بخلاف سائر الأمكنة والدور[6].

---

(١) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٢٦)، جامع البيان، للإيجي (٣/ ٥١٩)، وجه النهار، للحربي (ص٣٣٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ١١٩).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٥٠).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ١٢١).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ١٩٥).
(٦) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٧٣٠).

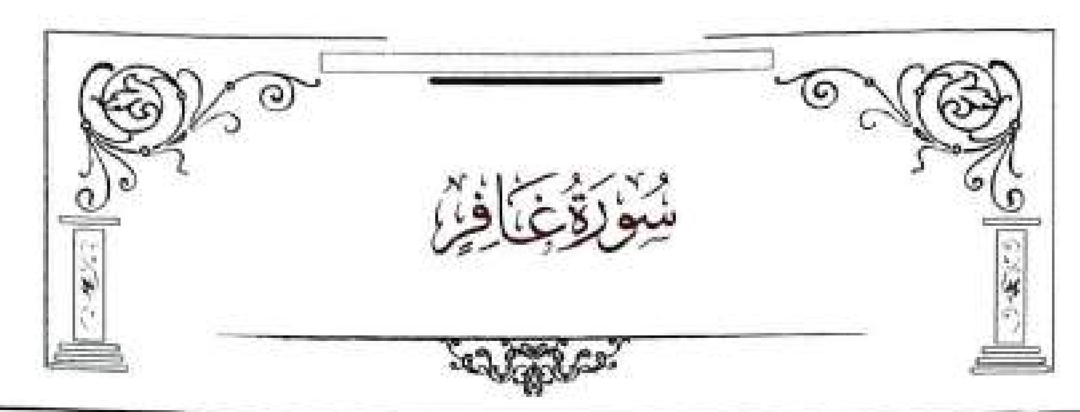
﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)﴾ [الزمر:٧٥]

ونطق الكون أجمعه -ناطقه وبهيمه- لله رب العالمين، بالحمد في حكمه وعدله؛ ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد[1].

قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١] واختتم بالحمد في قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)﴾[2].



(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ١٢٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ١٢٥).



﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢﴾ [غافر: ٢]

لعل تخصيص الوصفين؛ لما في القرآن من الإعجاز والحكم الدال على القدرة الكاملة والحكمة البالغة[١].

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر: ٣]

يقرن هذين الوصفين كثيرا في مواضع متعددة من القرآن؛ ليبقى العبد بين الرجاء والخوف[٢].

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧﴾ [غافر: ٧]

أخبر عنهم بالإيمان وفائدته مع علمنا بأن حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمده مؤمنون: إظهار شرف الإيمان وفضله والترغيب فيه، كما وصف الأنبياء في غير موضع بالصلاح لذلك، وكما عقب أعمال الخير بقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البلد: ١٧] فأبان بذلك فضل الإيمان[٣].

روعي التناسب في قوله: ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ كأنه قيل: ويؤمنون به ويستغفرون لمن في مثل حالهم، وفيه دليل على أن الاشتراك في الإيمان يجب أن يكون أدعى شيء إلى النصيحة والشفقة وإن تباعدت الأجناس والأماكن[٤].

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٥١).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ١٢٧).
(٣) ينظر: أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٥٢). مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٢٠٠).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٥٢). مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٢٠٠).

﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً﴾ أصل الكلام: وسعت رحمتك وعلمك كل شيء، فالسعة في المعنى مسندة إلى الرحمة والعلم، وإنما أسندتا إلى الله تعالى في اللفظ لقصد المبالغة في وصف الله تعالى بهما، كأن ذاته رحمة وعلم واسعان كل شيء[1].

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ [غافر:١١]

إنما قالوا هذا؛ لأنهم كانوا قد كذبوا في الدنيا بالبعث، فاعترفوا في النار بما كذبوا به[2].

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر:١٨]

إنما جمع الكاظم جمع السلامة؛ لأنه وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء[3].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾ [غافر:٢٥]

هذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل[4].

قاعدة: وتدبر هذه النكتة التي يكثر مرورها بكتاب الله تعالى: إذا كان السياق في قصة معينة أو على شيء معين، وأراد الله أن يحكم على ذلك المعين بحكم، لا يختص به، ذكر الحكم وعلقه على الوصف العام؛ ليكون أعم، وتندرج فيه الصورة التي سيق الكلام لأجلها، وليندفع الإيهام باختصاص الحكم بذلك المعين؛ فلهذا لم يقل: وما كيدهم إلا في ضلال، بل قال: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[5].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٢٧).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٦).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٦).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ١٣٩).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٧٣٦).

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر:٢٦]

يظهر من قوله: ﴿ذَرُونِىٓ﴾ أنه كان في الناس من ينازعه في قتل موسى، وذلك يدل على أن فرعون كان قد اضطرب أمره بظهور معجزات موسى(١).

فيه دليل على أن قوله: ﴿ذَرُونِىٓ﴾، تمويه وتورية، فإن ظاهره الاستهانة به وباطنه الخوف من دعائه ربه. [لأنه كان سفاكا لا يشاور أحدا](٢).

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر:٢٧]

لأنه إذا اجتمع في الرجل التكبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة فقد استكمل أسباب القسوة والجراءة على الله وعباده ولم يترك عظيمة إلا ارتكبها(٣).

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر:٢٨]

إنما قال: ﴿بَعْضُ﴾ ولم يقل: كل، مع أن الذي يصيبهم هو كل ما يعدهم؛ ليلاطفهم في الكلام، ويبعد عن التعصب لموسى، ويظهر النصيحة لفرعون وقومه، فيرتجى إجابتهم للحق(٤).

﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ فيه إظهار الإنصاف، وكمال الشفقة؛ فإنه بنى الكلام في النصح على التنزّل(٥).

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾ [غافر:٣٢]

﴿وَيَٰقَوْمِ﴾ إن قيل: لِم كرر المؤمن نداء قومه مرارًا؟

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٣٠).
(٢) جامع البيان، للإيجي (٤/ ١٢).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٢٠٨).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٣١).
(٥) جامع البيان، للإيجي (٤/ ١٤).

فالجواب: أن ذلك لقصد التنبيه لهم، وإظهار الملاطفة والنصيحة[(١)].

إن قيل: لم جاء بالواو في قوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ في الثالث دون الثاني؟

فالجواب: أن الثاني بيان للأول وتفسير، فلم يصح عطفه عليه بخلاف الثالث؛ فإنه كلام آخر فصح عطفه عليه[(٢)].

﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٤٠﴾ [غافر: ٤٠]

﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾ فيه دليل على أن الجنايات تغرم بمثلها[(٣)].

﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٤٤ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٤٥﴾ [غافر: ٤٤-٤٥]

دليل على أن من فوض أمره إلى الله عَزَّوَجَلَّ كان الله معه[(٤)].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٤٩﴾ [غافر: ٤٩]

إنما لم يقل: لخزنتها؛ لأن في ذكر جهنم تهويلًا وتفظيعًا، ويحتمل أن جهنم هي أبعد النار قعرا[(٥)].

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥٠﴾ [غافر: ٥٠]

زكريا ويحيى لم يكونا من الرسل، إنما كانا من الأنبياء الذين ليسوا بمرسلين، وإنما ضمن الله نصر الرسل خاصة، لا نصر الأنبياء كلهم[(٦)].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٣٢).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٣٢).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٥٨).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٣٢).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٢١٥). التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٣٣).
(٦) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٣٣).

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر: ٦١-٦٤]

- الإبصار في الحقيقة لأهل النهار، فأثبته له مجازا أو مبالغة، وجعله حالا، ولم يقل: لتبصروا فيه، لتلك الفائدة[١].

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ولم يقل: لمفضل أو لمتفضل؛ لأن المراد تكير الفضل، وأن يجعل فضلًا لا يوازيه فضل، وذلك إنما يكون بالإضافة[٢].

- تدبر هذه الآيات الكريمات، الدالة على سعة رحمة الله تعالى وجزيل فضله، ووجوب شكره، وكمال قدرته، وعظيم سلطانه، وسعة ملكه، وعموم خلقه لجميع الأشياء، وكمال حياته، واتصافه بالحمد على كل ما اتصف به من الصفات الكاملة، وما فعله من الأفعال الحسنة، وتمام ربوبيته، وانفراده فيها، وأن جميع التدبير في العالم العلوي والسفلي في ماضي الأوقات وحاضرها، ومستقبلها بيد الله تعالى، ليس لأحد من الأمر شيء، ولا من القدرة شيء، فينتج من ذلك: أنه تعالى المألوه المعبود وحده، الذي لا يستحق أحد من العبودية شيئًا، كما لم يستحق من الربوبية شيئًا، وينتج من ذلك: امتلاء القلوب بمعرفة الله تعالى ومحبته وخوفه ورجائه، وهذان الأمران -وهما معرفته وعبادته- هما اللذان خلق الله الخلق لأجلهما، وهما الغاية المقصودة منه تعالى لعباده، وهما الموصلان إلى كل خير وفلاح وصلاح، وسعادة دنيوية وأخروية، وهما اللذان هما أشرف عطايا الكريم لعباده، وهما أشرف اللذات على الإطلاق، وهما اللذان إن فاتا، فات كل خير، وحضر كل شر، فنسأله تعالى أن يملأ قلوبنا بمعرفته ومحبته، وأن يجعل حركاتنا الباطنة والظاهرة، خالصة لوجهه، تابعة لأمره، إنه لا

---

(١) جامع البيان، للإيجي (٤/ ٢٥).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٢١٨).

يتعاظمه سؤال، ولا يحفيه نوال[١].

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) ﴾ [غافر: ٦٤]

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني المستلذات؛ لأنه إذا جاء ذكر الطيبات في معرض (الإنعام) فيراد به المستلذات، وإذا جاء في معرض (التحليل والتحريم)، فيراد به الحلال والحرام[٢].

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) ﴾ [غافر: ٨٥]

قال الزجاج: الكافر خاسر في كل وقت، ولكنه لم يتبين لهم خسرانهم إذا رأوا العذاب[٣].



(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٧٤١).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٣٤).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٢٣).



﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥﴾ [فصلت:٥]

﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ ﴿مِنْ﴾ للدلالة على أن الحجاب مبتدأ منهم ومنه، بحيث استوعب المسافة المتوسطة ولم يبق فراغ، وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك ما يدعوهم إليه واعتقادهم ومج أسماعهم له، وامتناع مواصلتهم وموافقتهم للرسول ﷺ[١].

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۝٦ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝٧﴾ [فصلت:٦-٧]

﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۝٦ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قال الكلبي: عابهم الله بها، وقد كانوا يحجون ويعتمرون. وقال قتادة: كان يقال: الزكاة قنطرة الإسلام، فمن قطعها برئ ونجا، ومن لم يقطعها هلك[٢].

فيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع[٣].

إنما جعل منع الزكاة مقرونًا بالكفر بالآخرة؛ لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله، وهو شقيق روحه، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على استقامته وصدق نيته ونصوع طويته.. وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة وتخويف شديد من منعها[٤].

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٦٦).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٢٥).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٦٧).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٢٢٧).

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت:١٠]

﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ في تتمة أربعة أيام، ولعله قال ذلك، ولم يقل: (في يومين)؛ للإشعار باتصالهما باليومين الأولين[١].

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت:١١]

يقتضي هذا الترتيب: أن الأرض خلقت قبل السماء، فإن قيل: كيف الجمع بين ذلك وبين قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات:٣٠] **فالجواب**: أنها خلقت قبل السماء، ثم دحيت بعد ذلك[٢].

لم يقل: طائعات؛ لتنزيلهن منزلة من يعقل؛ لأنهن استجبن استجابة من يعقل[٣].

﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت:٢١]

خص الجلود بالسؤال؛ لأن الشهادة منها أعجب؛ إذ ليس شأنها الإدراك، بخلاف السمع والبصر[٤].

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت:٣٤]

كان القياس.. أن يقال: ادفع بالتي هي حسنة، ولكن وضع التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ موضع الحسنة، ليكون أبلغ في الدفع بالحسنة؛ لأن من دفع بالحسنى هان عليه الدفع بما دونها[٥].

---

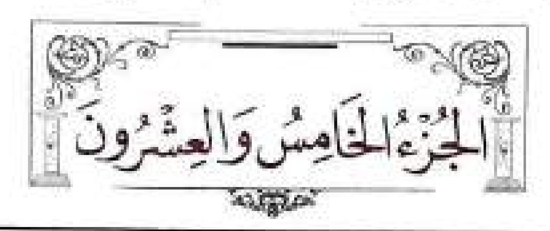
(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٦٧).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٣٨).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص٣٤٥).
(٤) جامع البيان، للإيجي (٤/ ٤١).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٢٣٦).

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت:٣٩]

ﭪ ناسب هنا أن يقول: ﴿خَٰشِعَةً﴾؛ لمجيئها بعد خضوع الملائكة وخشوعهم، وقال تعالى في سورة الحج: ﴿هَامِدَةً﴾ [الحج:٥]؛ لأن السياق هناك يناسب الهمود[١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [فصلت:٤٠]

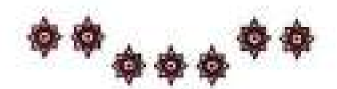
ﭪ قابل (الإلقاء) في النار (بالإتيان آمنًا): مبالغة في إحماد حال المؤمنين[٢].



الجُزْءُ الخَامِسُ وَالعِشْرُونَ

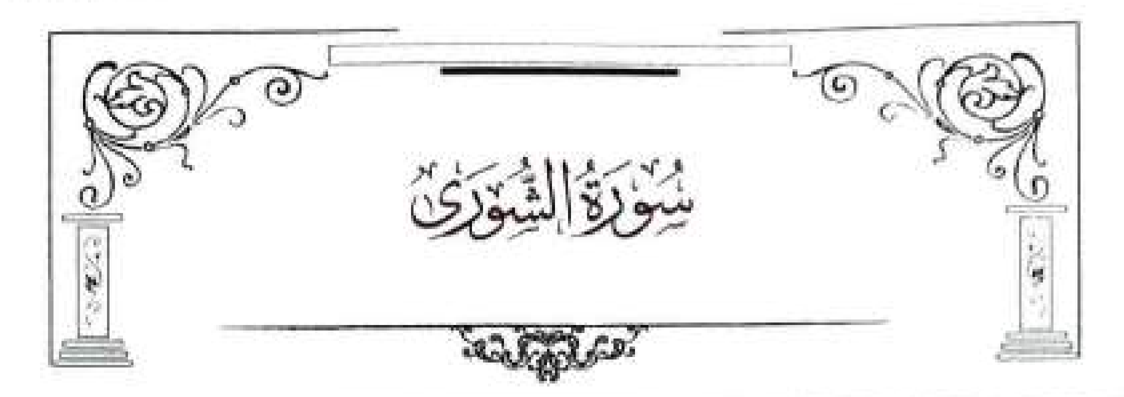
﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت:٥١]

ﭪ ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ كثير، مستعار مما له عرض متسع، للاشعار بكثرته واستمراره، وهو أبلغ من الطويل؛ إذ الطول أطول الامتدادين، فإذا كان عرضه كذلك فما ظنك بطوله؟[٣]



---

(١) وجه النهار، للحربي (٣٤٧).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٧٢).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٧٤).



سورة الشورى

﴿عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الشورى:٢-٥]

كان القياس أن يقال: ينفطرن من تحتهن، من الجهة التي جاءت منها كلمة الكفر؛ لأنها جاءت من الذين تحت السماوات، ولكنه بولغ في ذلك، فجعلت مؤثرة في جهة الفوق، كأنه قيل: يكدن ينفطرن من الجهة التي فوقهن دع الجهة التي تحتهن[1].

إن قيل: ما وجه اتصال قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ﴾.. الآية: بما قبلها؟ **فالجواب:** أنا إن فسرنا (تفطر السموات) بأنه من عظمة الله؛ فإنه يكون تسبيح الملائكة أيضا تعظيما له، فينتظم الكلام، وإن فسرنا تفطرها بأنه من كفر بني آدم فيكون تسبيح الملائكة تنزيها لله تعالى عن كفر بني آدم، وعن أقوالهم القبيحة[2].

في وصفه تعالى بهذه الأوصاف، بعد أن ذكر أنه أوحى إلى الرسل كلهم عموما، وإلى محمد -صلى الله عليهم أجمعين- خصوصا، إشارة إلى أن هذا القرآن الكريم فيه من الأدلة والبراهين والآيات الدالة على كمال الباري تعالى، ووصفه بهذه الأسماء العظيمة الموجبة لامتلاء القلوب من معرفته ومحبته وتعظيمه وإجلاله وإكرامه، وصرف جميع أنواع العبودية الظاهرة والباطنة له تعالى، وأن من أكبر الظلم وأفحش القول، اتخاذ أنداد لله من دونه، ليس بيدهم نفع ولا ضرر، بل هم مخلوقون مفتقرون إلى الله في جميع أحوالهم، ولهذا عقبه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾[3].

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٢٤٥).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٤٥).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٧٥٢).

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الشورى:٨]

۞ لعل تغيير المقابلة للمبالغة في الوعيد؛ إذ الكلام في الإنذار[1].

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى:١٠]

۞ مفهوم الآية الكريمة، أن اتفاق الأمة حجة قاطعة؛ لأن الله تعالى لم يأمرنا أن نرد إليه إلا ما اختلفنا فيه، فما اتفقنا عليه، يكفي اتفاق الأمة عليه، لأنها معصومة عن الخطأ، ولا بد أن يكون اتفاقها موافقا لما في كتاب الله وسنة رسوله[2].

۞ وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ هذان الأصلان، كثيرا ما يذكرهما الله في كتابه، لأنهما يحصل بمجموعهما كمال العبد، ويفوته الكمال بفوتهما أو فوت أحدهما، كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣][3].

﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى:١٥]

۞ اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات، كل منها منفصلة عن التي قبلها، حكم برأسها، قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسي، فإنها أيضا عشرة فصول كهذه[4].

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ [الشورى:١٧]

۞ وجه مناسبة اقتراب الساعة مع إنزال الكتب والميزان: أن الساعة يوم الحساب

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٧٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٧٥٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٧٥٣).

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ١٩٥).

ووضع الموازين بالقسط، فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية والعمل بالشرائع فاعملوا بالكتاب والعدل قبل أن يفاجئكم يوم حسابكم ووزن أعمالكم[١].

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ فيه ترغيب فيها، وترهيب منها، وتزهيد في الدنيا[٢].

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى:٢٠]

لم يذكر في عامل الآخرة أن رزقه المقسوم يصل إليه، للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله وفوزه في المآب[٣].

﴿حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: زرعها، سمي عمله زرع الآخرة؛ لأن الفائدة تحصل فيها[٤].

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى:٣٣]

أي: لكل مؤمن؛ لأن من صفة المؤمن الصبر في الشدة، والشكر في الرخاء[٥].

فإن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر[٦].

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الشورى:٣٦]

لما كانت سببية كون الشيء عند الله تعالى لخيريته أمرا مقررا في العقول، غنيا عن الدلالة عليه بحرف موضوع له، بخلاف سببية كون الشيء عندكم، لقلته وحقارته، أتى بالفاء في الأول دون الثاني[٧].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٢٥٠). التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٤٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ١٩٧).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٢٥١).
(٤) جامع البيان، للإيجي (٤/ ٦٢).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٥٦).
(٦) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٨٢).
(٧) جامع البيان، للإيجي (٤/ ٦٩).

﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الشورى:٣٨]

يظهر لي أن هذه الآية إشارة إلى ذكر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم؛ لأنه بدأ أولًا بصفات أبي بكر الصديق، ثم صفات عمر بن الخطاب، ثم صفات عثمان بن عفان، ثم صفات علي بن أبي طالب، فكونه جمع هذه الصفات، ورتبها على هذا الترتيب يدل على أنه قصد بها من اتصف بذلك[1].

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشورى:٤٠]

الأولى سيئة حقيقة **والثانية** لا، وإنما سميت سيئة؛ لأنها مجازاة السوء، أو لأنها تسوء من تنزل به، ولأنه لو لم تكن الأولى لكانت الثانية سيئة؛ لأنها إضرار، وإنما صارت حسنة لغيرها، أو تسمية الثانية سيئة إشارة إلى أن العفو مندوب إليه[2].

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ هذا يدل على أن العفو عن الظلمة أفضل من الانتصار؛ لأنه ضمن الأجر في العفو، وذكر الانتصار بلفظ الإباحة في قوله: ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾[3].

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أبهم الجزاء للتعظيم[4].

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ شرط الله في العفو الإصلاح فيه، ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأمورا به[5].

وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه، فَلْيَعْفُ عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله، فليسامحهم، فإن الجزاء من جنس العمل[6].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٥٠).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٢٥٨).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٥١).
(٤) جامع البيان، للإيجي (٤/ ٦٩).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٧٦٠).
(٦) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٧٦٠).

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝٤٣﴾ [الشورى:٤٣]

قال في سورة لقمان: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ وقال هنا: ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾؛ لأنه اجتمع هاهنا: صبر وغفران، فأكده باللام[1].

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ۝٤٨﴾ [الشورى:٤٨]

تصدير الشرطية الأولى بـ ﴿إِذَآ﴾ والثانية بـ ﴿إِن﴾؛ لأن أذاقة النعمة محققة من حيث أنها عادة مقتضاة بالذات، بخلاف إصابة البلية[2].

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩﴾ [الشورى:٤٩]

قدم الإناث اعتناء بهنّ وتأنيسا لمن وهبهن له. قال واثلة بن الأسقع: من يمن المرأة تبكيرها بأنثى قبل الذكر؛ لأن الله بدأ بالإناث[3].

تأخير الذكور؛ لأن سياق الكلام في إطلاق مشيئة الله تعالى من غير اختيار لغيره، والإناث مما لم يشأه الوالدان، وأيضا للمحافظة على الفواصل، ولذا عرفه، أو لجبر التأخير، أو قدمهن توصية برعايتهن لضعفهن، لا سيما وكن قريبات العهد بالوأد[4].

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾ [الشورى:٥٠]

قدّم الإناث أولًا على الذكور؛ لأن سياق الكلام أنه فاعل لما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم، والأهم واجب التقديم، وليلي الجنس الذي كانت العرب تعدّه بلاء ذكر البلاء، ولما أخر الذكور وهم أحقاء بالتقديم تدارك تأخيرهم بتعريفهم؛ لأن التعريف تنويه وتشهير، ثم أعطى بعد

(١) وجه النهار، للحربي (ص٣٥٣).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٨٢).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٥٢).
(٤) جامع البيان، للإيجي (٤/ ٧٣).

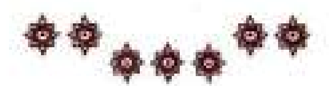
ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير، وعرّف أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن ولكن لمقتض آخر، فقال: ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾، وقيل: نزلت في الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ حيث وهب لوط وشعيب إناثا ولإبراهيم ذكورا ولمحمد ﷺ الله عليه وسلم ذكورًا وإناثًا، وجعل يحيى وعيسى عليهما السلام عقيمين[1].

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ ذكر هذا القسم بلفظه أو من غير ذكر المشيئة؛ لأنه ليس قسيما على حدة، بل تركيب من السابقين؛ كأنه قيل: يهب لمن يشاء إناثا منفردات وذكورا كذلك أو مجتمعين[2].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى:٥٢]

﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا﴾ سماه روحا؛ لأنه تحيا به القلوب الميتة، وكان مالك بن دينار يقول: يا أهل القرآن: ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع القلوب؛ كما أن الغيث ربيع الأرض[3].

ختمت السورة بما بدأت به من الكلام عن الوحي؛ وهو ما يسمى في البلاغة: رد العجز إلى الصدر، أو تناسب المقاطع والمطالع[4].



(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٢٦١).
(٢) جامع البيان، للإيجي (٤/ ٧٣).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص٣٥٤).
(٤) وجه النهار، للحربي (ص٣٥٥).



سورة الزخرف

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ [الزخرف:٣]

هذا يدل على أنه إذا قرئ بغير العربية لا يكون قرآنا[١].

﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾ [الزخرف:١٤]

اتصاله -بدعاء ركوب الدابة-؛ لأن الركوب للتنقل، والنقلة العظمى هو الانقلاب إلى الله تعالى، أو لأنه مخطر، فينبغي للراكب أن لا يغفل عنه، ويستعد للقاء الله تعالى[٢].

﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾ اعتراف بالحشر، فإن قيل: ما مناسبة هذا للركوب؟ فالجواب: أن راكب السفينة أو الدابة متعرض للهلاك بما يخاف من غرق السفينة، أو سقوطه عن الدابة، فأمر بذكر الحشر ليكون مستعدًا للموت الذي قد يعرض له، وقيل: يذكر عند الركوب ركوب الجنازة[٣].

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۝١٨﴾ [الزخرف:١٨]

فيه أنه جعل النشأة في الزينة من المعايب، فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويتزين بلباس التقوى[٤].

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣﴾ [الزخرف:٢٣]

تسلية لرسول الله ﷺ، ودلالة على أن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم، وأن

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٦٣).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٨٧).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٥٥).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٢٦٨).

مقدميهم أيضًا لم يكن لهم سند منظور إليه، وتخصيص المترفين: إشعار بأن التنعم وحب البطالة، صرفهم عن النظر إلى التقليد[1].

﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف:٢٧]

قال هنا: ﴿سَيَهْدِينِ﴾، وقال مرة أخرى: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٧٨]؛ ليدل على أن الهداية في الحال والاستقبال[2].

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف:٣٢]

قال قتادة في قوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ [الزخرف:١] تلقى الرجل ضعيف الحيلة، عيي اللسان، وهو مبسوط له في الرزق، وتلقاه شديد الحيلة، بسط اللسان، وهو مقتر عليه[3].

في هذه الآية تنبيه على حكمة الله تعالى في تفضيل الله بعض العباد على بعض في الدنيا ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي: ليسخر بعضهم بعضا في الأعمال والحرف والصنائع، فلو تساوى الناس في الغنى، ولم يحتج بعضهم إلى بعض، لتعطلت كثير من مصالحهم ومنافعهم[4].

وفيها: دليل على أن نعمته الدينية خير من النعمة الدنيوية، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس:٥٨][5].

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف:٣٦]

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وهو القرآن ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ فيه

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٨٩).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٥٧).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٧١).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٧٦٤).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٧٦٤).

إشارة إلى أن من داوم عليه لم يقرنه الشيطان[١].

ﭑ من غفل عن ذكر الله يسّر الله له شيطانًا يكون له قرينًا، فتلك عقوبة على الغفلة عن الذكر بتسليط الشيطان، كما أن من داوم على الذكر تباعد عنه الشيطان[٢].

﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الزخرف:٤٩]

ﭑ كان علماء زمانهم هم السحرة. ولم يكن السحر عندهم في زمانهم مذموما، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم؛ لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك، وإنما هو تعظيم في زعمهم[٣].

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الزخرف:٥٥]

ﭑ قال عمر بن ذر: يا أهل المعاصي، لا تغتروا بطول حلم الله عَزَّوَجَلَّ عنكم، فاحذروا أسفه، فإنه قال عز من قائل: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾[٤].

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الزخرف:٧١]

ﭑ عبر الله تعالى بهذين اللفظين عن جميع نعيم أهل الجنة، فإنه ما من نعمة إلا وهي نصيب النفس، أو العين، ثم تمم هذه النعم بقوله: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾؛ لأنها لو انقطعت لم تطب[٥].

﴿ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزخرف:٧٣]

ﭑ لعل تفصيل التنعم بالمطاعم والملابس وتكريره في القرآن وهو حقير بالإضافة إلى سائر نعائم الجنة: لما كان بهم من الشدة والفاقة[٦].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٢٧٣).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٥٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٢٣٠).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٧٨).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٨١).
(٦) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٩٦).

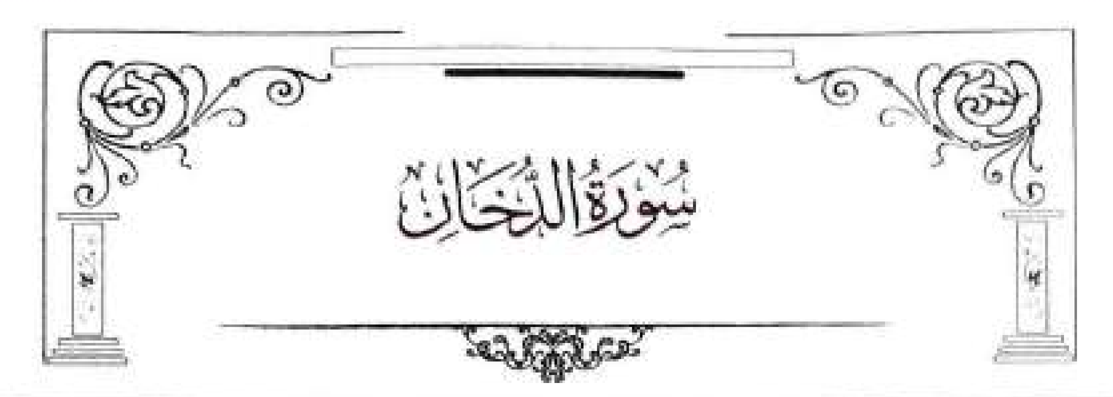
ﷺ لما ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة[1].

﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف:٧٧]

ﷺ وقرئ في الشاذ: «يا مال» بحذف الكاف ترخيما، وهو دليل على أنهم بلغوا من الضعف بحيث لا يستطيعون ذكر الاسم كاملا[2].



(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٢٤٠).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص ٣٦٠).



سورة الدخان

﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ ﴾ [الدخان:٤-٦]

﴿أَمْرًا﴾ نصب على الاختصاص، جعل كل أمرٍ جزلًا فخمًا، بأن وصفه بالحكيم، ثم زاده جزالة وفخامة بأن قال: أعني بهذا الأمر أمرًا حاصلًا من عندنا كما اقتضاه علمنا وتدبيرنا[١].

﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ وضع الرب موضع الضمير للإشعار بأن الربوبية اقتضت ذلك، فإنه أعظم أنواع التربية[٢].

﴿ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٨ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٩ ﴾ [الدخان:١٨-١٩]

لذكر الـ ﴿أَمِينٌ﴾ مع (الأداء)، و(السلطان) مع (العلاء) شأن لا يخفى[٣].

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝٣٧ ﴾ [الدخان:٣٧]

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وكان تبع رجلا صالحا، ألا ترى أن الله تعالى ذم قومه، ولم يذمه[٤].

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١ ﴾ [الدخان:٥١]

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر السعداء؛ ولهذا سمي القرآن مثاني[٥].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٢٨٧).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٩٩).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٠١).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٩١).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٢٦١).

﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ۝﴾ [الدخان:٥٣]

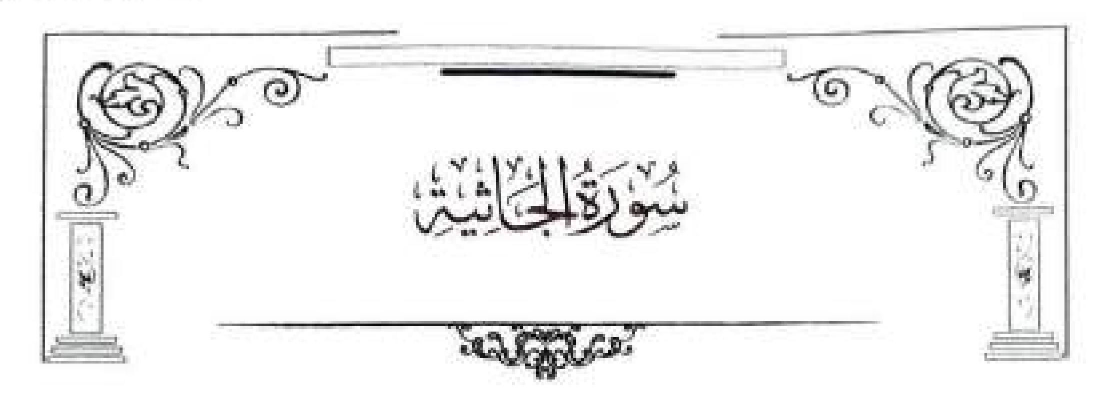
﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ في مجالسهم، وهو أتم للأنس[١].

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝﴾ [الدخان:٥٦]

قال ابن قتيبة: إنما استثنى الموتة الأولى -وهي في الدنيا- من موت في الجنة؛ لأن السعداء حين يموتون يصيرون بلطف الله وقدرته إلى أسباب من الجنة، يلقون الروح والريحان، ويرون منازلهم من الجنة، ويفتح لهم أبوابها، فإذا ماتوا في الدنيا، فكأنهم ماتوا في الجنة، لاتصالهم بأسبابها، ومشاهدتهم إياها[٢].



(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٢٩٥).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٩٣).



﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٥﴾ [الجاثية:٣-٥]

لعل اختلاف الفواصل الثلاث لاختلاف الآيات في الدقة والظهور[١].

قال أولا ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ثم ﴿يُوقِنُونَ﴾ ثم ﴿يَعۡقِلُونَ﴾، وهو ترق من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى[٢].

﴿يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٨﴾ [الجاثية:٨]

إنما عطفه (بثم)؛ لاستعظام الإصرار على الكفر بعد سماعه آيات الله، واستبعاد ذلك في العقل والطبع[٣].

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩﴾ [الجاثية:٩]

لم يقل: (اتخذه)؛ للإشعار بأنه إذا أحس بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات خاض في الاستهزاء بجميع الآيات، ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه[٤].

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٧﴾ [الجاثية:١٧]

فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٠٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٢٦٤).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٢٩٩)، التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٧٠).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٠٦)، مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٢٩٩).

جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾[1].

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية:٢٨-٢٩]

إن قيل: كيف أضاف الكتاب تارة (إليهم) وتارة إلى (الله) تعالى؟

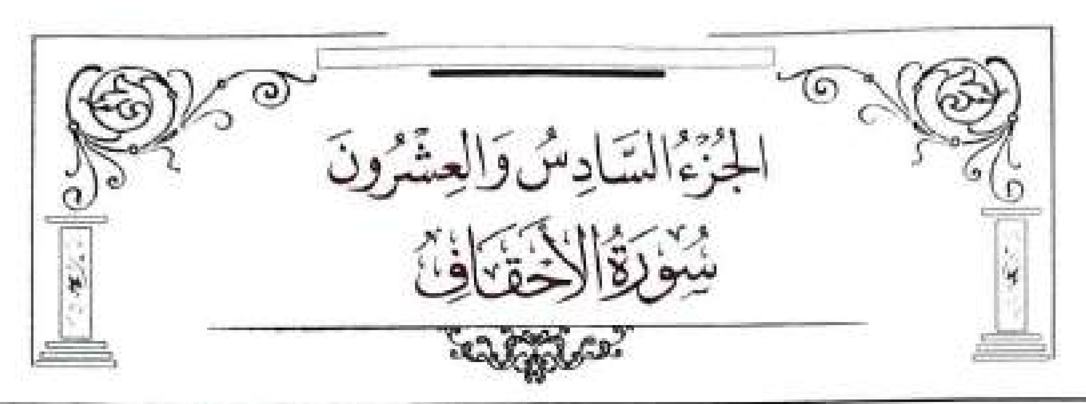
فالجواب: أنه أضافه إليهم؛ لأن أعمالهم ثابتة فيه، وأضافه إلى الله تعالى؛ لأنه مالكه، وأنه هو الذي أمر الملائكة أن يكتبوه[2].



---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٢٦٧).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٧٣).



الجزء السادس والعشرون
سورة الأحقاف

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [الأحقاف:٧]

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ﴾ المراد بالحق: الآيات، وبالذين كفروا: المتلو عليهم، فوُضع الظاهران موضع الضميرين، للتسجيل عليهم بالكفر، وللمتلو بالحق[(١)].

﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ بادأوه بالجحود ساعة أتاهم، وأول ما سمعوه، من غير إجالة فكر، ولا إعادة نظر[(٢)].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ۝١١﴾ [الأحقاف:١١]

وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيرا لسبقونا إليه[(٣)].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣﴾ [الأحقاف:١٣]

جمعوا بين التوحيد: الذي هو خلاصة العلم، والاستقامة في الأمور: التي هي منتهى العمل[(٤)].

﴿ثُمَّ﴾ لتراخي مرتبة الاستقامة، فإن لها الشأن كله[(٥)].

اجتمع الخلفاء الأربعة على تفسير الاستقامة؛ وهو مؤذن بأهميتها في الدين.

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٣٠٨).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٣٠٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٢٧٨).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١١٣).
(٥) جامع البيان، للإيجي (٤/ ١٢٥).

ولم أجد لفظة غيرها ذُكر فيها تفسير هؤلاء الأقطاب الأربعة رضوان الله عليهم[1].

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف:١٥]

✍ فيه دليل على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأنه إذا حط منه للفصال حولان لقوله: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة:٢٣٣] بقي ذلك، وبه قال الأطباء، ولعل تخصيص أقل الحمل وأكثر الرضاع؛ لانضباطهما، وتحقق ارتباط حكم النسب والرضاع بهما[2].

✍ فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله، عَزَّوَجَلَّ، ويعزم عليها[3].

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف:٢٠]

✍ لما وبخ الله الكافرين بالتمتع بالطيبات في الدنيا، آثر النبي ﷺ، وأصحابه والصالحون اجتناب نعيم العيش ولذته، وآثروا التقشف والزهد، رجاء أن يكون ثوابهم في الآخرة أكمل[4].

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف:٢٩]

✍ كانوا كلهم ذكرانا؛ لأن (النفر) الرجال دون النساء[5].

✍ استدل بهذه الآية على أنه في الجن نذر، وليس فيهم رسل[6].

---

(١) وجه النهار، للحربي (ص٣٦٦).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١١٣).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٢٨١).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ١١٠).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٧٨).
(٦) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٣٠٢).

﴿قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠﴾ [الأحقاف: ٣٠]

إنما قالوا: من بعد موسى؛ لأنهم كانوا على اليهودية، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام[١].

لم يذكروا عيسى؛ لأن الإنجيل فيه مواعظ، وقليل نادر من الأحكام، فهو كالمتمم للتوراة[٢].

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١﴾ [الأحقاف: ٣١]

هذا يدل على أنه كان مبعوثا إلى الجن، كما كان مبعوثا إلى الإنس، قال مقاتل: ولم يبعث الله نبيا إلى الإنس والجن قبله[٣].

قال أبو حنيفة رحمه الله: لا ثواب لهم إلا النجاة من النار لهذه الآية، وقال مالك وابن أبي ليلى وأبو يوسف ومحمد رحمهم الله: لهم الثواب والعقاب، وعن الضحاك: أنهم يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون؛ لقوله تعالى: (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان)[٤].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٣﴾ [الأحقاف: ٣٣]

كأنه لما صدَّرَ السورة بتحقيق المبدأ أراد ختمها بإثبات المعاد[٥].

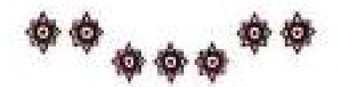
﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٣٥﴾ [الأحقاف: ٣٥]

قال قتادة: اعلموا والله ما يهلك على الله إلا هالك مشرك، ولى ظهره للإسلام،

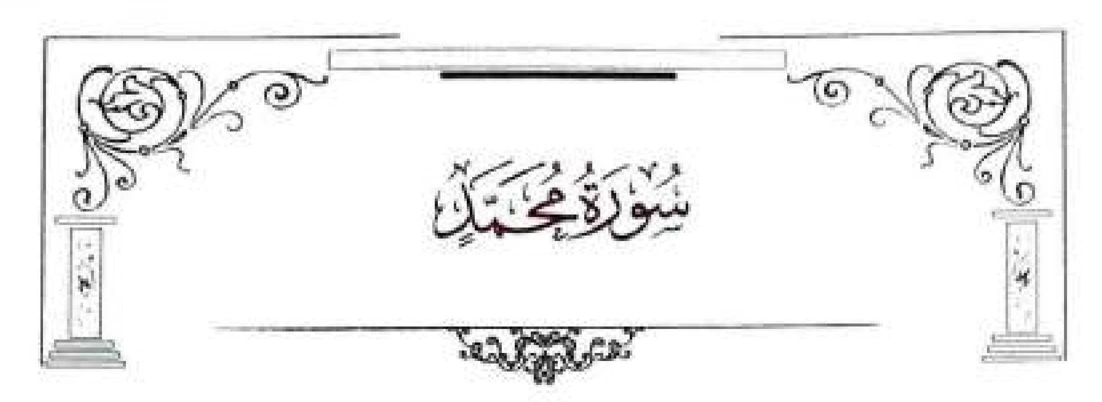
---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٣١٨).
(٢) جامع البيان، للإيجي (٤/ ١٣٤).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ١١٥).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٣١٨).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١١٧).

أو منافق صدق بلسانه وخالف بعمله. ولهذا قال قوم: ما في الرجاء لرحمة الله تعالى آية أقوى وأتم من هذه الآية[1].



(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ١١٧).



﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ [محمد:٢]

﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ وهو القرآن، وتخصيص الإيمان بالمنزل على رسوله من بين ما يجب الإيمان به لتعظيم شأنه، وأكد ذلك بالجملة الاعتراضية، وهي قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۝١٢﴾ [محمد:١٢]

﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ عبارة عن كثرة أكلهم، وعن غفلتهم عن النظر كالبهائم(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾ [محمد:١٧]

﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي: وفقهم للخير، وحفظهم من الشر، فذكر للمهتدين جزاءين: العلم النافع، والعمل الصالح(٣).

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ۝١٩﴾ [محمد:١٩]

إنما أمر بالاستغفار مع أنه مغفور له، لتستن به أمته في الاستغفار(٤).

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٣٢١).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٨١).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٧٨٦).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ١٢٥).

﴿ هذا إكرام من الله تعالى لهذه الأمة، حين أمر نبيهم ﷺ أن يستغفر لذنوبهم، وهو الشفيع المجاب فيهم[1].

﴿ سئل سفيان بن عيينة عن فضل العلم فقال: ألم تسمع قوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾، فأمر بالعمل بعد العلم[2].

﴿ العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته، بمعنى ما طلب منه علمه، وتمامه أن يعمل بمقتضاه، وهذا العلم الذي أمر الله به -وهو العلم بتوحيد الله- فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائنا من كان، **بل كل مضطر إلى ذلك. والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله أمور:**

﴿ **أحدها:** بل أعظمها: تدبر أسمائه وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلاله فإنها توجب بذل الجهد في التأله له، والتعبد للرب الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

﴿ **الثاني:** العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

﴿ **الثالث:** العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبته، والتأله له وحده لا شريك له.

﴿ **الرابع:** ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا داع إلى العلم، بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها.

﴿ **الخامس:** معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله، واتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ولا ينصرون من عبدهم، ولا ينفعونهم بمثقال ذرة، من جلب خير أو دفع شر، فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا هو وبطلان إلهية ما سواه.

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ١٢٥).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٨٢).

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك، وتواطؤها عليه.

السابع: أن خواص الخلق، الذين هم أكمل الخليقة أخلاقا وعقولا ورأيا وصوابا، وعلما -وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون- قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، وبديع حكمته، وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا الله، وأبداها في كتابه وأعادها عند تأمل العبد في بعضها، لا بد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك، فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتفقت، وقامت أدلة التوحيد من كل جانب، فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد، بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تزلزله الشبه والخيالات، ولا يزداد -على تكرر الباطل والشبه- إلا نموا وكمالا. هذا، وإن نظرت إلى الدليل العظيم، والأمر الكبير -وهو تدبر هذا القرآن العظيم، والتأمل في آياته- فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا يحصل في غيره[1].

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد:٢٤]

تنكير قلوب، للتهويل، كأنه قيل: لا يقادر قدرها في القسوة والإقفال، أو لأن المراد قلوب بعض، وإضافة الأقفال للدلالة على أقفال مناسبة لها، لا تجانس الأقفال المعهودة[2].

﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾ [محمد:٣٥]

فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء[3].

❁❁❁❁❁❁❁

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (٧٨٧).
(٢) ()أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٢٣).جامع البيان، للإيجي (٤/ ١٤٦).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٣٢٣).



﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح:١]

- جيء به على لفظ الماضي؛ لأنها في تحققها بمنزلة الكائنة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر عنه، وهو الفتح مالا يخفى[(١)].

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح:٢]

- هذا من خصائصه صلوات الله وسلامه عليه التي لا يشاركه فيها غيره.. وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ[(٢)].

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾ [الفتح:٧]

- كرر الإخبار بأن له ملك السماوات والأرض وما فيهما من الجنود، ليعلم العباد أنه تعالى هو المعز المذل، وأنه سينصر جنوده المنسوبة إليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣][(٣)].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾ [الفتح:١٠]

- قال عَزَّوَجَلَّ لرسوله ﷺ تشريفا له وتعظيما وتكريما: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[(٤)].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٣٣٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٣٢٨).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٧٩١).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٣٢٩).

﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ كناية عن عظمة تلك البيعة وقدسيتها، وتأييد الله ونصره؛ كأنهم بايعوا الله وصافحوه بتلك المبايعة[(١)].

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الفتح:١٣]

﴿فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: لهم، فأقيم الظاهر مقام الضمير، للإيذان بأن من لم يجمع بين الإيمانين: الإيمان بالله والإيمان برسوله، فهو كافر[(٢)].

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [الفتح:١٦]

دعا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إلى قتال بني حنيفة، وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إلى قتال فارس. والآية تدل على خلافة الشيخين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ لأن الله تعالى وعد على طاعتهما الجنة، وعلى مخالفتهما العذاب الأليم[(٣)].

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ﴾ كرر ذكرهم بهذا الاسم مبالغة في الذم، وإشعارًا بشناعة التخلف[(٤)].

﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح:٢٧]

قال أبو العباس أحمد بن يحيى: استثنى الله فيما يعلم، ليستثني الخلق فيما لا يعلمون[(٥)].

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح:٢٩]

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ قال أبو غزوة: كنا عند مالك بن أنس، فذكروا رجلا

---

(١) وجه النهار، للحربي (ص٣٧٢).

(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٣٣٧).

(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ١٣٨). مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٣٣٨).

(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٢٩).

(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ١٤٥).

يتقص أصحاب رسول الله ﷺ، فقال مالك: من أصبح من الناس وفي قلبه غيظ على أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية[1].

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في رواية عنه - بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية، ووافقه طائفة من العلماء على ذلك[2].



(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ١٤٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٣٦٢).



سورة الحجرات

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢)﴾ [الحجرات:٢]

هذا يدل على أنه يجب أن يعظم النبي ﷺ غاية التعظيم، فقد يأتي الإنسان الشيء اليسير في بابه، فيكون ذلك محبطا لعمله، مهلكا إياه وهو لا يعلم ذلك[١].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)﴾ [الحجرات:٤]

ذمهم الله بعدم العقل، حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه، كما أن من العقل وعلامته: استعمال الأدب، فأدب العبد عنوان عقله، وأن الله مريد به الخير[٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦)﴾ [الحجرات:٦]

تنكير الفاسق والنبأ للتعميم، وتعليق الأمر بالتبين على فسق المخبر يقتضي جواز قبول خبر العدل من حيث إن المعلق على شيء بكلمة إن عدم عند عدمه[٣].

استدل بهذه الآية القائلون بقبول خبر الواحد؛ لأن دليل الخطاب يقتضي: أن خبر غير الفاسق مقبول[٤].

نهى الله عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ١٥١).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٧٩٩).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٣٤).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٩٥).

قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر[١].

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧﴾ [الحجرات:٧]

إنما قال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ ولم يقل: لو أطاعكم، للدلالة على أنهم كانوا يريدون استمرار طاعته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لهم، والحق خلاف ذلك[٢].

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾ [الحجرات:٩-١٠]

فسماهم مؤمنين مع الاقتتال، وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم[٣].

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ قيّد بالعدل هاهنا؛ لأنه مظنة الحيف، لما أنه بعد المقاتلة [يعني الناصح لما تقاتل مع الباغي ربما أثار غضبه، فحين الإصلاح لا يراعي العدل][٤].

عدل من (بينهم) إلى ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾؛ للدلالة على أن المصالحة بين الجماعة أوكد وأوجب، إذا لزمت بين الأقل، فبين الأكثر ألزم[٥].

هذا أمر بالصلح، وبالعدل في الصلح، فإن الصلح قد يوجد، ولكن لا يكون بالعدل، بل بالظلم والحيف على أحد الخصمين، فهذا ليس هو الصلح المأمور به، فيجب أن لا يراعى أحدهما لقرابة، أو وطن، أو غير ذلك من المقاصد والأغراض،

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٣٧٠).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٩٦).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٣٧٤).
(٤) جامع البيان، للإيجي (٤/ ١٧١).
(٥) جامع البيان، للإيجي (٤/ ١٧١).

التي توجب العدول عن العدل[١].

وفي هاتين الآيتين من الفوائد، غير ما تقدم: أن الاقتتال بين المؤمنين مناف للأخوة الإيمانية، ولهذا كان من أكبر الكبائر، وأن الإيمان والأخوة الإيمانية لا تزول مع وجود القتال كغيره من الذنوب الكبار التي دون الشرك، وعلى ذلك مذهب أهل السنة والجماعة[٢].

وعلى وجوب الإصلاح، بين المؤمنين بالعدل.

وعلى وجوب قتال البغاة، حتى يرجعوا إلى أمر الله، وعلى أنهم لو رجعوا، لغير أمر الله، بأن رجعوا على وجه لا يجوز الإقرار عليه والتزامه، أنه لا يجوز ذلك، وأن أموالهم معصومة؛ لأن الله أباح دماءهم وقت استمرارهم على بغيهم خاصة، دون أموالهم[٣].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝١١﴾ [الحجرات:١١]

قيل: إن القوم يشمل الرجال والنساء؛ فيكون وجه ذكر النساء بعد ذلك في قوله: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾؛ لأن السخرية فيهن أكثر[٤].

المؤمنون كنفس واحدة، فإذا عاب المؤمن المؤمن، فكأنما عاب نفسه[٥].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ۝١٢﴾ [الحجرات:١٢]

إبهام الكثير؛ ليحتاط في كل ظن ويتأمل حتى يعلم أنه من أي القبيل[٦].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٠٠).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٠٠).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩١٥).
(٤) وجه النهار، للحربي (ص٣٧٦).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٣٥٤).
(٦) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٣٦).

۞ استدل بعضهم بهذه الآية على صحة (سد الذرائع) في الشرع؛ لأنه أمر باجتناب (كثير) من الظن، وأخبر أن (بعضه) إثم، فأمر باجتناب الأكثر من الإثم احترازًا من الوقوع في البعض الذي هو إثم[1].

﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [الحجرات:١٤]

۞ أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أولًا، فقيل: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾، مع أدب حسن؛ فلم يقل: كذبتم تصريحًا، ووضع: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾، الذي هو نفي ما ادعوا إثباته موضعه، واستغنى بقوله: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾، عن أن يقال: لا تقولوا آمنا، لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤداه النهي عن القول بالإيمان، ولم يقل: ولكن أسلمتم، ليكون خارجًا مخرج الزعم والدعوى كما كان قولهم: آمنا كذلك، ولو قيل: ولكن أسلمتم، لكان كالتسليم والاعتداد بقولهم، وهو غير معتد به[2].

۞ قد استفيد من هذه الآية الكريمة: أن الإيمان أخص من الإسلام.. ودل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم[3].

۞ ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ زيادة (ما) لمعنى التوقع، فإن هؤلاء قد آمنوا بعد[4].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات:١٥]

۞ لما كان الإيقان وزوال الريب ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان تنبيهًا على مكانه، وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعارا باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غضا جديدا[5].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٢٩٧).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٣٥٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٣٨٩).
(٤) جامع البيان، للإيجي (٤/ ١٧٥).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٣٥٩).



﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ [ق:٢]

قوله: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر؛ لقصد ذمّهم بالكفر[١].

﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤﴾ [ق:١٣-١٤]

﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾؛ لأن من كذب رسولًا واحدًا فقد كذب جميعهم.[٢]

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ فيه تسلية لرسول الله ﷺ وتهديد لهم[٣].

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾ [ق:١٥]

إنما نكّر الخلق الجديد، ليدل على عظمة شأنه، وأن حق من سمع به أن يخاف ويهتم به[٤].

إنما نكّر الخلق الجديد؛ لأنه كان غير معروف عند الكفار المخاطبين، وعرّف الخلق الأول؛ لأنه معروف معهود[٥].

﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣﴾ [ق:٣٣]

إن قيل: كيف قرن بالخشية الاسم الدال على الرحمة؟ **فالجواب**: أن ذلك لقصد المبالغة في الثناء على من يخشى الله؛ لأنه يخشاه مع علمه برحمته وعفوه، قال

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣٠٠).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٣٦٣).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٣٦٣).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٣٦٤).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣٠١).

ذلك الزمخشري[١].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق:٣٧]

في تنكير الـ ﴿قَلْبٌ﴾ وإبهامه: تفخيم، وإشعار بأن كل قلب لا يتفكر ولا يتدبر: كلا قلب[٢].

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ق:٤٤]

﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ تقديم الظرف يدل على الاختصاص، أي: لا يتيسر مثل ذلك الأمر العظيم إلا على القادر الذي لا يشغله شأن عن شأن[٣].

لا ينتفع بالذكرى إلا بهذه الأمور الثلاثة: سلامة القلب وصحته، وإحضاره ومنعه من التفرق والشرود، وإلقاء السمع وإصغائه[٤].

❀❀❀❀❀❀❀

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣٠٤).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٤٤).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٣٧٠).
(٤) وجه النهار، للحربي (ص٣٧٩).



سورة الذاريات

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝﴾ [الذاريات:٧-٨]

لعل النكتة في هذا القسم: تشبيه أقوالهم في اختلافها وتنافي أغراضها، بطرائق السموات في تباعدها واختلاف غاياتها(١).

﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝﴾ [الذاريات:١٠]

قال ابن الأنباري: والقتل إذا أخبر عن الله به كان بمعنى اللعنة؛ لأن من لعنه الله كان بمنزلة المقتول الهالك(٢).

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝﴾ [الذاريات:١٩]

هذا الحق غير الزكاة؛ بدليل أنه من مقتضيات الإحسان السابق الذكر، ويقويه: عدم تقديره بـ ﴿مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر:٤] كما في آية المعارج(٣).

﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝﴾ [الذاريات:٢١]

قال قتادة: من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة(٤).

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝﴾ [الذاريات:٢٥]

العدول إلى الرفع للدلالة على إثبات السلام، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيّوه به، أخذا بأدب الله، وهذا أيضًا من إكرامه لهم(٥).

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٤٦).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ١٧٤).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص٣٨١).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٤١٩).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٣٧٥).

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الذاريات: ٢٤]

- المراد بالاستفهام في مثل هذا: التفخيم والتهويل[1].

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ...﴾ **الآيات.. بعض ما تضمنته هذه القصة من الحكم والأحكام:**

منها: أن من الحكمة، قص الله على عباده نبأ الأخيار والفجار، ليعتبروا بهم وأين وصلت بهم الأحوال[2].

- **ومنها**: فضيلة إبراهيم الخليل، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، حيث ابتدأ الله قصته، بما يدل على الاهتمام بشأنها، والاعتناء بها.

- **ومنها**: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن إبراهيم الخليل، الذي أمر الله محمدًا وأمته أن يتبعوا ملته، وساقها الله في هذا الموضع، على وجه المدح له والثناء.

- **ومنها**: أن الضيف يكرم بأنواع الإكرام، بالقول، والفعل، لأن الله وصف أضياف إبراهيم بأنهم مكرمون، أي: أكرمهم إبراهيم، ووصف الله ما صنع بهم من الضيافة، قولا وفعلا ومكرمون أيضًا عند الله تعالى.

- **ومنها**: أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، قد كان بيته مأوى للطارقين والأضياف؛ لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان، وإنما سلكوا طريق الأدب، في الابتداء السلام، فرد عليهم إبراهيم سلامًا، أكمل من سلامهم وأتم، لأنه أتى به جملة اسمية، دالة على الثبوت والاستمرار.

- **ومنها**: مشروعية تعرف من جاء إلى الإنسان، أو صار له فيه نوع اتصال؛ لأن في ذلك، فوائد كثيرة.

- **ومنها**: أدب إبراهيم ولطفه في الكلام، حيث قال: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ ولم يقل: «أنكرتكم» وبين اللفظين من الفرق ما لا يخفى.

- **ومنها**: المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها؛ لأن خير البر عاجله، ولهذا بادر إبراهيم بإحضار قرى أضيافه.

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/٣٠٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص ٨١٠).

﴿ ومنها: أن الذبيحة الحاضرة، التي قد أعدت لغير الضيف الحاضر إذا جعلت له ليس فيها أقل إهانة، بل ذلك من الإكرام، كما فعل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأخبر الله أن ضيفه مكرمون.

﴿ ومنها: ما من الله به على خليله إبراهيم، من الكرم الكثير، وكون ذلك حاضرًا لديه وفي بيته معدًا، لا يحتاج إلى أن يأتي به من السوق، أو الجيران، أو غير ذلك.

﴿ ومنها: أن إبراهيم، هو الذي خدم أضيافه، وهو خليل الرحمن، وسيد من ضيف الضيفان.

﴿ ومنها: أنه قربه إليهم في المكان الذي هم فيه، ولم يجعله في موضع، ويقول لهم: « تفضلوا، أو ائتوا إليه » لأن هذا أيسر عليهم وأحسن.

﴿ ومنها: حسن ملاطفة الضيف في الكلام اللين، خصوصًا، عند تقديم الطعام إليه، فإن إبراهيم عرض عليهم عرضًا لطيفًا، وقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ولم يقل: «كلوا» ونحوه من الألفاظ، التي غيرها أولى منها، بل أتى بأداة العرض، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فينبغي للمقتدي به أن يستعمل من الألفاظ الحسنة، ما هو المناسب واللائق بالحال، كقوله لأضيافه: « ألا تأكلون» أو: «ألا تتفضلون؟ أو تشرفوننا وتحسنون إلينا» ونحو ذلك.

﴿ ومنها: أن من خاف من أحد لسبب من الأسباب، فإن عليه أن يزيل عنه الخوف، ويذكر له ما يؤمن روعه، ويسكن جأشه، كما قالت الملائكة لإبراهيم لما خافهم: ﴿لَا تَخَفْ﴾، وأخبروه بتلك البشارة السارة، بعد الخوف منهم.

﴿ ومنها: شدة فرح سارة، امرأة إبراهيم، حتى جرى منها ما جرى، من صك وجهها، وصرتها غير المعهودة.

﴿ ومنها: ما أكرم الله به إبراهيم وزوجته سارة من البشارة بغلام عليم[1].

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الذاريات:٢٦-٢٧]

﴿ من أدب المضيف أن يخفي أمره، وأن يبادر بالقرى من غير أن يشعر به الضيف

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨١٠).

حذرًا من أن يكفه، وكان عامة مال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ البقر[١].

تلطف في العبارة وعرض حسن، وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛ فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولا فقال: «نأتيكم بطعام؟» بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتي سمين مشوي، فقربه إليهم، لم يضعه، وقال: اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق، فافعل[٢].



(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٤٨)، مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٣٧٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٤٢١).



﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣﴾ [الطور:٢-٣]

✍ تنكيرهما للتعظيم والإشعار بأنهما ليسا من المتعارف فيما بين الناس[1].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ۝٢١﴾ [الطور:٢١]

✍ **إن قيل:** لِم قال: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ بالتنكير؟ **فالجواب:** أن المعنى: بشيء من الإيمان لم يكونوا به أهلًا لدرجة آبائهم، ولكنهم لحقوا بهم كرامة لآباء، فالمراد تقليل إيمان الذرية، ولكنه رفع درجتهم، فكيف إذا كان إيمانًا عظيمًا؟[2]

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ۝٢٤﴾ [الطور:٢٤]

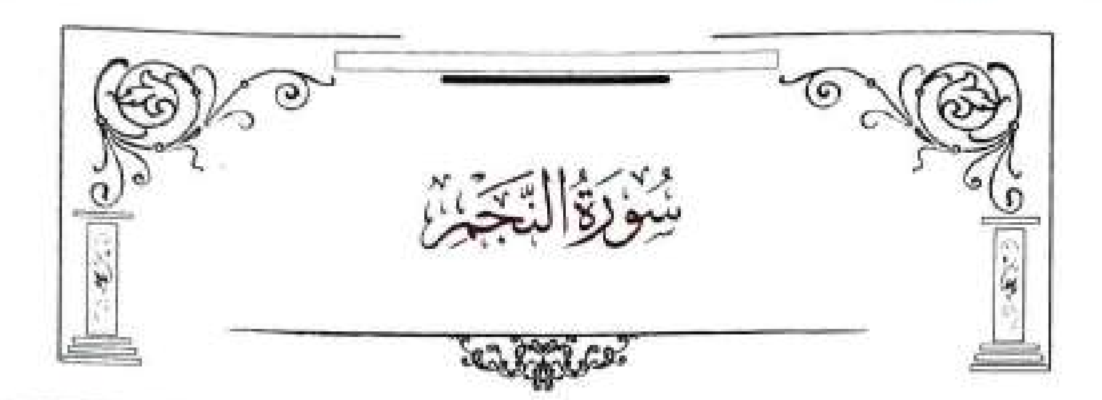
✍ ﴿مَّكۡنُونٞ﴾ في الصدف؛ لأنه رطبًا أحسن وأصفى، أو مخزون؛ لأنه لا يخزن إلا الثمين الغالي القيمة[3].

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾ [الطور:٤٩]

✍ ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ فإن العبادة فيه أشق على النفس وأبعد من الرياء؛ ولذلك أفرده بالذكر، وقدمه على الفعل[4].

❁❁❁❁❁❁❁❁

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٥٢).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣١٢).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٣٨٥).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٥٦).



﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ⁽٩⁾﴾ [النجم:٩]

هذه الصيغة تستعمل في اللغة لإثبات المخبر عنه ونفي ما زاد عليه، كقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤]، أي: ما هي بألين من الحجارة، بل هي مثلها أو تزيد عليها في الشدة والقسوة. وكذا قوله: ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء:٧٧]، وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات:١٤٧][1].

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ⁽١٠⁾﴾ [النجم:١٠]

في قوله: ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ إبهام مراد، يقتضي التفخيم والتعظيم[2].

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ⁽١٦⁾﴾ [النجم:١٦]

هو تعظيم وتكثير لما يغشاها، فقد عُلم بهذه العبارة أن ما يغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله تعالى وجلاله أشياء لا يحيط بها الوصف[3].

﴿مَا يَغْشَىٰ﴾ فيه إبهام؛ لقصد التعظيم[4].

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ⁽١٧⁾﴾ [النجم:١٧]

هذا وصف أدبه ﷺ في ذلك المقام، إذ لم يلتفت إلى جانب، ولم يمل بصره، ولم يمده أمامه إلى حيث ينتهي[5].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٤٤٦).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣١٧). جامع البيان، للإيجي (٤/ ٢٠٩).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٣٩١).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣١٨).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ١٩٨). جامع البيان، للإيجي (٤/ ٢١٠).

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم:١٨]

كقوله: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ [طه:٢٣]، وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع؛ لأنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾، ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس[1].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم:٣١]

إنما يقدر على مجازاة المحسن والمسيء إذا كان كثير الملك، لذلك أخبر به في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ﴾[2].

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم:٣٢]

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ لعله عقب به وعيد المسيئين ووعد المحسنين؛ لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته، ولا يتوهم وجوب العقاب على الله تعالى[3].

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم:٣٧]

تخصيصه بذلك؛ لاحتماله ما لم يحتمله غيره، كالصبر على نار نمروذ حتى أتاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ حين ألقي في النار فقال: ألك حاجة، فقال: أما إليك فلا، وذبح الولد، وأنه كان يمشي كل يوم فرسخًا يرتاد ضيفًا، فإن وافقه أكرمه وإلا نوى الصوم[4].

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [النجم:٤٩]

يعني العبور، وهي أشد ضياء من الغميصاء، عبدها أبو كبشة أحد أجداد النبي

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٤٥٤).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٢٠١).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٦٠).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٦١).

ﷺ، وخالف قريشًا في عبادة الأوثان، ولذلك كانوا يسمون الرسول ﷺ ابن أبي كبشة، ولعل تخصيصها للإشعار بأنه عليه الصلاة والسلام وإن وافق أبا كبشة في مخالفتهم، خالفه أيضًا في عبادتها[1].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾ [النجم:٥٥]

والمعدودات وإن كانت نعمًا ونقمًا، سماها ﴿ءَالَآءِ﴾ من قِبل ما في نقمه من العبر والمواعظ للمعتبرين، والانتقام للأنبياء والمؤمنين[2].



(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٦٢).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٦٢).



﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر:١٢]

وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة، وأصله: وفجرنا عيون الأرض، فغير للمبالغة[١].

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر:١٧]

قال سعيد بن جبير: ليس من كتب الله كتاب يقرأ كله ظاهرا إلا القرآن[٢].

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ معناه: الحث على قراءة القرآن، ودرسه، وتعلمه[٣].

كرر ذلك في كل قصة إشعارًا بأن تكذيب كل رسول مقتض لنزول العذاب واستماع كل قصة مستدع للادكار والاتعاظ، واستئنافًا للتنبيه والاتعاظ لئلا يغلبهم السهو والغفلة، وهكذا تكرير قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣]، ونحوهما[٤].

﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر:٢٠]

شُبِّهوا بأعجاز النخل؛ لأن الريح كانت تقطع رؤوسهم فتبقى أجسادا بلا رؤوس[٥].

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾ [القمر:٣٩-٤٠]

فائدة تكرير: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٦٥).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٢٠٩).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٢٠٩).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٦٧).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٤٠٣).

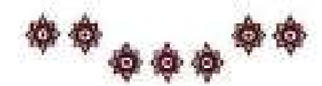
ادكارا واتعاظا، وان يستأنفوا تنبها واستيقاظا إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه، وهذا حكم التكرير في قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ عند كل نعمة عدها، وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:١٥] عند كل آية أوردها، وكذلك تكرير الأنبياء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب، مصورة للأذهان، مذكورة غير منسية في كل أوان[١].

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر:٤٩]

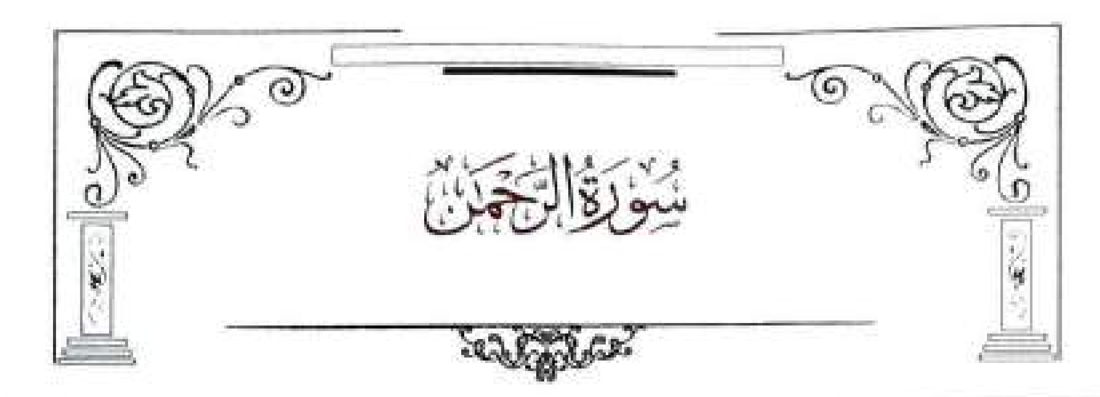
يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها[٢].

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر:٥٥]

قادر، وفائدة التنكير فيهما أن يعلم أن لا شيء إلا هو تحت ملكه وقدرته[٣].



(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٤٠٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٤٨٢).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٤٠٨).



﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾ [الرحمن:١-٢]

لما كانت السورة مقصورة على تعداد النعم الدنيوية والآخروية صدرها بـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، وقدم ما هو أصل النعم الدينية وأجلها: وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه، فإنه أساس الدين ومنشأ الشرع وأعظم الوحي وأعز الكتب؛ إذ هو بإعجازه واشتماله على خلاصتها مصدق لنفسه ومصداق لها[1].

قدم من نعمة الدين ما هو أعلى مراتبها وأقصى مراقيها، وهو إنعامه بالقرآن، وتنزيله، وتعليمه؛ لأنه أعظم وحي الله رتبة، وأعلاه منزلة، وأحسنه في أبواب الدين أثرا، وهو سنام الكتب السماوية[2].

﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾ [الرحمن:٥-٦]

لم يذكر العاطف في الجمل الأول، ثم جيء به بعد؛ لأن الأول وردت على سبيل التعداد تبكيتا لمن أنكر آلاءه، كما يبكت منكر أيادي المنعم عليه من الناس بتعديدها عليه في المثال المذكور، ثم رد الكلام إلى منهاجه بعد التبكيت في وصل ما يجب وصله، للتناسب والتقارب بالعطف، وبيان التناسب: أن الشمس والقمر سماويان والنجم والشجر أرضيان، فبين القبيلين تناسب من حيث التقابل، وأن السماء والأرض لا تزالان تذكران قرينتين، وأن جري الشمس والقمر بحسبان من جنس الانقياد لأمر الله فهو مناسب لسجود النجم والشجر[3].

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٧٠).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٤٠٩).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٤١٠).

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧﴾ [الرحمن:٧]

كأنه لما وصف السماء بالرفعة من حيث إنها مصدر القضايا والأقدار، أراد وصف الأرض بما فيها مما يظهر به التفاوت ويعرف به المقدار ويسوى به الحقوق والمواجب(١).

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن:٩]

كرر لفظ الميزان تشديدًا للتوصية به، وتقوية للأمر باستعماله، والحث عليه(٢).

﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١﴾ [الرحمن:١١]

يذكر النخل في سياق الامتنان بالفاكهة والشجر، **ولا تذكر ثمرته لأمرين:**

١- أن ثمرة النخل ذات أطوار؛ فتارة تكون بلحا أو بسرا، وتارة تكون رطبا، وتارة تكون تمرا، ولا يغني ذكر واحد منها عن الباقي.

٢- أن النخل كله منافع(٣).

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ [الرحمن:١٣]

كررت هذه الآية في هذه السورة إحدى وثلاثين مرة، ذكر ثمانية منها عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وبدائع صنعه ومبدأ الخلق ومعادهم، ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها على عدد أبواب جهنم، وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنتين وأهلهما على عدد أبواب الجنة، وثمانية أخرى بعدها للجنتين اللتين دونهما، فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها فتحت له أبواب الجنة وأغلقت عنه أبواب جهنم -نعوذ بالله منها- والله أعلم(٤).

﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٢٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٨﴾ [الرحمن:٢٦-٢٨]

كل ما ذكر الله تعالى من قوله: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا﴾ إلى ههنا [أي: قوله: ﴿يَطُوفُونَ

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٧٠).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٤١٠).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص٣٩٢).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٤١٨).

بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾] مواعظ ومزاجر، وتهديد وتخويف، وهي كلها نعمة من الله تعالى الانزجارية عن المعاصي، ولذلك ختم كل آية بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾(١).

✍ إنما عاد الضمير في ﴿عَلَيْهَا﴾ إلى غير مذكور؛ لأنه معلوم(٢).

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الرحمن:٥٤]

✍ نبّه على شرف الظهارة بشرف البطانة، وهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى.. قال ابن مسعود: أخبرتم بالبطائن، فكيف بالظهاير؟ وقال أبو هريرة: هذه البطائن فما ظنكم بالظواهر؟ وقيل لسعيد بن جبير: البطائن من إستبرق، فما الظواهر؟ فقال: هذا مما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]، وقال ابن عباس: وصف البطائن، وترك الظواهر؛ لأنه ليس في الأرض أحد يعرف ما الظواهر(٣).

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾ [الرحمن:٥٦]

✍ قيل: أراد لم يطمث نساء الإنس إنس، ولم يطمث نساء الجن جن، وهذا القول يفيد بأن الجن يدخلون الجنة ويتلذذون فيها بما يتلذذ البشر(٤).

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الرحمن:٦٨]

✍ الرمان والنخل من أفضل الفاكهة، وإنما فصلا بالواو لفضلهما، بدليل قوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة:٩٨] فصلا بالواو لفضلهما.. والعرب تذكر أشياء جملة، ثم تخص شيئا منها بالتسمية، تنبيها على فضل فيه(٥).

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ [الرحمن:٧٢]

✍ المقصورات: المحجوبات؛ لأن النساء يمدحن بملازمة البيوت، ويذممن

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٢٢٥).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص٣٩٤).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٢٢٦). تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٥٠٣).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣٣١).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٢٢٨).

بكثرة الخروج[١].

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ وهناك قال: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، ولا شك أن التي قد قصرت طرفها بنفسها أفضل ممن قصرت، وإن كان الجميع مخدرات[٢].

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ۝٧٦﴾ [الرحمن:٧٦]

العرب تسمي الثياب الفاخرة والبسط النفيسة: عبقريات؛ مبالغة في حسنها[٣].



(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣٣٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٥٠٨).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص٣٩٧).



﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨﴾ [الواقعة:٨]

تعجب من حالهم في السعادة، وتعظيم لشأنهم، كأنه قال: ما هم، وأي شيء هم[١].

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦﴾ [الواقعة:١٦]

ينظر بعضهم في وجوه بعض، ولا ينظر بعضهم في أقفاء بعض، وصفوا بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق، وصفاء المودة[٢].

﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١﴾ [الواقعة:٣١]

كأنه لما شبه حال السابقين في التنعم بأعلى ما يتصور لأهل المدن، شبه حال أصحاب اليمين بأكمل ما يتمناه أهل البوادي إشعارًا بالتفاوت بين الحالين[٣].

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝٤٠﴾ [الواقعة:٣٩-٤٠]

تأمل كيف جعل أصحاب اليمين ثلة من الأولين وثلة من الآخرين، بخلاف السابقين؛ فإنهم قليل في الآخرين؛ وذلك لأن السابقين في أول هذه الأمة أكثر منهم في آخرها؛ لفضيلة السلف الصالح، وأما أصحاب اليمين فكثير في أولها وآخرها[٤].

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾ [الواقعة:٦٢]

فيه دليل صحة القياس؛ حيث جهلهم في ترك قياس النشأة الأخرى على

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٤٢٠).

(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٤٢١).

(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٧٩).

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣٣٦).

الأولى[1].

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ٦٥﴾ [الواقعة:٦٥]

إن قيل: لِم ثبتت اللام في قوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ وسقطت في قوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾؟ **فالجواب من وجهين:**

أحدهما: أنه أغنى إثباتها أولًا عن إثباتها ثانيًا مع قرب الموضعين.

والآخر: أن هذه اللام تدخل للتأكيد، فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب؛ للدلالة على أن الطعام أوكد من الشراب؛ لأن الإنسان لا يشرب إلا بعد أن يأكل[2].

﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ٧٣﴾ [الواقعة:٧٣]

بدأ بذكر خلق الانسان، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾؛ لأن النعمة فيه سابقة على جميع النعم، ثم بما به قوامه، وهو الحب، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾، ثم بما يعجن به ويشرب عليه، وهو الماء، ثم بما يخبز به وهو النار، فحصول الطعام بمجموع الثلاثة، ولا يستغن عنه الجسد ما دام حيًّا[3].

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ٨٢﴾ [الواقعة:٨٢]

قال ابن عطية: أجمع المفسرون على أن الآية توبيخ للقائلين في المطر: إنه نزل بنوء كذا وكذا[4].

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ٩٠﴾ [الواقعة:٩٠]

يعني أصحاب الشمال، وإنما وصفهم بأفعالهم زجرًا عنها وإشعارًا بما أوجب لهم ما أوعدهم به[5].

---

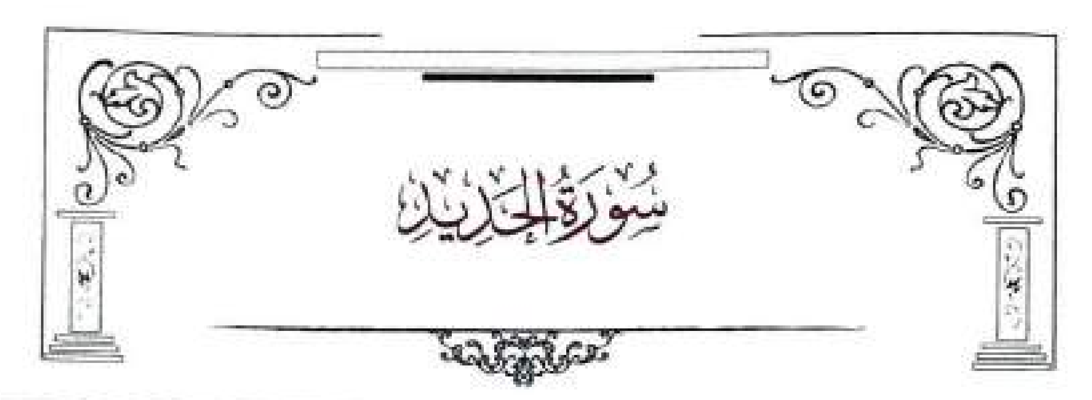
(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٤٢٦). التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣٣٧).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣٣٨).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٤٢٨).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣٤٠).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٨٤).

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الواقعة:٩٦]

تعقيب الأمر بالتسبيح لما عدد من بدائع صنعه وإنعامه، إما لتنزيهه تعالى عما يقول الجاحدون لوحدانيته الكافرون لنعمته، أو للتعجب من أمرهم في غمط نعمه، أو للشكر على ما عدها من النعم[1].



(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٨٢).



﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١﴾ [الحديد:١]

﴿سَبَّحَ﴾ جاء في مفتتح السور بلفظ الماضي، والمضارع، والمصدر، والأمر، إشعارا بأن الموجودات من الابتداء إلى الانتهاء مقدسّة لذاته طوعا أو كرها(١).

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾ [الحديد:٤]

لعل تقديم الخلق على العلم لأنه دليل عليه(٢).

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٠﴾ [الحديد:١٠]

﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ إنما نبه بهذا لئلا يهدر جانب الآخر بمدح الأول دون الآخر، فيتوهم متوهم ذمه؛ فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه، مع تفضيل الأول عليه(٣).

استدل ابن حزم بهذه الآية على أن الصحابة كلهم في الجنة(٤).

﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١١﴾ [الحديد:١١]

استعير لفظ القرض ليدل على التزام الجزاء(٥).

---

(١) جامع البيان، للإيجي (٤/ ٢٥٨).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٨٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ١٤).
(٤) وجه النهار، للحربي (ص٤٠٢).
(٥) حاشية مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٤٣٥).

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحديد:١٢]

إنما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾؛ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم، فيجعل النور في الجهتين شعارًا لهم وآية؛ لأنهم هم الذين بحسناتهم سعدوا، أو بصحائفهم البيض أفلحوا، فإذا ذهب بهم إلى الجنة ومروا على الصراط يسعون، سعى بسعيهم ذلك النور[١].

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد:١٦]

قال القرطي: يجب أن يزداد المؤمن إيمانا ويقينا وإخلاصا في طول صحبة الكتاب[٢].

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد:١٧]

فيه إشارة إلى أنه تعالى يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضلتها، ويفرج الكروب بعد شدتها[٣].

﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد:٢١]

استدل بها قوم على أن الصلاة في أول الوقت أفضل[٤].

ذكر العرض دون الطول؛ لأن كل ما له عرض وطول، فإن عرضه أقل من طوله، فإذا وصف عرضه بالبسطة، عرف أن طوله أبسط[٥].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٤٣٦).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٢٥٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٢١).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣٤٧).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٤٤٠).

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد:٢٣]

إن قيل: إن الإنسان لا يملك نفسه أن يفرح بالخير ويحزن للشر، فالجواب: أن النهي عن الفرح إنما هو عن الذي يقود إلى الكبر والطغيان، وعن الحزن الذي يخرج عن الصبر والتسليم[١].

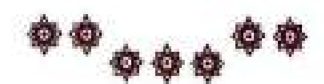
﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد:٢٥]

هذا دليل على أن الرسل متفقون في قاعدة الشرع، وهو القيام بالقسط، وإن اختلفت صور العدل، بحسب الأزمنة والأحوال.[٢]

قرن تعالى في هذا الموضع بين الكتاب والحديد؛ لأن بهذين الأمرين ينصر الله دينه، ويعلي كلمته، بالكتاب الذي فيه الحجة والبرهان، والسيف الناصر بإذن الله، وكلاهما قيامه بالعدل والقسط، الذي يستدل به على حكمة الباري وكماله، وكمال شريعته التي شرعها على ألسنة رسله[٣].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحٗا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الحديد:٢٦]

﴿نُوحٗا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ خصا بالذكر؛ لأنهما أبوان للأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ[٤].



(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣٤٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٤٢).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٤٢).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٤٤٢).



الجزء الثامن والعشرون
سورة المجادلة

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة:١]

في هذه الآيات، عدة أحكام: منها: لطف الله بعباده واعتناؤه بهم، حيث ذكر شكوى هذه المرأة المصابة، وأزالها ورفع عنها البلوى، بل رفع البلوى بحكمه العام لكل من ابتلي بمثل هذه القضية(١).

ومنها: أن الظهار مختص بتحريم الزوجة؛ لأن الله قال: ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾، فلو حرم أمته، لم يكن ذلك ظهارا، بل هو من جنس تحريم الطعام والشراب، تجب فيه كفارة اليمين فقط.

ومنها: أنه لا يصح الظهار من امرأة قبل أن يتزوجها؛ لأنها لا تدخل في نسائه وقت الظهار، كما لا يصح طلاقها، سواء نجز ذلك أو علقه.

ومنها: أن الظهار محرم؛ لأن الله سماه منكرا من القول وزورا.

ومنها: تنبيه الله على وجه الحكم وحكمته؛ لأن الله تعالى قال: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾.

ومنها: أنه يكره للرجل أن ينادي زوجته ويدعوها باسم محارمه، كقوله «يا أمي» «يا أختي» ونحوه؛ لأن ذلك يشبه المحرم.

ومنها: أن الكفارة إنما تجب بالعود لما قال المظاهر، على اختلاف القولين السابقين، لا بمجرد الظهار.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٤٣).

ومنها: أنه يجزئ في كفارة الرقبة، الصغير والكبير، والذكر والأنثى، لإطلاق الآية في ذلك.

ومنها: أنه يجب إخراجها إذا كانت عتقا أو صياما قبل المسيس، كما قيده الله، بخلاف كفارة الإطعام، فإنه يجوز المسيس والوطء في أثنائها.

ومنها: أنه لعل الحكمة في وجوب الكفارة قبل المسيس، أن ذلك أدعى لإخراجها، فإنه إذا اشتاق إلى الجماع، وعلم أنه لا يمكن من ذلك إلا بعد الكفارة، بادر بإخراجها.

ومنها: أنه لا بد من إطعام ستين مسكينا، فلو جمع طعام ستين مسكينا، ودفعها لواحد أو أكثر من ذلك، دون الستين لم يجز ذلك؛ لأن الله قال: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ﴾[1].

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾﴾ [المجادلة:٣]

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ هذا القيد ذكر في الصيام وتحرير الرقبة ولم يذكر في الإطعام؛ ولهذا ذهب فريق من أهل العلم إلى أن صاحب الإطعام له أن يطأ قبل الكفارة، والآخرون ذهبوا إلى حمل المطلق على المقيد[2].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المجادلة:٩]

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: آية في كتاب الله لم يعمل بها أحد قبلي ولن يعمل بها أحد بعدي، آية النجوى: كان لي دينار فبعته بعشرة دراهم، فكلما أردت أن أناجي رسول الله ﷺ قدمت درهما فنسخت بالآية الأخرى: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ الآية[3].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٤٣).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص٤٠٥).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٢٦٦).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المجادلة:١٤]

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ في هذا التقييد دليل على أن الكذب يعم ما يعلم المخبر عدم مطابقته وما لا يعلم[١].

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾ [المجادلة:١٦]

﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾ في مقابلة ما امتهنوا من الحلف باسم الله العظيم في الأيمان الكاذبة الحانثة[٢].

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة:٢٢]

قال ابن عباس: قواهم بنصر منه في الدنيا على عدوهم.. سمى نصره إياهم روحا؛ لأن به يحيا أمرهم[٣].

في قوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ سرٌّ بديع، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم، والفضل العميم[٤].

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٩٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٥٢).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٢٦٨).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٥٥). جامع البيان، للإيجي (٤/ ٢٨٣).



﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر:٢]

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ تغيير النظم وتقديم الخبر وإسناد الجملة إلى ضميرهم للدلالة على فرط وثوقهم بحصانتها واعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة بسببها[١].

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ استدل به على أن القياس حجة، من حيث أنه أمر بالمجاوزة من حال إلى حال، وحملها عليها في حكم، لما بينهما من المشاركة المقتضية له[٢].

﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر:٦-٧]

إنما لم يدخل العاطف على هذه الجملة؛ لأنها بيان للأولى، فهي منها غير أجنبية عنها، بيّن لرسول الله ﷺ ما يصنع بما أفاء الله عليه[٣].

لا تعارض بين هذه الآية وبين آية الأنفال؛ فإن آية الأنفال في حكم الغنيمة التي

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٩٨).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٩٨).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٤٥٧).

تؤخذ بالقتال وإيجاف الخيل والركاب، فهذا يخرج منه الخمس ويقسم باقيه على الغانمين، وأما هذه الآية ففي حكم الفيء وهو ما يؤخذ من أموال الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب.. وانظر كيف ذكر هنا لفظ الفيء وفي الأنفال لفظ الغنيمة وقد تقرر في الفقه الفرق بين الفيء والغنيمة، وأن حكمهما مختلف[١].

استدل بها عبد الله بن مسعود على: المنع من لبس المحرم المخيط، ولعن الواشمة والواصلة في (القرآن)؛ لورود ذلك عن رسول الله ﷺ[٢].

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩]

قيل: سمى المدينة بالإيمان؛ لأنها مظهره ومصيره[٣].

إن قيل: كيف قال: ﴿تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَنَ﴾ وإنما تتبوّأ الدار، أي: تسكن ولا يتبوأ الإيمان؟ **فالجواب من وجهين**:

الأول: أن معناه تبوءوا الدار وأخلصوا الإيمان.

الثاني: أن المعنى: أنهم جعلوا الإيمان كأنه موطن لهم لتمكنهم فيه، كما جعلوا المدينة كذلك[٤].

التعريف في الدار؛ للتنويه، كأنها الدار التي تستحق أن تسمى دارا[٥].

إن قيل: قوله: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ يقتضي أن الأنصار سبقوا المهاجرين بنزول المدينة وبالإيمان، فأما سبقهم لهم بنزول المدينة فلا شك فيه؛ لأنها كانت بلدهم، وأما سبقهم لهم بالإيمان فمشكل؛ لأن أكثر المهاجرين أسلم قبل الأنصار، **فالجواب من وجهين**:

أحدهما: أنه أراد بقوله: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل هجرتهم.

والآخر: أنه أراد تبوؤا الدار مع الإيمان معًا، أي: جمعوا بين الحالتين قبل المهاجرين؛

---

(١) جامع البيان، للإيجي (٤/ ٢٨٩).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣٦٠).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٠٠).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣٦٠).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣٦٠).

لأن المهاجرين إنما سبقوهم بالإيمان لا بتبوّئ الدار، فيكون الإيمان على هذا مفعولًا معه، وهذا الوجه أحسن[١].

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر: ١٠]

كل من لم يترحم على جميع أصحاب رسول الله ﷺ، وكان في قلبه غل على أحد منهم، فإنه ليس ممن عناه الله بهذه الآية؛ لأن الله تعالى رتب المؤمنين على ثلاث منازل: المهاجرين، والأنصار، والتابعين الموصوفين بما ذكر، فمن لم يكن من التابعين بهذه الصفة، كان خارجا عن أقسام المؤمنين[٢].

وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة: أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء[٣].

هذا دعاء شامل لجميع المؤمنين، السابقين من الصحابة، ومن قبلهم ومن بعدهم، وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض، بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضا[٤].

وصف الله من بعد الصحابة بالإيمان، لأن قولهم: ﴿سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ دليل على المشاركة فيه، وأنهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله، وهم أهل السنة والجماعة، الذين لا يصدق هذا الوصف التام إلا عليهم، ووصفهم بالإقرار بالذنوب والاستغفار منها، واستغفار بعضهم لبعض، واجتهادهم في إزالة الغل والحقد عن قلوبهم لإخوانهم المؤمنين، لأن دعاءهم بذلك مستلزم لما ذكرنا، ومتضمن لمحبة بعضهم بعضا، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، وأن ينصح له حاضرا وغائبا، حيا وميتا[٥].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣٦٠).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٢٧٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٧٣).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٥١).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٥١).

ﭼ ودلت الآية الكريمة على أن هذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض(١).

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر: ١٤]

ﭼ ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ فإن العقل هو الداعي إلى الاتحاد والاتفاق(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحشر: ١٨]

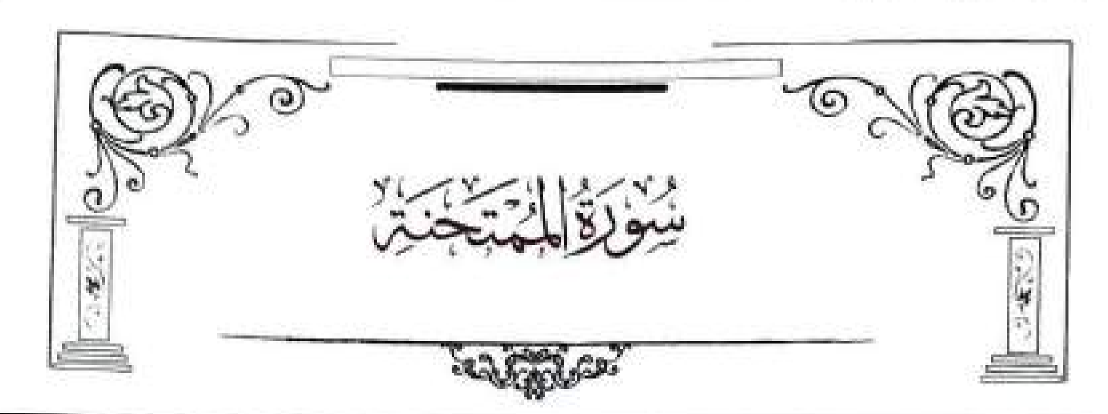
ﭼ ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ﴾ نكر النفس تقليلًا للأنفس النواظر فيما قدمن للآخرة، كأنه قال: فلتنظر نفس واحدة في ذلك، ﴿مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ يعني يوم القيامة، سماه باليوم الذي يلي يومك تقريبًا له، أو عبر عن الآخرة بالغد، كأن الدنيا والآخرة نهاران يوم وغد، وتنكيره لتعظيم أمره أي أنه لا يعرف كنهه لعظمه(٣).

ﭼ **إن قيل**: لِم كرَّر الأمر بالتقوى؟ **فالجواب من وجهين: أحدهما**: أنه تأكيد، **والآخر** وهو الأحسن: أنه أمر أولًا بالتقوى استعدادًا ليوم القيامة، ثم أمر به ثانيًا؛ لأن الله خبير بما يعلمون، فلما اختلف الموجبات كرره مع كل واحد منهما(٤).

ﭼ هذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها، فإن رأى زللا تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصرا في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه، وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء بلا محالة(٥).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٥١).
(٢) جامع البيان، للإيجي (٤/ ٢٩٢).
(٣) ينظر: أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٠٢)، مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٤٦٢).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/ ٣٦٢).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٥٣).



سُورَةُ المُمتَحنَة

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢﴾ [الممتحنة:٢]

قال الزمخشري: وإنما قال: ﴿وَوَدُّوا﴾ بلفظ الماضي بعد أن ذكر جواب الشرط بلفظ المضارع؛ لأنهم أرادوا كفركم قبل كل شيء(١).

﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة:٨]

إذا نهى عن الظلم في حق المشرك، فكيف في حق المسلم؟(٢)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾ [الممتحنة:١٠]

﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾ العلم الذي تبلغه طاقتكم، وهو الظن الغالب بظهور الأمارات، وتسمية الظن علمًا يؤذن بأن الظن الغالب وما يفضي إليه القياس جارٍ مجرى العلم، وصاحبه غير داخل في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦](٣).

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/ ٣٦٥).

(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٤٦٩).

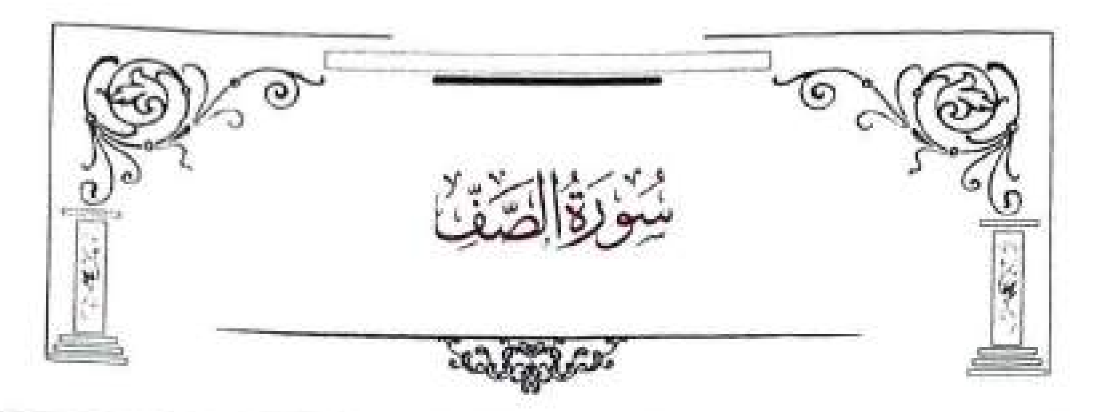
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٠٦).مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٤٧٠). جامع البيان، للإيجي (٤/ ٣٠٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة:١٢]

أجمع العلماء على أنه ليس للإمام أن يشترط عليهن هذا، فإما أن تكون منسوخة ولم يذكر الناسخ، أو يكون ترك هذه الشروط؛ لأنها قد تقررت وعلمت من الشرع بالضرورة، فلا حاجة إلى اشتراطها[1].

التقييد بالمعروف مع أن الرسول ﷺ لا يأمر إلا به: تنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق[2].

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣٦٩).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٠٧).



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف:٢]

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقا، سواء ترتب عليه غرم للموعود أم لا(١).

﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف:٣]

قصد في ﴿كَبُرَ﴾ [الصف:١] التعجب من غير لفظه.. ومعنى التعجب: تعظيم الأمر في قلوب السامعين؛ لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره، وأسند إلى: ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ ونصب ﴿مَقۡتًا﴾ على التمييز، وفيه دلالة على أن قولهم مالا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه.. واختير لفظ المقت؛ لأنه أشد البغض(٢).

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الصف:٥]

هذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعباده ليس ظلما منه، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم، فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعد ما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال والزيغ الذي لا حيلة لهم في دفعه وتقليب القلوب عقوبة لهم وعدلا منه بهم كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝١١٠﴾ [الأنعام:١١٠](٣).

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ١٠٥).
(٢) مدارك التنزيل للنسفي (٣/ ٤٧٥).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٥٣).

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف:٦]

لم يقل: يا قوم كما قال موسى؛ لأنه لم يكن له نسب من جهة الأب، وقيل: لأنه يرى أنه هو وهم من «أتباع» موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ[1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ [الصف:١٠]

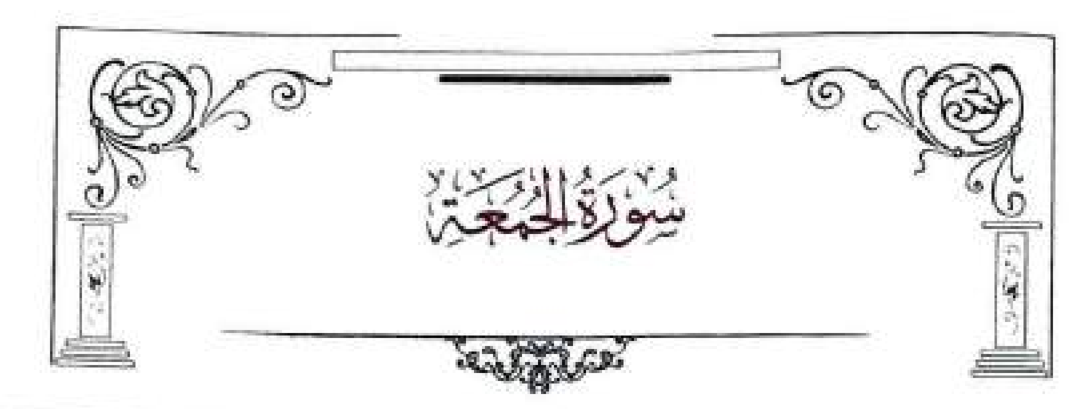
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾ جعل ذلك العمل بمنزلة التجارة؛ لأنهم يربحون فيها رضا الله تعالى، ونيل جنته، والنجاة من النار[2].

﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الصف:١١]

﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إنما جيء به على لفظ الخبر للإيذان بوجوب الامتثال، وكأنه امتثل، فهو يخبر عن إيمان وجهاد موجودين[3]، إيذانًا بأن ذلك مما لا يترك[4].



(١) وجه النهار، للحربي (ص٤١٠).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٢٩٢).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٤٧٧).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٠٩).



سورة الجمعة

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة:٢]

تخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر[١].

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥﴾ [الجمعة:٥]

هذا المثل يلحق من لم يفهم معاني القرآن ولم يعمل به، ولهذا قال ميمون بن مهران: يا أهل القرآن، اتبعوا القرآن قبل أن يتبعكم، ثم تلا هذه الآية[٢].

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [الجمعة:٨]

لم يقل: مدرككم؛ تأكيدا في أنهم لا يخلصون منه، ولا فوت، ولا ينجيهم فرار[٣].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾ [الجمعة:٩]

﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ إنما خص البيع من بينها؛ لأن يوم الجمعة يتكاثر فيه البيع والشراء عند الزوال[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ١١٥).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٢٩٥).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص٤١١).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٤٨٢).

لهذا اتفق العلماء رَضِوَاللَّهُعَنهُ على تحريم البيع بعد النداء الثاني[(١)].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [الجمعة:٩-١١]

في هذه الآيات فوائد عديدة: منها: أن الجمعة فريضة على جميع المؤمنين، يجب عليهم السعي لها، والمبادرة والاهتمام بشأنها[(٢)].

ومنها: أن الخطبتين يوم الجمعة، فريضة يجب حضورهما، لأنه فسر الذكر هنا بالخطبتين، فأمر الله بالمضي إليه والسعي له.

ومنها: مشروعية النداء للجمعة، والأمر به.

ومنها: النهي عن البيع والشراء، بعد نداء الجمعة، وتحريم ذلك، وما ذاك إلا لأنه يفوت الواجب ويشغل عنه، فدل ذلك على أن كل أمر وإن كان مباحًا في الأصل، إذا كان ينشأ عنه تفويت واجب، فإنه لا يجوز في تلك الحال.

ومنها: الأمر بحضور الخطبتين يوم الجمعة، وذم من لم يحضرهما، ومن لازم ذلك الإنصات لهما.

ومنها: أنه ينبغي للعبد المقبل على عبادة الله، وقت دواعي النفس لحضور اللهو والتجارات والشهوات، أن يذكرها بما عند الله من الخيرات، وما لمؤثر رضاه على هواه[(٣)].

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [الجمعة:١١]

﴿انفَضُّوا إِلَيْهَا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ الضمير للتجارة، وخصت برد الضمير إليها؛ لأنها

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ١٢٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٦٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٦٣).

كانت أهم إليهم[١].

إن قيل: لِم قدم اللهو هنا على التجارة، وقدم التجارة قبل هذا على اللهو **فالجواب**: ؟ أن كل واحد من الموضعين جاء على ما ينبغي فيه.. وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ قدم التجارة هنا؛ ليبين أنهم ينفضون إليها، وأنهم مع ذلك ينفضون إلى اللهو الذي هو دونها. وقوله: ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ قدم اللهو؛ ليبين أن ما عند الله خير من اللهو، وأنه أيضا خير من التجارة التي هي أعظم منه، ولو عكس كل واحد من الموضعين لم يحسن[٢].

﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ دليل على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائما[٣].



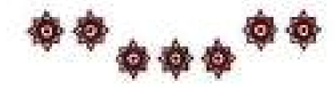
(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٣٠١).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣٧٦).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ١٢٤).



سورة المنافقون

﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [المنافقون: ٤]

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ إلى الحائط، شبهوا في إسنادهم -وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير- بالخشب المسندة على الحائط؛ لأن الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع، وما دام متروكًا غير منتفع به أسند على الحائط، فشبهوا به في عدم الانتفاع؛ أو لأنهم أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام[1].



(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٤٨٥)، التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣٧٧).



﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [التغابن: ٩]

اللام فيه للدلالة على أن التغابن الحقيقي هو التغابن في أمور الآخرة لعظمها ودوامها(١).

لم يدخل فيه (من) كما في العداوة [في قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾]؛ لأن الكل لا يخلو عن الفتنة، وشغل القلب، وقد يخلو بعضهم عن العداوة(٢).



(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢١٨).

(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٤٩٤).



سورة الطلاق

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ①﴾ [الطلاق:١]

نادى النبي ﷺ، ثم خاطب أمته؛ لأنه السيد المقدم، فإذا نودي وخوطب خطاب الجمع، كانت أمته داخلة في ذلك الخطاب[١]. وخصّ هو عليه الصلاة والسلام بالنداء تعظيمًا له[٢].

من ههنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى طلاق سنة وطلاق بدعة، فطلاق السنة: أن يطلقها طاهرا من غير جماع، أو حاملا قد استبان حملها. والبدعي: هو أن يطلقها في حال الحيض، أو في طهر قد جامعها فيه[٣].

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ وهي بيوت الأزواج، وأضيفت إليهن لاختصاصها بهن من حيث السكنى، وفيه دليل على أن السكنى واجبة[٤].

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ في الجمع بين النهيين دلالة على استحقاقها السكنى ولزومها ملازمة مسكن الفراق[٥].

عن فاطمة بنت قيس في قوله: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ قالت: هي الرجعة.. ومن ههنا ذهب من ذهب من السلف ومن تابعهم إلى أنه لا تجب السكنى

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٣١٠).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣٨٣).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ١٤٣).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٤٩٧).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٢٠).

للمبتوتة[١].

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق:٣]

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ عن بعضٍ: إن فيها تسلية ووصية للنساء عند الفراق، فإنهن مضطرات غالبا للغيرة والاحتياج والعجز[٢].

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾ [الطلاق:٦]

يدل على اختصاص استحقاق النفقة بالحامل من المعتدات والأحاديث تؤيده[٣].

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطلاق:٧]

هذا وعد لذي العسر باليسر[٤].

﴿رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ [الطلاق:١١]

﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ فيه تعجيب وتعظيم لما رزقوا من الثواب[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ١٤٤).
(٢) جامع البيان، للإيجي (٤/ ٣٢٧).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٢٢).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥٠١).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٢٢).



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾ [التحريم:١]

هذا يدل على أنها نزلت في تحريم الجارية، وأما تحريم العسل، فلم يقصد فيه رضا أزواجه، وإنما تركه لرائحته[١].

﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣﴾ [التحريم:٣]

أعرض عن بعض حياء وتكريمًا؛ فإن من عادة الفضلاء التغافل عن الزلات والتقصير في العتاب[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾ [التحريم:٨]

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ﴾ عطف على النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إحمادًا لهم وتعريضًا لمن ناوأهم[٣].

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾ [التحريم:١٠]

قطع الله تعالى بهذه الآية طمع من ركب المعصية، ورجا أن ينفعه صلاح

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٢/ ٣٩٠).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٣٩٠).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٢٦).

غيره[1].

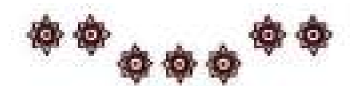
﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: ١١]

فيه دليل على أن الاستعاذة بالله والالتجاء إليه ومسألة الخلاص عند المحن والنوازل، من سير الصالحين[2].

لم تقل: ابن لي بيتا عندك. قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار[3].

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢]

﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ التذكير للتغليب والإشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال الكاملين حتى عدت من جملتهم[4].



(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٣٢٢).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥٠٨).
(٣) وجه النهار، للحربي (ص٤١٨).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٢٦). جامع البيان، للإيجي (٤/ ٣٣٨).



﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك:٢]

قدم الموت على الحياة؛ لأن أقوى الناس داعيًا إلى العمل من نصب موته بين عينيه، فقُدّم لأنه فيما يرجع إلى المسوق له الآية أهم، ولما قدم الموت الذي هو أثر صفة القهر على الحياة التي هي أثر اللطف قدم صفة القهر على صفة اللطف بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾[1].

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾ [الملك:٣]

وضع: ﴿خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، موضع الضمير، تعظيما لخلقهن، وتنبيها على سبب سلامتهن من التفاوت، وهو أنه (**خلق الرحمن**)، وأنه بباهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب[2].

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥﴾ [الملك:١٥]

﴿فَٱمْشُوا۟ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ في جوانبها أو جبالها، وهو مثل لفرط التذليل، فإن منكب البعير ينبو عن أن يطأه الراكب ولا يتذلل له، فإذا جعل الأرض في الذل بحيث يمشي في مناكبها، لم يبق شيء لم يتذلل[3].

السعي في السبب لا ينافي التوكل[4].

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥١١).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥١١).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٣٠).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ١٧٩).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ١٩﴾ [الملك:١٩]

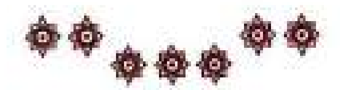
اختيار هذا التركيب باعتبار أن أصل الطيران هو صف الأجنحة؛ لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والهواء للطائر كالماء للسابح، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها، وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك، فجيء بما هو طارئ بلفظ الفعل، على معنى أنهن صافات، ويكون منهن القبض تارة بعد تارة، كما يكون من السابح[١].

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٢٢﴾ [الملك:٢٢]

لعل الاكتفاء بما في الكب من الدلالة على حال المسلك: للإشعار بأن ما عليه المشرك لا يستأهل أن يسمى طريقًا[٢].

﴿قُلْ هُوَ الَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ٢٣﴾ [الملك:٢٣]

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ﴾ خصها لأنها آلات العلم[٣].



(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥١٥).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٣١).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥١٦).



سورة القلم

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم:٤]

استعظم خُلقه -وهو الخالق- لحُسن مداراته، وصبره على الموجعات[١].

﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ ﴾ [القلم:١٣]

قال ابن قتيبة: ولا نعلم أن الله وصف أحدا، ولا بلغ من ذكر عيوبه ما بلغه من ذكر عيوب الوليد بن المغيرة؛ لأنه وصفه بالحلف، والمهانة، والغيب للناس، والمشي بالنمائم، والبخل، والظلم، والإثم، والجفاء، والدعوة، فألحق به عارا لا يفارقه في الدنيا والآخرة[٢].

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦ ﴾ [القلم:١٦]

على أنفه، مهانة له وعلمًا يعرف به، وتخصيص الأنف بالذكر؛ لأن الوسم عليه أبشع[٣].

﴿ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ۝٢٢ ﴾ [القلم:٢٢]

لم يقل: إلى حرثكم؛ لأن الغدوّ إليه ليصرموه كان غدوًّا عليه[٤].

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨ ﴾ [القلم:٢٨]

أنكر عليهم ترك الاستثناء في قوله: ﴿ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝١٧ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝١٨ ﴾ [القلم:١٧،١٨] وسمى الاستثناء تسبيحا؛ لأنه تعظيم الله، وإقرار بأنه لا يقدر أحد أن

---

(١) وجه النهار، للحربي (ص٤٢١).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٣٣٦).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥٢١).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥٢٢).

يفعل شيئا إلا بمشيئة الله تعالى(١).

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٤١)﴾ [القلم:٤١]

نبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الآيات على نفي جميع ما يمكن أن يتشبثوا به من عقل أو نقل يدل عليه الاستحقاق، أو وعد أو محض تقليد، على الترتيب، تنبيهًا على مراتب النظر، وتزييفًا لما لا سند له(٢).

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢)﴾ [القلم:٤٢]

إن قيل: كيف يدعون في الآخرة إلى السجود، وليست الآخر دار تكليف؟ فالجواب: أنهم يدعون إليه على وجه التوبيخ لهم على تركهم السجود في الدنيا، لا على وجه التكليف والعبادة(٣).

﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣)﴾ [القلم:٤٣]

قال سعيد بن جبير: كانوا يسمعون حي على الفلاح، فلا يجيبون. وفي هذا وعيد لمن قعد عن الصلاة في الجماعة(٤).

﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١)﴾ [القلم:٥١]

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٥٢)﴾ لما جننوه لأجل القرآن: بيّن أنه ذكر عام لا يدركه ولا يتعاطاه إلا من كان أكمل الناس عقلًا وأميزهم رأيًا(٥).

﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق، بأمر الله، عَزَّوَجَلَّ(٦).

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٣٣٨).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٣٦).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٠٢).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٣٤١).
(٥) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٣٨).
(٦) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٢٠١).



سورة الحاقة

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾ [الحاقة:١-٢]

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾ وضع الظاهر موضع المضمر زيادة في التعظيم والتهويل، وكذلك ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ [الحاقة:٣] لفظه استفهام والمراد به التعظيم والتهويل[١].

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢﴾ [الحاقة:١٢]

قال الزمخشري: إنما قال: ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ بالتوحيد والتنكير، للدلالة على قلة الوعاة، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا عقلت عن الله تعالى فهي المعتبرة عند الله دون غيرها[٢].

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣﴾ [الحاقة:١٣]

أكدها ههنا بأنها واحدة؛ لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع، ولا يحتاج إلى تكرار ولا تأكيد[٣].

﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠﴾ [الحاقة:٢٠]

إنما أجري الظن مجرى العلم؛ لأن الظن الغالب يقوم مقام العلم في العادات والأحكام؛ ولأن ما يدرك بالاجتهاد قلما يخلو عن الوسواس والخواطر، وهي تفضي إلى الظنون، فجاز إطلاق لفظ الظن عليها لما لا يخلو عنه[٤].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٠٤).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٠٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٢١١).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥٣١).

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحاقة:٢٥-٢٧]

قال قتادة: تمنى الموت، ولم يكن شيء في الدنيا أكره إليه منه[١].

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ [الحاقة:٣٤]

فيه دليل قوي على عظم جرم حرمان المسكين؛ لأنه عطفه على الكفر، وجعله دليلًا عليه، وقرينة له، ولأنه ذكر الحض دون الفعل ليُعلم أن تارك الحض إذا كان بهذه المنزلة فتارك الفعل أحق[٢]. وبأن أشنع الذمائم: البخل، وكان أبو الدرداء يحض امرأته على تكثير المرق للمساكين، ويقول: خلعنا نصف السلسلة بالإيمان أفلا نخلع نصفها بالحض؟[٣]

هذه الآية تدل على عظم الصدقة وفضلها؛ لأنه قرن منع طعام المسكين بالكفر[٤].

مدار السعادة ومادتها أمران: الإخلاص لله، الذي أصله الإيمان بالله، والإحسان إلى الخلق بوجوه الإحسان[٥].

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقة:٤١-٤٢]

ذكر (الإيمان) مع نفي الشاعرية و(التذكر) مع نفي الكاهنية؛ لأن عدم مشابهة القرآن للشعر أمر بين لا ينكره إلا معاند بخلاف مباينته للكهانة، فإنها تتوقف على تذكر أحوال الرسول ومعاني القرآن المنافية لطريقة الكهنة ومعاني أقوالهم[٦].

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ [الحاقة:٤٥]

لقتلناه صبرًا، كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم، معاجلة بالسخط والانتقام،

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٢١٥).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥٣٢). التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٠٧).
(٣) جامع البيان، للإيجي (٤/ ٣٦٦).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٠٧).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٨٣).
(٦) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٤٣). جامع البيان، للإيجي (٤/ ٣٦٧).

فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول، وهو أن يأخذ بيده وتضرب رقبته، وخص اليمين؛ لأن القاتل إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره، وإذا أراد أن يوقعه في جيده وأن يكفحه بالسيف -وهو أشد على المصبور لنظره إلى السيف- أخذ بيمينه[1].

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة:٤٦]

لقطعنا العرق المتصل بقلبه، والمقصود: أهلكناه، وهذه الكناية من مبتكرات القرآن[2].



---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥٣٤).

(٢) وجه النهار، للحربي (ص٤٢٦).



﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ١٤﴾ [المعارج:١٤]

إنما عطفه بـ﴿ثُمَّ﴾ إشعارًا ببعد النجاة وامتناعها[1].

﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ١٨﴾ [المعارج:١٨]

الجمع فيه إشارة إلى الحرص، و﴿فَأَوۡعَىٰٓ﴾ فيه إشارة إلى طول الأمل[2].

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ٢٨﴾ [المعارج:٢٨]

معترضة تدل على أن ليس لعاقل الأمن من عذاب الله[3].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٢٩﴾ [المعارج:٢٩]

افتتح الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها، فدل على الاعتناء بها، والتنويه بشرفها[4].

﴿كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ٣٩﴾ [المعارج:٣٩]

نبّه الناس بهذا على أن الناس كلهم من أصل واحد، وإنما يتفاضلون بالإيمان، والطاعة[5].

﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ٣٩﴾ أي: من النطفة المذرة؛ ولذلك أبهم، إشعارًا بأنه

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤١١).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص٤٢٧).
(٣) جامع البيان، للإيجي (٤/ ٣٧٣).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٢٢٧).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٣٥٤).

منصب يستحيا من ذكره، فمن أين يشترفون؟ ويدعون التقدم؟ ويقولون: لندخلن الجنة قبلهم؟[١]

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج: ٤٣]

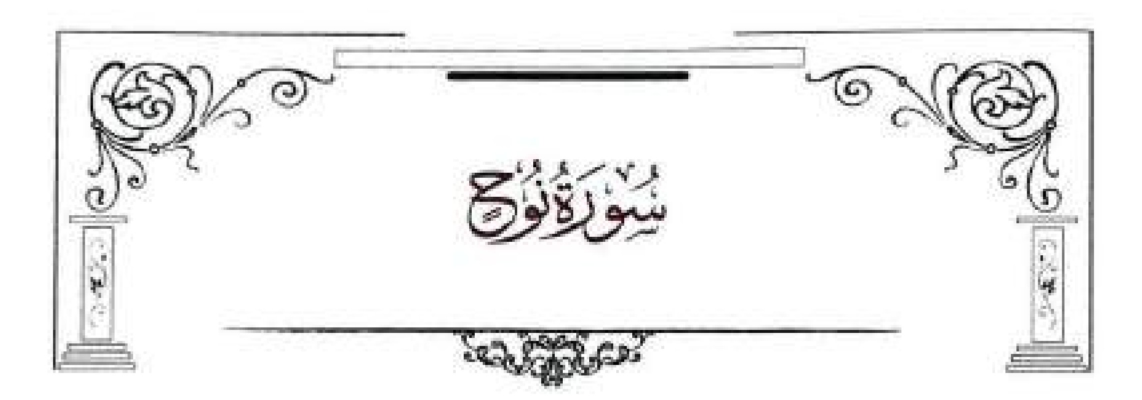
فيه إيماء إلى أنهم يدعَون ويسرعون يوم القيامة؛ جزاء إسراعهم إلى أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله[٢].

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعارج: ٤٤]

في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة[٣].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥٤٠).
(٢) وجه النهار، للحربي (ص٨٩٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٢٣٠).



﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [نوح:٢]

أضافهم إلى نفسه إظهارًا للشفقة[١].

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ [نوح:٣]

إنما أضافه إلى نفسه؛ لأن الطاعة قد تكون لغير الله تعالى بخلاف العبادة[٢].

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ [نوح:٤]

قد يستدل بهذه الآية من يقول: إن الطاعة والبر وصلة الرحم، يزاد بها في العمر حقيقة[٣].

﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح:٩]

وهكذا يفعل الآمر بالمعروف، يبتدئ بالأهون ثم بالأشد فالأشد، فافتتح بالمناصحة في السر، فلما لم يقبلوا ثنّى بالمجاهرة، فلما لم تؤثر ثلث بالجمع بين الإسرار والإعلان، و﴿ثُمَّ﴾ تدل على تباعد الأحوال؛ لأن الجهار أغلظ من الإسرار، والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما[٤].

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦﴾ [نوح:١٦]

وجعل القمر ﴿نُورًا﴾، والشمس ﴿سِرَاجًا﴾؛ لأن ضوء السراج أقوى من النور[٥].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥٤١).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥٤١).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٢٣١).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥٤٣).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤١٥).

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ [نوح:٢٥]

تقديم ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ لبيان أن لم يكن إغراقهم بالطوفان وإدخالهم في النيران إلا من أجل خطيئاتهم.. وكفى بها مزجرة لمرتكب الخطايا.. والفاء في ﴿فَأُدْخِلُوا۟﴾ للإيذان بأنهم عذبوا بالإحراق عقيب الإغراق، فيكون دليلًا على إثبات عذاب القبر[١].

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ التعقيب لعدم الاعتداد لما بين الإغراق والإدخال، كأنه نومة[٢].

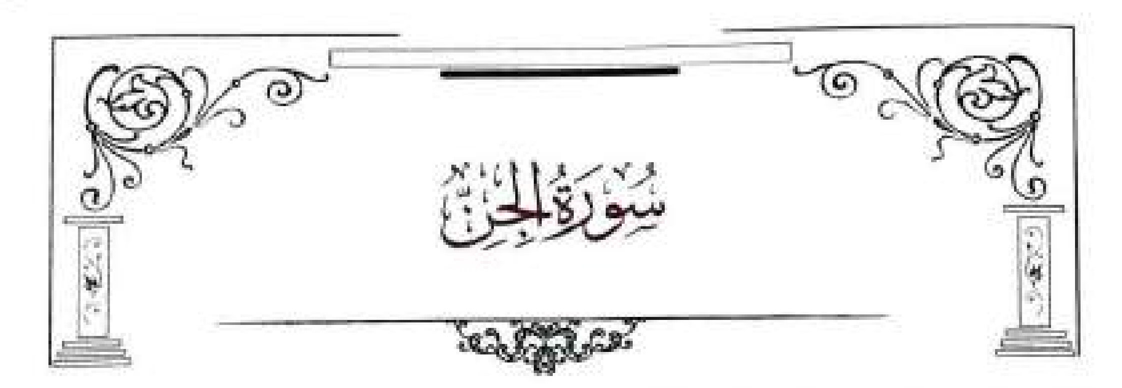
﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح:٢٨]

يؤخذ من هذا: أن سنة الدعاء أن يقدم الإنسان الدعاء لنفسه على الدعاء لغيره[٣].

هذا دعاء بالمغفرة لكل مؤمن ومؤمنة على العموم، وفيه دليل على جواز ذلك، خلافًا لمن قال من المتأخرين: إنه لا يجوز الدعاء بالمغفرة لجميع المؤمنين على العموم..قال بعض العلماء: إن الإله الذي استجاب لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ فأغرق بدعوته جميع أهل الأرض الكفار حقيق أن يستجيب له فيرحم بدعوته جميع المؤمنين والمؤمنات[٤].



(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥٤٦).
(٢) جامع البيان، للإيجي (٤/ ٣٨١).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤١٦).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤١٦).



﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١﴾ [الجن:١]

• فيه دلالة على أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما رآهم ولم يقرأ عليهم وإنما اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته فسمعوها فأخبر الله به رسوله(١).

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن:١٠]

• وهذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل، والخير أضافوه إلى الله عَزَّوَجَلَّ(٢).

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ۝١٣﴾ [الجن:١٣]

• **فائدة ذكر الأرض:** تصوير أنه مع تلك البسطة ليس فيها بمهرب من الله(٣).

﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ۝١٦﴾ [الجن:١٦]

• تخصيص الماء الغدق -وهو الكثير- بالذكر؛ لأنه أصل المعاش والسعة ولعزة وجوده بين العرب(٤).

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن:١٨]

• قال قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم، أشركوا بالله، فأمر الله أن يخلص المسلمون له الدعوة إذا دخلوا مساجدهم(٥).

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٥١).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٢٤٠)، جامع البيان، للإيجي (٤/ ٣٨٦).
(٣) جامع البيان، للإيجي (٤/ ٣٨٧).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٥٣).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٣٦٧).

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن:١٩]

لم يقل: نبي الله أو رسوله؛ لأنه من أحب الأسماء إلى النبي ﷺ؛ ولأنه لما كان واقعا في كلامه ﷺ عن نفسه جيء به على ما يقتضيه التواضع. أو لأن عبادة عبد الله ليست بمستبعد حتى يكونوا عليه لبدًا[1].

في هذه السورة فوائد كثيرة:

منها: وجود الجن، وأنهم مكلفون مأمورون مكلفون منهيون، مجازون بأعمالهم، كما هو صريح في هذه السورة، وغيرها.

ومنها: أن رسول الله ﷺ مبعوث إلى الجن، كما هو مبعوث إلى الإنس، فإن الله صرف نفر الجن ليستمعوا ما يوحى إليه ويبلغوا قومهم.

ومنها: ذكاء الجن ومعرفتهم بالحق، وأن الذي ساقهم إلى الإيمان هو ما تحققوه من هداية القرآن، وحسن أدبهم في خطابهم.

ومنها: اعتناء الله برسوله، وحفظه لما جاء به، فحين ابتدأت بشائر نبوته، والسماء محروسة بالنجوم، والشياطين قد هربت من أماكنها، وأزعجت عن مراصدها، وأن الله رحم به أهل الأرض رحمة ما يقدر لها قدر، وأراد بهم ربهم رشدا، فأراد أن يظهر من دينه وشرعه ومعرفته في الأرض، ما تبتهج به القلوب، وتفرح به أولو الألباب، وتظهر به شعائر الإسلام، وينقمع به أهل الأوثان والأصنام.

ومنها: شدة حرص الجن للاستماع للرسول ﷺ، وتراكمهم عليه.

ومنها: أن هذه السورة قد اشتملت على الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، وبينت حالة الخلق، وأن كل أحد منهم لا يستحق من العبادة مثقال ذرة؛ لأن الرسول محمدا ﷺ إذا كان لا يملك لأحد نفعا ولا ضرا، بل ولا يملك لنفسه، علم أن الخلق كلهم كذلك، فمن الخطأ والظلم اتخاذ من هذا وصفه إلها آخر.

ومنها: أن علوم الغيوب قد انفرد الله بعلمها، فلا يعلمها أحد من الخلق، إلا من ارتضاه الله واختصه بعلم شيء منها[2].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥٥٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٩١).



سُورَةُ المُزَّمِّلِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١﴾ [المزمل:١]

قال السهيلي في ندائه (بالمزمل) **فائدتان: إحداهما**: الملاطفة؛ فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب نادوه باسم مشتق من حالته التي هو عليها، كقول النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم لعلي: «**قم أبا تراب**»[(١)]، **والفائدة الثانية**: التنبيه لكل متزمل راقد بالليل ليتنبه إلى ذكر الله؛ لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه المخاطب وكل من اتصف بتلك الصفة[(٢)].

﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل:٣-٤]

إن قيل: لِم قيد النقص من النصف (بالقلة)، وأطلق في الزيادة فقال: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾، ولم يقل (قليلًا)؟ فالجواب: أن الزيادة تحسن فيها الكثرة؛ فلذلك لم يقيدها بالقلة بخلاف النقص، فإنه لو أطلقه لاحتمل أن ينقص من النصف كثيرًا[(٣)].

﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل:٩]

فائدة الفاء: ألا تلبث بعد أن عرفت في تفويض الأمور إلى الواحد القهار؛ إذ لا عذر لك في الانتظار بعد الإقرار[(٤)].

﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ۝١٦﴾ [المزمل:١٦]

إنما خص موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وفرعون عليه اللعنة؛ لأن خبرهما كان منتشرًا بين

(١) رواه البخاري، باب نوم الرجال في المسجد، برقم: (٤٤١).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٢٢).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٢٣).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥٥٧).

أهل مكة؛ لأنهم كانوا جيران اليهود[١].

﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل: ٢٠]

سوّى بين المجاهد والمكتسب؛ لأن كسب الحلال جهاد. قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أيما رجل جلب شيئًا إلى المدينة من مدائن المسلمين، صابرًا محتسبًا، فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء، وقال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ماخلق الله موتة أموتها بعد القتل في سبيل الله أحب إليّ من أن أموت بين شعبتي رجل أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله.[٢]

كرر الأمر بالتيسير لشدة احتياطهم[٣].

هذه الآية -بل السورة كلها- مكية، ولم يكن القتال شرع بعد، فهي من أكبر دلائل النبوة؛ لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلة[٤].

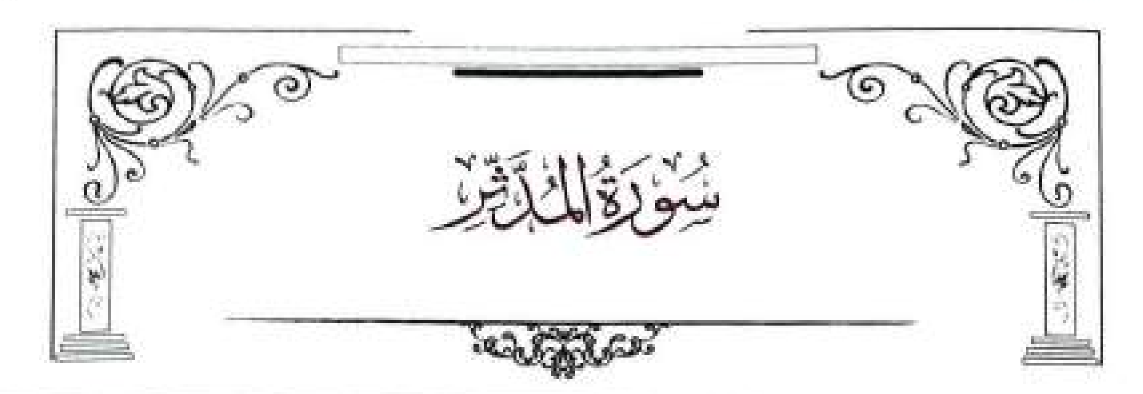
هذا يدل لمن قال: إن فرض الزكاة نزل بمكة، لكن مقادير النصب والمخرج لم تبين إلا بالمدينة[٥].

﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ﴾ إنما أضافه إلى نفسه، لئلا يمن على الفقير فيما يتصدق به عليه، وهذا لأن الفقير معاون له في تلك القربة، فلا يكون له عليه منه بل المنة للفقير عليه[٦].

قال بعض العلماء إن الاستغفار بعد الصلاة مستنبط من هذه الآية[٧].

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥٥٨).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥٦٠).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥٦٠).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٢٥٨).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٢٥٩).
(٦) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥٦٠).
(٧) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٢٦).



﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: ٥]

۞ سمي الشرك وعبادة الأوثان رجزا؛ لأنه سبب العذاب المؤدي إليه[1].

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ [المدثر: ٦]

۞ قال المفسرون: لا تعط مالك مصانعة، لتعطى أكثر منه في الدنيا. أعط لربك وأرد به الله، وهذا للنبي ﷺ خاصة أدبه الله تعالى بأشرف الآداب[2].

﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ [المدثر: ١٠]

۞ أكد بقوله: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ ليؤذن بأنه يسير على المؤمنين، أو عسير لا يرجى أن يرجع يسيرًا، كما يرجى تيسير العسير من أمور الدنيا[3].

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤﴾ [المدثر: ٢٤]

۞ الفاء للدلالة على أنه لما خطرت هذه الكلمة بباله تفوه بها من غير تلبث وتفكر[4].

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ۝٣١﴾ [المدثر: ٣١]

۞ ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٣٨١).

(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٣٨١).

(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥٦٣).

(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٦١).

إن قيل: كيف نفى عنهم الشك بعد أن وصفهم باليقين، والمعنى واحد، وهو تكرار؟

فالجواب: أنه لما وصفهم باليقين، نفى عنهم أن يشكوا فيما يستقبل بعد يقينهم الحاصل الآن، فكأنه وصفهم باليقين في الحال والاستقبال(١).

أكثر ما يطلق ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ على المنافقين، فإن قيل: هذه السورة مكية، ولم يكن حينئذ منافقون، وإنما حدث المنافقون بالمدينة، فالجواب من وجهين: أحدهما: أن معناه: يقول المنافقون إذا حدثوا، ففيه إخبار بالغيب، والآخر: أن يريد من كان بمكة من أهل الشك(٢).

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [المدثر:٤٤]

فيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع(٣).

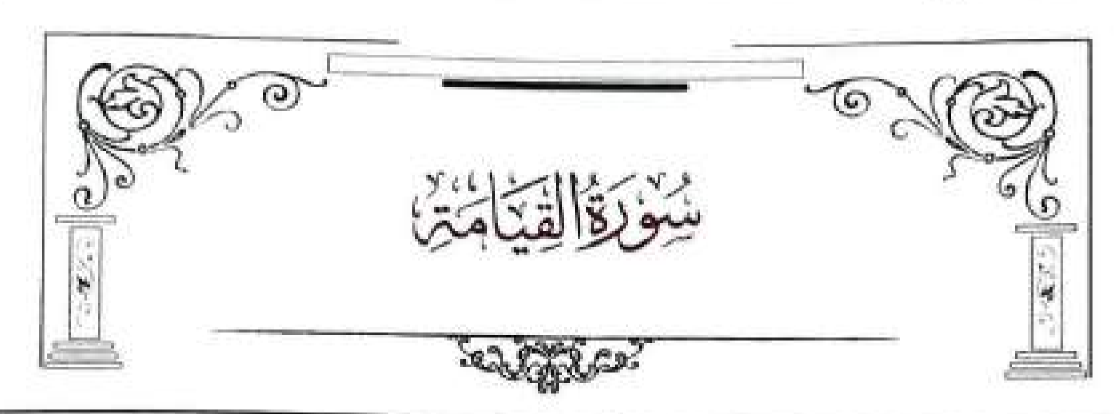
﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾ [المدثر:٤٦]

أخره لتعظيمه، أي: وكنا بعد ذلك كله مكذبين بالقيامة(٤).



---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٢٩).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٢٩).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٦٣).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٦٣).



سُورَةُ القِيَامَةِ

﴿بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ [القيامة ٤]

- إنما خص الأصابع دون سائر الأعضاء؛ لدقة عظامها وتفرقها[1].

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ [القيامة:١٦-١٩]

- ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ دليل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب[2].

- في هذه الآية أدب لأخذ العلم، ألَّا يبادر المتعلم المعلم قبل أن يفرغ من المسألة التي شرع فيها، فإذا فرغ منها سأله عما أشكل عليه، وكذلك إذا كان في أول الكلام ما يوجب الرد أو الاستحسان، ألَّا يبادر برده أو قبوله، حتى يفرغ من ذلك الكلام، ليتبين ما فيه من حق أو باطل، وليفهمه فهما يتمكن به من الكلام عليه[3].

- وفيها: أن النبي ﷺ كما بين للأمة ألفاظ الوحي، فإنه قد بين لهم معانيه[4].

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة:٢٢،٢٣]

- قال الحسن: حق لها أن تنضر، وهي تنظر إلى الخالق. وقال الزجاج: نضرت بنعيم الجنة، والنظر إلى ربها عَزَّ وَجَلَّ[5].

- النظر إلى غيره في جنب النظر إليه لا يعد نظرا، ولهذا قدم المفعول[6].

---

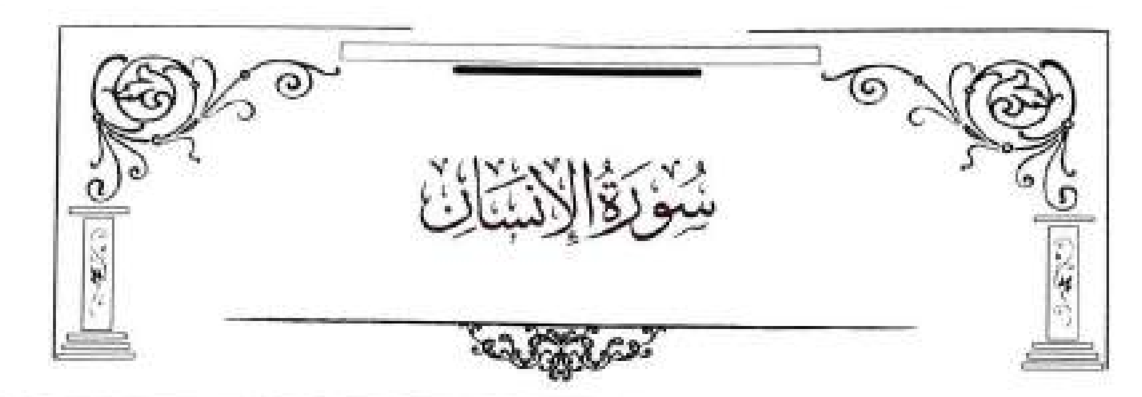
(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٣٢).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٦٦).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٩٩).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٨٩٩).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٣٩٤).
(٦) جامع البيان، للإيجي (٤/ ٤١٤).

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ [القيامة: ٢٩]

✍ في الكفن، وليس في القرآن إشارة إلى الكفن إلا هنا[1].

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

(١) وجه النهار، للحربي (ص٤٣٦).



﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإنسان:٤]

تقديم وعيدهم وقد تأخر ذكرهم؛ لأن الإنذار أهم وأنفع، وتصدير الكلام وختمه بذكر المؤمنين أحسن[١].

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان:٧]

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ أبلغ في وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات؛ لأن من وفى بما أوجبه على نفسه لله تعالى كان أوفى بما أوجبه الله تعالى عليه[٢].

﴿يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ فاشيا منتشرا غاية الانتشار من استطار الحريق والفجر، وهو أبلغ من طار، وفيه إشعار بحسن عقيدتهم واجتنابهم عن المعاصي[٣].

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان:٨]

قال أهل العلم: الآية تدل على أن إطعام الأسارى، وإن كانوا من غير أهل ملتنا، حسن يرجى ثوابه، فأما فريضة الكفارات والزكوات، فلا يجوز وضعها في فقراء المشركين[٤].

﴿قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإنسان:١٦]

القوارير: هي الزجاج، فإن قيل: كيف يتفق أنها زجاج مع قوله: ﴿مِن فِضَّةٍ﴾؟ **فالجواب**: أن المراد أنها في أصلها من فضة، وهي تشبه الزجاج في صفائها وشفيفها،

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٦٩).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٧٠).
(٣) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٧٠).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٤٠٢).

وقيل: هي من زجاج، وجعلها من فضة على وجه التشبيه؛ لشرف الفضة وبياضها[١].
قال ابن عباس وغيره: بياض الفضة في صفاء الزجاج. وهذا مما لا نظير له في الدنيا[٢].

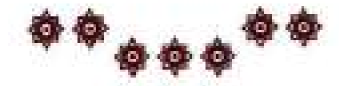
﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي: على قدر ريهم، لا تزيد عنه ولا تنقص، بل هي معدة لذلك، مقدرة بحسب ري صاحبها.. وهذا أبلغ في الاعتناء والشرف والكرامة[٣].

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ⑲﴾ [الإنسان:١٩]

اللؤلؤ إذا نثر من الخيط على البساط كان أحسن منه منظوما، وقال أهل المعاني: إنما شبهوا بالمنثور لانتشارهم في الخدمة، ولو كانوا صفا لشبهوا بالمنظوم[٤].

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ㉑﴾ [الإنسان:٢١]

إن قيل: كيف قال هنا: ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾، وفي موضع آخر: ﴿أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف:٣١]؟ **فالجواب**: أن ذلك يختلف باختلاف درجات أهل الجنة، ويحتمل: أن يكون أهل الجنة لهم أساور من فضة ومن ذهب معًا[٥].



(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٣٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٢٩١).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٢٩١).
(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٤٠٤).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٣٩).



سورة المرسلات

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ۝٤٨﴾ [المرسلات:٤٨]

استدل به على أن الأمر للوجوب، وأن الكفار مخاطبون بالفروع[1].



(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٧٧).



الجزء الثلاثون سورة النبأ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾ [النبأ: ١]

قال الزجاج: اللفظ لفظ استفهام، والمعنى: تفخيم القصة، كما تقول: أي شيء زيد؟ إذا عظمت شأنه[١].

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [النبأ: ٤-٥]

تكرير للمبالغة، و﴿ثُمَّ﴾ للإشعار بأن الوعيد الثاني أشد[٢].

﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾ [النبأ: ٣٠]

عن عبد الله بن عمرو قال: لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾[٣].

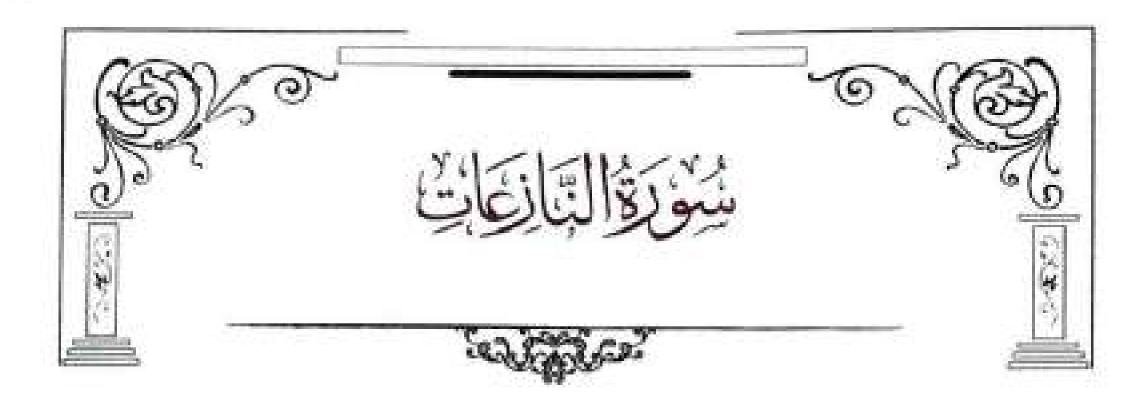
﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ۝٤٠﴾ [النبأ: ٤٠]

تخصيص الأيدي؛ لأن أكثر الأعمال تقع بها، وإن احتمل أن لا يكون للأيدي مدخل فيما ارتكب من الآثام.[٤]

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر لزيادة الذم[٥].

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٤١١).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٧٨)، جامع البيان، للإيجي (٤/ ٤٣١).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٣٠٧).
(٤) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥٩٤).
(٥) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥٩٤).



﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات:١٩]

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وأرشدك إلى معرفة الله ﴿فَتَخْشَىٰ﴾؛ لأن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة(١).

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾﴾ [النازعات:٣٠-٣١]

لا تعارض بين هذا وبين الآيات الأخرى التي دلت على خلق الأرض قبل السماء؛ لأن هذه الآية في دحو الأرض لا في خلقها أول مرة(٢).

﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات:٤٥]

خص الإنذار بمن يخشاها؛ لأنه هو الذي ينفعه الإنذار(٣).



---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٥٩٧).

(٢) وجه النهار، للحربي (ص٤٤٤).

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٥١).



﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ①﴾ [عبس:١]

الإخبار بالغيبة؛ قيل: هو إكرام للنبي ﷺ، وتنزيه له عن المخاطبة بالعتاب[١].

﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ②﴾ [النازعات:٢]

في هذا دليل على أن ذكر هذه العاهات جائز إذا كان لمنفعة، أو يشهد صاحبها بها[٢].

﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ④﴾ [النازعات:٤]

أي: يتذكر ما ينفعه، فينتفع بتلك الذكرى. وهذه فائدة كبيرة، هي المقصودة من بعثة الرسل، ووعظ الوعاظ، وتذكير المذكرين، فإقبالك على من جاء بنفسه مفتقرا لذلك مقبلا، هو الأليق الواجب، وأما تصديك وتعرضك للغني المستغني الذي لا يسأل ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير، مع تركك من هو أهم منه، فإنه لا ينبغي لك، فإنه ليس عليك أن لا يزكى، فلو لم يتزك، فلست بمحاسب على ما عمله من الشر، فدل هذا على القاعدة المشهورة، أنه: «لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة» وأنه ينبغي الإقبال على طالب العلم، المفتقر إليه، الحريص عليه أزيد من غيره[٣].

﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ⑮ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ⑯﴾ [النازعات:١٥-١٦]

خُلقهم كريم حسن شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة، ومن ههنا

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٥٢).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٥٢).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٠٩).

ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد[١].

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ [النازعات: ٢٠]

ثم سهل مخرجه من بطن أمه.. أو ذلل له سبيل الخير والشر، ونصب ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ بفعل يفسره الظاهر، للمبالغة في التيسير، وتعريفه باللام دون الإضافة؛ للإشعار بأنه سبيل عام، وفيه على المعنى الأخير إيماء بأن الدنيا طريق والمقصد غيرها[٢].

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات: ٣٤-٣٦]

قدم في الفرار الأخ ثم الأم فالأب فالصاحبة فالابن؛ تدرجا من القريب للأقرب؛ لأن المقام مقام فرار، فلو ذكر الأقرب لم يكن في ذكر من دونه فائدة. وقدم في المعارج الأقرب؛ لأن المقام مقام افتداء يود المجرم لو يفتدي بهم كلهم[٣].

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [النازعات: ٤٠-٤٢]

جمع الغبرة إلى سواد الوجه؛ لجمعهم الفجور إلى الكفر[٤].



(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٣٢١).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٨٧).
(٣) وجه النهار، للحربي (٤٤٦).
(٤) جامع البيان، للإيجي (٤/ ٤٤٨).



﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير:٨-٩]

فيه دليل على أن أطفال المشركين لا يعذبون، وعلى أن التعذيب لا يكون بلا ذنب(١).

يوم القيامة تسأل الموءودة على أي ذنب قتلت، ليكون ذلك تهديدا لقاتلها، فإذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذًا؟(٢)

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ [التكوير:١٨]

لما كان إقبال الصبح يلازمه الروح والنسيم جعل ذلك نفسًا له مجازًا(٣).

﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير:٢١]

صفة لجبريل بالأمانة، وهذا عظيم جدا أن الرب عَزَّ وَجَلَّ يزكي عبده ورسوله الملكي جبريل، كما زكى عبده ورسوله البشري محمدا ﷺ بقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾(٤).

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير:٢٩]

هذا إعلام بأن الإنسان لا يعمل خيرا إلا بتوفيق الله، ولا شرا إلا بخذلانه(٥).

---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٦٠٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٣٣٣).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٦٠٧).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٣٣٩).
(٥) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٤٣٢).



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار:٦]

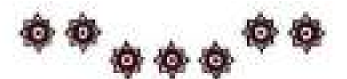
ذكر ﴿ٱلۡكَرِيمِ﴾ للمبالغة في المنع عن الاغترار؛ فإن محض الكرم لا يقتضي إهمال الظالم، وتسوية الموالي والمعادي والمطيع والعاصي، فكيف إذا انضم إليه صفة القهر والانتقام، والإشعار بما به يغره الشيطان فإنه يقول له: افعل ما شئت فربك كريم لا يعذب أحدًا ولا يعاجل بالعقوبة، والدلالة على أن كثرة كرمه تستدعي الجد في طاعته لا الانهماك في عصيانه اغترارا بكرمه[1].

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار:١٠-١١]

تعظيم الكتبة بكونهم كرامًا عند الله لتعظيم الجزاء[2].

﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار:١٢]

في تعظيم الكَتَبة بالثناء عليهم: تعظيم لأمر الجزاء، وأنه عند الله من جلائل الأمور، وفيه إنذار وتهويل للمجرمين، ولطف للمتقين، وعن الفضيل أنه إذا قرأها قال: ما أشدها من آية على الغافلين[3].



(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٩٢).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٩٣).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٦١١).



سورة المطففين

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ [المطففين:١]

قال الزجاج: وإنما قيل للذي ينقص الميكال والميزان: مطفف؛ لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء اليسير الطفيف[١].

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾ [المطففين:٢]

لما كان اكتيالهم من الناس اكتيالًا يضرهم ويتحامل فيه عليهم، أبدل ﴿عَلَى﴾ مكان (من) للدلالة على ذلك[٢].

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين:٣]

هؤلاء كأن عادتهم في أخذ حقهم من الناس الكيل دون الميزان، ليمكنهم الاكتيال من الاستيفاء والسرقة بتحريك المكيال ونحوه ليسعه، وأما إذا أعطوا كالوا ووزنوا لتمكنهم من البخس في النوعين جميعا، ولذا ما ذكر الوزن في الأول[٣].

دلت الآية الكريمة، على أن الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له، يجب عليه أن يعطيهم كل ما لهم من الأموال والمعاملات، بل يدخل في عموم هذا الحجج والمقالات، فإنه كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن كل واحد منهما يحرص على ماله من الحجج، فيجب عليه أيضًا أن يبين ما لخصمه من الحجة التي لا يعلمها، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا الموضع يعرف إنصاف الإنسان من تعصبه واعتسافه، وتواضعه من كبره، وعقله من سفهه، نسأل الله التوفيق لكل خير[٤].

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٤٤٠).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٦١٣).
(٣) جامع البيان، للإيجي (٤/ ٤٥٩).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩١٥).

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ [المطففين: ٤-٦]

۞ في هذا الإنكار والتعجيب وذكر الظن ووصف اليوم بالعظم، وقيام الناس فيه لله، والتعبير عنه برب العالمين مبالغات في المنع عن التطفيف وتعظيم إثمه[١].

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ٧﴾ [المطففين:٧]

۞ وذلك علامة خسارهم، ودليل على خساسة منزلتهم، ولا يصعد به إلى السماء كما يصعد بكتاب المؤمن[٢].

﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ [المطففين: ١٤، ١٥]

۞ قال الربيع بن سليمان: كنت ذات يوم عند الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجاءه كتاب من الصعيد، يسألونه عن قول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ فكتب فيه: لما حجب قوما بالسخط، دل على أن قوما يرونه بالرضا، فقلت له: أو تدين بهذا يا سيدي؟ فقال: والله لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه في المعاد، لما عبده في الدنيا[٣].

۞ **دل مفهوم الآية**، على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفي الجنة، ويتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات، ويبتهجون بخطابه، ويفرحون بقربه، كما ذكر الله ذلك في عدة آيات من القرآن، وتواتر فيه النقل عن رسول الله[٤].

۞ **وفي هذه الآيات**، التحذير من الذنوب، فإنها ترين على القلب وتغطيه شيئا فشيئا، حتى ينطمس نوره، وتموت بصيرته، فتنقلب عليه الحقائق، فيرى الباطل حقًا، والحق باطلا وهذا من أعظم عقوبات الذنوب[٥].

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٩٤).
(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٤٤٤).
(٣) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٤٤٦).
(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩١٥).
(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩١٥).

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ [المطففين:٢٧]

قال ابن عباس: هذا مما يقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة:١٧]. وقال الحسن: خفايا أخفاها الله لأهل الجنة[1].

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٤٤٩).



﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾ [البروج:٧]

❁ فيه حث للمؤمنين على الصبر، وتحمل أذى أهل مكة[١].

﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج:٨]

❁ إن قيل: لِم قال: ﴿أَن يُؤْمِنُوا۟﴾ بلفظ المضارع، ولم يقل: آمنوا بلفظ الماضي؛ لأن القصة قد وقعت؟ فالجواب: أن التعذيب إنما كان على (دوامهم) على الإيمان، ولو كفروا في المستقبل لم يعذبوهم؛ فلذلك ذكره بلفظ المستقبل، فكأنه قال: إلا أن يدوموا على الإيمان[٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠﴾ [البروج:١٠]

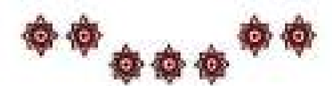
❁ قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة[٣].

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤﴾ [البروج:١٤]

❁ في هذا سر لطيف، حيث قرن ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ بالغفور، ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأنابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم، فلا يقال: بل تغفر ذنوبهم، ولا يرجع إليهم الود، كما قاله بعض الغالطين. بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب، من رجل له راحلة، عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، فأضلها في أرض فلاة مهلكة، فأيس منها،

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٦٢٤).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٦٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٢٧١).

فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، فبينما هو على تلك الحال، إذا راحلته على رأسه، فأخذ بخطامها، فالله أعظم فرحًا بتوبة العبد من هذا براحلته[1]، وهذا أعظم فرح يقدر[2].



(١) رواه البخاري، باب التوبة، برقم: (٦٣٠٨)، ومسلم، باب في الحض على التوبة والفرح بها، برقم: (٢٦٧٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩١٨).



﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾ [الطارق:٤]

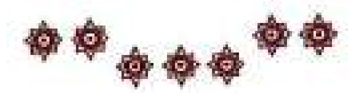
تأمل المناسبة بين القسم بالنجوم الحافظة من كل شيطان، وجواب القسم، وهكذا كل قسم وجوابه في القرآن الكريم[1].

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ [الطارق:٥]

وجه اتصال هذا الكلام بما قبله: أنه لما أخبر أن كل نفس عليها حافظ يحفظ أعمالها، أعقبه بالتنبيه على الحشر، حيث تجازى كل نفس بأعمالها[2].

﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ [الطارق:١٤]

وصفه الله بذلك أن يكون مهيبًا في الصدور، معظمًا في القلوب، يرتفع به قارئه وسامعه أن يلم بهزل[3].



(١) وجه النهار، للحربي (ص٤٥٣).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٧١).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٦٢٨).



سورة الأعلى

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ [الأعلى:٩]

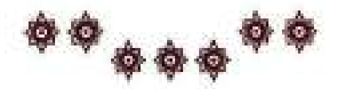
ﻷ من ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله، كما قال أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم[١].

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾ [الأعلى:١٣]

ﻷ قيل بـ﴿ثُمَّ﴾؛ لأن الترجح بين الحياة والموت أفظع من الصلي، فهو متراخٍ عنه في مراتب الشدة[٢].

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلى:١٤-١٥]

ﻷ عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كان يأمر الناس بإخراج صدقة الفطر، ويتلو هذه الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾[٣].



---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٣٧٠).

(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٦٣٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٣٨٢).



سُورَةُ الغَاشِيَةِ

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢﴾ [الغاشية:٢]

إنما خص الوجه؛ لأن الحزن والسرور إذا استحكما في المرء أثرا في وجهه[1].

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۝٦﴾ [الغاشية:٦]

إن قيل: كيف قال هنا: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۝٦﴾ وقال في الحاقة: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة:٣٦]؟ **فالجواب**: أن الضريع لقوم، والغسلين لقوم، أو يكون أحدهما في حال، والآخر في حال[2].

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٥﴾ [الغاشية:٢٥]

فائدة تقديم الظرف: التشديد في الوعيد، وأن إيابهم ليس إلا إلى الجبّار المقتدر على الانتقام[3].

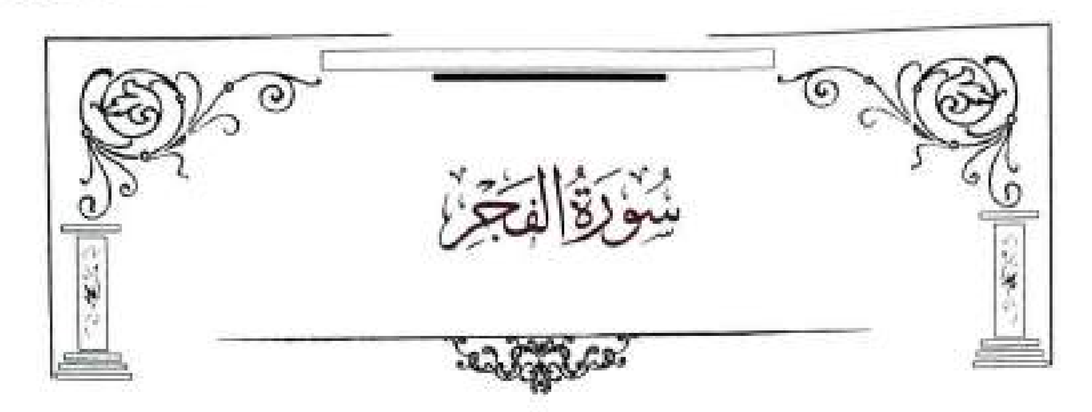
﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ۝٢٦﴾ [الغاشية:٢٦]

تقديم الخبر، للتخصيص والتشديد في الوعيد[4].



---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٦٣٣).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٧٧).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٦٣٦).
(٤) جامع البيان، للإيجي (٤/ ٤٨٢).



سورة الفجر

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥-١٦]

لم يقل: (فأهانه وقدر عليه) كما قال: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾؛ لأن التوسعة تفضل، والإخلال به لا يكون إهانة[١].

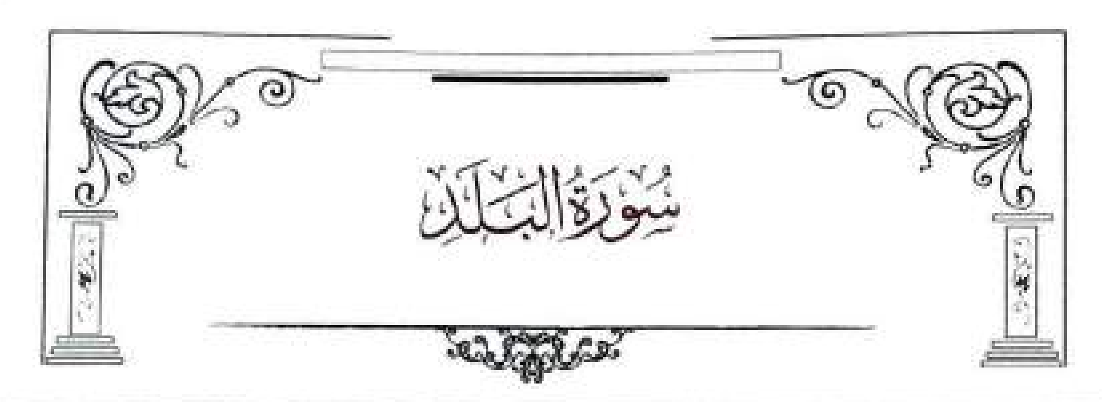
لِم أنكر الله على الإنسان قوله: ﴿رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ﴾.. و﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾؟ **والجواب من وجهين:**

أحدهما: أن الإنسان يقول: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ على وجه الفخر بذلك والكبر، لا على وجه الشكر، ويقول: ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ على وجه التشكي من الله وقلة الصبر والتسليم لقضاء الله، فأنكر عليه ما يقتضيه كلامه من ذلك.

والآخر: أن الإنسان اعتبر الدنيا، فجعل بسط الرزق فيها كرامة، وتضييقه إهانة وليس الأمر كذلك؛ فإن الله قد يبسط الرزق لأعدائه، ويضيقه على أوليائه، فأنكر الله عليه اعتبار الدنيا، والغفلة عن الآخرة، وهذا الإنكار من هذا الوجه على المؤمن. وأما الكافر فإنما اعتبر الدنيا؛ لأنه لا يصدق بالآخرة[٢].



(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٣١٠).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٨٠).



﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾ [البلد:١-٢]

أقسم سبحانه بالبلد الحرام وقيده بحلول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيه: إظهارًا لمزيد فضله، وإشعارًا بأن شرف المكان بشرف أهله[١].

معنى ﴿حِلُّۢ﴾: حلال يجوز لك في هذا البلد ما شئت من قتالك الكفار وغير ذلك مما لا يجوز لغيرك، فإن قيل: إن السورة مكية، وفتح مكة كان عام ثمانية من الهجرة؟ فالجواب: أن هذا وعد بفتح مكة[٢].

هذا قسم من الله عَزَّوَجَلَّ بمكة أم القرى في حال كون الساكن فيها حالا؛ لينبه على عظمة قدرها في حال إحرام أهلها[٣].

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ۝١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝١٩﴾ [البلد:١٧-١٩]

لتكرير ذكر المؤمنين باسم (الإشارة)، والكفار (بالضمير): شأن لا يخفى[٤].

﴿ثُمَّ﴾ هنا -للترتيب الذكري لا الزماني- وفيه إشارة إلى أن الإيمان أعلى من العتق والإطعام[٥].

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٣١٣).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٨٣).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٤٠٢).
(٤) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٣١٤).
(٥) وجه النهار، للحربي (ص٤٥٩).



﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس:٩-١٠]

أقسم الله تعالى بهذه الأشياء التي ذكرها من خلقه؛ لأنها تدل على وحدانيته، وعلى فلاح من طهره، وخسارة من خذله حتى لا يظن أحد أنه هو الذي يتولى تطهير نفسه، أو إهلاكها بالمعصية[1].



(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٤٩٧).



﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى:١-٢]

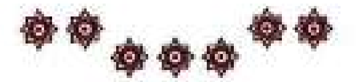
تقديم اللَّيْلِ في السورة المتقدمة باعتبار الأصل، وتقديم النهار ها هنا باعتبار الشرف(١).

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ [الضحى:٥]

ذكر أن الجمع بين حرفي التأكيد والتأخير يؤذن بأن العطاء كائن لا محالة وإن تأخر(٢).

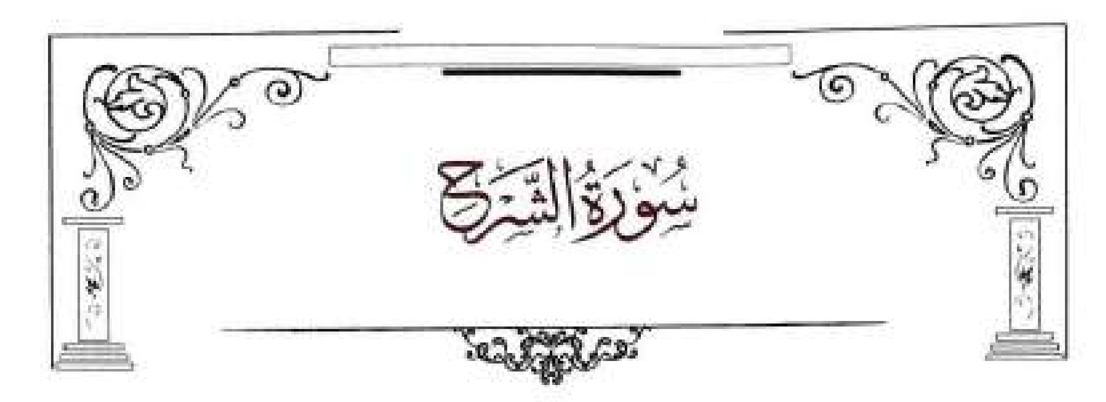
﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ [الضحى:١٠]

وهذا يدخل فيه السائل للمال، والسائل للعلم، ولهذا كان المعلم مأمورًا بحسن الخلق مع المتعلم، ومباشرته بالإكرام والتحنن عليه، فإن في ذلك معونة له على مقصده، وإكرامًا لمن كان يسعى في نفع العباد والبلاد(٣).



---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٣١٩).
(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٦٥٤).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٢٨).



﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح:٤]

قال الحسن في هذه الآية: ألا ترى أن الله تعالى لا يذكر في موضع إلا ذكر معه نبيه ﷺ[١].

إن قيل: لِم قال: ﴿لَكَ ذِكْرَكَ﴾ و﴿لَكَ صَدْرَكَ﴾ مع أن المعنى مستقل دون ذلك؟ فالجواب: أن قوله: ﴿لَكَ﴾ يدل على الاعتناء به والاهتمام بأمره[٢].

﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح:٦]

جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لن يغلب عسر يسرين. قال أهل اللغة: لأن العسر معرف واليسر منكّر، والنكرة إذا أعيدت كان الثاني غير الأول، بخلاف المعرفة، فإن الثاني عين الأول[٣].

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧﴾ [الشرح:٧]

قيل: إن معنى هذا: فإذا فرغت من الصلاة وأكملتها، فانصب في الدعاء، وإلى ربك فارغب في سؤال مطالبك. واستدل من قال بهذا القول، على مشروعية الدعاء والذكر عقب الصلوات المكتوبات[٤].

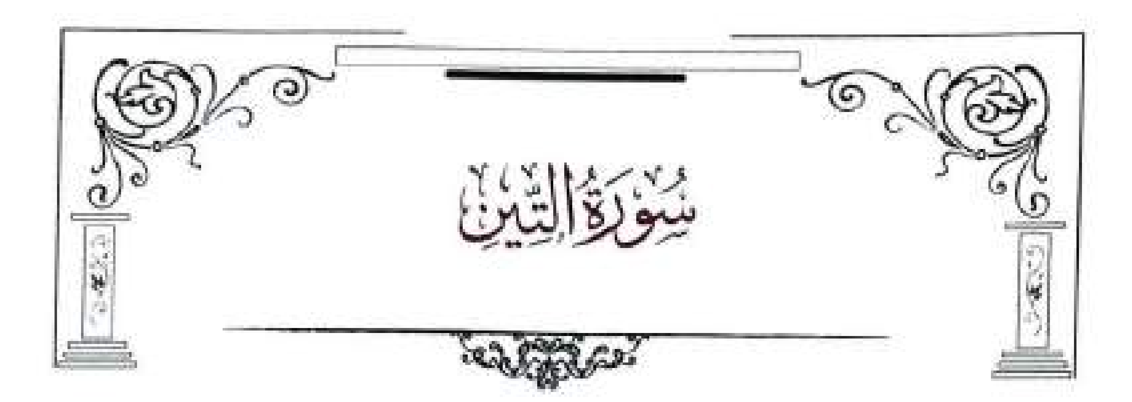
---

(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٦٦٥).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٩٣).

(٣) وجه النهار، للحربي (ص٤٦٣).

(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٢٩).



﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين: ١-٣]

قال بعض الأئمة: هذه محال ثلاثة، بعث الله في كل واحد منها نبيا مرسلا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار، **فالأول**: محلة التين والزيتون، وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم. **والثاني**: طور سينين، وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران. **والثالث**: مكة، وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمنا، وهو الذي أرسل فيه محمدا ﷺ[1].



---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٤٣٤).



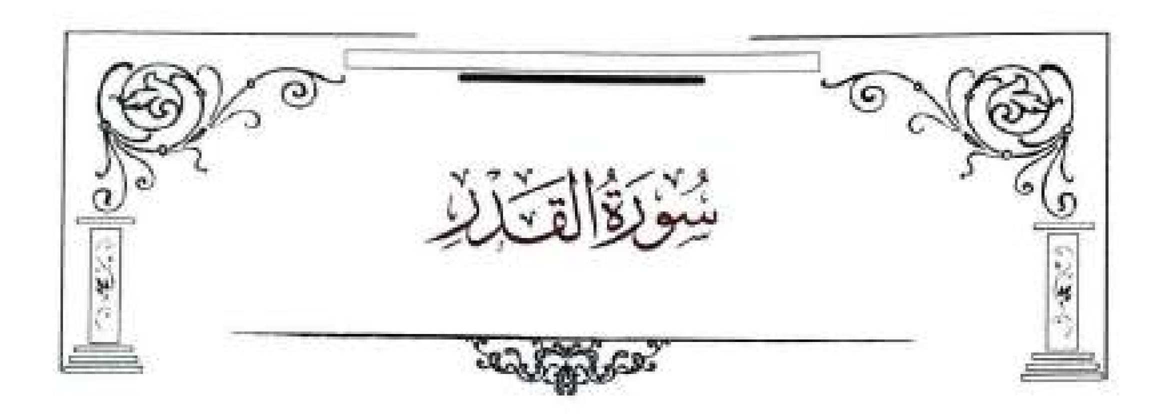


﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ [العلق: ٤]

• هذا تفسير (للأكرم)؛ فدل على أن نعمة التعليم أكبر نعمة[1].



(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٩٦).



﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر:١]

الضمير في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ للقرآن، وفي ذلك تعظيم للقرآن **من ثلاثة أوجه:**

أحدها: أنه ذكر ضميره دون اسمه الظاهر؛ دلالة على شهرته والاستغناء عن تسميته.

الثاني: أنه اختار لإنزاله أفضل الأوقات.

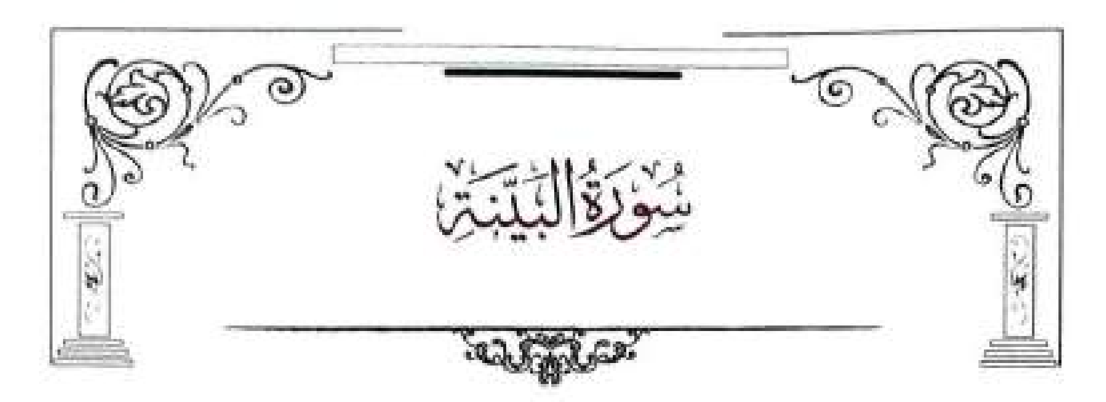
والثالث: أن الله أسند إنزاله إلى نفسه[1].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢﴾ [القدر:٢]

هذا تعظيم لها، قال بعضهم: كل ما قال فيه ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد علّمه النبي ﷺ وما قال فيه ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ [الأحزاب:٦٣] فإنه لا يعلمه[2].



(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٥١٦). التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٤٩٩).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٥٠٠).



﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤﴾ [البينة: ٤]

إفراد أهل الكتاب بعد الجمع بينهم وبين المشركين للدلالة على شناعة حالهم، وأنهم لما تفرقوا مع علمهم كان غيرهم بذلك أولى[١].

إنما أفرد أهل الكتاب بعد ما جمع أولًا بينهم وبين المشركين؛ لأنهم كانوا على علم به، لوجوده في كتبهم، فإذا وصفوا بالتفرق عنه كان من لا كتاب له أدخل في هذا الوصف[٢].

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ فيه دليل على فضل الخوف من الله، ومن فضائل هذه السورة: أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب: إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[٣][٤].

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٣٢٨).

(٢) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٦٦٨).

(٣) رواه البخاري، باب مناقب أبي بن كعب رضي الله عنه، برقم: (٣٨٠٩)، ومسلم، باب استحباب قراءة القرآن على أهل الفضل، والحذاق فيه، وإن كان القارئ أفضل من المقروء عليه، برقم: (٧٩٩).

(٤) وجه النهار، للحربي (ص٤٦٧).



﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ [الزلزلة:١]

﴿زِلْزَالَهَا﴾ إنما أضيف إليها؛ تهويلًا، كأنه يقول: الزلزلة التي تليق بها على عظم جرمها(١).

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ [الزلزلة:٤]

انتزع بعض المحدثين من قوله: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أن قول المحدّث: (حدثنا وأخبرنا) سواء(٢).

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة:٧،٨]

هي أحكم آية(٣)، سمى النبي ﷺ هذه الآية: الجامعة الفاذة(٤)، وسمعها عم الفرزدق -صعصعة بن معاوية- فقال: حسبي، لا أبالي ألّا أسمع غيرها(٥).



---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٥٠٣).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٥٠٣).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٦٧٠).
(٤) رواه البخاري، باب: الخيل لثلاثة، برقم: (٢٨٦٠)، ومسلم، باب إثم مانع الزكاة برقم: (٩٨٧).
(٥) وجه النهار، للحربي (ص٤٦٨).



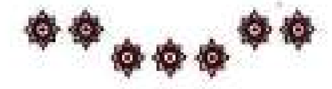
سورة القارعة

﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ ﴾ [القارعة:٤]

شبّه الناس في وقت البعث بالفراش؛ لأنهم إذا بعثوا ماج بعضهم في بعض، والفراش إذا ثار لم يتجه لجهة واحدة، فدل على أنهم إذا بعثوا فزعوا، فاختلفوا في المقاصد على جهات مختلفة[1].

﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ ﴾ [القارعة:٩]

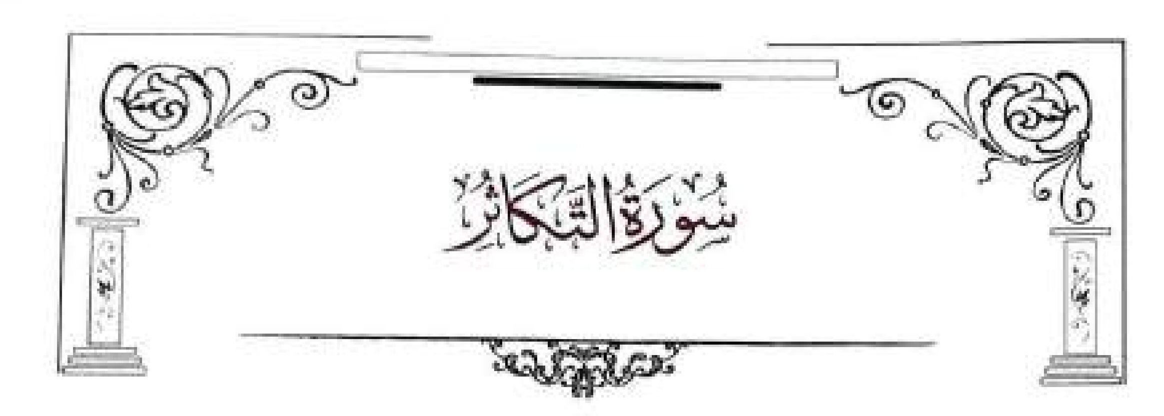
فمسكنه جهنم، وقيل لمسكنه: أمه؛ لأن الأصل في السكون إلى الأمهات[2].



---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٥٤٦).

(٢) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٥٤٦).



سورة التكاثر

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ [التكاثر:١]

إنما حذف الملهى عنه، وهو ما يعنيهم من أمر الدين؛ للتعظيم والمبالغة[1].

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [التكاثر:٣]

﴿كَلَّا﴾ ردع، وتنبيه على أن العاقل ينبغي له أن لا يكون جميع همه ومعظم سعيه للدنيا؛ فإن عاقبة ذلك وبال وحسرة[2].



(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٣٣٤).

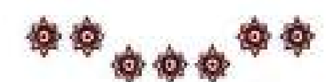
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٣٣٤).



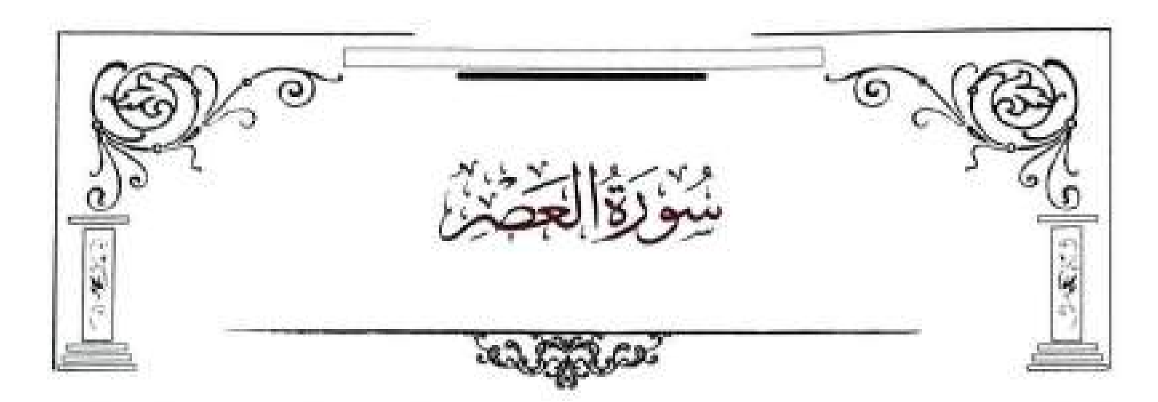
سورة الشرح

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح:٥-٦]

جيء بلفظ ﴿مَعَ﴾ لغاية مقاربة اليسر العسر، زيادة في التسلية ولتقوية القلوب، وإنما قال عَلَيْهِ السَّلَامُ عند نزولها: لن يغلب عسر يسرين؛ لأن العسر أعيد معرّفًا فكان واحدًا؛ لأن المعرفة إذا أعيدت معرفة كانت الثانية عين الأولى، واليسر أعيد نكرة، والنكرة إذا أعيدت نكرة كانت الثانية غير الأولى[1].



(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٦٥٧).

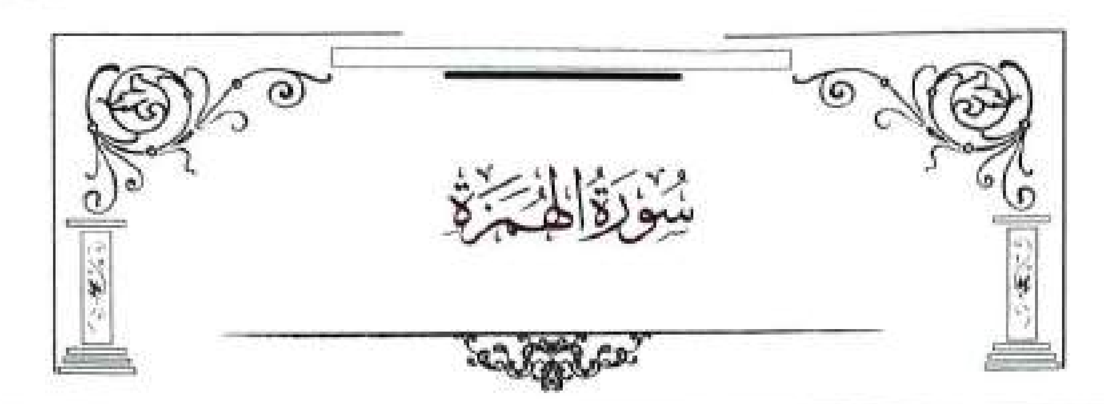


﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر:٣]

لعله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إنما ذكر سبب الربح دون الخسران اكتفاء ببيان المقصود، وإشعارًا بأن ما عدا ما عد يؤدي إلى خسر ونقص حظ، أو تكرمًا فإن الإبهام في جانب الخسر كرم(١).



(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٣٣٦).



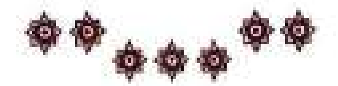
سورة الهمزة

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾ [الهمزة:٣]

فيه تعريض بأن المخلد هو السعي للآخرة[١].

﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾ [الهمزة:٧]

تخصيصها بالذِّكر؛ لأن الفؤاد ألطف ما في البدن وأشده تألما، أو لأنه محل العقائد الزائغة ومنشأ الأعمال القبيحة[٢].



(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٣٣٧).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٣٣٧).



﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل:١]

إنما قال له: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ لأن إخبار الله له بشيء كرؤيته له أو أشد[1].

إنما قال: ﴿كَيْفَ﴾ ولم يقل: ﴿مَا﴾ [البقرة:١٧]؛ لأن المراد تذكير ما فيها من وجوه الدلالة على كمال علم الله تعالى وقدرته وعزة بيته وشرف رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ فإنها من الإرهاصات[2].



(١) وجه النهار، للحربي (ص٤٦٨).
(٢) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٣٣٩).



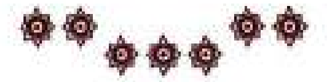
سورة الماعون

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون:٣-٥]

إنما وضع المصلين موضع الضمير للدلالة على سوء معاملتهم مع الخالق والخلق[(١)].

قال عطاء بن دينار: الحمد لله الذي قال: عن صلاتهم ساهون ولم يقل في صلاتهم ساهون[(٢)].

في هذه السورة، الحث على إطعام اليتيم، والمساكين، والتحضيض على ذلك، ومراعاة الصلاة، والمحافظة عليها، وعلى الإخلاص فيها وفي سائر الأعمال، والحث على فعل المعروف وبذل الأموال الخفيفة، كعارية الإناء والدلو والكتاب، ونحو ذلك؛ لأن الله ذم من لم يفعل ذلك[(٣)].



(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٣٤١). جامع البيان، للإيجي (٤/ ٥٣٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٤٩٣).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٣٥).

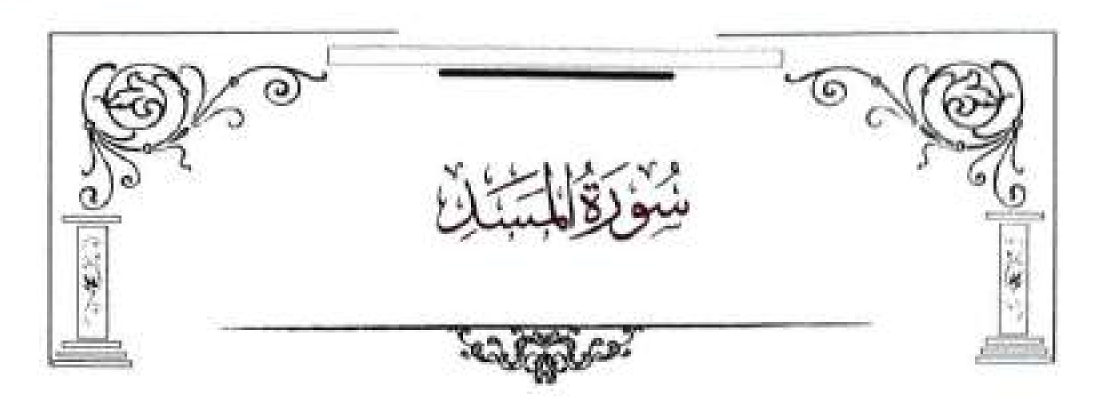


﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ [الكافرون:٣]

لم يقل: ما عبدت؛ لأنه لم يطابق المقام؛ لأنهم ينكرون ما هو عليه بعد النبوة، ويعتقدونه ويعظمونه قبلها[1].



(١) جامع البيان، للإيجي (٤/ ٥٣٩).



سورة المسد

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ ١﴾ [المسد:١]

إن قيل: لِم ذكره الله بكنيته دون اسمه؟ **فالجواب من ثلاثة أوجه:**

أحدها: أن كنيته كانت أغلب عليه من اسمه.

الثاني: أنه لما كان اسمه عبد العزى؛ عدل عنه إلى الكنية.

الثالث: أنه لما كان من أهل النار واللهب، كنّاه أبا لهب، وليناسب ذلك قوله: ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣﴾ [المسد:٣][١].

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤﴾ [المسد:٤]

كانت عونا لزوجها على كفره وجحوده وعناده؛ فلهذا تكون يوم القيامة عونا عليه في عذابه في نار جهنم[٢].

﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ٥﴾ [المسد:٥]

تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها كما يفعل الحطابون، تحقيرًا لها، وتصويرًا لها بصورة بعض الحطابات، لتجزع من ذلك، ويجزع بعلها، وهما في بيت العز والشرف، وفي منصب الثروة والجِدة[٣].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٥٢١).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٥١٥).
(٣) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٦٩٢).

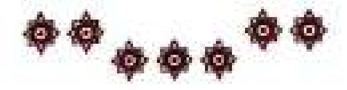


﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق:٥]

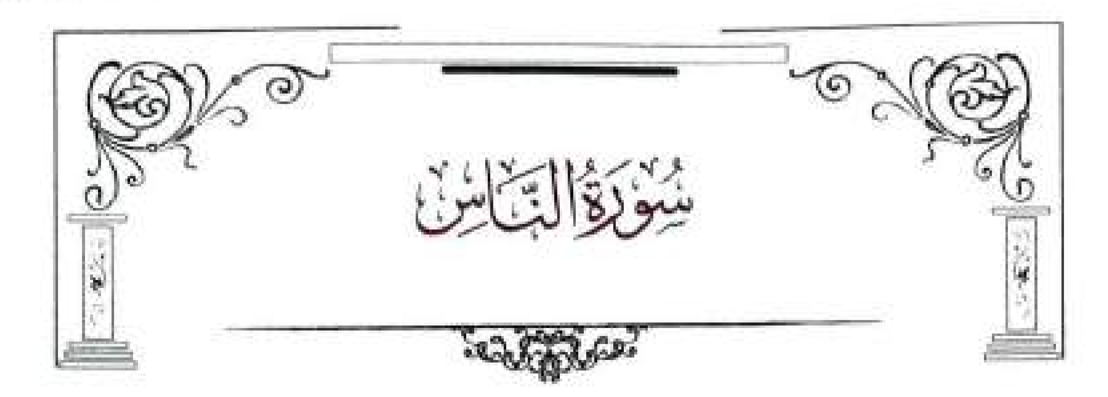
إنما عرّف بعض المستعاذ منه، ونكر بعضه؛ لأن كل نفاثة شريرة؛ فلذا عرفت النفاثات، ونكر ﴿غَاسِقٍ﴾ [الفلق:٣]؛ لأن كل غاسق لا يكون فيه الشر، إنما يكون في بعض دون بعض، وكذلك كل حاسر لا يضر، ورُبّ حسدٍ يكون محمودًا كالحسد في الخيرات[1].

يدخل في الحاسد العاين؛ لأنه لا تصدر العين إلا من حاسد شرير الطبع، خبيث النفس، فهذه السورة، تضمنت الاستعاذة من جميع أنواع الشرور، عمومًا وخصوصًا[2].

ودلت على أن السحر له حقيقة يخشى من ضرره، ويستعاذ بالله منه ومن أهله[3].



(١) مدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٦٩٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٣٧).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٩٣٧).



﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس:١-٣]

تدرج وجوه الاستعاذة كما يتدرج في الاستعاذة المعتادة، تنزيلًا لاختلاف الصفات منزلة اختلاف الذات؛ إشعارًا بعظم الآفة المستعاذ منها، وتكرير ﴿ٱلنَّاسِ﴾ لما في الإظهار من مزيد البيان، والإشعار بشرف الإنسان[١].

إن قيل: لِم قدّم وصفه تعالى: ﴿بِرَبِّ﴾ ثم بـ ﴿مَلِكِ﴾ ثم بـ ﴿إِلَٰهِ﴾؟ **فالجواب:** أن هذا على الترتيب في الارتقاء إلى الأعلى؛ وذلك أن (الرب) قد يطلق على كثير من الناس، فيقال: فلان رب الدار، وشبه ذلك، فبدأ به لاشتراك معناه، وأما ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ [البقرة:٢٤٧] فلا يوصف به إلا آحاد من الناس، وهم الملوك، ولا شك أنهم أعلى من سائر الناس؛ فلذلك جاء به بعد الرب، وأما (الإله) فهو أعلى من الملك، ولذلك لا يدعي الملوك أنهم آلهة، فإنما الإله واحد لا شريك له ولا نظير؛ فلذلك ختم به[٢].

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ أضاف إلى الناس هاهنا، لأن وسوسة الصدر، المستعاذ منه في تلك السورة لا تكون إلا للإنسان، فكأنه قال: قل أعوذ بربي من شر موسوسي[٣].

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ [الناس:٥]

إن قيل: لِم قال: ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ ولم يقل: في قلوب الناس؟

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٣٥٠).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٥٢٩).
(٣) جامع البيان، للإيجي (٤/ ٥٤٧).

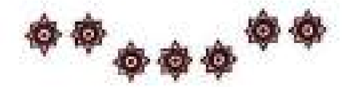
فالجواب: أن ذلك إشارة إلى عدم تمكن الوسوسة، وأنها غير حالّة في القلب، بل هي محوّمة في صدور حول القلب[١].

إن قيل: لِم ختم القرآن (بالمعوذتين)، وما الحكمة في ذلك؟ **فالجواب من ثلاثة أوجه:**

الأول: لما كان القرآن من أعظم النعم على عباده، والنعم مظنة الحسد؛ فختم بما يطفئ الحسد من الاستعاذة بالله.

الثاني: يظهر لي أن المعوذتين ختم بهما؛ لأن رسول الله ﷺ قال فيهما: «**أنزلت عليّ آيات لم ير مثلهن قط**»[٢]، كما قال في فاتحة الكتاب: (لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها)[٣]؛ فافتتح القرآن بسورة لم ينزل مثلها، واختتم بسورتين لم ير مثلهما؛ ليجمع حسن الافتتاح والاختتام،..

الثالث: يظهر لي أيضا أنه لما أمر القارئ أن يفتتح قراءته بالتعوذ من الشيطان الرجيم، ختم القرآن بالمعوذتين؛ ليحصل الاستعاذة بالله عند أول القراءة، وعند آخر ما يقرأ من القراءة، فتكون الاستعاذة قد اشتملت على طرفي الابتداء والانتهاء، وليكون القارئ محفوظًا بحفظ الله الذي استعاذ به من أول أمره إلى آخره[٤].



(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٥٣٠).
(٢) رواه مسلم، باب فضل قراءة المعوذتين، برقم: (٨١٤).
(٣) رواه الترمذي، باب ما جاء في فضل فاتحة الكتاب، رقم: (٢٨٧٥)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ٥٣٠).



فهرس المراجع

- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

- **تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)**، المؤلف: أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير، الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، الناشر: دار التراث - بيروت، الطبعة: الثانية - ١٣٨٧هـ.

- **التسهيل لعلوم التنزيل**، المؤلف: أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفى: ٧٤١هـ)، المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ.

- **تفسير القرآن العظيم**، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

- **جامع البيان عن تأويل القرآن**، المؤلف: محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

- **جامع البيان في تفسير القرآن**، المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الإيجي الشافعي (المتوفى: ٩٠٥هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

زاد المعاد في هدي خير العباد، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون أ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

سنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ.

صحيح البخاري، «الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه»، المؤلف: محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

صحيح مسلم «المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ»، المؤلف: مسلم بن حجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث أبيروت.

فقه السيرة، المؤلف: محمد الغزالي السقا (المتوفى: ١٤١٦هـ)، الناشر: دار القلم - دمشق، تخريج الأحاديث: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ.

القاموس المحيط، المؤلف: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦هـ.

مختصر خليل، المؤلف: ضياء الدين خليل بن إسحاق بن موسى المالكي المصري (المتوفى: ٧٧٦هـ) المحقق: أحمد جاد، الناشر: دار الحديث/ القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

مدارك التنزيل وحقائق التأويل، المؤلف: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (المتوفى: ٧١٠هـ)، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ- ١٩٩٨م.

❁ **المستدرك على الصحيحين**، المؤلف: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

❁ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، المؤلف: الإمام أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ.

❁ **مفتاح دار السعادة**، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

❁ **وجه النهار الكاشف عن معاني الواحد القهار**، أ.د. عبد العزيز علي الحربي، دار ابن حزم، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.

❁ **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م.





فهرس الموضوعات



قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

فتدبر القرآن إن رمت الهدى ... فالعلم تحت تدبر القرآن

هذه تدبرات وفوائد من كتب التفسير، بلغت بعد التنقيح وحذف المكرر أكثر من **2500** فائدة تدبرية، مرتبة حسب سور القرآن الكريم وأجزائه، ليسهل الرجوع لها وقراءتها واستصحابها أثناء قراءة القرآن، والاستفادة منها في الدروس والمحاضرات القرآنية..



